منهاج العابدين

آخر تصنيف

لحجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى

دراسة وتحقيق

دكتور

خالد أحمد حسنين على حربى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠١٠



رقم الإيداع : 13379 /2009
الترقيم الدولي : 9- 064 – 438 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾

(سورة الحديد، آية ١٦)



أولاً: الدراسة

١- موجز ترجمة الغزالى .

٢- معالم المنهج السني .

٣- تطبيق المنهج السنى من خلال تحليل نص كتاب منهاج العابدين .

١- موجز ترجمة الغزالى :

الغزالى ، الشيخ الأمام البحر , حجة الإسلام أعجوبة الزمـــان , زين العابدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بـــن أحمـــد الطوســـى الشافعي , صاحب التصانيف , والذكاء المفرط .

ولد سنة (٤٥٠ هـ) في قرية غزالة بطوس, علي ما ذكر الغزالى نفسه إذا قال: الناس يقولون الغزّالى , ولست الغزّالى, وإنما أنا الغَزَالـــى منسوب إلي قرية يقال لها " غزالة".

كان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس , فأوصـــي بـــه وأخيه أحمد إلى صديق له صوفي صالح , فعلمهما الخط , وفني ما خلف لهما أبوهما, وتعزر عليهما القوت , فقال: أرى لكما أن تلجأ إلى المدرسة كأنكما طالبان الفقه , عسي أن يحصل لكما قوت , ففعلا ذلك .-لاحظ أن نظام المدرسة آنذاك كان يتضمن جراية الأرزاق علي المتمنين , فقارنه بما نحن عليه الآن - يقول الغزالى نفسه إن أبيه مات وخلف له ولأخيه مقداراً يسيراً, ففني بحيث تعذر علينا القوت , فصرنا إلي المدرسة نطلب الفقه , ليس المراد سوي تحصيل القوت , فكان تعلمنا لذلك , لا لله, فأبى - يقصد الفقه - أن يكون إلا لله فتفقه الغزالى ببلدة طوس أولاً , ثم تحول إلي نيسابور في مرافقه جماعة من الطلبة , فلازم إمـــام الحـــرمين أبـــا المعالي الجويني[١] فبرع في الفقه في مدة قريبة , ومهـــر فـــي الكـــلام والجدل , حتى صار عين الناظرين , وأعاد للطلبة ما حصله من علوم , وشرع في التصنيف والتأليف مبكراً , فما أعجب ذلك أستاذه أبا المعالي , لأنه مظهر للتبجح به . ويبدو أن الضيق من هذا الأمر هو الذي حملـــه

---

(١) انظر ترجمته فى النص المحقق فيما سيأتى .

علي السير إلي المخيم السلطاني فأقبـل عليه الوزير نظام المُلك , وسر بوجوده . وهناك وجد الغزالى مرتعاً لمناظرة كبـار العلمـاء بحـضرة الوزير الذي انبهر له , وولاه التدريس في المدرسة النظاميـة ببغـداد , فقدمها الغزالى بعد الثمانين وأربع مائة , وسنه نحو الثلاثين , وأخذ فـي التأليف في الفقه والأصول والكلام والحكمة ..

وبعد أربع سنوات قضاها الغزالى في التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد , تركها , وتزهد , وحج , وأقام بدمشق نحواً من عشرين سـنه , وتحديداً بالزاوية الغربية . وهناك سمع صحيح البخاري من أبيْ سـهل الحفصى , وصحب الفقيه نصر بن إبراهيم , وألف كتاب " إحياء علوم الدين " وكتاب "محك النظر " وكتاب " الأربعين " وكتاب " القسطاس " . وعظم جاه الرجل , وازدادت حشمته بحيث كان في رتبة رئيس كبير , فأداه النظر في العلوم وممارسته لأفانين الزهد يات إلى رفض الرئاسة , والإنابة إلى دار الخلود , والإخلاص , وإصلاح النفس , فحج من وقته , وانتقل إلى بيت المقدس وتعبد به , وراض نفسه وجاهـدها , وطـرد شيطان الرعونة , ولبس زي الأتقياء ,ثم قـصد مـصر , وأقـام مـدة بالإسكندرية وعزم علي المضي إلي يوسف بن تاشفين سلطان مراكش , فبلغه نعيه , فعاد إلي مسقط رأسه طوس , وانكب علي العلم , فصنف " الوسيط " و"البسيط " و "الوجيز " و"الخلاصة " و" المستصفي في أصول الفقه " , و" الباب " , و "المنخول " و" المنتحل في الجـدل " و "تهافـت الفلاسفة " و "معيار العلم " و "شرح الأسـماء الحـسنى " , و "مـشكاة الأنوار " و "المنقذ من الضلال " و " حقيقة القولين " , و " مقاصـد الفلاسفة " ثم ردَ , بـ "تهافت الفلاسفة" وفيه كفرهم في ثلاث مسائل هي

١- قولهم بقدم العالم . ٢- قولهم بعلم الله بالكليات دون الجزيئات . ٣- قولهم بحشر الأرواح دون الأجساد . ومع ذلك أبقي الإمام علي بعض أرآء الفلاسفة , وفي تعبير بديع عن ذلك يقول تلميذه أبو بكر بن عربي : شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة , وأراد أن يتقيأهم , فما استطاع .

وفي طوس اتخذ الغزالى إلى جوار داره مدرسة للطلبة , وخانقاه للصوفية, ووزع أوقاته علي وظائف الحاضرين من ختم القرآن ,ومجالسة ذوى القلوب , والقعود للتدريس والتصنيف , فألف كتاب " الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين " , و" كتاب الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة "وكتاب" منهاج العابدين" وهو آخر ما كتبه الإمام[١]. وكانت خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله , ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم , ولو عاش يسير من الأعوام لسبق الكل في علم الحديث.

حكى الغزالى نفسه لبعض المتصلين به كيفية ابتداء أحواله بما أظهر له من طريق الله , وغلبة الحال علية بعد تبحره في العلوم , واستطالته علي الكل بكلامه , والاستعداد الذي خصّه الله به في تحصيل أنواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر , حتى تبرم بالاشتغال بالعلوم الغريّه عن المعاملة , وتفكر في العاقبة , وما يبقي من الآخرة , فابتداء

---

(١) الكتب الثلاثة الأخيرة , كانت إلي وقت قريب مجهولة , لم يذكرها أو يعرفها أياً من المؤرخين القدامى , أو الباحثين المحدثين في الغزالى , حتى وقعت – بفضل الله- علي نسخها المخطوطة , فقمت بنشر " مضمونها " فقط – تمهيداً لنشرها محققه- في كتابي :التراث المخطوط , رؤية في التبصير والفهم , (١) علوم الدين لحجه الإسلام أبي حامد الغزالى , الصادر عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ٢٠٠٥ .

بصحبة الشيخ أبي علي الفارْمذى , فأخذ منه استفتاح الطريقة , وامتثـل ما كان يأمره به من العبادات والنوافل والأذكار والاجتهاد طلباً للنجـاة , إلي أن جاز تلك العقبات , وتكلف تلك المشاق , وما حصل علي ما كان يروقه .

ويستطرد أحد المتصلين بالإمام , ويسمى عبد الغافر , أنـه راجـع العلوم , وخاض في الفنون الدقيقة , والتقى بأربابها حتـى تفتحـت لـه أبوابها , وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة , وفتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراض عما سواه , حتى سهل ذلك عليه , إلي أن ارتاض , وظهرت له الحقائق , وصار ما كنا نظن به ناموساً وتخلقاً , طبعاً وتحققاً .

قاس الإمام أنواع من القصد والمناوأة من الخصوم , والسعي فيـه إلي الملوك , ومن ذلك لصقه بمؤلفات هو منها برآء , من بـاب الحقـد علية والوشاية به.. ذكر أبو عمر بن الصلاح أن كتاب " المضنون بـه علي غير أهلة " الذي نسب للإمام , معاذ الله أن يكون له , فقد شـاهدت علي نسخه بخط القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهر زوري أنه موضوع علي الغزالى , وأنه مخترع من كتـاب " مقاصـد الفلاسـفة " للغزالي , وقد نقضه الرجل بكتاب " التهافت " . فحفظه الله عـن نـوش أيدي النكبات , وصار الغزالى إمام الأمة بالاتفاق , ومجتهـد زمانـه , وعين أوانه , برع في المذهب والأصول , والخلاف والجدل , والمنطق , وقرأ الحكمة والفلسفة, وفهم كلام الفلاسفة , وتصدي للرد عليهم , حتى قيل أنه ألف " المنخول " فراه أبو المعالي الجو يني – أستاذ الغزالى الذي لم يعجبه أن يصنف التأليف وهو في بداية طريقه – فقال : دفنتني وأنـا

حي , فهلا صبرت , الآن كتابك قد غطى علي كتابي . ثم قال فيه أبـــو المعالي : الغزالى بحر مغرق.

وتوفى الغزالى يوم الاثنين رابع عشر جُمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، وله خمس وخمسون سنة ، ودُفن بطوس مـــسقط رأســـه . فرحم الله الإمام صاحب العلوم والفضائل ، وحُجة الإسلام .

٢- معالم المنهج السني :

انكب الإمام في أخريات حياته علي العبادة والعلم , ورأي ضرورة اقترانهما معاً , فالعبادة علي حد قوله[١] ثمرة العلم , وفائدة العمر , وبضاعة الأولياء , وطريق الأقوياء , وقسمة الآخرة , ومقصد ذوى الهمة , وشعار الكرم , وخرقة الرجال , واختيار ذوي الأبصار , وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة . فقال تعالى " أنا ربكم فاعبدون " . ومن تأمل طريق العبادة من مبادئها إلى مقاصدها التي هي أماني سالكيها , فإذا هي طريق وَعر وصعب , كثيرة القضاة , وشديدة المشقاة , وبعيدة المسافات , عظيمة الآفات , كثيرة العوائق والموانع . وهكذا يجب أن تكون , لأنها طريق الجنة , فيصير تصديقا لما قال رسول الله - ﷺ- "**إن الجنة حفت بالمكاره وإن النار حفت بالشهوات** " . والطاعة هي المراد , فلابد منها , ولا مراد لها , فمن ظفر بها , فقد فاز وسعد أبد الآبدين , ومن فاته ذلك خسر مع الخاسرين , وهلك مع الهالكين .. ولما وجدنا هذه[٢] الطريق بهذه الصفة , نظرنا , فأمعنا النظر في كيفية قطعها , وما يحتاج إليه العبد من الأهبه والعدة والحيلة من علم وعمل , عسي أن يقطعها بحسن توفيق الله تعالي في سلامة , ولا ينقطع في عقباتها المهلكة , فيهلك مع الهالكين , والعياذ بالله .. وأول ما ينبه العبد للعبادة ويتحرك لسلوك طريقها بتوفيق إلهي خاص , هو المعني بقوله جلّ وعلى : " **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو علي نور من ربه** " فالله قادراً

---

(١) راجع الغزالى , منهاج العابدين , النص المحقق فيما سيأتي .

(٢) لقطة لُغوية بديعة ، فالطريق فى اللغة مؤنثة .

عالماً , حياً , متكلماً , يأمر وينهي , قادراً علي أن يعاقبني إن عصيته , ويثيبني إن أطعته , وهو تعالي عالماً بأسراري . إلا أن أول عقبة تستقبل الإنسان في طريق العبادة , هي عقبة العلم والمعرفة , ليكون من الأمر على بصيرة فيأخذ في قطعها من غير يد بحسن النظر في الدلائل , وفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الآخرة أدلاء الطريق , سرج الأمة , وقادة الأئمة , الصالح منهم بالتوفيق والأمانة إلي أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه , فيحصل له العلم واليقين بالغيب , وهو أن له إلها واحداً لا شريك له , هو الذي خلقه وأنعم عليه بكل هذه النعم , أنه كلفه شكره وأمره بخدمته , وطاعته بظاهره وباطنه , وحذره الكفر وضروب المعاصي , وحكم له بالثواب الخالد إن أطاعه والعقاب الخالد إن عصاه , وتولي عنه . فعند ذلك بعثته هذه المعرفة واليقين بالغيب علي التشمير للخدمة , والإقبال على العبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده , وعرفه بعد ما جهله , ولكنه لا يدري كيف يعبده , وماذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه . فبعد حصول هذه المعرفة بالله , وما يلزمه من فرائض الشريعة ظاهراً وباطناً , واستكمل العلم والمعرفة بالفرائض , انبعث ليأخذ في العبادة , ويشتغل بها , فنظر , فإذا هو صاحب جنايات وذنوب , وهذا حال الأكثر من الناس , فيقول كيف أقبل علي العبادة وأنا مصرّ علي المعصية متلطخ بها , فيجب أولاً أن أتوب إليه ليغفر لي ذنوبي , ويخلصني من أسرها وأتطهر من أقدارها , فأصلح للخدمة . وهنا تستقبله العقبة الثانية , وهي التوبة , فيحتاج لا محالة إلي قطعها ليصل إلي ما هو المقصود منها , فــأخذ في ذلك بإقامة التوبة في شروطها وحقائقها إلي أن قطعها , فلما حصلت له التوبة الصادقة , وفرغ

من هذه العقبة , وحسن إلي العبادة ليأخذ منها , نظر , فإذا حوله عوائق محدقة كل واحدة منها تعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق , فتأمل فإذا هي أربعة : **الدنيا** , **والخلق** , **والشيطان** , **والنفس** , فاحتاج لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها ,وإلا فلا يتأتى له أمر العبادة .

وتقتضي العبادة الحقة عند الإمام , أن يتخلص العابد من كل أصناف الغرور . .وللإمام كتاب قيّم في الغرور وأصحابه[1] , تراه يقسم فيه الخلق إلي قسمين : حيوان , وغير حيوان , والحيوان ينقسم إلي قسمين : مكلف , ومهمل , فالمكلف خاطبه بالعبادة وأمره بها ; ووعده الثواب عليها , ونهاه عن المعاصي وحذره العقوبة , كما أن المكلف قسمان : مؤمن , وكافر . والمؤمن قسمان : طائع , وعاص . وكل من الطائعين والعاصين قسمين : عالم , وجاهل. ثم يرى أن الغرور لازما لجميع المؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين . والمغرور من الخلق ماعدا الكافرين , أربعة أصناف:١- صنف من العلماء ٢- صنف من العباد: ٣- صنف من أرباب المال. ٤- صنف من المتصوفة. فأما غرور الكافر فقسمان : ١- منهم من غرتهم الحياة الدنيا , ٢- ومنهم من غرهم بالله الغرور . وعلاج هذا الغرور شيئان : إما بتصديق وهو الإيمان, وإما ببرهان , وأما التصديق , فهو أن تصدق الله تعالي في قوله (**وما عند الله من خير وأبقى وما الحياة الدنيا إلا متاع**

---

(١) راجع , الغزالى , الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين، تحليل وتلخيص خالد حربي , ضمن كتاب , التراث المخطوط , رؤية في التبصير والفهم , مرجع سابق ,ص٤٠-٤٣ بتصرف .

الغرور) وتصدق الرسول فيما جاء به . وأما البرهان فهو أن تعرف وجه فساد قياسه , ومعلوم أن الآخرة أبدية والدنيا غير أبدية , وأما القول بأن الدنيا يقين , والآخرة شك , فهو باطل , يقف عنه المؤمنون , وليقينيته مدركان : أحدهما: الإيمان والتصديق على وجه التقليد للأنبياء والعلماء , كما يقلد الطبيب الحاذق في الدواء . والمدرك الثاني : الوحي للأنبياء , والإلهام للأولياء . ولا تظن أن معرفة النبيﷺ حاشاه من ذلك , بل قد انكشفت له الأشياء , وشاهدها بنور البصيرة , كما شاهدت أنت المحسوسات بالعين الباصرة .

والمؤمنون بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيعوا أمر الله تعالي , وهي الأعمال الصالحة وتدنسوا بالشهوات فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور , فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعاً . فأما غرور الكافرين بالله تعالي , فمثاله قول بعضهم في أنفسهم بألسنتهم : إنه إن كان الله يعيدنا , فنحن أحق به من غيرنا , كما أخبر الله عنهم في سورة الكهف حين قال : "**ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمةً** " . وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله تعالي , أنهم ينظرون مرة إلي نعم الله تعالي عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعم الآخرة , ومرة إلي تأخير عذاب الله عنهم في الدنيا , فيقيسون عليها عذاب الآخرة , كما أخبر الله تعالى عنهم : **(ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول)** الآية . ومرة ينظرون إلي المؤمنين وهم فقراء , فيزدرونهم ويقولون :(**أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا**) ويقولون : (**لو كان خيراً ما سبقونا إليه**) وترتيب القياس الذي نظم في قلوبهم أنهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعم الدنيا وهو محب ، وكل مُحب محسن ، لا بل يكون محسناً ولا

يكون محباً , بل ربما يكون أحسن لسبب الهلاك علي الاستدراج , وذلك محض الغرور بالله عز وجل , ولذلك قال ﷺ : **(إن الله تعالي يحمي عبده من الدنيا , كما يحمي أحدكم مريضه عن الطعام والشراب وهو محبه)**. ولذلك كان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا , وإذا أقبل عليهم الفقر فرحوا , وقالوا : مرحباً بشعار الصالحين , فقد قال تعالى : **(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه)** الآية . وقال تعالي **(سنستدرجهم من حيث لا يعلمون , وأملى لهم إن كيدي متين)** , وقال تعالي : **(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء , حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة, فإذا هم مبلسون)** ، فمن آمن بالله تعلي لم يأمن من هذا الغرور , ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله تعالي وبصفاته , فإن من عرف الله تعالي , فلا يأمن من مكره تعالي , أفلا ينظرون إلي فرعون وهامان وثمود , وماذا حل بهم مع أن الله أعطاهم من المال , وقد حذر الله تعالي مكره , فقال تعالي : **(فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)**، وقال تعالى: **(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)** وقال تعالى : **(فمهل الكافرين أمهلهم رويدا)** ، فمن أولى نعمة يحذر أن تكون نقمة .

وأما غرور العصاة بالله من المؤمنين , فقولهم غفور رحيم و إنّا نرجوا عفوه فاتكلوا علي ذلك وأهملوا الأعمال , وذلك من قِبل الرجاء , ومن ظن أنه ينجو بتقوى أهله , كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه , أو يروى بشراب أبيه , والتقوى فرض عين . لا يجزى والد عن ولده , يوم يفر المرء من أخيه , وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه إلا علي سبيل الشفاعة ,

ونسوا قوله علية الصلاة والسلام : (**الكيس من دان نفسه , وعمل لما بعد الموت , والأحمق من اتبع نفسه هواها , وتمني علي الله الأماني**)، وقوله جلّ وعلي: (**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله , أولئك يرجون رحمة الله , والله غفور رحيم**) وقوله تعالي : (**جزاءً بما كانوا يعملون**) وهل يصلح الرجاء إلا أن يتقدمه عمل , وإلا فهو غرور لا محالة .

ويقرب منهم طوائف لهم طاعات ومعاصي إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أن كفة حسناتهم ترجح أكثر من كفة السيئات , وهذا غاية الجهل , فتري الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام , ويكون ما يتناوله من أموال الناس , والشبهات أضعافه , وهو كمن وضع في كفة الميزان عشرة دراهم , ووضع في الكفة الأخرى ألفاً , وأراد أن تميل الكفة التي فيها العشرة , وذلك نهاية الجهل . ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه , وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذي يستغفر بلسانه ويسبح في الليل والنهار مثلاً مائة مرة , ثم يغتاب المسلمين , ويتكلم بما لا يرضي الله طوال النهار , ويلتفت إلي ما ورد فى فضل التسبيح , ويغفل عما ورد في عقوبة الكذابين والنمامين والمنافقين , وذلك محض الغرور .

وبعد أن عدد الإمام أنواع الغرور في طريق السلوك إلي الله تعالي , وكيف أنها ترتبط بمكانة العبد في الآخرة تراه يصنف كتاباً من أروع الكتب التي وضعت في الآخرة ألا وهو كتاب " الدرة الفاخرة في

كشف علوم الآخرة "

ابتدأه[١] الإمام بتناول الموت كأول خطوة في طريق الآخرة الوعر , فللميت من شحور النفس ما يغير وجهه عند الموت لعظم ما يلقي من المشقة , فإذا احتضرت نفسه إلى القلب , خرس لسانه عن النطق , وما أحد يقدر علي النطق والنفس مجموعة في صدره لسِرين , أحدهما : ضيق الصدر بالنفس المجتمعة فيه , ولذلك فالإنسان إذا أصبته في صدره , بقي مدهوشاً , لا يقدر علي الكلام , وكل مطعون يطعن بصوت إلا مطعون الصدر , فإنه يخر ميتاً من غير تصويت . وأما السر الآخر , فهو حركة النفس المندفعة من الحرارة الغريزية , فتصير نفسه متغيرة لحالين : حال الارتفاع , وحال البرودة , لأنه فقد الحرارة . فعند هذين الحالين تختلف أحوال الموتى , فمنهم من تطعنه الملائكة بحربة مسمومة , وقد سقيت سماً من نارٍ , فتخر النفس وتقبض جارحة , فيأخذها الملك وهى ترعد , أشبه شيء بالزئبق , ومن الموتى من تجذب نفسه رويداً حتى تنحصر في الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب , فتطعنها الملائكة بتلك الحربة الموصوفة , فإن النفس لا تفارق القلب حتى تطعن , وسرَ تلك الحربة أنها سمت في بحر الموت , فإذا وضعت على القلب سار سرها في سائر الجسد كالسم الناقع . وعند استمرار النفس في الترقي والارتفاع تعرض عليها الفتن , وذلك أن إ يلبس قد أنفذ أعوانه

---

(١) راجع , الغزالى , الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة , تحليل وتلخيص خالد حربي , ضمن كتاب ,التراث المخطوط , رؤية في التبصير والفهم , مرجـــع ســـابق , ص ١٥٠., وبعدها بتصرف .

إلي هذا **الإنسان** , واستعملهم عليه , ووكلهم به , فيأتون المرء وهو في تلك الحالة , فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحياء والموتى الباعثين له على النصح في دار الدنيا , كالأب والأخ والأم والأخت والصديق الحميم , فيقولون له : أنت تمت يا فلان , فنحن قد سبقناك إلي هذا الدين , فمت يهودياً فهو الدين المقبول عند الله تعالي , ويزينونه له , فإذا انصرفوا عنه وأبي , جاءه آخرون وقالوا له : مت نصرانياً, فإنه دين المسيح الذي نسخ دين موسى عليهما السلام , ويذكرون له عقائد كل ملة . فعند ذلك يزيغ الله من شاء زيغه , وهو معني قوله تعالي: **(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)** ، أي ربنا لاتزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل ذلك زماناً, فإذا أراد الله تعالي بعبده هداية وتثبيتاً جاءته من رحمته من يقول : يا فلان أما تعرفني ؟ أنا جبريل , وهؤلاء أعداؤك من الشياطين , فمت على الملة الحنفية , والشريعة المحمدية . فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك , وهو قوله تعالي : **(وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)** . ثم تفيض روحه علي أعين اللطفة .

ومن الناس من يقبض وهو قائم يصلي , أو نائم , أو مار في بعض أشغاله , أو منعكف علي الهوى , وهوي اليقظة , فتقبض روحه مرة واحدة .

ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كشف له عن أهله السابقين , وحدَق به جيران من الموتى , وحتى يكون له خوار (صوت البقرة) يسمعه كل شيء إلا لإنسان , ولو سمعه لصعق . والسمع هو آخر ما يفقد , لأن الروح إذا فارقت القلب فإن البصر يسل معها, وأما السمع فلا

يفقد حتى تقبض النفس , ولهذا قال رسول ﷺ : **(لقنوا موتاكم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)** , ونهى عن الإكثار عليهم منها , لما يجدونه من الهول الأعظم , والكرب الأقصم . فإذا نظرت إلي الميت وقد سال لعابه , وتقلصت شفتاه , وأسود وجهه , وازرقت عيناه , فاعلم أنه شقي , فكُشف له حقيقة شقاوته في الآخرة . وإذا رأيت الميت جاف الفم منطلق الوجه كأنه يضحك , مسكرة عيناه , فاعلم أنه بُشر برحمة الله , وكُشف له حقيقة كرامته .

وبعد أن شرح الإمام رحلة الروح بعد قبضها من الجسد , ومرورها علي السموات السبع , ومدي الكرامة والعزة التي تلمسها إن كانت نفساً شقية – على ما عرض القرآن الكريم , وفصلته السنة النبوية المطهرة – تعود الروح إلي الجسد , فتجده قد أُخذ في غسله , فتقعد عند رأسه حتى يغسل . فإذا أدرج الميت في كفنه , صارت خارج الصدور ملتصقة بالصدر , ولها خوار وعجيج , وهى تقول : أسرعوا بي إلي رحمة ربي , لو علمتم ما أنتم حاملوني إليه . وإن كان يبشر بالشقاوة يقول : رويداً رويداً , إلي أين تسرعون بي , وإلي أي عذاب ؟ لو تعلمون ما أنتم حاملونى إليه !. ولهذا كان الرسول ﷺلا تمرَ جنازة إلا قام لها تعظيماً , فقيل يا رسوا الله إنما هي ليهودي , قال : **أليست بنفس** ؟ وإنما كان يفعل ذلك لأنه كان يكشف له من أسرار الملكوت .

فإذا أُدخل الميت في قبره , صنف ضمن أحد أربعة أنواع , فمـــنهم القاعد علي منكبيه حتى تسل العين وتتورم الجبهة , ويعود الجسم تراباً , ثم لا يزال بعد ذلك طوافاً في الملكوت دون سماء الدنيا . ومنهم من يرسل الله عليه نعسة , فلا يدرى ما فعل الله به حتى يتنبه من النفخة الأولي , ومنهم مـــن لا

يقوم على قبره إلا شهرين أو ثلاثة , ثم تركب نفسه على ظهر طير تهوي به إلي الجنة , وهو الحديث الصحيح حيث قال رسول الله ﷺ : **(نسمة المـؤمن وطائره تعلق في شجر الجنة)**. وروي قناديل معلقة بالعرش , وكـذا سـئل رسول الله ﷺ : عن أرواح الشهداء , فقال : **(في حواصل طير خدر يعلـق في شجر الجنة)** . ومن الناس إذا بارت عيناه عرج إلى الصور , فلا يـزال ملازماً له حتى ينفخ فيه. والنوع الرابع هم الأنبياء والأولياء , وهم الأخيار , فمنهم من اختار الأرض أن يكون فيها طوافاً حتى تقوم الساعة , وكثيراً مـا يُري في النوم , وأظن الصديق والفارق منهم , ورسول الله ﷺ له الخيار في الطواف في العوالم الثلاثة. ومنهم من اختار السماء السابعة كـإبراهيم عليه السلام ، وهو مستند ظهره إلي بيت المعمور , وقد أحدق به أولاد المسلمين . وعيسي عليه السلام في السماء الخامسة , وفي كل سماء رسل وأنبياء لا يخرجون منها , ولا يرجون , حتى الصعقة , وليس منهم من لـه الخيـار إلا : الخليـل والكلـيم والصفي والحبيب هؤلاء ينتهون حيث شاءوا عن العـالمين . فهـذه أحـوال الموتى إذا بادت أعينهم , فمنهم المستقر , ومنهم المضروب عليـه , ومـنهم المنعم , ومنهم المعذب , والدليل علي صحة ذلك قوله تبارك وتعالي : " النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العـذاب " . فإذا فرغت الرسل من قراءة الكتب خرج النـداء مـن سـرادقات الجـلال : (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) . فيرتج الموقف , ويقوم فيه روع عظيم , والملائكة امتزجت ببني آدم , ثم يخرج النداء : يا آدم ابعث من بنيك بعثاً إلي النار , فيقول يا رب من كم كم ؟ فيقول له : من كل ألف تـسعمائة وتـسعة وتسعون إلي النار وواحد إلي الجنة , فيستخرج من سائر الملحدين والغـافلين والفاسقين , حتى لا يبقي إلا قدر حفنة التراب , فمنهم من يرفعهم الميـزان ، فإذا سيئاته ترجح علي حسناته , وكل ما وصلته الشريعة لابد له من الميزان ,

فإذا اعتزلوا أيقنوا أنهم هالكين , وقالوا آدم ظلمنا, ومكن الشيطان من نواحينا , فإذا النداء من قبل الله تعالي : (اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) . فيستخرج لهم كتاباً عظيماً يسد ما بين المشرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلائق , فما " كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها , ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً " , وفي ذلك أن أعمال الخلائق تعرض علي الله كل يوم , فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها في هذا الكتاب العظيم , وهو قوله تعالي : (إنا كنّا نستنسخ ما كنتم توعدون) .

ثم يدفعون بعد الفراغ إلي خزنة جهنم فترتفع أصواتهم بالبكاء والضجيج والثبور , لهم رجة عظيمة , حتى يعرض المؤمنون الموحدون , فتحدق الملائكة بهم تقول : " **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** " . والفزع الأكبر عند أربعة مواضع : عند نقر الناقور, وعند تفلت جهنم من الخزنة , وعند إخراج آدم بعث النار , وعند رفع الناس إلي الخزنة .

فإذا بقي الموقف ليس فيه إلا المؤمنون والمسلمون والمحسنون والعارفون والصديقون والشهداء والصالحون والأنبياء والمرسلون , ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق , فيقول الله تعالي : **يا أهل الموقف من ربكم ؟** فيقولون الله , فيقولون أتعرفونه ؟ فيقولون نعم , فيجلس لهم ملك عن يسار العرش لو وضعت البحار في نقرة إبهامه ما ظهرت , فيقول بأمر الله تعالي : أهلاً بكم أنا ربكم , فيعوذون منه بالله , ثم يتجلى لهم سبحانه في صورته التي كانوا يعرفونها ويسمعونها وهو يضحك , فيسجدون له جميعهم , فيقول : **أهلاً بكم** , ثم ينطلق سبحانه إلي الجنة فيتبعونه , فيمر بهم علي الصراط والناس أفواج , المرسلون , ثم النبيون , ثم الصديقون , ثم المحسنون والعارفون , ويبقي منهم المسلمون , منهم

المكبوب علي وجهه , ومنهم المحبوس في الأعراف , ومنهم من قصر علي عام الإيمان , ومنهم من يجوز على الصراط في مائة عام , وآخر يجوز في ألف عام , ومع ذلك لن تحرق النار من رأي ربه عياناً .

وفي الصحيح أن أول ما يقضى الله فيه الدماء , وأن أول ما يعطي أجورهم هم الذين ذهبت أبصارهم , قيل : ينادي يوم القيامة بالمكفوفين , فيقولون له : أنت أحق من ينظر إلينا : ثم يستحي الباري جلّ جلاله منهم , ويقول لهم : **اذهبوا إلي ذات اليمين** , وتعقد لهم راية , وتجعل بيد شعيب عليه السلام , فيسير أمامهم إلي الجنة ومعهم ملائكة النور يزفونهم إلي الجنة كما تزف العروس , فيمر بهم علي الصراط كالبرق الخاطف , وصفة أحدهم الحلم والصبر والعلم , كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة .

ثم ينادى : **أين أهل البلاء** , ويريد المجذومين ومن شاكلهم , ويؤتى بهمم ويحييهم الله بتحية طيبة بالغة , ويأمرهم إلي ذات اليمين , وتعقد لهم راية خضراء , وتجعل بيد أيوب عليه السلام .. فيعبر أمامهم إلي الجنة , وصفتهم صبر وحلم وعلم كعقيل بن أبي طالب , ومن ضاهاه من هذه الأمة .

ثم ينادي : أين أهل الشباب المتعففون من هذه الأمة ؟ , فيؤتى بهم إلي بين **يدي** الله تعالي , فيرحب بهم ثم يأمرهم إلي ذات اليمين , وتعقد لهم راية خضراء , وتجعل في يد يوسف الصديق علية وعلى نبيينا الصلاة والسلام , ويسير أمامهم إلي الجنة , وصفتهم صبر وعلم وحلم كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه الأمة .

ثم يخرج النداء : **أين المتحابون في الله تعالى** ؟ فيؤتي بهم إلي الله

فيرحب بهم ويقول ما شاء الله أن يقول , ثم يؤمر بهم إلي ذات اليمين , وتعقد لهم راية صفراء , وتجعل بيد هارون عليه السلام , ويسير أمامهم إلي الجنة , وصفة المتحابين في الله صبر وحلم , لا يسيء ولا يسخط , ولا يرضي بسيىء كأبي , أعنى علي ابن أبي طالب ومن ضاهاه من هذه الأمة .

ثم يخرج النداء : أين الباكون من خشية الله ؟ فيؤتى بهم إلي الله تعالى فيزنون دموعهم ودماء الشهداء ومداد العلماء فيرجح الدمع , فيؤمر بهم إلي ذات اليمين , وتعقد لهم راية ملونة , لأنهم بكوا بأنواع مختلفة من البكاء , هذا بكي خوفاً , وهذا بكى طمعاً, وهذا بكى ندماً , وتجعل بيد نوح عليه السلام , فتطلب العلماء التقدم عليهم ويقولون : علمنا أبكاهم , فإذا بالنداء على الرسل , فتوقف الزمرة , ثم يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء, فيرجح دم الشهداء , فيؤمر بهم إلي ذات اليمين , وتعقد لهم راية من عنده , وتجعل في يد يحي عليه السلام ,ثم ينطلق بهم , فتهم العلماء بالتقدم , ويقولون : نحن أحق منهم بالتقدم , فيضحك الله تبارك وتعالى ويقول لهم : **أنتم كأنبيائي , واشفعوا فيمن تشاءون** , فيشفع العالم في جيرانه وإخوانه , ويأمر كل واحد منهم أن ينادي في الناس, ألا إن فلانًا العالم قد أمر أن يُشفع , فمن قضي له حاجة , أو أطعمه لقمه حين جاع , أو سقاه ماء حين عطش فليقم , فإنه يشفع له .

وفى الصحيح أن أول من يشفَعون المرسلون ، ثم الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم تعقد لهم راية بيضاء ، وتجعل بيد إبراهيم عليه السلام فإنه اشد المرسلين ، ثم ينادى : **أين الفقراء** ؟ فيؤتى بهم إلى بين يدى الله تعالى ، فيقول لهم : **مرحباً بمن كانت الدنيا سجنهم** ، ويأمرهم إلى ذات

اليمين ، ويعقد لهم راية صفراء ، وتجعل بيد عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ويسير أمامهم إلى الجنة .

ثم ينادى أين الأغنياء - ويعنى العابدين-، فيؤتى بهم إلى بين يدى الله تعالى ، فيعدد لهم ما وصف لهم إلى خمسمائة عام ، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين ، وترفع لهم راية ملونة وتجعل بيد سليمان بن داود عليه السلام ، ويسير أمامهم إلى الجنة وفى الحديث : ما شغلكم عن عبادة الله تعالى ؟ - ويعنى الأغنياء الفاجرين- ، فيقولون : أعطانا الله ملكاً شغلنا به عن القيام بحقه ، واللذات بذكره فى دار الدنيا ، فيقال : من أعظم ملكاً ، أنتم أم سليمان ؟ فيقولون : بلى سليمان ، فيقال لهم : **ما شغله عن القيام بحقىّ وذكرى** . ثم ينادى : أين أهل البلاء ؟ فيؤتى بهم أنواعاً ، ثم يقال لهم : أى شئ شغلكم عن عبادة الله تعالى ؟ فيقولون : ابتلانا الله فى الدنيا بأنواع من البلايا والآلام شغلتنا عن ذكره والقيام بحقه ، فيقال لهم : **من أشد بلاء أنتم أم أيوب** ؟ فيقولون : بلى أيوب أشد بلاء ، فيقول لهم : ما شغله عن القيام بحقى واللذات بذكرى ، ثم ينادى : أين الشباب العطرة والمماليك ، فيؤتى بهم ، فيقول لهم : ما الذى شغلكم عن أمرى ؟ فيقولون : أعطيتنا حسناً وجمالاً فتنا به ، ويقول المماليك : شغلنا رق العبودية فى الدنيا ، وكنا مشغولين عن القيام بحقك ، فيقال لهم : **أيهم أكثر جمالاً أنتم أم يوسف** ؟ ، فيقولون : بلى يوسف ، فقال : كان فى رق العبودية ، ما شغله ذلك عن القيام بحقى ، ثم ينادى : أين الفقراء ؟ - ويعنى الناقمين- فيؤتى بهم أنواعاً فيقال : ما الذى شغلكم عن عبادة الله ؟ فيقولون : ابتلانا الله تعالى فى دار الدنيا بفقر مدقع ،شغلنا عن القيام بحقه ، فيقال لهم : **من أشد فقراً أنتم أم عيسى** ؟ فيقولون عيسى .

فيقال : ما شغله ذلك عن القيام بحقي .

فمن ابتلى شئ من هذه الأربع فليذكر صاحبه ، وقد كان رسول الله ﷺ يقول : ﴿ **اللهم إنى أعوذ بك من فتنة الغنى والفقر**﴾.

وكذلك يأتي رجل يوم القيامة فيحاسب فيرمي به إلي النار , فيلتفت في سيره إلي ورائه, فيقول الله تعالى : **مالك التفت أيها العبد السوء , مالك تنظر في مسيرك** ؟ فيقول : يا رب , كنت أعصيك وأنا أرجوك , ومت وأنا أرجوك , وأمرت بي إلي النار وأنا أرجوك , فجعلت ألتفت نحوك , فيقول الله عز وجل : **رجوت كريماً , وطمعت رحيماً , اذهب فقد غفرت لك .**

وربما كان الغفران من الله تعالي والمحاسبة في حقوق الناس إلا القتل متعمداً , فإنه ليس يغفر أبداً كالشرك , إلا ما أسلم من الشرك وتاب من القتل توبة خالصة , فإن القاتل قتل من أحياه الله تعالي , وفي بعض الكتب : **ما أظلمك , شاركتني في فعلي , ألم تر كيف فعلت ؟, أنا أحيي وأنت تميت أيها القاتل ، ألا فقد بارزتني بالمحاربة .**

والكبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص , فأكرمهم على الله يخرج من النار بعد ألف سنة , وكان الحسن البصري رحمه الله تعالي يقول في كلامه : يا ليتني ذلك الرجل , فإنه كان عالماً بأمور الآخرة . قال : ويؤتى يوم القيامة برجل فما يوجد حسنة يرجح بها ميزانه , وقد اعتدلت بالسوية , فيقول الله تعالي رحمة منه وعلماً: **اذهب في الناس , والتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة** . فيجوز خلال العالمين, فما يجد أحداً يكلمه في ذلك الأمر إلا يقول له : خفت أن يخف ميزاني , فأنا

أحوج منك إليها فييأس , فيقول له رجل : ما الذى تطلب ؟ فيقول : حسنة , فقد مررت علي أقوام لهم آلاف الحسنات , فبخلوا عليّ , فيقول الرجل : لقد لقيتني وما بقي لي إلا حسنة واحدة , وما أظنها تغني عني , هي لك , فينطلق بها فرحاً مسروراً , فيقول الله : **مالك؟** (وهو أعلم), فيقول من أمري كيت وكيت , ثم ينادي سبحانه وتعالي : **يا صاحبه الذي وهبته الحسنة , كرمي أوسع من كرمك , خذ بيد أخيك وانطلق به إلى الجنة** .وكذلك تستوي كفتا الميزان لرجل , فيقول الله تعالي : **لست من أهل الجنة ولا من أهل النار** . فيأتي الملك بصحيفة مكتوب فيها " أف " فترجح علي الحسنات , لأنها كلمة عقوق ترجج بها جبال الدنيا , فيؤمر به إلى النار , قال : فيطلب الرجل أن يرده الله إليه , فيقول الله : **ردوه أيها العبد العاق , لأي شيء تطلب الرد ؟** فيقول إلهي رأيت أبي سائراً إلي النار ؟ وأنا لابد لي منها , وكنت عاقاً لأبي في الدنيا , وهو سائر إلي النار مثلي , فضعّف عليّ عذابي وأنقذه منها . قال : فيضحك الله ويقول : **عققته في الدنيا وبررته في الآخرة ,كرمي أوسع من كرمك , خذ بيد أبيك وانطلق به إلي الجنة.**

فما من أحد يُذهب به إلي النار إلا و والملائكة توقفه , لعلمهم سر أحكام الآخرة . وينادى بقوم لاخلاق لهم خلقوا حطبا وحشوا , فيقال (**وقفوهم إنهم مسئولون**) , فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم "**ما لكم لا تناصرون** " فيسنسلمون للبكاء , ويعترفون بالذنب , كما قال تعالي : (**فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير**) , فيدفعون دفعة واحدة إلي النار . وينادى بأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ كهولاً وعجائز

وشيوخاً وشباباً ونساءً فإذا نظر إليهم مالك خازن النار قال : من أنتم معاشر الأشقياء ؟, مالي أري أيديكم لا تغل , ولا توضع الأغلال والسلاسل , ولم تسود وجوهكم , وما ورد عليَ أحسن منكم حالاً ؟, فيقولون : يا مالك , نحن أشقياء أمة محمد , دعنا نبك على ذنوبنا , فيقال : ابكوا فلن ينفعكم البكاء , من شيخ وضع يده علي لحيته ويقول واشيبتاه , ويا طول حزناه , ويا ضعف قوتاه , وكم من كهل ينادى وامصيبتاه وأطول مقاماه , وكم من شاب ينادي واشباباه وأسفاه على تغير حسناه , وكم من امرأة تنادي واشباباه واهتك ستراه , فيكون ذلك مقدار ألف عام , فإذا النداء من قِبل الله تعالي : **يا مالك أدخلهم النار الباب الأول منها** , فإذا همت النار أن تأخذ أحدهم قالوا جميعهم **لا إله إلا الله** , قال فتفر النار منهم مسيرة خمسمائة عام , ثم يأخذون في البكاء فتشتد أصواتهم , فإذا النداء من قِبل الله تعالى : **يا نار خذيهم** , فعندئذ تسمع لهم صلصلة كالرعد , فإذا همت النيران أن تأخذ قلوبهم , زجرها الملك وجعل يقول : لا تحزن قلباً فيه القرآن , وكان وعاءً للإيمان , وإذا الزبانية قد جاءوا بالحميم ليصبوا في بطونهم , فيزجرها الملك , ويقول : لا تدخل الحميم والعذاب بطونا أخمصها الرمضان , ولا تحرق النار جباها سجدت لله تعالي , فيردون فيها حمراً كالفاسق المحلوك , والإيمان يتلألأ في القلوب

والرسل يومئذ علي المنابر , والعلماء والأولياء علي منابر صغار دونهم , ومنبر كل واحد منهم علي قدره , والعالمون العاملون علي كراسي من نور , والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنين كلهم علي كثبان من المسك , وهذه الطائفة العامة أصحاب الكراسي الذين

يطلبون الشفاعة من آدم ونوح علي نبينا وعليهم السلام , حتى ينتهوا إلي رسول الله ﷺ .

وكل مذكور يأتي شخصه يوم القيامة , فقد جاء في الخبر أن القرآن يأتي يوم القيامة في صورة رجل حسن الخلق , فيشفع ويشفع , والإسلام مثله فيختصم ويخاصم -وقد ذكرنا حكاية الإسلام مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحياء علوم الدين- وبعد مخاصمته يتعلق به من يشأ الله , فيهوى بهم إلي الجنة , وكذلك تأتى الدنيا في صورة عجوز شمطاء أقبح ما تكون , فيقال للناس : تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من هذه , فيقال لهم : هذه الدنيا التي كنتم تتحاسدون عليها , وتتباغضون فيها , وتتهاجرون لأجلها , كذلك تأتي الجنة كأنها عروس تزف , والمؤمنون حولها قد أحدقوا بها , وهي أحسن ما تكون , وتحوط بها كثبان المسك والكافور , وعليها نور يتعجب منها كل من في الموقف حتى تدخل بهم الجنة .

ومرَد الكتاب ، وقصدنا في ذلك الأمر الاختصار , **لسلوك سبيل السنة ولا يلتفت إلي البدع الطارئة علي الشرط المظهر من شياطين الأنس والجن .**

٣- تطبيق المنهج السنى من خلال تحليل نص كتاب منهاج العابدين

قال الشيخ الإمام عبد الملك بن عبد الله: إملاء الشَّيخ الموفق حجة الإسلام، أبو محمد بن زين الدين، وهو الغزالي رضي الله عنه، وهو **آخر كتاب صنَّفه** ولم يتمله منه إلا خَواص أصحابه:

الحمد لله الملك الحكيم الجواد الكريم، العزيز الرحيم، الذي فطر السموات والأرض بقدرته، ودبَّر الأمور في الدَّارين بحكمته، وما خلق الجِنَّ والإنسَّ إلا لعبادته، فالطريق واضح للقَاصدين، والدليل لائح للناظرين، ولكن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الأبرار الطيبين أجمعين إلى يوم الدين.

اعلموا إخواني أسعدكم الله وإياي بمرضاته، أن العبادَةَ ثَمرة العِلمِ وفَائدةِ العمر، وحَاصل العَبْد، وبضاعةُ الأولياء، وطريق الأقوياء، وقسمة الآخرة ومقصد ذوي الهمة، وشعار الكرم، وخرقة الرِّجَال، واختيار ذوي الأبصار وهي سبيلُ السّعادة ومِنْهَاج الجَنَّة.

فقال تعالى **﴿أَنَا رَبُّكم فأعبدون﴾** (١). وتأَمَّلنا طريقها من مبادئها إلى مقاصدها التي هي أماني سَالكيها، فإذا هي طَرِيْقٌ وَعِر وصعب، كثيرة القضاة ، شديدة المشقاة ، بعيدة المسافات ، عظيمة الآفات، كثيرة

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩٢ .

العوائق، والموانع وهكذا يجب أن تكون؛ لأنها طريق الجَنَّـــة، فيـــصير تصديقا لما قاله رسول الله ﷺ: ﴿**إنَّ الجَنَّة حُفَّتْ بالمكاره وإن النَّار حُفَّت بالشهوات**﴾ [١]. والطاعة هي المراد، فلا بد منها، ولا مراد لهـــا، فمـــن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين ، ومَنْ فَاتَه ذلك خسر مع الخاسرين، وهَلَك مع الهالكين.

مضار هذا الخطب إذن والله معضلاً، والخطر عظيماً، ولذلك عزَّ من يقصد هذا الطريق وقل. ومن القاصدين من سيسلكه ثُم عزَّ مَنْ يَصل إلى المَقْصُود، ويَظْفر بالمطلوب، وهم الأعزة الذين اصطفاهم الله عـــز وجلّ بمعرفته ومحبته.

ولما وجدنا هذا الطريق بهذه الصفة، نظرنا، فأمعنا النَّظَـــرَ فـــي كيفية قطعها، وما يحتاج إليه العبد من الأهَبة والعدة والحيلة، مـــن عِلـــمٍ وعملٍ عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله تعالى في سلامة، ولا ينقطع في عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ بالله.

وأول ما ينبه العبد للعبادة ، ويتحرك لسلوك طريقها بتوفيق إلهي خاص، هو المعنى بقوله تعالى : ﴿**أفمن شرح الله صَدْرَهُ للإسلام فهـــو على نور من ربه**﴾ [٢] فالله قادراً، عالما، حياً متكلماً، يأمر وينهي، قادراً على أن يعاقبني إن عصيته، ويثيبني إن أطعته، وهـــو تعـــالى عالمـــاً بأسراري.

إلا أن أول عقبة تستقبل الإنسان في طريق العبادة، هي عقبة العلم

---

(٢) انظر تحقيق هذا الحديث فى النفس المحقق فيما سيأتى .

(١) سورة الزمر ، آية ٢٢ .

والمعرفة ليكون من الأمر على بصيرة، فيأخذ في قطعها من غير يد بحسن النظر في الدلائل، وفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الآخرة، أدلاء الطريق، سُرُج الأمة، وقادة الأئمة.

الصالح منهم بالتوفيق والأمانة إلى أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه، فيحصل له العلم واليقين بالغيب، وهو أن له إلها واحداً لا شريك له، هو الذي خلقه وأنعم عليه بكل هذه النعم، وأنه كلفه شكره وأمره بخدمته، وطاعته بظاهره وباطنه، وحذره الكفر وضروب المعاصي، وحكم له بالثواب الخالد إن أطاعه، والعقاب الخالد إن عصاه، وتولى عنه. فعند ذلك بعثته هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير للخدمة، والإقبال على العبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده، وعرفه بعد ما جهله، ولكنه لا يدري كيف يعبده، وماذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه.

فبعد حصول هذه المعرفة بالله وما يلزمه من فرائض الشريعة ظاهرا وباطنا، واستكمل العلم والمعرفة بالفرائض، انبعث ليأخذ في العبادة، ويشتغل بها فنظر، فإذا هو صاحب جنايات وذنوب، وهذا حال الأكثر من الناس، فيقول: كيف أقبل على العبادة وأنا مصرّ على المعصية متلطخ بها، فيجب أولا أن أتوب إليه ليغفر لي ذنوبي، ويخلصني من أسرها وأتطهر من أقدارها، فأصلح للخدمة.

وهنا تستقبله العقبة الثانية وهي **التوبة**، فيحتاج لا محالة إلى قطعها ليصل إلى ما هو المقصود منها، فأخذ في ذلك بإقامة التوبة في شروطها وحقائقها إلى أن قطعها. فلما حصلت له التوبة الصادقة وفرغ من هذه العقبة، وحسن إلى العبادة ليأخذ منها، فنظر فإذا حوله عوائق محدقة كل واحدة منها تعوقه عما قصد من العبادة بضرب من التعويق، فتأمل فإذ هي

أربعة : **الدنيا**، **والخلق**، **والشيطان**، **والنفس**، فاحتاج لا محالة إلى دفع هـذه العوائق وإزاحتها، وإلا فلا يتأتى له أمر العبادة.

وها هنا تستقبله عقبة ثالثة وهي **العوائق**، فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمور : التجرد عن الدنيا، والتفرد عن الخلق، والمحاربة مع الشيطان، وقمع النفس، فإذا بأربعة عوارض تعترضه وهي:

١- الرزق : تطالبه النفس به، وتقول لابد لي من رزق، وقوام، وقد تجردت عن الدنيا وتفردت عن الخلق فمن اين يكون قوامي ورقي.

٢- الأخطاء : وهي من كل شيء يخافه الإنسان ويرجوه أو يريده أو يكرهه ولا يدري إصلاحه في ذلك أو فساده، فإن عواقب الأمور مبهمة فينشغل قلبه بها فإنه ربما يقع في فساد أو مهلكة.

٣- الشدائد : وهي المصائب التي تنصب عليه من كل جانب، ولاسيما وقد انتصب لمخالفة الخلق، ومحاربة الشيطان ومضادة النفس، فكم عقبة يتجرعها، وكم شدة تستقبله، وكم من هم وحزن يعترضه ؟.

٤- القضاء : فيقضي الله عز وجل بالحلو والمر، وترد عليه حالا فحالا، والنفس تسارع إلى السخط وتبادر إلى الفتنة، فأعاقته.

واستقبلته هنا عقبة رابعة، وهي **العوارض الأربعة**، فاحتاج إلى قطعها بأربعة:

١- التوكل على الله في موضع الرزق.

٢- تفويض الله في موضع الرزق والخطر.

٣- الصبر عند نزول الشدائد.

٤- الرضا عند نزول القضاء.

فأخذ في قطع هذه العقبة، فلما فرغ من قطعها وعاد إلى قصد

العبادة فنظر، فإذا النفس فاترة كسلا لا تنشط ولا تنبعث لخير كما يحق وينبغي، وإنما ميلها أبدا إلى عقلة وراحة وبطالة، بل إلى سر وفضول وتسلية وعجالة، فيحتاج إلى قطعها لسائق يسوقها إلى الخير والطاعة وينشطها له وزاجر يزجرها عند المعصية، وهما الرجاء والخوف :

فالرجاء : هو في عظيم ثواب الله، وحسن ما وعد من أنواع الكرامات.

والخوف : من أليم عقاب الله وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والإهانة.

فاستقبلته عقبة خامسة، وهي **البواعث** فاحتاج إلى قطعها بهذين الذكرين، فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها، فلما فرغ منها رجع إلى الإقبال على العبادة، فلم ير عائقا، ولا شاغلا، ووجد باعثا، وداعيا، فنشط في العبادة فأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة، فأدامها، فنظر، فإذا تبدو لهذه العبادة التي احتمل فيها كل ذلك، آفتان عظيمتان وهما؛ الرياء والعجب فتارة يرائي بطاعته للناس، وأخرى يستعظم ذلك ويكرم نفسه، فيعجب بنفسه فتحبط عبادته ويفسدها.

وها هنا تستقبله عقبة سادسة وهي **القوادح**، فاحتاج إلى قطعها بالإخلاص وذكر المِنَّة ونحوها ليسلم له ما يعمل من خير. فأخذ في قطعها بالله تعالى، واحتياط وتيقظ بحسن عصمة الجبار وتأييده، وحصلت له العبادة كما يحق، ويصبح غريقا في بحور النعم والمنن، فخاف أن يكون منه إغفال الشكر، فيقع في الكفران فيحط عن تلك المرتبة الرفيعة، وهي مرتبة الخدام الخالصين لله عز وجل.

فاستقبلته هنا عقبة سابعة وهي **الحمد والشكر**، فأخذ في قطعها بما أمكنه من الحمد، الشكر، فلما فرغ من هذه العقبة، نظر فإذا هو بمقصوده ومبتغاة بين يديه فوقع في سهل القضاء، ثم يقع في رياض الرضوان ليصل لمرتبة المقربين وأصحاب الكرامات.

الفصل الأول

عقبة العلم والمعرفة

إن على طالب الخلاص والعبادة أولا بالعلم فإنه القطب وعليه المراد فالعلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين، وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين، بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل وخلقت السماوات والأرض وما فيهما من الخلق. فأعلم أن العلم شرف الجوهرين وأفضلهما، ما قال النبي(ﷺ) **﴿إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدين رجل من أمتي﴾** (١).

وقال (ﷺ) : **﴿ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة، قالوا بلى يا رسول الله، قال هم علماء أمتي﴾** (٢).

ولكن لا بد للعبد من العبادة مع العلم ، وإلا كان علمه هباءً منثورا، فإن العلم بمنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها، فالشرف للشجرة المثمرة إذ هي الأصل، لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرتها، فإنه لا بد من الجمع بهما، فالعلم أولى بالتقديم لا محالة من العبادة وذلك لأمرين:

أحدهما : لتحصل لك العبادة، فإنك أولا تعرف المعبود ثم تعبده. وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته، وما يجب له وما يستحيل في نعته، فربما تعتقد في صفاته شيء ، والعياذ بالله تعالى، مما يخالف

---

(١) انظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

(٢) انظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

الحق، فتكون عبادتك هباءً منثورا ، فكيف يجب أن تفعل، وكيف تجتنب معاصي لا تعلم أنها معاصي حتى لا توقع نفسك فيها، فالعبادة الشرعية كالطهارة، والصلاة، والصوم وغيرها مما يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها.

الآخر : إن العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته؛ قال تعالى :**﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[1] وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته، ولا يعظمه حق تعظيمه وحرمته، فصار العلم يثمر الطاعة كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله، وليس وراء هذين مقصد للعبد في عبادة الله سبحانه وتعالى.

أما علم الشريعة فكما فرض فعله وجب عليك معرفته لتؤديه، كالطهارة والصلاة والصيام . وأما الحج والجهاد والزكاة فيتعين عليك علمها لتؤديها، وإلا فهذه أحد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لا محالة، ويتعين فرضه بحيث لا بد لك من ذلك. فإن قلت: فهل يفترض عليّ أن أتعلم علم التوحيد ما انقضي به جميع الملل الكافرة وألزمهم حجة السنة، وانقضى به جميع البدع وألزمهم حجة السنة.

فاعلم أن هذا فرض على الكفاية، وإنما يتعين عليك ما تصحح به اعتقادك في أول الدين لا غير، وكذلك لا يتعين معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه والإتيان على جميع مسائله.

وإن وردت عليك شبهة في أمور الدين تخاف أن تقدح في اعتقادك، فيتعين عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع، وإياك

---

(١) سورة فاطر ، آية ٢٨ .

والمجادلة فإنها داء محض لا دواء له، فاحترز منه جهدك، فإن من ارتداه لم يفلح إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه.

ثم اعلم أنه إذا كان في كل قطر داع من دعاة **أهل السنة** يحل الشبهة ويرد على أهل البدع، ويشتغل بهذا العلم ويصفى قلوب أهل الحق عن وسواس أهل المبتدعة، فقد سقط الغرض عن سواه. وكذلك لا يلزمك معرفة دقائق علم السر وجميع شرح عجائب القلب، وألا ما يفسد عليك عبادتك، فتجنب معرفته لتتجنبه .

وما يلزمك فعله، كالإخلاص، والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك، فيلزمك معرفته لتؤديه، وأما سواه فلا. وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أنواع الفقه.

فإن قلت: هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الإنسان من غير معلم؟ فاعلم أن الإسناد فاتح ومسهل فالتحصيل معه أسهل وأروح ، والله تعالى بفضله يمن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم.

ثم اعلم أن عقبة العلم هي عقبة كؤود، ولكن بها نُيال المطلوب والمقصود نفعها كثير، وقطعها شديد وخطرها عظيم، كم من عَدَلَ عنها فضَّل، وكم من سكلها فنزل، وكم من تائه منها متحيز، وكم من خير منقطع، وكم من سالك قطعها في مدة يسيرة، وآخر متردد فيها سبعين سنة ، والأمر كله بيد الله عز وجل.

أما نفعه، فعلى ما ذكرنا من شدة الحاجة للعبد إليه وبناء أمر العبادة كلها عليه سيما علم التوحيد، وعلم السر. فاعلم أنك لو نظرت في دلائل صنع الله، فأمعنت النظر علمت أن لنا إلهاً واحداً قادراً، عالماً، مريداً، سميعاً، حدوث الكلام، والعلم والإرادة، مقدسا عن كل نقص لا

يوصف بصفات الحوادث، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدودين. وإذا نظرت إلى معجزات الرسول، وأعلام نبوته تعلمت أنه رسول الله حقا وأمينه، وما جاء إلا بالحق نذيراً ومبيناً. ثم إذا نظرت إلى أعمال القلب والمواجب والمناهي التي تتأتى في كتاب الله؛ ليحصل لك علمه، ثم تعرف ما تحتاج إلى استعماله كالطهارة، والصلاة، والصوم، ونحوه، فإذا فعلت ذلك، فقد أديت فرض الله تعالى عليك الذي تعبدت به في باب العلم، وصرت من علماء أمة محمد ﷺ الراسخين في العلم. فإن عملت بعلمك وأقبلت على عمارة معادك كنت عبداً عالماً عاملاً لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا مقلد ولا غافل ولك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكثيرة والثواب الجزيل، وكنت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها ورائك وأرضيته تعالى المسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه وتيسيره إنه أرحم الرّاحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثاني
عقبة التوبة

عليك يا طالب العبادة بالتوبة وذلك لأمرين؛

أحدهما: ليحصل لك توفيق الطاعة، فإن شؤم الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان، وإن قيد الذنوب يمنع المشي إلى طاعة الله عز وجل، والمسارعة في الطاعات، وإن الإصرار على الذنوب يسود القلب، فنجدها في ظلمة وقساوة، ولا خلوص فيها ولا صفاوة، ولا لذة ولا حلاوة.

الآخر : إنما نلزمك التوبة؛ لتقبل منك عبادتك، فإن رب الدَّين لا يقبل منك هدية، وذلك أن التوبة عن المعاصي وإرضاء الخصوم دعامة العبادة التي تقصدها .

فكيف يقبل تبرعك والدَّين عليك حالٌ لم تقضيه.

فإن قلت: فما معنى التوبة النصوح وحدها، وما ينبغي للعبد أن يفعله للعبد حتى يتخلص من الذنوب كلها، فأقول: أما التوبة، فإنها سعي القلب، وهي عند التحصيل في قول العلماء تبرئة من الذنب. وقال شيخنا أبو بكر النساع رضي الله عنه في حد التوبة، "إنه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه" وهذه منزلة لا صورة تعظيما لله عز وجل، وحذرا من سخطه، ولها أربعة شروط:

(١) ترك اختيار الذنب. (٢) التوبة من ذنب قد سبق فعله.

(٣) إن الذي سبق يكون مثل ما يترك اختياره في المنزلة والدرجة لا في

الصورة.

(٤) أن يكون اختياره لذلك تعظيماً لله عز وجل، وحذراً من سخطه وأليم عقابه، مجرد لا لرغبة دنيوية، أو رهبة من الناس وطلب ثناء، أو ضعف في النفس، أو فقر أو غير ذلك. فهذه شروط التوبة وأركانها فإن حصلت واستكملت، فهي توبة نصوح حقيقية.

مقدمات التوبة:

هناك ثلاثة مقدمات للتوبة: **الأولى** : ذكر غاية قبح الذنب. **الثانية**: ذكر شدة عقاب الله تعالى وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة لك به. **والثالثة**: ذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك، فإن من لا يحتمل حرّ الشمس، ولطمة شرطي، وقرض نمله ، كيف يحتمل حرّ نار جهنم، وضرب مقامع الزبانية، ولسع حيات كأعناق البُخت، وعقارب كالبغال خُلقت من النار في دار الغضب.

فإن قيل: أليس عَدَّ ﷺ الندم توبة، ولم يذكر ما ذكرتم من شرائطها وشدد تم؟ يقال له: اعلم أولاً أن الندم غير مقدُور للعبد، ألا تري أن الندامة تقع على الذنوب لما ذهب بذلك جاهه بين الناس، وماله في النفقة فيها فإن ذلك لا يكون توبة بلا ريب، فعلمت بذلك أن الخير معنى لم تفهمه من ظاهره.

فالندم لتعظيم الله عز وجل، وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح، فإن ذلك من صفات التائبين وحالهم، فإنه إذا ذكر الأذكار الثلاثة التي هي مقدمات التوبة، ندم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب، وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل تحمله على الابتهال

والتضرع، فلما كان في ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه باسم التوبة.

والذنوب ثلاثة أقسام، إحداها: ترك واجبات الله عز وجل عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها، فتقضي ما أمكن منها. **والثاني:** ذنوب بَيْنَك وبين الله تعالى كشرب الخمر ، وأكل الربا ، وضرب المزامير ، ونحو ذلك ، فتندم على ذلك وتوطن نفسك على ترك العود إلى مثلها أبداً . **والثالث** : ذنوب بينك وبين العِبَاد، وهذا أشكل وأصعب وهي أقسام قد تكون في المال، وفي النفس، وفي العِرض، وفي الحرمة، وفي الدين. فما كان في المال فيجب أن ترده عليه إن أمكنك، فإن عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه، فافعل، وإن لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك والرجوع إلى الله عز وجل بالتضرع والابتهال إليه أن يرضيه عنك يوم القيامة. وما كان في النفس فتمكنه من القصاص حتى يقضي فيك، أو يجعلك في حِلٍّ، فإن عجزت فالرجاء إلى الله عز وجل، والابتهال إليه أن يرضيه عنك يوم القيامة.

وأما العِرض فإذا أغتبته أو بهته أو شتمته، فحق عليك أن تكذب نفسك بين يدي من فعلت ذلك عنده، وأن تستحل من صاحبه إن أمكنك هذا وإن لم تخش زيادة غيظ، وهيج فتنة من إظهار ذلك أو تجديده، فإذا خشيت ذلك فالرجوع إلى الله تعالى، ليرضيه عنك والاستغفار الكثير لصاحبه.

وأما الحُرمة، فإن خنته في أهله وولده ونحوه، فلا وجه للاستحلال والإظهار؛ لأنه يولد فتنة وغيظاً، بل تضرع إلى الله ليرضيه عنك، ويجعل له خيراً في مقابلة ذلك. وأمّا في الدين، فإن كفرته أو

بدعته أو ضللته، وهو أصعب الأمر، فتحتاج إلى تكـذيب نفسـك بـين يدي من قلت ذلك له، وأن تستحل صاحبه إن أمكنك، وإلا فالابتهال إلى الله سبحانه وتعالى، والندم على ذلك ليرضيه عنك.

فلا تيأس، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فإنه دلالـة الخير، أما تسمع قوله ﷺ "**خياركم كل مُفتن تواب**"(١) أي كثيـر الابـتلاء بالذنب، كثير التوبة منه، والرجوع إلى الله سبحانه بالندامة، والاستغفار. وتذكر قوله سبحانه "**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**"(٢).

---

(١) انظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

(٢) سورة النساء ، آية ١١٠ .

الفصل الثالث
عقبة العوائق

إن على طالب العبادة دائما، دفع العوائق حتى تستقيم عبادته، وهذه العوائق أربعة؛

المبحث الأول
عائق الدنيا

على طالب العبادة دفع الدنيا بالتجرد عنها، والزهد فيها، وإنما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين؛

أحدهما: تستقيم العبادة وتْكثُر، فإن الرغبة في الدنيا تشغلَك، إما ظاهرك أو باطنك، وحديث النفس وكلاهما يمنع عن العبادة، فإن النفس واحدة، والقلب واحد، فإذا اشتغل بشيء انقطع عن ضده، وإن مثل الدنيا والآخرة، كمثل الضرتين، إذا أرضيت إحداهما أسخط الأخرى، وإنما هما كالمشرق والمغرب، بقدر ما تميل إلى أحدهما أعرضت عن الآخر، فما روي عن ﷺ أنه قال: **﴿من أحب دُنْيَاه أضر بآخرته، ومَنْ أَحَبَّ آخرته أضرَ بدنيَاه، فآثروا ما تَبْقي على ما يفني﴾**[1] فبان لك إنه إذا اشتغل ظاهرك بالدنيا وباطنك بإرادتها فلا تتأتى لك العبادة بحقها. وأما إذا زهد في الدُنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه بالعبادة.

الآخر، أن يكثر قيمة عملك ، ويعظم قدره، ولقد قال الرسول (ﷺ)

---

(١) انظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

﴿ركعتان من رجل زاهد قلبه خير وأحب إلى الله جل جلاله من عبادة المتعبدين إلى آخر الدهر﴾[1] فالزهد في الدنيا هو خير وأحب إلى الله من تعلق القلب بالعباد والأشياء.

واعلم أن الزهد في الدنيا يقع في الحلال والحرام؛ فهو في الحرام فرض وفي الحلال نفل، ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمي الطاعة بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها إلا عند الضرورة بمقدار دفع الضرورة.

وأما الزُهد في الحلال، فإنما يكون في منزلة الإبدال، فيكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة لا يتناولون منه إلا قدر لابد منه. والحرام عندهم بمنزلة النار لا يخطر ببالهم قصد تناولها بحال، وهذا معنى البرودة على القلب بأن تنقطع همته عنها، ويستنكرها جدا فلا يبقى لها في قلبه إرادة ولا اختيار. فإن قلت: فكيف يمكن أن تصير الدنيا في شهواتها ولذاتها العجيبة المطلوبة عند الإنسان بمنزلة النار، وبمنزلة الجيفة المستحيلة؟ فاعلم أن من وفق التوفيق الخاص وعلم آفاتها وقدرها في أصلها، فتهيئ عنده ذلك، وإنما يتعجب من هذا الراغبون العميان عن عيب الدنيا وآفاتها المغترون بظاهرها وزينتها.

---

(١) انظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

المبحث الثاني

عائق الخلق

عليك أيَّها العابد لطاعة الله تعالى بالتفرد عن الخلق، وذلك لأمرين؛

أحدهما: إنهم يشغلونك عن عبادة الله عز وجل على ما حكي بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون، وواحد جالس بعيدا عنهم فأردت أن أكلمه، فقال: ذكر الله تعالى اشهى إليَّ، فقلت: أنت وحدك، فقال: معي ربي وملكاي، فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله سبحانه له، فقلت أين الطريق؟ فأشار بيده إلى السماء وقال: أكثر خلقك عندك غافل وقام فتركني. وعنه أيضا فالخلق إذا يشغلونك عن عبادة الله عز وجل بل يمنعونك عنها، واعلم أيها الأخ في الدين أن نبيك محمد (ﷺ) وصف زمان العزلة وبين نعته ونعت أهله وأمر فيه بالتفرد، وكان لا محالة أعلم بالمصالح والأصلح لأنفسنا.

الآخر: إن الناس يفسدون عليك ما يحصل لك من عبادة، إن لم يعصمك الله تعالى، بسبب ما يعترض من قِبلهم من دواعي الريِّاء والتزين.

فاعلم أن الزمان قد أصبح في فساد عظيم، وأصبح الناس في ضُر كبير، فإنهم يَشْغُلونك عن عبادته عز وجل حتى لا يحصل لك منها شيء، ثم يفسدون عليك، فلزمتك العزلة، والتفرد عن النّاس والاستعاذة بالله من شر الزمان وأهله، والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته. فإن قيل: فما حكم العزلة والتفرد عن الناس، فبين لنا حال طبقات الخلق فيها؟

فاعلم أن الناس رجلان: رجل لا حاجة بالخلق إليه في علم وبيان حكم، فالأولى بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم إلا في جمعة أو في جماعة أو عيدٍ أو حجٍ أو مجلس علم بالسنة، أو حاجة إلى معيشة لا بد له من ذلك، وإلا فيواري شخصه ويلزم كنه لا يَعرف ولا يُعرف. فأما أن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس، فلا يخالطهم في أمر من الأمور البتة من دين ودنيا، وجماعة وجمعة وغيرها، لما يري له في ذلك من مصلحته وفراغه، فإنه لا يستقيم له ذلك إلا بأحد أمرين: إمَّا أن يصير إلى موضع لا تلزمه هناك هذه الفروض كرؤوس الجبال وبطون الأودية، وإما أن يتقين بالحقيقة إن الضرر الذي يلحقه في مخالطتهم بسبب هذه الفروض أعظم من تركها، فحينئذ يكون له عذر في ذلك.

فإن قيل: أليس النبي (ﷺ) يقول: "**عليكم بالجماعات فإن يد الله مع الجماعة، وأن الشيطان ذئب الإنسان يأخذ الشاذة والناصية والقاصية ، وأن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد**"[(١)].

فاعلم أن ورد أيضاً "**إلزم بيتك وابق مكانك وعليك، بالخاصة، ودع عنك أمر العامة، وأمر بالعزلة والتفرد في زمان السوء ولا تناقض**" في قوله ﷺ ولا بد بالجمع بين الحديثين بحول الله وقوته.

فاقول: قول الرسول الكريم "عليكم بالجماعة" يحتمل ثلاثة أوجه؟

(١) إنه يعني في الدين والحكم، أولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، وأما إذا يعتزل عنهم لصلاح في دينه، فليس هذا من ذلك في شيء.

---

(١) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

(٢) "عليكم بالجماعة" أي لا تنقطعوا عنهم في جمعهم وجماعتهم ونحوها، فإن فيها قوة الدين، وجمال الإسلام، وغيظ الكفار والملحـــدين، ولا يخلو ذلك من بركات ونظر من الله تعالى بالرحمة. وكذلك نقول، إن حق المنفرد أن يشارك الناس في الجموع والعامة في الخير، وأن يجانبهم في الصحبة والمزاحمة في سائر الأمور لما فيها من ضروب الآفات.

(٣) إن ذلك في غير أزمان الفتنة للرجل الضعيف في أمر الدين والرَّجُل البصير القوي في أمر الله، إذا رأي زمان الفتنة الذي حذر النبي (ﷺ) منها.

المبحث الثالث

عائق الشيطان

عليك أخي وفقك الله وإيَّانا لطاعته: الابتعاد، ومجابهة الشيطان الذي يحاربك في عبادتك لله وحده، وألا تُشرك به شيئاً، ويعاديك عند عبادتك لله حق عبادته. وعندما تتجرد لمناقضة الشيطان، ومغايظته وتجتهد في عبادتك، فإن لك عداوة خاصة من الشيطان، ويكون عليك ومعه أعوان أشدها عليك نفسك، وهواك، وله أسباب ومداخل، وأبواب أنت غافل عنها.

فإن قلت: فبأي شيء أُحَارب الشَّيطان، وبأي شيء أقهره وأدفعه؟ فاعلم أن لأهل هذه الصناعة في هذه المسألة طريقين:

الأول : ما قال بعضهم: إن التدبير في دفع الشيطان الاستعياذ بالله سبحانه لا غير، فإن الشيطان طلب سلطة الله عليك؛ لمحاربتك فإن اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت وضاع عليك وقتك، فربما يظفر بك فيعقرك ويخرجك، فالرجوع إلى رب الكلب ليحرقه عنك أولا.

الثاني: ما قاله آخرون: الطريق مجاهدة، والقيام عليه بالرد والدفع والمخالفة.

والذي عندي أن الطريق العدل الجامع في أمره أن يجمع بين الطريقين، فيستعيذ بالله تعالى أولا من شره كما أمرنا، وهو الكافي شره، ثم إن رأيناه، ينقلب علينا علمنا أنه ابتلاء من الله، ليري صدق مجاهدتنا وقوتنا في أمره تعالى وصبرنا، كما يسلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرهم وشرهم، ليكون لنا حظ من الجهاد والصَّبر والشهادة.

فإن قلت: كيف تعلم مكائد الشيطان وكيف الطريق إلـــى معرفـــة ذلك: فاعلم أنه له وجهين:

أحدهما: إن له وسواســاً بمنزلة الســهام، ويرميك بها، وذلــك إنما يَتَبيَّن بمعرفة الخواطر وأقسامها.

الثاني: له حيل بمنزلة الشباك التي ينصــبها الــصياد، وذلـــك يتبــين بمعرفة المكائد، أو صناعها ومجاريها. ولقد ذكر علماؤنا رضي الله عنهم أبوابا في الخواطر.

فاعلم : أصل الخواطر: إن الله تعالى وضع بقلب ابن آدم ملكــاً يدعوا إلي الخير يقال له **المُلهِم ولدعوته** الإلهام، وســلط فــي مقابلتــه شيطانا يدعو العبد إلى الشر يقال له **الوسواس** ولدعوته وسوسة.

فالملهم لا يدعو إلا للخير، أما الوسواس فلا يدعوا إلا للشر.

أما **الخواطر:** فهى آثار تحدث فى قلب العبد تبعثه على الأفعال، وتدعوه إليها وسُميت بالخواطر لاضطرابها في خطرات العَبْدِ وحــدوثها جميعاً في قلبه بالحقيقة من الله. لكنها أربعة أقسام:

* قسم منها ما يحدثه الله عز وجل في القلب ابتــداء، فيقــال لـــه الخاطر فقط.

* وقسم يحدثه موافقا لطبع الإنسان، فيقال له هوى النفس.

* وقسم يحدثه عقب دعوة الملهم، فينسب إليه فيقال له الإلهام.

* وقسم يحدثه عقب دعوة الشيطان، فينسب إليــه، فيقــال لـــه الوسوسة.

فهذه أربعة أقسام من الخواطر، ثم اعلم بعــد هــذا التقــسيم أن الخاطر الذي من قِبل الله يكون بخير إكراماً، والزاماً للحجة، وقد يكــون

بشر امتحانا وتغليظا للمحنة. والخاطر الذي يكون من قِبل الملهم لا يكون إلا بخير، إذ هو ناصح مرشد لم يرسل إلا لذلك. والخاطر الذي يكون من قِبل الشيطان لا يكون إلا بشرٍ إغواءً واستزلالاً، وربما يكــون بــالخير مكرا واستدراجاً. والذي يكون من قِبَل النفس يكون بالشر وربما لا خير فيه.

وبعد هذه الخواطر لا بد من معرفة ثلاثة فصول لا بد من التنبيه عليها فيها المقصود:

الفصل الأول: قال علماؤنا: إذا أردت أن تعرف خاطر الخير من خاطر الشر وتفرق بينهما، فزنه بأحد هذه الموازين الثلاثة يتبن لك حاله:

الميزان الأول: أن تعرض الأمر الذي خطر ببالك على الــشرع فإن وافقه فهو خير، وإن كان بالضد برخصة أو بشبهة فهو شر، فإن لم يتبين بهذا الميزان،

فالميزان الثاني: اعرضه على الاقتداء، فإن كان في فعله اقتداء بالصالحين، فهو خير، وإن كان بالضد في الاقتداء بالصالحين فهو شر، فإن لم يتبين بهذا الميزان،

فالميزان الثالث: وهو عرضه على الاقتداء على النفس والهوى، وانظر إذا كان ما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية وترهيب، فهو خير وإن كانت تميل إليه رجاء إلى الله وترغيب فهو شر.

الفصل الثاني: إذا أردت أن تفرق بين الخير والــشر، أو بــين خاطر شر قد يكون من قِبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من قِبل هوى النفس، أو من الله تعالى ابتداء، فانظر فيه إلى ثلاثة أوجه:

الأول: إن وجدته مصمما راتبا على حالة واحدة، فهو من الله عز وجل، أو من هوى النفس، وإن وجدته متردداً مضطرباً، فاعلم أنه من الشيطان. وكان بعض العارفين، يقول: هوى النفس مثل النمر، إذا حارب لا ينصرف إلا بقمع بالغ، وقهر ظاهر.

الثاني: إن وجدته عقيب ذنب أحدثته، فمن الله تعالى عقوبة لشؤم ذلك الذنب، وإن كان هذا الخاطر مبتدءاً لا يعقب ذنب كان منك، فاعلم أنه من قِبل الشيطان في الأكثر؛ لأنه يبتدأ بدعوة الشر، ويطلب بكل حال الإغواء.

الثالث: إن وجدته لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى فهو من الشيطان.

الفصل الثالث: إذا أَرَدْتَ أن تُفَرِّقَ بين خاطر خير قد يكون من الله أو من الملك، فانظر في ذلك من ثلاثة أوجه:

الأول: إن كان قويا مصمما، فهو من الله سبحانه وتعالى، وإن كان متردداً فهو من الملك إذ هو بمنزلة ناصح يدخل معك من كل وجه، ويعرض عليك كل نصح رجاء إجابتك، ورغبتك في الخير.

الثاني: إن كان عقيب اجتهاد منك أو طاعة فهو من الله.

الثالث: إن كان في الأصول والأعمال الظاهرة، فهو من الملك في الأكثر إذ الملك لا سبيل له لمعرفة باطن العبد.

أصل الحيل والمخادعات: إن مكائد الشيطان مع آدم في الطاعات سبعة أوجه:

(١) أن ينهي عنها، فإن عصمه الله تعالى ورده قال: فإني محتاج

إلى ذلك العمل جداً، إذ لا بد من التزويد في الدنيا للآخرة التي لا انقضاء لها.

(٢) الأمر بالتسويف، فإن عصمه الله تعالى ورده قال: ليس أجلي بيدي فأني إن اسوفت عمل اليوم إلى غد فهل الغد ملك لأحد؟

(٣) يأمره بالعجلة، فيقول له عَجِل عَجِل لتفرغ لكذا وكذا، فإن عصمه الله تعالى ورده، قال: قليل العمل مع التمام خَير مَن كثير مع النقصان.

(٤) فيأمره بإتمام العمل مرائيا للناس، فإن عصمه الله تعالى ورده، قال: ما الذي أعمل بمرائيات الناس، أفلا نكتفي برؤية الله تعالى.

(٥) ثم يريد أن يوقعه في العُجب، فيقول ما أعظمك، وأيقظك، فإن عصمه الله تعالى ورده، قال المنة لله تعالى في ذلك دوني، وهو الذي خصني بتوفيقه وجعل للعمل قيمة بفضله، ولولا فضله فما كان هذا العمل من قيمة.

(٦) فيأتيه بقوله: اجتهد أنت في السرّ فإن الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله وأراد بذلك ضربا من الرياء. فإن عصمه الله ورده، قال: يا ملعون أنا عبد الله وهو سيدي وهو يُظهر إن شاء ويخفي إن شاء.

(٧) فيقول لا حاجة لك إلى هذا العمل؛ لأنك إن خُلِقْتَ سعيداً لم يعزك ترك العمل، وإن خُلِقْتَ شقياً لم ينفعك فعلك. فإن عصمه الله تعالى ورده، قال: إنما أنا عبد الله وعلى العَبْدَ امتثال الأمر لعبوديته والرَّبُ أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء ويفعل ما يشاء؛ ولأنه ينفعني العمل كيف ما كنت لأني إن كنت سعيداً احتجت إليه لزيادة الثواب، وإن كنت شقيا، فأنا

محتاج إليه كيلا أُذم على أن الله تعالى لا يعاقبني على الطاعة بكل حال، ولا تضرني على أني أن أدخلت النار وأنا مطيع أحب إلى من أدخل النار وأنا عاص. فكيف ووعد الله حق. وقوله صدق، وقد وعد الله تعالى على الطاعة بالثواب، فمن لقي الله تعالى على الإيمان والطاعة لن يدخل النار البتة ودخل الجنة، لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعده الصادق تعالى ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء إذ قال:

"الحمد لله الذي صدقنا وعده" [1].

---

(١) سورة الزمر ، آية ٧٤ .

المبحث الرابع

عائق النفس

ثم عليك عصمك الله وإيانا بالحذر من هذه النفس الأمَّارة بالسوء فإنها آخر الأعداء، وبلاؤها أصعب البلاء، وعلاجها أعسر الأشياء، وداؤها أعضل الداء، ودواؤها أشكل الدواء، وإنما ذلك لأمرين:

أحدهما: إنها عدو داخل، فإذا استحسن الإنسان من كل قبيح ولا يكاد يطلع على عيب لها اشدت من عداوتها وأضرارها، فما أوشك ما توقعه في فضيحة وهلاك، وهولا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله، ويعينه عليها برحمته.

الآخر: إنها أصل كل قبيحة وفضيحة، وخزي وهلاك وذنب وآفة وقع فيها خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة إمَّا وحدها، أو بمعونة ومساعدة إبليس لعنة الله عليه إلى يوم الدين.

فاعلم إنك لا بد من أن تذلها وتكسر هواها بثلاثة أشياء:

(١) منع الشهوات. (٢) حمل أثقال العبادات. (٣) الاستعاذة بالله.

فالنفس أمارة بالسُّوء إلا ما رحم ربي، فإذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت النفس الجموح بإذن الله.

فبادر إلى أن تملكها، أو تلجمها وتأمن من شَرِّهَا. فإن قلت: فبين لنا ما هي التقوى حتى نعلمها؟

فاعلم أولا أن التقوى كنز عزيز، فلئن ظفرت به نجوت وتخلصت، فكم تجد فيه من جوهر شريف وخير كثير، ورزق كريم، وفوز كبير، وغنم جسيم، وملك عظيم فكان خير الدنيا والآخرة.

وتحت هذه الخِلّة التي هي التقوى جُمعت وحُملت كل نعم الخالق وتأمل في القرآن من ذكرها، كم علق بها من خير، وكم وعَد عليها من ثواب، وكم أضاف إليها من سعادة، وأنا أعد لك من جملتها اثنتا عشرة خصلة:

(١) الثناء كما في قوله **﴿وإنّ تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾** [١].

(٢) الحفظ والحراسة من الأعداء **﴿وإنّ تصبروا، وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾**[٢].

(٣) التأييد والنصر **﴿إن الله مع الذين اتقوا وَالذين هم محسنون﴾**[٣].

(٤) النجاة من الشدائد والرزق من الحلال **﴿ومن يُتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾**[٤].

(٥) إصلاح العمل **﴿يا أيُها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولو قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم﴾**[٥].

(٦)غفران الذنوب **﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾** [٦].

(٧) محبة الله **﴿فإن الله يحب المتقين﴾**[١] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٨٦.

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٢٠.

(٣) سورة النحل ، آية ١٢٨ .

(٤) سورة الطلاق من الآيتين ٢ ، ٣ .

(٥) سورة الأحزاب ، الآيتان ٧٠ ، ٧١ .

(٦) سورة الأحزاب ، آية ٧٠ .

(٨) القبول.﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين**﴾[٢].

(٩) الإكرام والإعزاز.﴿ **إنا أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾[٣].

(١٠)البشارة عند الموت ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾[٤].

(١١) النجاة من النار ﴿**ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾[٥].

(١٢) الخلود في الجنة﴿ **أعدت للمتقين**﴾[٦].

فهذا كل خير وسعادة في الدارين تحت هذه التَّقوى، فلا تنسى نصيبك أيها الرجل منها. ثم الذي يختص بهذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

الأول: التوفيق والتأييد. **الثاني:** إصلاح العمل وإتمام التقصير. **الثالث:** قبول العمل للمتقين.

واعلم أن التقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء:

أحدها: بمعنى الخشية والهيبة ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**﴾[٧].

الثاني: بمعني الطاعة.

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٧٦ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٢٧.

(٣) سورة الحجرات ، آية ١٣ .

(٤) سورة يونس ، الآيتان ٦٣ ، ٦٤ .

(٥) سورة مريم ، آية ٧٢..

(٦) سورة آل عمران ، آية ١٣٣ .

(٧) سورة آل عمران ، آية ١٠٢ .

الثالث: بمعنى تبرئة القلب من الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى دون الأولين ألا تري أن الله تعالى يقول **﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾**[1].

والتقوى ثلاثة منازل، تقوى عند الشرك، وتقوى عند البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية ولقد ذكرها سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله تعالى: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقو وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾**[2].

وحد التقوى الجامع تبرئة القلب عن شر ألم بك، ليسبق عنك مثله بقوة العزم عن تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر، ثم الشرور ضربان:

* شر أصلي: وهو ما ينهى الله عنه كالمعاصي المحضة.

* شر غير أصلي: وهو ما ينهي الله عنه تأديبيا، وهو حصول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوات، فالأولى: تقوى خوض يلزمك بتركها عذاب النار. والثانية: تقوى خير وأدب يلزمك بتركها الحبس والحساب واللوم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الثانية، والأدنى من التقوى، وهو منزلة مستقيمي الطاعات. ومن أتى بالثانية، فهو من الدرجة العليا من التقوى وذلك منزلة مستقيمي ترك المباح. وإذا جمع بينهما باجتناب المعاصي، فقد استكمل معنى التقوى.

---

(١) سورة النور ، آية ٥٢ .

(٢) سورة المائدة ، آية ٩٣ .

ونقول إنه من أراد أن يتقي الله، فيراعي الأعضاء الخمسة، فإنهم الأصول وهي العين، والأذن، واللسان، والقلب، والبطن.

الفصل الأول: العين:

عليك وفقك الله، وإيَّانا بحفظ العين، فإنها سبب كل فتنة وآفة، واذكر في أمرها ثلاثة أصول:

أحدها: ما قال الله تعالى **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون﴾**[1] فإذا تأملت هذه الآية فإذا فيها مع قصرها ثلاث معاني عزيزة: تأديب، وتنبيه، وتهديد.

الثاني: ما روينا عن رسول الله ﷺ: "**إن النِّظر إلى محاسن المرأة سَهْم من سِهَامِ إبليس فمن تركها أذاقه الله طعم عبادة تسره**"[2] وإن وجد إن حلاوة العبادة ولذة المناجاة من العابدين بمكان. وهذا شيء مجرب عمله، وتحققه من عمل به إذا امتنع عن النظر إلى ما لا يعنيه يجد لذة العبادة، وحلاوتها، وللقلب صفوة لم يجدها من قبل.

الثالث: أن تنظر إلى كل عضو من أعضائك، لماذا يصلح، ماذا عليّ فعله وحسب ذلك تصونه.

فهذه الأصول الثلاثة إذا أحسنت التأمل فيها، كفتك المؤنة وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: الأذن:

فعليك بصيانة سمعك عن الفضول، وذلك لأمرين؛

أحدهما: إن المستمع شريك المتكلم.

---

(١) سورة النور، آية ٣٠.

(٢) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى.

الآخر: إن ذلك يهيج الخواطر والوسواس في القلب، ثم من ذلك تبدو الأشغال في البدن، فالكلام الذي يقع في قلب الإنسان وسمعه بمنزلة الطعام الذي يقع في جوفه، فمنه الضار، ومنه النافع، ومنه الغذاء ومنه السم، بل إن بقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ، فالطعام يزول بزواله عن المعدة، وأما الكلام الذي وقع في قلب الإنسان، ربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه، فإن كان شيء رديئاً فلا يزال يتبعه ، وترد بسببه خواطر في القلب ووسواس، ويحتاج إلى أن يعرض عنها ويعدل بقلبه عن تذكرها ويستعين بالله من شرها.

الفصل الثالث: اللسان:

ثم عليك بحفظ لسانك، وضبطه وقيده، فإنه أشد الأعضاء جماحاً، وطغياناً وأكثرها فساداً وعدواناً، فعن قيس بن عبيد قال: "إني وجدت نفسي تحتمل الصوم في الحر الشديد بالبصرة، ولا تحتمل ترك كلمة لا تعنيها" فعليك إذن بالتحفظ جدا أو بذل المجهود، وتذكر خمسة أصول:

الأول: إن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان.

الثاني: حفظ وقتك، فإن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر لله تعالى يكون فيه ضياع الوقت.

الثالث: حفظ الأعمال الصالحة، فإن لم يعف لسانه، وأكثر الكلام يقع لا محالة في غيبة الناس.

الرابع: السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان الثوري: لا

تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك. وقال الآخر: لا تبسط لسانك فيفسد عليك شأنك.

الخامس: ذكر آفات الآخرة وعاقبتها، فهو لا يخل إما أن يقول قولا محظورا حراما، أو قولا مباحا من فضول لا يعنيك.

الفصل الرابع: القلب:

ثم عليك بحفظ القلب وإصلاحه وحسن النظر في ذلك وبذل المجهود، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطراً وأكثرها أثراً وأشدها أمراً وأشقها إصلاحاً، وأذكر في ذلك خمسة أصول مقنعة:

الأول: قوله تعالى **﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾**[1] فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيرا أو تهديدا للخواص من العباد؛ لأن المعاملة مع علام الغيوب خطيرة، فانظر ماذا تعلم من قلبك.

الثاني: قول الرسول (ﷺ) **﴿إن الله تعالى لا ينظر إلى صُورِكم وأجسامكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم﴾**[2].

فالقلب إذن موضع نظر رب العالمين، فيا من يهتم بوجهه الذي هو منظر الخلق، فيغسله، وينظفه من الأقذار والأدناس، ويزينه بما أمكنه لئلا يطلع عليه مخلوق على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو مع نظر رب العالمين، فيطهره ويزينه كيلا يطلع رب العالمين على دنس وشين، وآفة وعيب بل يهمله بفضائح الأقذار وقبائح لو اطلع الخلق على واحدٍ منها

---

(١) سورة فاطر ، آية ١٩ .

(٢) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

لهجروه.

الثالث: إن القلب ملك مطاع والأعضاء كلها له تبع، فإذا صلح المتبوع صلح المتبع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية. ويقول الرسول (ﷺ)، **﴿إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب﴾**[1].

الرابع: إن القلب خزانة كل جوهر لعقد نفيس وكل معنى خطير أولها العقل وأجلها معرفة الله عز وجل وهي سبب سعادة الدَّارين.

الخامس: إن أحوال القلب خمسة ليست لغيره.

أحدها: إن العدو قاصد إليه مقبل عليه ملازم له، فإن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فهو منزلة الإبهام والوسوسة يقرعانه أبداً بالدعوتين الملك والشيطان.

الثاني: إن الشغل له أكبر، فإن العقل والهوى كِلاهما فيه، فهو معترك العسكرين الهوى وجنوده، والعقل وجنوده، يحاربهما ويلقاهما ويناقضهما.

الثالث: العوارض له أكثر، فإن الخواطر كالسِّهام، ولا تزال تقع فيه كالمطر ينزل ليلا ونهارا، لا ينقطع، ولا أنت تقدر على منعها، فتمتنع. وليس بمنزلة العين التي بين جفنين تغمض، وتستريح أو تكون في موضع خالي، أو ليل مظلم متكفي رؤيتها، أو اللسان الذي هو وراء الشفتين، وأنت القادر على منعه وتسكينه، بل القلب عرض للخواطر، لا يقدر على منعها والتحفظ عنها بحال ولا هي تنقطع منك بوقت.

---

(١) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

الرابع: إن علاجه عليك عسير، إذ لا تكاد تشعر حتى يدب فيه آفة وتحدث له حالة فتحتاج إلى أن تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة.

الخامس: إن الآفات إليه أسرع، فهو للانقلاب أقرب من القِدر في غليانها.

أما عن الأصول التي لا بد من ذكرها في علاج القلب، والحاجة إليها ماسة، وما غنية عنها البتة في شأن العبادة، فوجدت في أربعة أمور، وهي مداحض العابدين وآفات المجتهدين، وفتن القلب وبليات النفوس. وأربعة في مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة والصلاح للقلوب؛

فالآفات الأربعة: الأمل، والحسد، والاستعجال، والكِبر.

(١) **الأمل**: هو العائق عن كل خير وطاعة، والجالب لكل شر وفتنة وإنه الدَّاء العضال الذي يوقع في أنواع الفتن، واعلم أنك إذا طال أَمَلُك هاج لك منه أربعة:

أ- ترك الطاعة والكسل فيها، فتقول سوف أفعل والأيام بين يدي، ولا يفوتني ذلك.

ب- ترك التوبة وتسويفها، فتقول سوف أتوب وفي الأيام سعة وأنا شاب وسني قليل والتوبة بين يدي.

جـ- الحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، فتقول أخاف الفقر في الكبر وربما أضعف عن الاكتساب، ولا بد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هِرَم.

د- القسوة في القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا أملت العيش

الطويل لا تذق الموت والقبر.

(٢) **الحسد:** وهو المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات، وإنـــه الداء الكبير الذي يبتلي به الكثير من القُراء، والعلماء فضلا عن العامـــة والجهال حتى أهلكهم وأوردهم النار. وأعلم أن الحسد يهيج خمسة أشياء:

أ- إفساد الطاعة. ب- فعل المعاصي والشرور.

ج- التعب والهم من غير فائدة. د- عمي القلب حتى لا يكـــاد يفهـــم أحكام الله.

هـــ- الحرمان والخذلان فلا تكاد تظفر بمراد وتنتصر على عدو.

فالحسد، هو إرادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما لـــه فيه صلاح فإن لم ترد زوالها عنه وكنت تريد لنفسك مثلها فهو غبطة.

(٣)**الاستعجال:** وهو الخصلة للمقاصد الموقعة في المعاصي، وإن فيها تبدو آفات وهي:

أ- أن يقصد العابد منزلة في الخير والاستقامة، ويجتهد، فربمـــا يستعجل في نيلها وليس ذلك بوقتها، فأما أن يفتر وييئس ويترك الاجتهاد، فيحرم تلك المنزلة، وإما أن يغلو في الجهد، وإتعاب النفس، فينقطع عن تلك المنزلة فهو بين إفراط وتفريط، وكلاهما نتيجة الاستعجال.

ب- أن تكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى، ويكثر الدُعاء، فربما يستعجل الإجابة قبل وقتها فلا يجدها، فيفتر ويسأم فيترك العبادة.

فالاستعجال هو المعين الراتب في القلب الباحث عن الإقدام على الأمر بأول خاطر دون التوفيق فيه فهو من الندامة والملامة.

(٤) **الكبر:** وهو خاطر في رفع الـــنفس واســـتعظامها، والتكبـــر اتباعه. والتَّواضع خاطر في النفس يحتقرها والتواضع اتباعـــه. ولكـــل

واحد منها خاصي وعامي، فالتواضع العامي هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمأكل والمركب، والتكبر في مقابله الترفع عن ذلك. والتواضع الخاصي هو تذليل النفس على قول الحق، في مقابلة الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة، وخطيئة عظيمة. والتواضع العامي أن تذكر مبدأك ومنتهاك وأنت عليه في الحال من ضروب الآفات الأقدار.

فعليك في طريقك للعبادة مضادة تلك الآفات، وأن تمحو طول الأمل بقصر الأمل، والحسد بالشكر لله علي نعمه عليك، والاستعجال بالتأني والثقة في قدرة الله تعالى، والكبر بالتواضع.

الفصل الخامس: البطن:

عليك حفظك الله بحفظ البطن، وإصلاحه فإنه أشق الأعضاء إصلاحا على المجتهد، وأكثرها شغلا وأعظمها أثراً وضرراً، كأنه المنبع والمعدن، ومنه تهيج الأمور في الأعضاء من قوة وضعف ونحوه، فعليك إذن بصيانته عن الحرام والشبهة أولاً، ثم عن فضول الحلال ثانيا إن كانت لك همة في عبادة الله تعالى، فأما الحرام والشبهة فإنما يلزمك البحث عنه لثلاثة أمور:

أولها: جزاء من نار جهنم. قال الله تعالى **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾**[1].

الثاني: إذا أكل الحرام والشبهة، لا يوقف للعبادة، إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى إلا كل طاهر مطهر.

---

(١) سورة النساء ، آية ١٠ .

الثالث: إن آكل الحرام والشبهة محروم، وإن أنفق له فعل الخير، فهو مردود عليه غير مقبول منه، فإذن لا يكون له من ذلك إلا العناء والكد وشغل الوقت.

أما الفضول في الحلال فإنه آفة العبادة، وبلية أهل الاجتهاد، وإني تأملت فوجدت فيه عشرة آفات هي أصول في هذا الشأن:

(١) في كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره.

(٢) فى كثرة الأكل فتنة الأعضاء وهيجانها وانبعاثها للفضول والفساد.

(٣) في كثرة الأكل قلة الفهم والعلم، فإن البطنة تذهب بالفطنة.

(٤) إن في كثرة الأكل قلة العبادة، فإن الإنسان إذا أكثر الأكل ثقل بدنه وغلبته عيناه، وفترت أعضاؤه، فلا يجئ منه شيء، وإذا اجتهد إلى العبادة فلا حلاوة فيها إلا النوم.

(٥) إن في كثرة الأكلَ فَقد حلاوة العبادة.

(٦) إن فيه خطر الوقوع في الشبهة والحرام؛ لأن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزافا.

(٧) إن فيه لشغل للقلب، والبدن بتحصيله أولاً وبتهيئته ثانياً، ثم بإبطاله ثالثاً، ثم بإفراغه والتخلص عنه رابعاً، ثم بالسلامة منه خامساً، بان يبدو منه آفة في البدن، بل آفات وعلل.

(٨) من أمور الآخرة شدة سكرات الموت، فلقد روي في الأخبار إن شِدَّة سكرات الموت على قدر لَذَّة الحَيَاة، فمن أكثر من هذه، أُكثر له في تلك.

(٩) نُقْصَان الثَّواب في العقبى، فإنه بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا

ينقص لك من لذات الآخرة.

(١٠) الحبس والحساب واللوم والتعبير في ترك الذنب في أخذ الفضول, وطلب الشهوات فإن الدنيا حلالها حساب, وحرامها عقاب, وزينتها إلى تباب, فهذه جملة العشرة وفي أحدها كفاية لمن نظر لنفسه, فعليك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوت كيلا تقع في حرام وشبهة, فيلزمك العذاب ثم بالاختصار من الحلال على ما يكون عدّه على عبادة الله سبحانه, فلا تقع في شر فتبقى في الحبس والحساب.

أما الفضول الذي يلزم منه الحساب والجبس وما المقدار الذي يلزم إذا أخذه العبد يكون أدبا, ولا يكون فضولا, ولا عليه فيه حبس ولا حساب يقال له أحوال المباح وهو في الجملة ثلاثة أقسام:

القسم الأول : أن يأخذه العبد مفاخرا, مكاثرا, مباهيا, مرائيا, فيكون الأخذ منه فعلا منكرا, يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير, وهو منكر وشر ويستوجب على باطن فعله, وهو التكاثر والتفاخر، عذاب النار.

القسم الثاني: أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك منه شر يستوجب عليه الحبس والحساب, لقوله تعالى **﴿ثم لتُسئلن يومئذ عن النعيم﴾**[1].

القسم الثالث : أن يأخذ من الحلال في حال العذر قدرا يستعين به على عبادة الله, ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنة وأدب لا حساب عليه ولا عذاب، بل يستوجب عليه الأجر والمنحة.

---

(١) سورة التكاثر ، آية ٨ .

فإن قيل: فما شرطه المباح حتى يصير خيرا وحسنة كما ذكرتم؟

فاعلم أنه يحتاج كونه خيرا في الأصل إلى شرطين؛ أحدهما : الحلال, والثاني : القصد في الحلال يجب أن يكون في حال عذر, وهو بحيث أن لم يأخذ ذلك المباح فينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل، يكون ذلك أفضل من ترك المباح، فإن ترك مباح الدنيا فضيلة, فإذا كان الحال كذلك, فهو حال العذر.

أما القصد , فهو أن تقصد به العدة والاستعانة على عبادة الله تعالى, وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا ما فيه من التوصل إلى عبادة الله تعالى لما أخذت ذلك. فهذا ذكر الحجة في الحال العذر، ويصير ذلك الأخذ من الدنيا الحلال خيرا أو حسنة وأدبا. وأما لو كان حاله حال العذر ولا يكون هذا القصد والذكر أو يكون له هذا الذكر ولا يكون في حال العذر، فلا يعد ذلك الأخذ من جملة الخيرات. ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب, يحتاج إلى بصيرة وقصد يحمل بأنه لا يأخذ الدنيا بحال إلا للعدة على العبادة حتى أنه إن سهي عن ذكر الحجة في حال أجزاه ذلك القصد عن تجريد ذكر الحجة, فافهم ذلك راشدا.

فإن قيل: أخذ الدنيا الحلال ، هل يكون ذلك معصية, وهل يلزم عليه عذاب؟ وهل الأخذ بالعذر فرض أم؟ فاعلم أن ذلك فضيلة ونسميه خيرا, وحسنة, والأمر به أمر تأديب والأخذ بالشهوة شر وسيئة, والنهي عنه نهي وزجر, وليس ذلك بمعصية, ولا يكون عليه عذاب, وإنما عليه الحبس والحساب واللوم والتعيير. فأن قلت: فما هذا الحبس والحساب الذي يلزم العبد, فأعلم أن الحساب أن تُسْألَ يوم القيامة عن اكتسبت اكتسبت, وفيما أنفقت, وماذا أردت بذلك, والحبس حبس عن الجنة مده

الحساب بذلك في عرضات القيامة بين أهوالها ومخاوفها عريانا عطشانا وكفى بذلك بلية.

فهذه هي الأعضاء الأربعة التي هي الأصول, الأول : **العين,** وحَسْبُك فيها أن مدادا من الدين والدنيا على القلب, وإن خطر القلب وشغله وفساده في الأكثر من العين. والثاني : **اللسان** وحسبك فيه ربحك و غنيمتك وثمرة تعبك, واجتهادك كله العبادة والطاعة, فإن خطر العبادة واحتياطها وفسادها في الأكثر من قِبل اللسان, والتصنع والتزين والغيبة ونحوها يتلف عليك بلحظة واحدة ما تعبت فيه سنة بل خمسة عشر, ولذلك قيل: ما شيء أحط بطول السجن من اللسان. والثالث: **البطن** وحسبك أن مقصودك العبادة وإن الطعام والشراب بذر العمل, وداؤه منه يبدو وينبت, وإذا جفت البذر لا يطيب الزرع، بل فيه خطران يفسدان عليك أرضك فلا تصلح أبدا.

ومن ذلك ما بلغني عن معروف الكرخي[١] أنه قال: "إذا صمت فانظر على أي شيء تفطر، وعند من تفطر، وطعام من تأكل, فكم من يأكل أكله فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حاله أبدا, وكم من آكل حُرمت عليه قيام ليله، وكم ومن نظرة منعت قراءة سورة, وإن العبد ليأكل الآكلة، فيحرم بها قيام سنة".

فعليك أيها الرجل بالنظر الدقيق, والاحتياط البالغ الشديد في قوتك, ثم عليك بالأدب فيه وإلا كنت حمالا للطعام, مطيعا للأيام إذ قد علمنا يقينا بل رأينا عيانا أن العبادة لا يجئ منها بشيء إذا امتلأ البطن,

---

(١) أنظر ترجمة معروف الكرخى فى النص المحقق فيما سيأتى .

وإن أُكرهت النفس على ذلك وجاهدت بضروب الحيل, فلا يكون لتلك العبادة لذة, ولا حلاوة، ولذلك قيل: لا تطمع بحلاوة في العبادة مع كثرة الأكل.

وأما **القلب**, فحسبك أنه الأصل, إن أفسدته فسد الكل, وإن أصلحته صلح الكل, إذ هو الشجرة وسائر الأعضاء فروع, فإذا صلح الملك صلحت الرعية, وإذا فسد فسدت.

فإذن صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليلا على صلاح القلب وعمرانه, وإذا رأيت فيهم خَلَلا وفسادا, فاعلم أن ذلك من خَلَل في القلب وفساد وقع، بل الفساد فيه أكثر, فاصرف عنايتك إليه, فإذا أصلحته يصلح الكل.

ثم عليك بالاهتمام بالخصال الأربع التي ذكرناها من الأجل، والعجلة, الحسد, والكبر، وإنما خصصنا هذه الأربع من بين سائر الخصال, إذ هي تفتر سائر الناس عموما والغرار خصوصا, فتكون أقبح وأشنع ترى الرجل القارئ بطول الأمل وبعده فيه خير فيوقعه في الكسل والتواني في العمل, وتراه يستعجل في تحصيل منازل الخير, فينقطع عنها أو في إجابة دعاء صالح, فيحرم ذلك أو في الدعاء على أحد بسوء, فيندم على ذلك وتراه يحسد نظراءه على ما أتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ ذلك منه مبلغا يحمله على قبائح وفضائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر، أما الكبر فهو آفة إذا وقعت فيه، لوقعت في الكفر والطغيان، فعليك بالتواضع والزهد وذكر نعمة الله عليك دائما.

الفصل الرابع
عقبة العوارض

عليك يا طالب العبادة وفقك الله بكفاية العوارض الشاغلة عن العبادة لله تعالى, وسد سبيلها عليك لئلا تشغلك عن مقصودك, وهي أربعة عوارض الرزق, والأخطاء, والشدائد, والقضاء.

المبحث الأول : الرزق

إن الرزق ومطالبة النفس به لمن عوائق العباد، وإنما كفايته بالتوكل على الله سبحانه وتعالى في موضع الرزق والحاجة بكل حال، وذلك للتفرغ للعبادة, ويتمشى لك من الخير حق. فإن لم تكن متوكلا، فلابد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة, إما ظاهرا وإما باطنا, إما بطلب وكسب بالبدن كعامة الراغبين, وإما بذكر وإرادة وسوسة بالقلب كالمجتهدين المعانين.

والعبادة تحتاج إلى فراغ القلب والبدن, ليحصل حقها والفراغة لا تكون إلا للمتوكلين.

أما المعلق الضعيف أبدا يكون بين تودد وقصور, كالحمار في معلفه. وعن سليمان الخواص[1]: لو أن رجلا توكل على الله بصدق النية, لاحتاج إليه الأمر, وكيف يحتاج هو ومولاه الغني الحميد. وعن إبراهيم

---

(١) انظر ترجمة سليمان الخواص فى النص المحقق فيما سيأتى .

الخواص[1] قال : لقيت غلاما في البرية, كأنه سبيكة فضة قلت: إلى أين يا غلام, فقال: إلى مكة, فقلت بلا زاد ولا راحلة, فقال: يا ضعيف اليقين، الذي يقدر على حفظ السماوات والأرض يقدر أن يوصلني إلى مكة بلا زاد ولا راحلة. فلما دخلت مكة, فإذا هو يطوف، فلما رآني قال لي: يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعيف من اليقين.

فإذا قلت: أخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمه وما يلزم العبد منه في أمر الرزق؟ فاعلم إنما يتبين لك بأربعة فصول: بيان نقطة التوكل وموضعه وحده وحصنه. وأما النقطة, فإنما هي توكل من التغفل من الوكالة, فالتوكل على أحد هو أن يتخذ بمنزلة الوكيل القائم بأمره الضامن لإصلاحه الكافي له من غير تكلف واهتمام، فهذه جملته. وأما الموضع، فاعلم أن التوكل اسم مطلق في ثلاثة مواضع أحدها : في موضع القسمة, وهي الثقة بالله تعالى بأنه لا يفوتك ما قسم لك وإن حكمه لا يتبدل وهذا واجب بالسمع.

الثاني : في موضع النصرة، وهو الاعتماد والوثاقة بنصرة الله عز وجل.

الثالث : في موضع الرزق والحاجة, بأن الله تعالى متكفل بما يقيم به بنيتك لخدمته فتتمكن من عبادته وقوله تعالى **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه..﴾** [2].

وأعلم أن الرزق أربع أقسام:

---

(١) أنظر ترجمة إبراهيم الخواص فى النص المحقق فيما سيأتى .

(٢) سورة الطلاق ، آية ٣ .

١- الرزق المضمون : وهو الغذاء, وما به قوام البنية دون سائر الأسباب فالضمان من الله تعالى, لهذا النوع . والتوكل, يجب بدليل العقل والشرع لأن الله تعالى كلفنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن ما يسد خلل البنية لنقوم بما كلفنا.

٢- الرزق المقسوم : وهو قسمه الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ, ما يأكله ويمشي به ويلبسه كل واحد بمقدار مقدم, ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر كما كتب بعينه.

٣- الرزق المملوك : فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له أن يملكه, وهو من رزق الله تعالى.

٤- الرزق الموعود : فهو ما وعد الله المتقين من عبادة بشرط التقوى، حلالا من غير كد.

المبحث الثاني :- الأخطار

واعلم أن كفايتها في التفويض, فعليك بتفويض الأمر كله إلى الله سبحانه وتعالى وذلك لأمرين :

أحدهما : لطمأنينة القلب في الحال, فإن الأمور إذا كانت خطرة مبهمة لا تدري صلاحها من فسادها, فتكون قائم النفس, لا تدري أتقع في صلاح أم فساد, فإذا فوضت الأمر كله إلى الله تعالى, علمت أنك لا تقع إلا في صلاح وخير, فتكون آمنا من خطر، فيطمئن القلب في الحال والمال. والطمأنينة والأمن والراحة في الوقت عظيمة.

الثاني : حصول الصلاح والخير في الاستقبال, وذلك لأن الأمور

بالعواقب مبهمة، فكم من شر في صورة خير, وكم من خير في حلية نفع.

فإن قلت: بيّن لنا معنى التفويض, وحكمه, فاعلم أن ها هنا موضعين بهما يتضح الكلام:

الأول موضع التفويض : اعلم أن المرادات ثلاثة, مراد يعلم يقينا أنه فساد وشر لا شك فيه البتة كالنار والعذاب مع الفعال كالكفر والبدعة والمعصية.

ومراد تعلم قطعا أنه صلاح كالجنة والإيمان والسنة، ونحو ذلك بالحكم، ولا موضع للتفويض فيه, إذ لا خطر فيه, ولا شك أنه خير وصلاح. ومراد لا تعلم يقينا أن لك فيه صلاح أو فساد, وذلك نحو النوافل والمناجاة, فهذا موضع التفويض, فليس لك أن تريده قطعا بالاستثناء وشرط الخير والصلاح . فإن قيدت الإرادة بالاستثناء, فهو تفويض وإذا أردت دون الاستثناء, فهو طمع مذموم منهي عنه. فموضع التفويض إذن كل مراد فيه الخطر، وهو إذن لا تستيقن صلاحك فيه.

الثاني معنى التفويض، وهو: ترك اختيار ما فيه مخاطرة إلى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق فالتفويض إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر.

وضد التفويض الطمع والطمع يجري على وجهين:

أحدهما: في معنى الرجاء, يزيد شيء لا خطر فيه أو مخاطرة بالاستثناء وذلك ممدوح غير مذموم.

الآخر : طمع مذموم, قال النبي ﷺ **﴿إياكم والطمع فإنه فقر**

حاضر وهلاك الدين وفساده الطمع، وملاكه الورع..﴾ [1].

أما حسن التفويض فهو ذكر خطر الأمور وإمكان الهلاك, والفساد فيها, وحصن حصنه، ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر, والامتناع عن الوقوع لجهلك وغفلتك وضعفك, والمواظبة على هذين الذكرين تحملك على تفويض الأمور كلها إلى الله عز وجل, والتحفظ عن الحكم فيها, والامتناع عن إرادتها لشرط الخير والصلاح.

أما الخطر الذي توجبون التفويض لأجله في الأمور، فاعلم أن الخطر في الجملة خطران، خطر الشك بأنه يكون ولا يكون وإنك تصل إليه أو لا تصل إليه، وهذا يحتاج فيه إلى الاستثناء, ويقع فيه باب النية والعمل.

والثاني : خطر الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك, وهذا الذي يحتاج فيه إلى التفويض، ثم اختلفت عبارة الأئمة في الخطر، فيري بعضهم أن الخطر في الفعل هو أن يكون دونه نجاة, ويمكن أن يجامعه ذنب, فالإيمان والسنة والاستقامة لا خطر فيها, إذ لا يمكن دون الإيمان نجاة الاستقامة ولا يجامعها ذنب، فإذن تصح إرادة الإيمان والاستقامة بالحكم.

المبحث الثالث : القضاء

عليك أن ترضى بالقضاء لله عز وجل وذلك لأمرين:

أحدهما : التفرغ للعبادة, لأنك إذ لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بأنه لو كان كذا, ولماذا لا يكون كذا, فإذا اشتغل القلب

---

(١) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

بشيء من هذه الهموم كيف يتفرغ للعبادة, إذ ليس لك إلا قلب واحد وقد ملأته من الهموم, وما كان وما يكون من أمر الدنيا، فأي موضع فيه لذكر العبادة؟

الآخر : خطر ما في السخط من غضب الله جلّ ذكره.

فإن قلت: أليس الشرور والمعاصي بقضاء الله وقدره, فكيف يرضى العبد بالشر ويلزمه. فاعلم أن الرضا, إنما يلزم بالقضاء, وقضاء الشر ليس بشر, وإنما الشر هو المقضي فلا يكون رضا بالشر. وقال شيوخنا رضي الله عنهم المقضيات أربعة: نعمة, وشدة, وخير, وشر. فالنعمة يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي، ويجب عليها الشكر من حيث إنها نعمة. والشدة يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضي, ويجب عليها الصبر من حيث إنها شدة. والخير يجب عليه الرضي بالقاضي والقضاء والمقضي وعليه ذكر المنة من حيث إنه خير وفقه له. والشر يجب عليه فيه الرضى بالقاضي والقضاء والمقضي من حيث إنه يقضي لا من حيث إنه شر، وكونه مقضيا يرجع إلى القضاء والقاضي بالحقيقة.

فالرضى والمحبة إنما يكونا بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه, فكذلك هذا. فإن قيل : فالرضى يكون مستزيدا, قيل له: نعم بشرط الخير والصلاح دون الحكم, فلا يخرجه ذلك عن الرضى بل أن يدل على الرضى فهو أولى، لأن من أعجبه شيء ورضى ذلك استزاد منه.

المبحث الرابع : الشدائد

إن كفايتك للشدائد والمصائب دائما تكون بالصبر في المواطن كلها وإنما ذلك لأمرين:

الأول : الوصول إلى العبادة وحصول المقصود فيها, فإن بناء أمر العباد كله على الصبر واحتمال المشقات, فمن لم يكن صبور لم يصل إلى شيء منها بالحقيقة, وذلك أن من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها استقبلته شدائد ومحن ومصائب ووجوه **أحدها**، أنه لا عبادة إلا في نفسها مشقة، ولا يتأتى فعل العبادة إلا بقمع النفس إذ هي زاجرة عن الخير ومخالفة الهوى وقهر النفس من أشد الأمور على الإنسان.

وثانيها : إن العبد إذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط حتى لا يفسد.

وثالثها : إن الدار دار محنة, فمن كان فيها فلابد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها، وذلك أقسام المصيبة في الأهل والقرابات والإخوان والأصحاب بالموت والفراق، وفي النفس بأنواع الأمراض والأوجاع، وفي العرض يقال الناس إياه والطمع فيه والازدراء به والغيبة والكذب عليه, وفي المال بالذهاب والزوال. ولكل واحدة من هذه المصائب لذعة وحرقة من نوع آخر، فيحتاج إلى الصبر عليها كلها وإلا فيمنعه الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة.

ورابعها : إن طالب الآخرة أشد بلاءاً وابتلاءاً وأكثر محنة أبدا, ومن كان إلى الله تعالى أقرب فالمصائب له في الدنيا أكثر، والبلاء عليه أشد, أما تسمع قوله عليه الصلاة السلام ﴿**أشد الناس ابتلاءا**

الأنبياء, ثم الشهداء, ثم الأمثل فالأمثل..﴾[1] فإن من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن, فإن لم يصبر عليها ويكون بحيث لا يلتفت إليها، انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة, فلا يصل إلى شيء من ذلك.

الثاني ما في الصبر من خير والآخرة ، ومن ذلك النجاة والنجاح قوله تعالى **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا..﴾** ومعناه المخرج من الشدائد وفيها الظفر على الأعداء, ومنها التقدم على الناس والإمامة, ومنها الكرامة العظيمة.

فعليك باغتنام هذه الخصلة الشريفة التي هي الصبر على المصائب والشدائد، وبذل المجهود فيها تكون من الفائزين.

ثم عليك أخيرا النظر في كيف تقطع هذه العبادة العقبة الشديدة المنيعة بدفع هذه العوارض الأربعة وإزاحة علتها, وإلا فلا تدعك تذكر مقصودك وتحصلها.

---

(١) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

الفصل الخامس

عقبة البواعث

عليك يا أخي بالسير إذا استقام لك الطريق وسهلت السُبُل، وارتفعت العوائق وزالت العوارض، ولا يحصل لك السير المستقيم إلا باستشعار الخوف، والرجاء والتزام حقهما على حدهما.

أمَّا الخوف، فإنه يجب عليك التزامه، لأمرين، **أحدهما:** للزجر عن المعاصي، فإن هذه النفس أمَّارة بالسوء ميَّالة إلى الشرّ، طماحة إلى الفتنة ولا تنتهي عن ذلك إلا بالتخويف العظيم والتهديد البالغ، وليست هي في طبعها حرة يهمها الوفاء، ويمنعها الحياء عن الجفاء، إنما هي مَّيالة دائما للمعاصي. ذُكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعته إلى معصية، فانطلق ونزع ثيابه، وجعل يتمرغ في الرَّمضاء ويقول لنفسه ذوقي، فنار جهنم أشد حرا من هذه.

الثاني: لئلا يعجب بالطَّاعة، فيهلك، بل يقمعها بالذم والعيب والنقص من الأسواء والأقذار التي فيها ضروب الأخطار.

وأما الرجاء فإنه يلزم استشعاره لأمرين:

أولا: البحث عن الطاعات، وذلك أن الخير ثقيل والشيطان عنه زاجر والهوى إلى ضده داعٍ، وحال أهل الغفلة من عِلية الخلق في النفس منطبع شاهد، والثواب الذي يُطلب به عن العين غائب، وأمر الوصول إليه فيما تحسبه بعيد، وإذا كان الحال على هذه الحالة، فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه، ولا تهتز له إلا بأمرٍ يُقابل هذه الموانع ويُساويها

بل يزيد عليها وذلك الأمر هو الرَّجاء القوي في رحمة الله عــز وجــلّ، والترغيب البالغ فى حسن ثوابه، وكريم أجره. ولقد قال شيخنا رحمة الله عليه: الحُزن يَمْنع عن الطعام، والخوف يمنع من الذنوب، والرَّجاء يقوي على الطّاعات وذكر الموت يزهد في الفضول.

ثانيا: ليهون عليك الشّدائد والمَشَقّات، واعلم أن من عــرَف مــا يطلب هان عليه ما يبذل، ومــن طــاب له شيء ورغب فيه حق رغبته، احتمل شرته ولم يبال بما يلقي من مؤنته. ومن أحب أحداً حــق محبتــه أحب أيضا احتمال محبته حتى أنه ليجد بتلك المحبة ضروباً من اللذة، ألا تري محب العسل لا يفكر في لسع النحل لما يتذكر من حلاوة العسل.

وكذلك يا أخي، العباد الذين هم أهل الاجتهاد إذا ذكروا الجنة في طيب رائحتها وأنواع نعيمها من قصورها وحورها وطعامها وشــرابها وحليها، هان عليهم ما احتملوه من تعب في عبادة، أو ما فاتهم في الدنيا من لذة ونعمة.

فإن كان أمر العبودية على الأمرين القيام بالطاعة والانتهاء عــن المعصية وذلك لا يتم مع هذه النفس الأمارة بالسوء إلا بترغيب وترهيب وتوجيه وتخويف، فإن الدابة الحرون تحتاج إلى قائد يقودها، وإذا وقعت في مهواة فربما ضربت بالسوط من جانب، ويلوح لها بالشعير من جانب آخر حتى تنهض وتخلص مما وقعت فيه. وأن الصبي العزم لا يمر إلى الكُتاب حتى تنهض بتوجيهه وتقوم بتخويفه. فالخوف سائقها وســوطها، والرجاء شعيرها وقائدها. فعليك بالتزام الخوف والرجاء يحــصل لــك مرادك ويسهل عليك احتمال المشقة.

فإن قلت: ما حقيقة الرجاء والخوف وأحكامهما؟ فاعلم أن الخوف

والرجاء عند علماؤنا يرجعان إلى الخواطر وإنما المقدور للعبد مقدماتها. قالوا: الخوف يحدث في القلب عن مكروه يناله، والخشية نحوه، لكن الخشية تقتضي ضربا من الاستعظام والمهابة. وضد الخوف الجرأة ولكن قد يقابل بالأمرين فيقال: خائف وآمن وخوف، أمن لأن الأمن هو الذي يجري على الله تعالي. والحقيقة أن الجرأة تضاده. ومقدمات الخوف أربعة:

(١) ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا إلى المظالم وانت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد.

(٢) ذِكر شدة عقوبة الله سبحانه التي لا طاقة لك بها.

(٣) ذِكر ضعف نفسك عن احتمالها.

(٤) ذِكر قدرة الله تعالي عليك متى شاء وكيف شاء.

أما الرجاء فهو ابتهاج القلب لمعرفة فضل الله تعالى، واستروا حه إلى سعة رحمة الله ، وهذا من جملة الخواطر غير المقدورة للعبد الذي هو مقدور، وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته. وقد سمى أيضا إرادة المخاطر. والمراد من هذا ذكر حسن الابتهاج والاسترواح وضده اليأس وهو تذكر فوت رحمة الله تعالى وفضله، وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة. وهذا الرجاء فرض إذ لم يكن للعبد سبيل إلى الامتناع عن اليأس إلا به، وإلا فهو ثقل بعد اعتقاد الجملة في فضل وسعة رحمته.

ومقدمات الرجاء أربعة:

(١) ذكر سوابق فضله إليك من غير شفيع.

(٢) ما وعد من جزيل الثواب وعظيم كرامته حسب فضله

وكرمه دون استحقاقك أياه بالفعل، إذ لو كان على حسب فعل لكان أقل شيء وأصغر أمر.

(٣) ذكر كثرة نعمه عليك في أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الإمداد والألطاف من غير استحقاق أو سؤال.

(٤) ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه، وأنه الرحمن الرحيم الغني الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين.

فإذا واظبت على هذين النوعين من الأذكار أفضينا بك إلى استشعار الخوف والرجاء بكل حال، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة في تمام الاحتياط والتحذر، فإنها عقبة دقيقة المسلك، خطرة الطريق، وذلك أن طريقها بين طريقين **مخوفين مهلكين:**

الأول طريق الأمن. الثاني: طريق اليأس.

والرجاء والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجائزين. فإذا غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف البته وقعت في طريق الأمن، **"ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"**[١]. وإن غلب الخوف حتى فقدت الرجاء البتة وقعت في طريق اليأس، **"ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون"**[٢].

فإن كنت بين الرجاء والخوف واعتصمت بهما جميعاً فهو بتوفيق الله الطريق العدل المستقيم.

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٩٩ .

(٢) سورة يوسف ، آية ٨٧.

الفصل السادس
عقبة القوادح

عليك يا أخي أمدك الله وإيانا بحسن توفيقه بعد ما استبان لك السبيل، واستقام لك المسير بتمييز سعيك وصيانته عما يفسده ويضيعه عليك، وإنما ذلك بإقامة الإخلاص وذكر المنة والاجتناب عن ضده لأمرين:

لما في فعله من الفائدة، وحسن القبول من الله تعالى، ووفور الثواب عليه، وإلا فيكون مردوداً إذا ذهب الثواب كلاً أو بعضاً..ولخطر الرياء فضيحتان ومصيبتان؟

أما الفضيحتان:

فالأولى: فضيحة الصريرة في اليوم على رؤوس الخلائق، وذلك ما روي أن الملائكة تصعد بعمل العبد المستهجن فيقول الله ردوه إلى سجين فانه لم يردني به فينفضح ذلك العمل والعبد.

الثانية: فضيحة العلانية وهي يوم القيامة على رؤوس الخلق. روي عن النبي ﷺ : "**أن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء وهي: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر، ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك التمس الأجر ممن كنت تعمل له يا مخادع**"[1]. وروي أنه ينادي منادي يوم القيامة يُسمع الخلائق: **أين الذين كانوا يعبدون الناس رياء قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له فإني لا أقبل عملا خالطه شيء.**

---

(١) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

أما المصيبتان:

فالأولى: فوت الجنة، وذلك ما روي عن النبي (ﷺ) "**أن الجنة تكلمت وقالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي**"[1]. والخبر يحتمل معنيين:

١- إن هذا البخل من بخل باقبح بخل وهو قول "**لا إله إلا الله محمد رسول الله**" وهذا المرائي من يرائي بأقبح رياء وهو المنافق الذي يرائي بإيمانه وتوحيده.

٢- أنه لم يثبت رأساً عن البخل والرياء ولم يراع نفسه، فيقع في الكفر، فتفوت الجنة عليه والعياذ بالله.

الثانية: دخول النار، وذلك لما روي أبو هريرة عن النبي (ﷺ) أن أول من يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن للقراءة، ورجل قاتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله تعالى للقارئ: "**ألم أعلمك مما أنزلت على رسولي**" فيقول بلى يا رب، فيقول الله تعالى: **كذبت** وتقول الملائكة كذبت، ويقول تعالى "**بل أردت أن يقال فلان قارئ وقد قيل**"[2].

فإن قلت: فاخبرني عن حقيقة هذا الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما في العمل. فاعلم أن الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما شديد، فالإخلاص في العمل عند علمائنا اخلاصان:

---

(١) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

(٢) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

إخلاص العمل له وهو إرادة التقرب إلى الله عز وجل وتعظيم أمره وإجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح.

أما الإخلاص الآخر فهو النفاق بمعنى التقرب إلى الله من دون الله تعالى.

ويقول شيخنا رحمه الله: إن النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذي هو للمنافق في الله عز وجل، وليس هو من قبيل الإرادات. وأما الإخلاص في طلب الأمر فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير.

وكان شيخنا رحمه الله يقول: إن إرادة نفع الآخرة بعمل الخير لم ترد إلا لجلب منفعة.

والرياء ضربان: رياء محض، ورياء تخليط، **فالمحض** أن يراد به نفع الدنيا لا غير. **والتخليط:** أن يراد به نفع الآخرة ونفع الدنيا.

أما تأثيرهما فإن إخلاص العمل يجعل الفعل قربة، وإخلاص طلب الأجر أن يجعله مقبولا لا وافر الأجر والتعظيم. والنفاق يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله سبحانه وتعالى.

فالرياء المحض لا يكون من العارف عند بعض العلماء، وعند آخرين من العلماء قد يكون الرياء المحض من العارف، وإنما يذهب بنصف الأضعاف، والتخليط يذهب بربع الأضعاف.

والصحيح عند شيخنا أن الرياء المحض لا يكون من العارف مع تذكر الآخرة ويكون مع السهو. والمختار أن من تأثير الرياء دفع القبول والنقصان في الأجر ولا يُقدر له نصف ولا ربع.

أما موضع الإخلاص وفي أي طاعة يقع ويجب فاعلم أن الأعمال

عند بعض العلماء ثلاثة أقسام:

الأول: يقع فيه الإخلاصان معاً ويتمثل في العبـــادات الظـــاهرة الأصلية.

الثاني: لا يقع فيه شيء منهما، ويتمثل فـــي الأعمـــال الباطنـــة الأصلية.

الثالث: يقع فيه إخلاص من طلب الأجر دون إخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعُدة.

وإذا قلت: أكل عمل يحتاج إلى إخلاص مفرد؟ فـــاعلم أنـــه قـــد اختلف في ذلك، فقيل: إنه يجب لكل عمل إخلاص مفرد. وقيل: يجـــوز تناول إخلاص بجملة من العبـــادات، فالعمـــل ذو الأركـــان كالـــصلاة والوضوء يكفيهما إخلاص واحد لأن بعضها متعلـــق بـــبعض صـــلاحاً وفساداً فصارا كشيء واحد. فإن قلت: فإن أراد جعله الخير من الله تعالى ولا يريد من الناس أشياء من مدحه أو سمعةٍ أو منفعةٍ، أيكون ذلك فيـــه رياء؟

فاعلم أن ذلك محض الرياء. وقال علماؤنا رحمهم الله: الأخبـــار في الرياء بالمراد لا بالذي تريد منه فإن كان مرادك من عمل الخير نفعا دنيوياً فإنه رياء سواء اردته من الله تعالى، أو من الناس.

القادح الثاني العُجب:

وهو يلزمك اجتنابه لأمرين:

الأول: إنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى، ويسرع إلى الهلاك، ولذلك قال الرسول (ﷺ) ثلاثة مهلكات: "**شُح مطـــاع، وهـــوى**

متبع. وإعجاب المرء بنفسه"[١].

الثاني: إنه يفسد العمل الصالح. وفي ذلك قال المسيح عليه السلام: **يا معشر الحواريين كم من سراج قد اطفأته الريح وكم من عابد افسده العجب.**

فإن قلت: فما حقيقة العجب ومعناه وتأثيره وحكمه؟ فاعلم أن حقيقته استعظام العمل الصالح وتفضيله عند علمائنا رحمهم الله، ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشيء دون الله عز وجل، أو الناس أو الشيء. وقد يكون العجب مثلثا بأن يذكر من هذه الثلاثة **جميعاً** النفس والخلق والشيء. ومثنى بأن يذكر اثنين. وآحاد بأن يذكر من واحد.

وضد العُجب ذكر المنة: وهو أن يذكر أنه بتوفيق الله تعالى وأنه الذي شرفه وعظم قدره. وهذا الذكر فرض عند دواعي العُجب، ونفل في سائر الأوقات.

وأما تأثير العُجب في العمل، فقال العلماء: ينتظر الإحباط فإن تاب قبل موته سلم. والناس في العُجب ثلاثة أصناف:

(١) المعجبون بكل حال: وهم المعتزلة والقدرية الذين لا يرون لله عليهم منّة[٢].

---

(١) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

(١) وذلك يرجع إلى اعتقاد المعتزلة والقدرية بأن الإنسان حُر مختار لأفعاله ، وأن الله تعالى قد وضع فيه القدرة والاستطاعة على القيام بالفعل ، أو تركه ، وذلك حتى يبرروا الثواب والعقاب يوم القيامة ، فالطائع باختياره ، يثاب ، والعاصى باختياره ، يثاب. أنظر هذه المسألة تفصيلاً ، وموقف أهل السنة منها فى : خالد حربى ، بنيّة الجماعات العلمية العربية الإسلامية ، دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٣ ، الفصل الخامس ، ص ١٦٢ –

(٢) أصحاب اللطف: وصفتهم الذاكرون المنة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشيء من الأعمال وذلك لبصيرة اكرموا بها وتأييد.

(٣) المخلصون: وهم عامتنا أهل السنة، تارة ينتهون فيذكرون منة الله تعالى، وتارة يفعلون ويعجبون وذلك لمكان العقلة العارضة والفترة في الاجتهاد والنقض في التبصر.

فإن قيل: هل يسوى العجب والرياء من قادح في العمل؟ قيل: أجل إن فيه لقوادح لكننا خصصناهما بالذكر لأنهما الأصل الذي يدور عليه معظم الأمر. وقد قال المشايخ: إن حق العبد أن يتحفظ في العمل من عشرة أشياء هما:

النفاق- والرياء- والتخليط- والمنّ- والأذى- والندامة- والعجب- والحسرة- والتهاون- وخوف ملامات الناس.

وكل خصلة منها لها ضد .

فضد النفاق الإخلاص، وضد التخليط التفريد، وضد المن تسليم العمل لله، وضد الأذي تحصين العمل، وضد الندامة تثبت النفس، وضد العجب ذكر المنة، وضد الحسرة اغتنام الخير، وضد التهاون تعظيم التوفيق، وضد خوف الملامة الخشية.

واعلم أن النفاق يحبط العمل، والرياء يوجب رده، والمن والأذى يحبطان الصدقة في الوقت، وعند بعض المشايخ يبطلان أضعافها. فأما

---

٢١٥. وكذلك خالد حربى ، علم الحوار العربى الإسلامى أصوله وآدابه ، ط الأولى دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٦ ، الفصل الثامن : حوار أهل السنة والقدرية .

الندامة فتحبط العمل في قولهم جميعاً، والعجب يحبط أضعاف العمل فتذهب وزانته. قلت: فالقبول والرد عند التحصيل يرجعان إلى ضروب التعظيم والاستحقاق. والإحباط إبطال منافع تكون بالفعل وبسببه، فتارة يكون إبطال الثواب وأخرى إبطال التضعيف. والثواب منفعة يقتضيها الفعل بعنيه وقرائنه وأحواله. والتضعيف زيادة على هذا. والرزانة زيادة تحصبل ببعض قرائن وأحوال أخرى كالإحسان إلى أحد من أهل الخير، ثم إلى الوالدين ، ثم إلى نبي من الأنبياء.

فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة ذات المتالف، وأن تكون في غاية التحرز، فإن صاحب بضاعة الطاعات قد قطع تلك العقبات وتحمل تلك المشقات حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة شريفة، وأنه لا يخاف على بضاعته تلك إلا في هذه العقبة فإن فيها مقاطع تسلب بها بضاعته، ومتالف تبدوا له فيها آفات تفسد عليه طاعته.

ثم أعظمها خطراً وأعمها هذان المقطعان اللذان هما الرياء والعجب. فلنذكر في كل واحد منها أصولاً مقنعة تجري هنا لك، لعلك تكفي مؤنتها بإذن الله.

الأصل الأول: إن في دفع الرياء قول الله تعالى **﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾**[1].

الأصل الثاني: إن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ في ثمنه ألف ألف دينار ثم باعه بفلس، أليس ذلك خسرانا عظيماً ودليل على

---

(١) سورة الطلاق ، آية ١٢ .

قصور العلم وضعف الرأي ودقة العقل، فما يناله العبد بعمله من الخلــق من المدح، دون رضى رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لأقل من فلس في جنب ألف ألف ألف دينار بل، في جنب الدنيا وما فيها، من الخسران المبين أن يفوِّت الكرامات الشريفة الفريدة بهذه الأمور الحقيرة.

الأصل الثالث: إن المخلوق الذي لاجله تعمل ورضاه تطلب لــو علم أنك لأجله تعمل لا بفضلك واستحط عنك واستهان بك واستخف بك، فكيف تعمل لأجل من لو علم به أنه يطلب رضاه لسخط عليه وأهانــه. فاعمل لأجل من إذا عملت لأجله وقصدته بسعيك وطلبت رضاه بــذلك، أحبك وأكرمك وأعطاك.

الأصــل الــرابــع: إن مــن حــصل له الــرياء يــســعــى لأن يكسب رضى أعظم ملك في الدنيا، فأي رضـــى لمخلــوق حقيــر ضعيف مهين وهو متمكن من تحصيل رضي رب العالمين الكافي عــن الكل.

أما العُجب فنذكر فيه ثلاثة أمور:

(١) إذا فعل العبد إنما صارت له قيمة لما وقع مــن الله تعــالى موقع الرياء والقبول والرضى، وإلا فترى الأجير يعمل طــول النهــار بدرهمين والحارس طوال الليل بدراهم معدودة فإن صرفت الفعل إلى الله يوما قال ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾[١].

(٢) ما يعلم أن الملك في الدنيا إذا أجرأ على أحد حراثــه مــن طعام أو كسوة أو درهم أو دنانير فانية فإنه يستخدمه بضروب الخدمــة

---

(١) سورة الزمر ، آية ١٠ .

آناء الليل والنهار مع ما في ذلك من الذل والصغار ويقوم علـــى رأســـه حتى تخدر رجلاه ويبقى بين يديه إذا ركب، وربما يحتاج أن يكون على بابه طوال الليل حارساً، وربما يبدو له عدو فيحتـــاج أن يقاتـــل لأجلــه ولأجل تلك المنفعة النكرة الحقيرة، مع أنها بالحقيقة من الله تعالى، وإنما هو بمنزلة سبب في ذلك، فربك هو الذي خلقك ولم تكن شيئا ثم ربـــاك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة في دينك ودنياك.

(٣) إن الملك الذي من شأنه أن تخدمه الملوك والأمراء، ويقوم على رأسه السادات والعظماء، ويتولى خدمته الأولياء والحكماء، ويطلب مدحه العلماء والعقلاء، ألا يقال على العجب به لـــسفه جـــداً ومجـــون، فالهناء منه سبحانه وهو الملك الذي يسبح له من في الـــسموات والأرض ومن فيهن، وأن من شيء إلا يسبح بحمده، والمعبود الذي يسجد له مـــن في الـــسموات والأرض طوعا وكرها. فمن الخدم على بابـــه: الأمـــين جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والنبيين، فـــركعتين إليه سبحانه وتعالى خير من الدنيا وما فيها. ألا تري منته تعالى عليك في ذلك، والله المستعان من هذه النفس الجاهلة.

فبعد هذه الجملة أقول لك: تيقظ من رقدتك أيها الرجل في هـــذه العقبة وأن لا تكن من الخاسرين، فإن هذه العقبة أشد وأشق وأضر وأمَّر عقبة استقبلتك في هذا الطريق، فإن سلمت فنمت وربحـــت، وإن كانـــت الأخرى فقد ضاع العمر كله، وطاب الأمل، وبطل العمل. ثم الشأن كلـــه أنه قد اجتمع في هذه العقبة ها هنا ثلاثة أمور:

الأول: إن الأمر دقيق جداً والغبن شديد والخطر عظيم. أما دقـــة الأمر فإن يجاري الرياء والعجب في الأعمال الدقيقة الضيقة. فلا يكـــاد

يتنبه لذلك إلا كل متمسك بأمر الدين، فيصير يقظان متحرر وإن اطلع عليه الجاهل الملعون والغافل النؤوم.

الثاني: شدة الغبن: فلأن الرياء والعجب أفة عظيمة تقع في لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة. وحكى أن رجل أضاف سفيان الثوري[1] وأصحابه فقال لأهله: هاتوا الطبق لا الذي أتيت به في الحجة الأولى، بل الذي أتيت به في الحجة الثانية. فنظر إليه سفيان وقال: مسكين قد أفسد عليه حجته. ووجه آخر في الغبن أن أقل طاقة سلمت من الرياء والعجب تكون من الله تعالى. فلينظر العاقل إلى الغبن الذي يضيع عبادة وعمل سبعين سنة.

فعليك بالتحرز من هذه العوائق، ورعاية عبادتك وحفظها بالحمد والشكر، والاحتراس من اختيار المعاصي، حتى تحصل على نعيم الله ووعوده ، فلكل ركوع سجود مسبح لنعم الله عليه.

---

(١) أنظر ترجمة سفيان الثورى فى النص المحقق فيما سيأتى .

الفصل السابع
عقبة الحَمد والشُكر

عليك أخي وفقك الله وإيانا بالتسبيح والتهليل لنعم الله عليك لقطع عقبة الحمد والشكر. فإن قيل: ما حقيقة الحمد والشكر وما معناها وحكمها؟ فاعلم أن العلماء فرقوا بين الحمد والشكر من حيث الأشكال والتسبيح والتهليل، فالشكر من أشكال الصبر والتفويض، وهو يقابل الكفران، والحمد يقابل اللوم، والحمد أعم وأكثر، والشكر أخص وأقل. فقال تعالى **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾**[1].

فثبت أنهما معنيان متمايزان، فالحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن، وهذا معنى مقتضى كلام شيخنا رضى الله عنه ورحمه.

أما الشكر فتكلموا في معناه وأكثروا، فعن ابن عباس[2] (رضى الله عنه) أنه قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق في السر والعلانية. وإلى نحوه، ذهب بعض مشايخنا فقال: الشكر هو أداء الطاعات بالظاهر والباطن، ثم رجع إلى أنه اجتناب المعاصي ظاهراً وباطناً. وقال غيره: الشكر الاحتراس عن اختيار المعاصي بحريق قلبك ولسانك وأركانك متى لا تعصى الله تعالى بشيء من هذه الثلاثة بوجه من الوجه والفرق بين قوله وبين قول الشيخ أنه جعل الاحتراس بمعنى الاجتناب عن المعاصي. وأما الاجتناب عن المعصية فما هو إلا أن لا

---

(١) سورة سبأ ، آية ١٣ .

(٢) أنظر ترجمة الصحابى الجليل ابن عباس فى النص المحقق فيما سيأتى .

يفعل المعصية عند داعيها، ولا يكون في نفسه معنى يحصله، فيكون عن العندية منشغلا، وعن الكفر معتصماً. فإن قلت: فما موضع الشكر؟ فاعلم أن موضعه النعم دينية ودنيوية على أقدارهما. وأما الشدائد في المصائب في الدنيا في نفس وأهل وحال، فتسألوا في ذلك: هل يلزم العبد الشكر عليها؟

قال بعضهم: لا يلزم العبد عليها من حيث هي، وإنما يجب فيها الصبر. وأما الشكر فهو على النعمة لا غير. قالوا: وما عن شدة إلا في جنبها نعم الله تعالى فيلزم الشكر على تلك النعم المقرونة بها دون نفس الشدة. وتلك النعم تتمثل فيما قال ابن عمر ﷺ[1] ما ابتليت ببلية إلا كان الله تعالى عليّ فيها أربع نعم إذ لم تكن في ديني، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ لم أُحرم الرضا، وإذا وجدت الثواب عليها.

وقد قيل أيضا إن تلك الشدائد زائلة غير دائمة، وأنها من الله تعالى دون غيره وإن كانت بسبب مخلوق فإنما لك عليه. فإذن يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة. وقال آخرون وهو الأولى عند شيخنا رحمه الله: إن شدائد الدنيا ما يلزم العبد الشكر عليها لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرّض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة وأعراض كريمة.

أما تري إلى النبي ﷺ كيف حمد الله تعالى وشكره على الشدائد، وشكره على المسار حيث قال: ﴿**الحمد لله على ما ساء وسرّ**﴾[2]، وما

---

(١) أنظر ترجمة الصحابى الجليل عبد الله بن عمر فى النص المحقق فيما سيأتى .

(٢) أنظر تحقيق هذا الحديث فى النص المحقق فيما سيأتى .

تري كيف يقول جل وعز **﴿وعسى أن تكرهوا شيء ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾**[1] وسماه خيراً فهو أكثر مما يبلغه وهمك، وإذا كانت الشدة مما تصير سببا في زيادة شرف العبد وزيادة نعمه درجة فتكون فيها بالحقيقة، وإذا كانت تعد في الشدائد والمحن بظاهرها، فاعلم أن ذلك موفقا فإذا قلت: فالشاكر أفضل أم العابد؟ فاعلم أنه قيل إن الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾**[2] وجعلهم أخص الخواص؛ والشاكر بالحقيقة لا يكون إلا شاكراً لأن الشاكر في دار المحنة لا يخلوا من محنة لا محالة ولا يجزع، فإن الشكر تعظيم المُنعم على حد يمنع عصيانه، والجزع عصيان، والصابر لا يخلوا من نعمة، كما ذكرنا أن الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم فإنه شكر بالحقيقة إذ صبر لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله عز وجل.

فعليك أيها الرجل ببذل المجهود في قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة الكبيرة الجدوى العظيمة القدر، وتأمل أصلين:

أحدهما: إن النعمة إنما تعطي من يعرف قدرها وإنما يعرف قدرها الشاكر.

الثاني: إن النعمة إنما تسلب من مَن لا يعرف قدرها، والذي لا يعرف قدرها الكفور الذي كفر بها ولا يؤدي شكرها، ودليل ذلك قوله تعالى: **﴿اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان**

---

(١) سورة النساء، آية ١٩.

(٢) سورة سبأ، آية ١٣.

فكان من الغاوين﴾[١].

إذن فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف نعمة الله تعالى عليك، وإذا أنعم بنعمة الدين فإياك أن تلفت إلى الدنيا وحطامها فإن ذلك لا يكون منك إلا بضرب التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين. قال تعالى **﴿لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾**[٢].

فقل الحمد لله الذي مَنّ علىّ بنعمة الإسلام والحمد لله الأكبر والمنة العظمى التي هي الإسلام فإنها الأولى والأحرى بأن لا ينفد ليلك ونهارك عن شكرها. فإن كنت عاجزاً عن عرفانها قدرها، فاعلم بالحقيقة انك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت في شكر الإسلام من أول الوقت إلى الأبد، لما قضيت بعض الحق لما هنالك من الفوز العظيم.

فلنتبدأ أيها المسلم الصحو من رقدة الغافلين ، وإني تأملت في عطية الله العبد إذا أعطاه وسلك في هذا الطريق عمره فوجدتها على الجهالة أربعين كرامة خلعت عليها، عشرين منها فى الدنيا، وعشرين في العقبى، أما الدنيا:

(١) أن يذكر الله تعالىٰ ويثني عليه ويعبده حق عبادته.

(٢) أن يعظم الله ويشكره وأن يتذكر ضعفه، وقوة وعظمة خالقه.

(٣) إن يحبه. ولو أحبك لارتفعت في مواطن عزيزة.

(٤) أن يكون له وكيلاً يدبر أموره.

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٧٥.

(٢) سورة الحجر ، آية ٨٨ .

(٥) أن يكون رزقه كفيلاً بوجهه.

(٦) أن يكون له نصيراً يكفيه كل عدو.

(٧) أن يكون لـــه انسياً لا يستوحش بحال ولا يخـــاف التغيـــر والاستبدال.

(٨) عز النفس فلا يلحقه ذل.

(٩) رفع الهمة. (١٠) طيب النفس. (١١) نور القلب.

(١٢) شرح الصدر. (١٣) تعظيم الاكرام.

(١٤)المهابة من الله. (١٥) البركة العامة.

(١٦) تسخير الأرض من البر والبحر.

(١٧) تسخير الحيوانات من السباع والوحوش والهوام .

(١٨) ملك مفاتيح الأرض.

(١٩) القيادة والوجاهه على باب رب العزة.

(٢٠) إجابة الدعوات.

وأما التي في العقبى:

(١) تثبيت من الله تعالى بالقول. (٢) هـــوان أمـــر الموت.

(٣) ارسال الروح والريحان بالبشرى. (٤) الخلود في الجنان.

(٥) الغنيمة بنعم جنات الله تعالى. (٦) الأمان من فتنـــة ســـؤال القبر.

(٧) تنوير القبر ليكون روضة في الجنة.

(٨) مرافقة الصابرين والمبشرين بالجنة.

(٩) الحشر في العز والكرامة. (١٠) بياض الوجه ونوره.

(١١) الأمان من أهوال القيامة. (١٢) أخذ الكتاب باليمين.

(١٣) يسر الحساب أو عدم الحساب. (١٤) ثقل ميزان الحسنات.

(١٥) شربة لا يظمأ الإنسان بعدها أبداً. (١٦) النجاة من النار.

(١٧) الشفاعة من أكرم المرسلين محمد (ﷺ).

(١٨) ملك الأبد في الجنة. (١٩) الرضوان الأكبر.

(٢٠) التقرب من إله العالمين.

فليعلم العبد أنه لا بد له في الجملة من أربعة: العلم، والعمل، والإخلاص والخوف؛ فيعلم أولاً الطريق وإلا فهو أعمي، ثم بالعلم وإلا فهو محجوب، ثم بالإخلاص. وبالإخلاص والخوف فليبدأ أولا الطريق وإلا فهو أعمى، ويخلص في عمله وإلا فهو مفتون، ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات إلى أن يجوز الأمان وإلا فهو مغرور.

فالعجب كل العجب، من أربعة:

الأول: غافل غير عالم. **الثاني:** عالم غير عامل.

الثالث: عامل غير مخلص. **الرابع:** مخلص غير خائف.

فجملة الأمر وتفصيله قاله رب العالمين في الكتاب العزيز: **﴿أفحسبتم أنا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾**[1] **﴿ولتنظر نفس ما**

---

(١) سورة الحشر ، آية ١٨ .

قدمت لغد واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون﴾[1].

فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنـــي عــن العــالمين[2]، نستغفره من أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا، ومن كل ما أوعيناه وأضمرناه من العلم بدين الله تعالى، ومن كل خطرة دعتنا إلى تصنُع أو تزين فـــي كتاب سُطر أو كلام عظمناه، أو علم أفدناه، ونسأله أن يجعلنـــاً وإيـــاكم معشر الإخوان بما علمنا عاملين، ولوجهه به مريـــدين، وأن لا يجعلـــه وبالاً علينا، وأن يجعله في ميزان صالح أعمالنا، إنه جواد كريم.

---

(١) سورة الحشر ، آية ١٨ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية ٦ .

ثانياً: التحقيق

١- منهج التحقيق .

٢- وصف النسخة الخطية .

٣- رموز التحقيق .

٤- نماذج المخطوطة .

١ – منهج التحقيق

يتضمن جميع الخطوات التى قمت بها فى متن الكتاب ، والمشار إليها فى هوامش الصفحات .

٢- وصف النسخة الخطية

هى النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة أبى العباس المرسى بالإسكندرية تحت رقم ١٠٣٣ تصوف . وهى بحالة جيدة ، اللهم إلا بعض الألفاظ المطموسة .

وتقع هذه النسخة فى ١٠٠ ورقة (الورقة صفحتان) ، ومقاس الصفحة ٢٣,٥ × ١٦,٥ سم ، وكتب بأقلام مختلفة .

يحمل غلاف المخطوطة عنوانها : "كتاب منهاج العابدين" ، واسم مؤلفها : "الشيخ الإمام والحبر الهمام قدوة العلماء .. محمد محمد بن محمد الغزالى (انظر الصورة) .

وتبدأ المخطوطة هكذا : بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام عبد الملك بن محمد بن محمد زين الدين ، وهو الغزالى ، رضى الله عنه ، وهو آخر كتاب صنفه ، ولم يتمله منه إلا خواص أصحابه .

الحمد لله الملك الحكيم ، الجواد ، العزيز الرحيم ، الذى فطر السموات والأرض بقدرته ، ودبر الأمور فى الدارين بحكمته ، وما خلق الإنس والجن إلا لعبادته ، فالطريق واضح للقاصدين ، والدليل لائح للناظرين ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى أهله الأبرار الطيبين أجمعين وسلم وعظّم إلى يوم الدين :

اعلموا إخوانى أسعدكم الله وإيّاى بمرضاته أن العبادة ثمرة العلم ، وفائدة العمر ، وحاصل العبد ، وبضاعة الأولياء ، وطريق الأقوياء ،

وقسمة الآخرة ، ومقصد ذوى الهمم ، وشعار الكرام ، وخرقة الرجال ، واختيار ذوى الأبصار ، وهى سبيل السعادة ومنهاج الجنـــة .. (انظـــر الصورة) .

وتنتهى المخطوطة بقول الإمام الغزالى :

ونحن نستغفر الله من كل ما زال به القدم ، وطغى بـــه القلـــم ، ونستغفره وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع أو تزين فى خطاب ســـطرناه ، أو كـــلام نظمناه ، أو علم أفدناه ، ونسأله أن لا يجعله وبالاً علينا ن وأن يجعله فى ميزان الصالحات إذا رُدّت أعمالنا إلينا إنه جواد كريم .

فهذا ما أردنا أن نذكره فى شرح طيفية سلوك طريق الآخـــرة ، وقد وفينا بالمقصود ، وصلى الله على خير مولود، دعا إلى أفضل معبود ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أولى الكرم والجود والشرف ، وشرّف وكرّم وسلمّ كثيراً .

تم منهاج العابدين بحمد الله وحسن توفيقه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، اللهم أغفر لمؤلفه ولكاتبه ولقارئه ولمن اطلع عليه ووجد فيه خللاً فسدّه ، والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ليلة الاثنين المبارك الذى هـــو سنة ١٢٦٥ على يد العبد الفقير إلى ملاه القدير ، بعد كتابة أخرى منه ، عبد الله بن إبراهيم البوهى الحنفى . (انظر الصورة) .

٣- رموز التحقيق

ط : مخطوطة مكتبة أبى العباس المرسى .

- : كلمة أو عبارة ناقصة من النص .

+ : كلمة أو عبارة زائدة بالنص .

< > : الكلمات المحصورة بين هذا النوع من الأقواس أضفتها لضبط النص .

[ ] : الكلمات المحصبورة بين هذا النوع من القواس غيرّت فيها حرف ، أو أكثر ، أو حتى الكلمة كلها لضبط سياق النص .

٤- نماذج المخطوطة



كتاب منهاج العابدين

تاليف الشيخ الإمام والحبر الهمام

قدوة العلماء الاسلين ووارث

علوم سيد المرسلين

العارف بالله تعالى

محمد بن محمد

الغزالي تغمده

الله برحمته

ونفعنا به

امين

امين

هذا كتاب لو يباع بوزنه ذهبا لكان البايع المغبون

عجبا من الخسران انك اخذ ذهبا وتعطي جوهرا مكنون

من كلام الامام الشافعي رضي الله عنه

غلاف المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام عبد الملك ابن عبد الله املا الشيخ الموفق حجة الاسلام ابو
محمد ابن محمد ابن محمد زين الدين وهو الغزالي رضي الله عنه وهو اخر كتاب صنفه
ولم يتمله منه الا خواص اصحابه الحمد لله الملك الحكيم الجواد الكريم العزيز الرحيم
الذي فطر السموات والارض بقدرته ودبر الامور في الدارين بحكمته وما خلق
الجن والانس الا لعبادته فالطريق واضح للقاصدين والدليل لائح
للناظرين ولكن الله يضل من يشا ويهدي من يشا وهو اعلم
بالمهتدين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى اله
الابرار الطيبين اجمعين وسلم وعظم الى يوم الدين اعلموا
اخواني اسعدكم الله واياي بمرضاته ان العبادة ثمرة العلم وفايدة
العمر وحاصل العبيد وبضاعة الاوليا وطريق الاقويا وقسمة الاعزة
ومقصد ذوي الهمة وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار ذوي الابصار
وهي سبيل السعادة ومنهاج الجنة قال الله تعالى وانا ربكم فاعبدون وقال تعالى
ان هذا كان لكم جزا وكان سعيكم مشكورا ثم انا نظرنا فيها وتاملنا طريقها
من مباديها الى مقاصدها التي هي اماني سالكيها فاذا هي طريق وعر وسبيل
صعب كثيرة العقبات شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة
الافات كثيرة العوايق والموانع خفية المهالك والمقاطع غزيرة الاعدا
والقطاع عزيزة الاشياع والاتباع وهكذا يجب ان تكون لانها طريق
الجنة فيصدق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الجنة حفت
بالمكاره وان النار حفت بالشهوات وقال صلى الله عليه وسلم الا وان
الجنة حزن بربوة الا ان النار سهل بشهوة ثم مع ذلك كله فالعبد
ضعيف والزمان صعب وامر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير
والعمر قصير وفي العمل تقصير والناقد بصير والاجل قريب والسفر بعيد والطاعة هي الزاد

الورقة الأولى (وجه)

فلا بد منها وهي فائتة فلا مرد لها فمن ظفر بها فقد فاز وسعد ابد الابدين
ومن فاته ذلك خسر مع الخاسرين وهلك مع الهالكين فصار هذا الخطب
اذاً والله معضلاً والخطر عظيما ولذلك عز من يقصد هذا الطريق وقل ثم
عز من القاصدين من يسلكه ثم عز من السالكين من يصل الى المقصود ويظفر
بالمطلوب وهم الاعزة الذين اصطفاهم الله عز وجل لمعرفته ومحبته وسددهم
بتوفيقه وعصمته ثم اوصلهم بفضله الى رضوانه وجنته فنسأله جل ذكره ان
يجعلكم وايانا من اوليائه الفائزين برحمته ثم انا لما وجدنا هذا الطريق
بهذه الصفة نظرنا فامعنا النظر في كيفية قطعها وما يحتاج اليه العبد
من الاهبة والعدة والالة والحيلة من علم وعمل عسى ان يقطعها بحسن
توفيق الله تعالى في سلامة ولا ينقطع في عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ
بالله تعالى فصنفنا في قطع هذا الطريق وسلوكه كتباً نحو احياء علوم الدين واسرار
المعاملات والقربة الى الله تعالى وغير ذلك واحتوت على دقائق من العلوم التي
اغتاصت على افهام العامة فقدحوا فيها وخاضوا فيما لم يستحسنوه منها فاي كلام افصح
من كلام رب العالمين وقد قالوا انه اساطير الاولين الم تسمع الى قول زين العابدين
علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب رضي الله عنه انه يقول ويا رب جوهر علم لو ابوح
به ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون اقبح ما ياتونه حسنا لقيل لي انت ممن
يعبد الوثنا اني لاكتم من علمي جواهره كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا وقد تقدم في هذا ابو
حسن الى الحسين ووصى قبله الحسنا انتهى فاقتضت الحالة عند ذلك النظر
الى كافة خلق الله تعالى بعين الرحمة وترك المماراة فابتهلت الى من بيده الخلق والامر
ان يوفقني لتصنيف كتاب يقع عليه الاجماع ويحصل بقراءته الانتفاع فاجابني الذي يجيب
المضطر اذا دعاه واطلعني بفضله على اسراره والهمني فيه ترتيبا عجيبا لم اذكره في
المصنفات التي تقدمت في اسرار معاملات الدين وهو الذي انا له واصف فاقول وبالله
التوفيق ان اول ما ينتبه العبد للعبادة ويتحرك لسلوك طريقها

بسلكه

اغتاصت

مقيد بها

الورقة الأولى (ظهر)

بعناية سماوية من الله تعالى وبتوفيق خاص الحق وهو المعني بقوله سبحانه وتعالى أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه وأشار إليه صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها فقال التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزول الموت فإذا خطر بقلب العبد أول كل شيء إني أجد لي منعما بضروب النعم كالحياة والقدرة والعقل والعلم والنطق وسائر المعاني الشريفة واللذات وما ينصرف عني من ضروب المضار والآفات وإن هذه منعما يطالبني بشكره وخدمته وإن أغفلت ذلك فيزيل عني نعمته ويذيقني بأسه ونقمته وقد بعث إلي رسولا أيده بالمعجزات الخارقة للعادات الخارجة عن مقدور البشر وأخبرني بأن لي ربا جل ذكره قادرا عالما حيا متكلما يأمر وينهى قادر أن يعاقبني إن عصيته ويثيبني إن أطعته عالما بأسراري وما يختلج في أفكاري وقد وعد وأوعد وأمر بالتزام قوانين الشرع فيقع في قلبه إنه ممكن إذ لا استحالة لذلك في العقل بأول البديهة فيخاف على نفسه عنده ويفزع وهذا خاطر الفزع الذي ينبه العبد ويلزمه الحجة ويقطع عنه المعذرة ويحثه إلى النظر والاستدلال فينزعج العبد عند ذلك ويقلق وينظر في طريق الخلاص وحصول الأمان عما وقع بقلبه وسمع فلم يجد فيه سبيلا سوى النظر بعقله في الدلائل والاستدلال بالصنعة على الصانع ليحصل له العلم اليقين بما هو الغيب ويعلم أن له ربا كلفه وأمره ونهاه وهذه أول عقبة استقبلته في طريق العبادة وهي عقبة العلم والمعرفة ليكون من الأمر على بصيرة فيأخذ في قطعها متبذلا بحسن النظر في الدلائل ووفور التأمل والتعلم

الورقة الثانية (وجه)

والسوال من علما الاخرة ادلة الطريق سرج الامة وقادة الائمة والاستنارة منهم واستهداء الدعا الصالح منهم بالتوفيق والاعانة
الي ان يقطعها بتوفيق الله سبحانه فيحصل له العلم واليقين بالغيب
وهو ان له الها واحدا لا شريك له هو الذي خلقه وانعم عليه
بكل هذه النعم وانه كلفه بشكره وامره بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه
وحذره الكفر وضروب المعاصي وحكم له بالثواب الخالد ان اطاعه والعقاب
الخالد ان عصاه وتولي عنه فتبعثه ذلك بمشية الله علي هذه
المعرفة واليقين بالغيب علي التشمير للخدمة والاقبال علي العبادة
لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده وعرفه بعدما جهله ولكنه
لا يدري كيف يعبده وما ذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه
فبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وتعالي وما يلزمه من فرايض
الشريعة ظاهرا وباطنا فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرايض انبعث
لياخذ في العبادة ويشتغل بها فنظر فاذا هو صاحب جنايات وذنوب
وهذا حال الاكثر من الناس فيقول كيف اقبل علي العبادة وانا مصر علي
المعصية متلطخ بها فيجب اولا ان اتوب اليه ليغفر لي ذنوبي ويخلصني
من اسرها واتطهر من اقذارها فاصلح للخدمة ولبساط القربة فتستقبله
هاهنا عقبة التوبة فيحتاج لا محالة الي قطعها
ليصل الي ما هو المقصود منها فاخذ في ذلك باقامة التوبة
في شروطها وحقها تقربا الي ان قطعها فلما حصلت له التوبة الصادقة
وفرغ من هذه العقبة حن الي العبادة لياخذ فيها فنظر فاذا حوله
عوايق محدقة كل واحدة منها تعوقه عما قصد من العبادة بضرب
من التعويق فتامل فاذا هي اربعة الدنيا والخلق والشيطان والنفس
فاحتاج لا محالة الي دفع هذه العوايق وازاحتها والا فلا يتاتي له

الورقة الثانية (ظهر)

والطمع ارادة للشيء الخاطر بالحكم فهذه عبارة المشايخ والذي تمّ لي ان
التفويض ارادة ان يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر وضد التفويض
الطمع في الجملة والطمع يجري على وجهين احدهما في معاني الرجاء بين مثال الخطر فيه
او مخاطرة بالاستثناء وذلك ممدوح غير مذموم كما قال تعالى والذي اطمع ان
يغفر لي خطيئتي يوم الدين انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا وهذا القسم ليس
ما نحن فيه بسبيل هاهنا والثاني طمع مذموم قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم
والطمع فانه فقر حاضر وقيل هلاك الدين وفساده الطمع وملاكه الورع قال شيخنا
رحمه الله الطمع المذموم شيئان سكون القلب الى منفعة مشكوكة والثاني في الجملة
الشيء الخاطر بالحكم وهذه ارادة تقابل التفويض لا غير فاعلم ذلك ثم انما
حسن التفويض من ذكر خطر الامور وامكان الهلاك والفساد فيها وحصن حصنه
ذكر يحجزك عن الاقتحام عن ضروب الخطر والامتناع عن الوقوع فيها لجهلك
وغفلتك وضعفك والمواظبة على هذين الذكرين تحملك على تفويض الامور كلها
الى الله عز وجل والتحفظ عن الحكم فيها والامتناع عن ارادتها لشرط الخير والصلاح
فهذه هي وبالله التوفيق فاما هنا الخطر الذي توجبون التفويض لاجله
في الامور فاعلم ان الخطر في الجملة خطران خطر الشك بانه يكون ولا يكون ولكن
نصل اليه او لا نصل اليه وهذا يحتاج فيه الى الاستثناء ويقع في باب الامنية وا[illegible]
لعمل والثاني خطر الفساد بان لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك وهذا الذي يحتاج
فيه الى التفويض ثم اختلفت عبارة الائمة في الخطر فمن بعضهم ان الخطر في العمل
هو ان يكون دونه نجاة ثم يجوز ان يجامعه ذنب فالايمان والسنة والاستقامة
لا خطر فيها اذ لا يمكن دون الايمان نجاة والاستقامة لا يجامعها ذنب فاذا تصح
ارادة الايمان والاستقامة بالحكم وقال الاستاذ رحمه الله تعالى
الخطر في العمل ما امكن ان يعترض فيه ما يكون الاشتغال بالعوارض ولا [illegible]
على ذلك العمل وذلك يقع في المباحات والسنن والعبادات الاخرى ان
من

الورقة ٥٠ (وجه)

من يضيق عليه وقت الصلاة او قصد اداها فقصده غريق او حريق يمكنه
انقاذه والا تشتغل بانقاذه اولى من الاقبال على صلاته فلا يصح اذا الارادة الى جاءت
والنوافل والكثير من الفرايض بالحكم فان قيل كيف يصح ان يفترض الله تعالى
على عبده شيا او يوعده على تركه ثم لا يكون له صلاح في فعله فاعلم ان شيخنا
رحمه الله قال ان الله لا يامر العبد الا وفيه صلاحه اذا تجرد عن العوارض ولا
يضيق عليه فعله فرضا بحيث لا يعدل عن ذلك الا وله فيه صلاح وانما ربما
يبيت الله تعالى له عذرا لاجله يكون العدول عن احد المامورين اولى من
الاشتغال بالاخر كما ذكرنا فيكون العبد في ذلك معذورا بل ماجورا لا بترك
هذا الفرض بل بفعل الفرض الذي هو اولى وانا سمعت الامام رحمة الله
عليه في هذه المسالة يقول انما افترض الله تعالى على عباده من الصلاة والحج
والصوم ونحوه ففيها صلاح للعبد لا محالة وصحت ارادتها بالحكم فالتفقد دايما
على ذلك فبقي المباحات والنوافل اذا في هذا الحكم فاعلم ذلك فانه من
غوامض هذا الباب وبالله التوفيق فان قيل هل يامر المفوض المملك
الفساد والارتداد محنة فاعلم ان في الاغلب ما يفعل بالمفوض الى الصلاح
وقد يفعل به في النادر غير الصلاح ولذلك ربما يخذله فيقع عن منزلة
التفويض ولا صلاح للعبد في الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض
وبه قال الشيخ ابو علي رحمه الله وقيل لا يفعل بالمفوض الا ما فيه صلاحه
فنعوذ من الله تعالى والخذلان والنقض عن منزلة التفويض مما لا يقع فيه التفويض
الا لا يشك في فساد ذلك والتفويض انما يقع فيما شك في فساده وصلاحه
وهذا الاولى القولين عند شيخنا رحمه الله اذ لولا ذلك لما توجب الباعث على التفويض
فان قيل فهل يجب ان يفعل بالمفوض ما هو الافضل فاعلم ان الايجاب مستحيل
في حق الله تعالى ولا يجب لعباده عليه شي وقد يفعل بالعبد الاصلح دون
الافضل حكمة من فعله الا ترى انه قدر للنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه

الورقة ٥٠ (ظهر)

الحساب ومنهم من تثقل الميزان ولهم من لا يوقف للميزان الا الساد[illegible] والثلاثون ورود
الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظمأ بعدها ابدا السادس [illegible]
والثلاثون جواز الصراط والنجاة من النار حتى منهم من لا يسمع حسيسها وتخمد له النار
الى قرار النعيم [illegible] والثلاثون الشفاعة وعرصات القيامة نحو من شفاعة الانبياء [illegible] عليهم
الصلاة والسلام الثامن والثلاثون ملك الابد في الجنة [illegible] والثلاثون الرضوان الاكبر
الاربعون لقاء رب العالمين اله الاولين والاخرين بلا كيف جل جلاله ثم تقول
وانما اعددت ذلك على حسب فهمي ومبلغ علمي في قصوري وتقصيري ومع ذلك فقد
اجملت واوجزت وذكرت من الاصول والجمل ولو فصلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب
الاخرى الى جملت ملك الابد خلعة وحدة وان فصلتها لا ارى تشتمل على اربعين
خلعة من نوع الحور والقصور واللباس وغيب ثم كل نوع يشتمل على تفصيل
لا يحيط بها الا عالم الغيب والشهادة التي هو خالقها ومالكها واي مطمع لنا في
معرفة ذلك وربنا سبحانه وتعالى يقول فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين ثم
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر وان المفسرين يقولون في قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد
كلمات ربي ان هذه الكلمات التي يقول الله عز وجل لاهل الجنة في الجنة باللطف
والاكرام ومن تكون حالة هذه فاني يبلغ جزءا من الف الف جزء منه وهم [illegible]
او يحيط بهم علم [illegible] مخلوق كلا بل تقاعدت الهمم وتقاصرت [illegible]
يكون ذلك كذلك وهو عطا العزيز العليم بمقتضى الفضل العظيم وحسب الجود
القديم لمثل هذا فليعمل العاملون وليبذل المجهود وليجهدهم لهذا المطلوب
العظيم وليعلموا ان ذلك كله لا قليل في جنب ما هم اليه محتاجون وايام يطلبون
وله يتعرضون وليعلموا ان العبد لا بد له في الجملة من اربعة العلم والعمل والاخلاص
والخوف فيعلم اولا الطريق والا فهو اعمى ثم يعمل بالعلم والا فهو محجوب ثم يخلص العمل

والا فهو [illegible]

الورقة ١٠٠ (وجه)

والاخلاص والخوف فلينظر اولا الطريق والا فهو اعمى ثم ليعمل بالعلم والا فهو محجوب
ثم يخلص العمل والا فهو مغبون ثم لا يزال يخاف ويحذر من الافات الى ان يحوز الامان
والا فهو مغرور [illegible] ذا النون المصري رحمه الله حيث يقول قال الخلق كلهم
موتى الا العلما والعلما كلهم نيام الا العاملين والعاملين كلهم مغترين الا المخلصين
والمخلصون على خطر عظيم قلت انا والعجب كل العجب من اربعة احدهم غافل
غير عامل اما يهتم لمعرفة ما بين يديه اما يتعرف ما هو مطلع عليه بعد الموت عليه
بالنظر في هذه الايات والعبرة والاستماع الى هذه الايات والنذر والانزعاج فهلك
للخواطر والهواجس التي تهيج هذه النفس قال تعالى اولم ينظروا في ملكوت
السموات والارض وما خلق الله من شيء وقال تعالى الا يظن اولئك انهم مبعوثون
والثاني من عالم غير عامل اما يذكر ما يعلم يقينا ما بين يديه من الاهوال العظام
والعقبات الصعاب وهذا هو النبا العظيم الذي انتم عنه معرضون والثالث
من عامل غير مخلص الا يتامل قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء الله فليعمل عملا
صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا والرابع من مخلص غير خائف اما ينظر الى عظمة
جلال جلاله سبحانه وتعالى مع اوليائه واصفيائه وخدمه الدالين عليه وبين خلقه
حتى يقول لاكرم الخلق عليه ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت
ليحبطن [illegible] الايات ونحوها حتى كان عليه السلام يقول شيبتني هود
واخواتها ام جملة الامر وتفصيله ما قاله رب العالمين في اربع ايات في كتابه
العزيز قوله عز وجل افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ثم قال
جل اسمه ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون
ثم قال جل من قائل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين
ثم جمل الكل فقال وهو اصدق القائلين ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله

لغني عن العالمين ونسأل ونستغفر الله من كل ما زلّ به القدم وطغى به
القلم ونستغفره من أقوالنا التي لا توافق أعمالنا ونستغفره [illegible]
كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه
ونستغفره من كل خاطر دعانا الى تصنع وتزين في كتاب سطرناه او كلام
نظمناه او علم افدناه ونسأله ان يجعلنا واياكم معشر الاخوان بما علمناه
عاملين ولوجهه به مريدين وان لا يجعله وبالا علينا وان يجعله في ميزان
الصالحات اذا ردت اعمالنا الينا انه جواد كريم رؤوف رحيم [illegible] هذا
ما اردنا ذكره في شرح تائية [illegible] الاخرة وقد وفينا بالموعود
وصلى الله على خير مولود دعا الى دين الله محمد صلى الله عليه وعلى
آله واصحابه اولي الكرم والجود وشرف وكرم وسلم تسليما كثيرا من منهاج
العابدين بحمد الله وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم والحمد لله رب العالمين ولا عدوان الا على الظالمين اللهم اغفر لمنشئه
ولكاتبه ولقارئه ولمن اطلع عليه ووجد فيه خللا وسده
والحمد لله رب العالمين تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
ليلة الاثنين المبارك الذي هو من شهر [illegible] سنة ١٢٩٦
على يد العبد الفقير الى مولاه [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

وازواجه [illegible]

الورقة الأخيرة (وجه)

منهاج العابدين
"النص المحقق"



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام عبد الملك بن عبد الله: أملى الشيخ الموفق، حجة الإسلام أبو محمد بن محمد بن محمد زين الدين، وهو الغزالى، رضى الله عنه، وهو آخر كتاب صنفه، ولم [يتمله] [١] منه إلا خواص أصحابه:

الحمد لله الملك الحكيم، الجواد الكريم، العزيز الرحيم، الذى فطر السموات والأرض بقدرته، ودبر الأمور فى الدارين بحكمته، وما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فالطريق واضح للقاصدين، والدليل لائح للناظرين، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى أهله الأبرار الطيبين أجمعين وسلّم وعظّم إلى يوم الدين:

اعلموا إخوانى أسعدكم الله وإيّاى بمرضاته أن العبادة ثمرة العلم، وفائدة العمر، وحاصل العبد، وبضاعة الأولياء، وطريق الأقوياء، وقسمة الآخرة، ومقصد ذوى الهمة، وشعار الكرام، وخرقة[٢] الرجال، واختيار ذوى الأبصار، وهى سبيل السعادة، ومنهاج الجنة، قال الله تعالى: "**وأنا ربكم فاعبدون**"[٣]، وقال تعالى: "**إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم**

---

(١) ط: يتمل .

(٢) لفظ كان يستعمل فى القرون الهجرية الأولى، ويطلق على من ترك الدنيا وتجرد للعبادة، فيقال: "إنه ترك الدنيا ولبس الخرقة".

(٣) سورة الأنبياء ، آية: ٩٢ .

مشكوراً"[1].

ثم إنّا نظرنا فيها وتأملنا طريقها من مبادئها إلى مقاصدها التى هى أمانى سالكيها، فإذا هى طريق وعر، وسبيل صعب، كثيرة العقبات، شديدة المشقات، بعيدة المسافات، عظيمة الآفات، كثيرة العوائق والموانع، خفية المهالك والمقاطع، غزيرة الأعداء والقُطاع، غزيرة الأتباع والأشياع.

وهكذا يجب أن تكون؛ لأنها طريق الجنة؛ فيصير تصديقاً لما قاله رسول الله صلى اله عليه وسلم: "**إن الجنة حُفت بالمكاره، وإن النار حُفت بالشهوات**". وقال صلى الله عليه وسلم: "**ألا وإن الجنة حَزْنٌ بربوة، ألا وإن النار سهلٌ بشهوة**"[2].

ثم مع ذلك كله فإن العبد ضعيف، والزمان صعب، وأمر الدين متراجع، والسن والفراغ قليل، والشغل كثير، والعمر قصير، وفى العمل تقصير، والناقل بصير، والأجل قريب، والسفر بعيد، والطاعة هى المراد، فلابّد منها، وهى فائتة فلا مرّد لها، فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين، ومن فاته ذلك خسر مع الخاسرين، وهلك مع الهالكين.

---

(١) سورة الإنسان، آية ٢٢.

(٢) حدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا عبد الله بن يزيد، ثنا نوح بن جعونه السلمى الخرسانى، عن مقاتل بن حيان، عن عطاء، عن ابن عباسى قال: خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا، فأوما أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض: " أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم ألا أن عمل الجنة حزن بربوة ثلاثاً ألا إن عمل النار سهل بشهوة، والسعيد من وقى الفتن، وما من جرعة أحب إلىّ من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كَظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمّاناً (أحمد بن حنبل، المُسند، مؤسسة قرطبة، مصر، جـ ١، ص ٣٢٧).

فصار هذا الخطب إذاً والله معضلاً، والخطر عظيماً، ولذلك عز من يقصد هذا الطريق وقلّ ، ثم عزّ من القاصدين من سيسلكه، ثم عز من السالكين من يصل إلى المقصود ويظفر بالمطلوب، وهم الأعزة الذين اصطفاهم الله عز وجلّ بمعرفته ومحبته، وسدرهم بتوفيقه وعصمته، ثم أوصلهم بفضله إلى رضوانه وجنته، فنسأله جلّ ذكره أن يجعلكم وإيّانا من أولئك الفائزين برحمته.

نعم.. ولما وجدنا هذا الطريق بهذه الصفة نظرنا فأمعنا النظر فى كيفية قطعها، وما يحتاج إليه العبد من الأهبة والعدة، والآلة والحيلة من علم وعمل؛ عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله تعالى فى سلامة، ولا ينقطع فى عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين ، والعياذ بالله تعالى.

فصنفنا فى قطع هذه[1] الطريق وسلوكها كتابنا "**إحياء علوم الدين**"[2]

---

(١) ط: هذا، والأصح "هذه" لأن الطريق مؤنثة وهو ما دل عليه ما بعده من قوله و(سلوكها).

(٢) إحياء علوم الدين: أهم كتب الغزالي علي الإطلاق ، إذ أنه يتضمن معظم آرائه الشرعية ، والفلسفية ، والصوفية وتبدو الآراء الشرعية فيما بسطه الغزالي من أحكام الفقه وأصوله وما اعتدم عليه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول (ﷺ) وأقوال الصحابة والتابعين ومذاهب الأئمة رضي الله عنهم وأقوال الفقهاء وعلماء الشرع والحديث والتأويل . وهو يعد أصول العلوم الشرعية أربعة : كتاب الله عز وجل وسنة(رسوله صلي الله علية وسلم) وإجماع الأمة وأثار الصحابة .

أما الآراء الفلسفية ، فيقصد بها الغزالي يقظة العقل والقدرة علي التبصر وفهم الكون بظواهره وشواهده ومحاولة الوصول إلي أعماقه وإلي سر الحياة والأحياء ، ودراسة النصوص دراسة تخضع أحكام العقل والتفكير والتغلب علي الأخطاء الشائعة والتقاليد التي تعارض المنطق السليم والتفكير الصحيح .

و"**أسرار المعاملات**"[١]، و"**القربة إلى الله تعالى**"[٢]، وغير ذلك واحتـــوت < هذه الكتب >[٣] على دقائق من العلوم التى اغتاصه على إفهام العامـــة، فقد حوا فيها، وخاضوا فيما لم يحسنوه منها، فأى كلام أفصح من كـــلام رب العالمين؛ وقد قالوا : إنه أساطير الأولين.

ألم تسمع إلى قول **زين العابدين على بن [الحسين]** [٤] **بن علـــى**

وتظهر نزعة الغزالي الصوفية في " الإحياء " بتقريره أنه لا مطمع له فـــي ســـعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علائق القلب عـــن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلي دار الخلود والإقبال بكنه الهمة علي الله تعالي ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمـــال والهـــرب مـــن الـــشواغل والعلائـــق . وينقسم كتاب " إحياء علوم الدين " إلي قسمين ، وينقسم كل قسم فيهما إلي ربعين وبـــذلك يكون مجموع الكتاب أربعة أرباع ، هي الربع الأول في العبادات ، وأوله كتاب العلـــم = = وآخره كتاب ترتيب الأوراد وتفضيل إحياء الليل . الربع الثاني في العادات وأوله كتاب آداب الأكل ، وآخره كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة . والربع الثالث فـــي المهلكـــات ، وأولة كتاب شرح عجائب القلب ، وآخره كتاب ذم الغرور . والربع الرابع والأخيـــر فـــي المنجيات وأوله كتاب التوبة ، وآخره كتاب ذكر الموت وما بعده .

ويتضمن كل ربع من الأربعة أربع عشرة كتاب ، فيكون مجموع كتـــب " كتـــاب الأحياء " أربعين كتاباً . (راجع ، أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، تحقيـــق أبـــى حفص سيد بن إبراهيم ، ٥ أجزاء ، دار الحديث القاهرة ١٤١٩ة / ١٩٩٨) .

(١) كتاب: أسرار المعاملات للغزالى، (أنظره فى ، حاجى خليفة، كـــشف الظنـــون عـــن أسامى الكتب والفنون، طبعة دار الكتب العلمية. بيروت ١٤١٣هـــ - ١٩٩٢م، المجلـــد الأول، ص ٨٤).

(٢) هو كتاب: القربة إلى الله سبحانه وتعالى للغزالى (أنظره فى ، حاجى خليفـــة، كـــشف الظنون ٢/١٣٢٤).

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) ط : الحسن .

بن أبى طالب[1] إذ يقول:

---

(١) علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، السيد الإمام ، زين العابدين ، الهاشمي العلوي ، المدني . يكني أبا الحسين ويقال : أبو الحسن ، ويقال : أبو محمد ، ويقال أبو عبد الله . وأمة أم ولد ، اسمها سلافة بنت ملك يزدجرد ، وقيل : غزالة. ولد في سنة ثمان وثلاثين . وحدث عن أبيه الحسين الشهيد ، وكان معه يوم كائنة كربلاء وله ثلاث وعشرون سنه، وكان يومئذ موعوكاً فلم يقاتل، ولا= = تعرضوا له ، بل أحضروه مع آله إلى دمشق ، فأكرمه يزيد ، ورده مع آله إلى المدينة ، وحدث أيضاً عن جده مرسلاً ، وعن صفيه أم المؤمنين ، وذلك في " الصحيحين " وعن أبي هريرة ، وعائشة وروايته عنهما في " مسلم " ، وعن أبي رافع ، وعمه الحسن ، وعبد الله بن عباس ، وأم سلمة ، والمسور بن مخرمة ، وزينب بنت أبي سلمة ، وطائفة . وعن مروان بن الحكم ، وعبيد الله بن أبي رافع ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن مرجانه ، وذ كوان مولي عائشة ، وعمرو بن عثمان بن عفان وليس بالمكثر من الرواية . حدث عنه : أولاده : أبو جعفر محمد ، وعمر وزيد المقتول ، وعبد الله ، والزهري ، وعمرو بن دينار ، والحكم بن عتيبة ، وزيد بن أسلم ، ويحي بن سعيد ، وأبو الزناد ، وعلى بن جدعان ، ومسلم البطين ، وحبيب بن ثابت ، وعاصم بن عبيد الله ، ومحمد بن الفرات التميمي ، والمنهال بن عمرو وخلق سواهم. قال له نافع بن جبير : غفر الله لك ، أنت سيد الناس ، تأتى تتخطى حتى تجلس مع هذا العبد ، فقال على بن الحسين : العلم يبتغى ويؤتي ويطلب من حيث كان . وقيل : إن رجلاً قال لابن المسيب :ما رأيت أروع من فلان ، قال : هل رأيت على بن الحسين ؟ قال : لا. قال : ما رأيت أروع منه . وقيل : ما أكل على بن الحسين بقرابته من رسول الله -ﷺ- درهماً قط . قال أبو نوح الأنصاري : وقع حريق في بيت فيه على بن الحسين وهو ساجد ، فجعلوا يقولون : يا بن رسول الله النار . فما رفع رأسه حتى انطفئت . فقيل له في ذلك فقال : ألهتني عنها النار الأخرى . وكان على بن الحسين إذا مشى لا تجاوز يده فخذيه ولا يخطر بها ، وإذا قام إلى الصلاة ، أخذته رعدة ، فقيل له : فقال : أتدرون بين يدي من أقوم ومن أناجى . ؟! وحج علي بن الحسين ، فلما أحرم ، اصفر وانتفض ولم يستطع أن يلبي ، فقيل : ألا تلبي ؟ قال : أخشى أن أقول لبيك ، فيقول لي : لا لبيك . فلما لبي ، غشى عليه ، وسقط من راحلته ، فلم يزل بعض

ذلك حتى قضى حجه . وكان يصلى في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات . وكان يسمي زين العابدين لعبادته . وكن يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين في الظلمة ، ويقول : إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب . وكان ناس من أهل المدينة يعيشون ، لا يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات على بن الحسين ، فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل . وقيل : لما مات علي وجدوه يعول أهل مائة بيت . ولهذا كان يبخل ، فإنه ينفق سراً ، ويظن أهله أنه يجمع الدراهم . وقال بعضهم : ما فقدنا صدقة السر، حتى توفي على.ويروي سعيد بن مرجانه أنه لما حدث على بن الحسين بحديث أبي= = هريرة : " من أعتق نسمةً مؤمنة أعتق الله كل عضو منه بعضوٍ منه من النار ، حتى فرجه بفرجه " فأعتق علي غلاماً له : ودخل على الحسين بن أعلى محمد بن أسامة بن يزيد في مرضه ، فجعل محمد يبكى ، فقال : ما شأنك ؟ قال : علي دين ، قال : وكم هو ؟ قال : بضعة عشر ألف دينار، قال : فهي علي . وعن حبه لأبي بكر وعمر -خلاف ما تزعمه الشيعة- جاءه رجل فقال له : أخبرني عن أبي بكر ؟ قال : عن الصديق تسأل ؟ قال : وتسميه الصديق ؟! قال ثكلتك أمك ، قد سماه صديقاً من هو خير مني ، رسول الله - ﷺ- والمهاجرون ، والأنصار فمن لم يسميه صديقاً ، فلا صدق الله قوله ، اذهب فأحب أبا بكر وعمر ، وتولهما ، فما كان من أمر ففي عنقي . ومن كلامه : فقد الأحبة غربة ، وكان يقول : اللهم إني أعوذ بك أن تُحسِّنَ فى لوائح العيون علانيتي ، وتقبح في خفيات العيون سريرتي ، اللهم كما أسأت وأحسنت إلى ، فإذا عدت فعد على . اللهم لا تكلني إلي نفسي ، فأعجز عنها ، ولا تكلني إلى المخلوقين ، فيضيعوني . وروى أنه كان بين حسن بن حسن وبين ابن عمه على بن الحسين شيء . فما ترك حسن شيئاً إلا قاله ، وعلى ساكت ، فذهب حسن ، فلما كان الليل، أتاه على ، فخرج ، فقال علي : يا ابن عمي إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً ، فغفر الله لك . السلام عليك ، فالتزمه حسن ، وبكى حتى رثي له . وكان على بن الحسين له جلالة عجيبة ، وحق له والله ذلك ، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه ، . وكمال عقله . وقد اشتهرت قصيدة الفرز دق وقصتها هي، أن هشام بن عبد الملك حج قبيل ولايته الخلافة ، فكان إذا أراد استلام الحجر زوحم عليه وإذا دنا على بن الحسين من الحجر تفرقوا عنه إجلالاً له ، فوجم لها هشام وقال : من هذا ؟ فما أعرفه ، فأنشأ الفرز دق يقول :

ويَا رب جوهرُ علْمٍ لو أبوحُ بـــهِ	ولا ستحل رجالٌ مسلمون درمتّىَ
يَرونَ أقبَح مـــا يأتونَــه حُــسنا	لقيل أنْتَ ممـــن يعَّــدَ الوثنـــــا
إنىَّ لأكتُم منْ علمـــى جـــواهرهُ	كيلا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فَيُفْتَتَنَا[1]

وقد تقدّم فى هذا أبو حسن إلى الحسنى، ووصى قبله الحسنى انتهى.

وقد اقتضت الحالة عند ذوى العقول النظر إلى كافـــة خلـــق الله تعالى بعين الرحمة، وترك المماراة، فابتهلت إلى من بيده الخلق والأمر أن يوفقنى لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع، ويحصل بقراءته الإقنـــاع، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وأطلعنى بفضله علـــى أســـرار ذلك، وألهمنى فيه ترتيباً عجيباً لم أذكره فى المصنفات، التى تقدمت فى أسرار معاملات الدين، <و>[2] هو الذى أنا له واصـــف فـــأقول وبـــالله التوفيق:

إن أول ما ينتبه العبد للعبادة، ويتحرى سلوك طريقهـــا بخطـــوة

هذا الذي تعرف البطحاء وطأتـــهُ	والبيت يعرفـــه والحـــلُ والحـــرمُ
هذا ابن خير عبـــاد الله كلهـــــــم	هذا التقي النقـــي الطـــاهر العَلَـــمُ
إذا رأتـــه قـــريش قـــال قائلهـــا	إلي مكـــارم هـــذا ينتهـــي الكَـــرَمُ
يكـــاد يمـــسكه عرفـــانُ راحتـــه	ركن الحطيم إذا ما جـــاء يَـــستلمُ
يُغضي حياءً ويغُضَي من مَهابتـــهِ	فمـــا يكلـــمُ إلا حـــين يبتـــسمُ
هذا ابن فاطمة إن كنـــت جاهلـــة	بجـــده أنبيـــاءُ الله قـــد خُتِمُـــوا

وتوفي على بن الحسين في رابع عشر ربيع الأول ليلة الثلاثاء سنه اثنتين وتسعين ،وله ثمانين وخمسين سنه(راجع، الذهبي، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٣ – ٣٣٢ بتصرف) .

(١) من بحر البسيط [مستفعلن – فاعلن – مستفعلن – فعلن].

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

سمائية من الله تعال، وتوفيق خاص إلهى، وهو المعنى بقولـــه تعـــالى: "**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**"[1]، وأشار إليـــه صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فقال: "**إن النور إذا دخل القلب انفتح وانشرح**". فقيل: يا رسول الله: هل لذلك من علامة يعـــرف بهـــا؟ فقال: "**التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلـــود، والاســـتعداد للموت قبل نزول الفوت**"[2]. فإذا خطر بقلب العبد أول كـــل شـــئ أنـــى أجدنى منعماً بضروب النعم كالحياة والقدرة والعقل والعلـــم والمنطـــق، وسائر[3] المعانى الشريفة واللّذات، وما ينصرف علـــىّ مـــن ضـــروب المضارّ والآفات، وإن لهذه منعماً يطالبنى بشكره وخدمته، وإن أغفلـــت ذلك فيزيل عنّى نعمته، ويذيقنى بأسه ونقمته.

---

(١) سورة الزمر، آية٢٢ .

(٢) قلنا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما نزلت: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام"، وكيف ذاك؟ قال: يُدخل النور فيه فينفسخ له. فقال: وما علامة ذلك؟ قال: التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله (أبو الفرج، عبـــد الرحمن بن على بن محمد القرشى، العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية، تحقيـــق إرشـــاد الحق الأثرى، ط إدارة العلوم الأثرية، فيصل أباد ١٣٩٩هـــ، ج ٢، ص ١٣٤٢).

أيها الناس: توبوا قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبـــل أن تـــشغلوا، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم إياه تسعدوا، وأكثروا الصدقة ترزقوا، وأمـــروا بالمعروف تحصنوا وأنهوا عن المنكر تنصروا. أيها الناس إن أكـــسيكم أكثـــركم ذكـــراً للموت، وأحزمكم أحسنكم أستعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور، والإنابة فى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور (أبو نصر، محمد بن على بن عبيد الله بن ودعان الموصلى، الأربعون الودعائية الموضوعة، تحقيق على حسن على بن عبد الحميد، دار عمار، بيروت وعُمان ١٤٠٧هـــ، جـــ ١، ص ٣).

(٣) ط: سائد.

وقد بعث إليّ رسولاً أيده بالمعجزات الخارقة للعادات الخارجة عن مقدور البشر، وأخبرني أن لي رباً جلّ ذكره قادراً عالماً، حياً متكلماً، يأمر وينهى، قادراً على أن يعاقبني إن عصيته، ويثيبني إن أطعته، عالماً بأسراري، وما يحتج في أفكاري، وقد وعدو[1] أوعد، وأمر بالتزام قوانين الشرع.

فيقع في [قلب][2] <العبد>[3] أنه ممكن؛ إذ لا استحالة لذلك في العقل بأول البديهة، فيخاف على نفسه عنده ويفزع، فهذا خاطر الفزع الذي ينبه العبد، ويلزمه الحجة، ويقطع عنه المعذرة، ويزعجه <ويضطره>[4] إلى النظر والاستدلال، فيحتاج العبد عند ذلك -ويقلق وينظر في طريق الخلاص- وحصول الأمان ما وقع بقلبه وسمع، فلم يجد فيه سبيلاً سوى النظر بعقله في الدلائل، والاستدلال بالصفة على الصانع، ليحصل له العلم اليقين بما هو الغيب، ويعلم أن له رباً كلفه وأمره ونهاه، فهذه أول عقبة استقبلته في طريق العبادة وهي عقبة العلم والمعرفة، ليكون من الأمر على بصيرة، فيأخذ في قطعها من غير يد، يحسن النظر في الدلائل ووفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الآخرة أدلاء الطريق سُرُج الأمة، وقادة الأئمة، والاستفادة منهم، واستهداء الدعاء الصالح منهم بالتوفيق والإعانة إلى أن يقطعها بتوفيق الله سبحانه فيحصل له العلم واليقين بالغيب، وهو أن له **إلهاً واحداً لا شريك له** هو

---

(١) ط: وعر.

(٢) ط : قلبه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

الذى [خلقه][1] وأنعم عليه بكل هذه النعم، وأنه كلفه بشكره وأمره بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه، وحذره الكفر وضروب المعاصى، وحكم له بالثواب الخالد إن أطاعه، والعقاب الخالد إن عصاه وتولى عنه.

فعند ذلك [تبعثه][2] هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير للخدمة، والإقبال على العبادة لهذا السيد المنعم الذى طلبه فوجده، وعرفه بعد ما جهله، ولكنه لا يدرى كيف يعبده، وماذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه.

فبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وتعالى[3] يلزمه من فرائض الشريعة ظاهراً وباطناً، فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض انبعث ليأخذ فى العبادة، وينشغل بها، فنظر فإذا هو صاحب جنايات وذنوب، وهذا هو حال الأكثر من الناس، فيقول[4]: كيف أُقبل على العبادة وأنا مُصِرٌّ على المعصية، متلطخ بها؟، فيجب أولاً أن أتوب إليه ليغفر لى ذنوبى، ويخلصنى من أسرها، وأتطهر من أقذارها؛ فأصلح للخدمة، ولبساط القربة، فتستقبله هاهنا عقبة التوبة، فيحتاج لا محالة إلى قطعها ليصل إلى ما هو المقصود منها.

فأخذ فى ذلك بإقامة التوبة بشروطها وحقائقها، إلى أن قطعها، فلما حصلت له التوبة الصادقة، وفرغ من هذه العقبة، جنَّ إلى العبادة ليأخذ فيها؛ فنظر فإذا حوله عوائق محدقة؛ كل واحدة منها تعوق عما

---

(١) ط: خلق.

(٢) ط: بعثته.

(٣) + ط: وما .

(٤) + ط : له.

قصده من العبادة بضرب من التعويق، فتأمل فإذا هي أربعة: الدنيا والخلق والشيطان والنفس.

فاحتاج لا محالة إلى دفع هذه العوائق وإزاحتها، وإلا فلا يتأتى له أمر العبادة، فاستقبلته هاهنا عقبة العوائق، فيحتاج إلى قطعها بأربعة أمور: **التجرد عن الدنيا، والتفرد عن الخلق، والمحاربة مع الشيطان، وقمع النفس**، وأما النفس فاشدها؛ إذ لا يمكنه التجرد عنها، ولا أن[1] يقهرها بمرة ويقمعها كالشيطان، إذ هي المطية والآلة، ولا مطمع أيضاً في موافقتها على ما يقصده العبد من العبادة والإقبال عليها، إذ هي مجبولة على ضد الخير، كالهوى واتباعهما له، فاحتاج إذن إلى إلجامها [بلجام][2] التقوى، لتبقى له فلا تنقطع، وتنقاد له فلا تطغى، فيستعملها في المصالح والمراشد، ويمنعها عن المهالك والمفاسد، فيأخذ إذن في قطع هذه العقبة، ويستعين بالله جلّ ذكره على ذلك.

فلما فرغ من قطعها رجع إلى قصد العبادة، فإذا عوارض تعترضه، فتشغله عن الإقبال على مقصده من العبادة، وتصده عن التفرغ لذلك كما ينبغي.

فتأمل فإذا هي أربعة: <الأول>[3] الرزق، تطالبه النفس به وتقول: لابد لي من رزق وقوام، وقد تجردت عن الدنيا وتفردت أيضاً عن الخلق، فمن أين يكون قوامي ورزقي؟، والثاني: [الأخطار][4] من كل

(١) ط: أنه.

(٢) ط: بلجان.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ط : الأخطاء.

شئ يخافه، أو يرجوه، أو يريده، أو يكرهه، ولا يدرى إصلاحه فى ذلك أو فساده، فإن عواقب الأمور مبهمة، فيشتغل قلبه بها، فإنه ربما يقع فى فساد أو مهلك. والثالث: الشدائد والمصائب تنصب عليه من كل جانب، ولاسيما وقد انتصب لمخالفة الخلق، ومحاربة الشيطان، و[مضاددة][1] النفس، فكم من عقبة يتجرعها، وكم من شدة تستقبله، وكم من هَمّ وحزن يعترضه، وكم من مصيبة تتلقاه. والرابع: أنواع القضاء من الله عز وجل بالحلو والمرّ، ترد عليه حالاً فحالاً، والنفس تسارع إلى السخط، وتبادر إلى الفتنة.

فاستقبلته هاهنا عقبة العوارض الأربعة، فاحتاج إلى قطعها بأربعة: التوكل على الله سبحانه فى مواضع الرزق، والتفويض إليه فى موضع الخطر، والصبر عند نزول الشدائد، والرضا [عند][2] نزول القضاء، فأخذ فى قطع هذه العقبة بإذن الله، وحسن عونه، فلما فرغ من قطعها، وعاد إلى قصد العبادة، فنظر فإذا النفس فاترة كسلاً، لا تنشط ولا تنبعث لخير كما يحق وينبغى، وإنما ميلها أبداً إلى غفلة ودعة وراحة وبطالة، بل إلى [سرور] <و>[3] فضول وبلية وجهالة، فيحتاج معها هاهنا إلى سائق يسوقها إلى الخير والطاعة، وينشطها لهما، وزاجراً يزجرها عن المعصية، ويفترها [عنها][4] وهما: الرجاء والخوف؛

---

(١) ط : مضادة، والأصوب كما أوردته فى المتن (مضاددة) لأنها من فعل "ضاد" المضعف الضاد، والتى تفك عند استخدام المصدر فتكون "مضاددة" على وزن "مفاعلة".

(٢) ط: عن.

(٣) زيادة يقتضيها الأصل .

(٤) ط: عنه.

فالرجاء فى عظيم ثواب الله تعالى وحسن ما وعد من أنواع الكرامـــات، وتذكر ذلك سائقاً يسوقها فيبعثها على الطاعة، ويحركها لذلك، وينـــشطها له[١] . والخوف من أليم عقاب الله عز وجل، وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والإهانة، زاجراً يزجرها عن المعصية ويجنبها وينفرها عن ذلك، فهذه عقبة البواعث، استقبلته هاهنا فاحتاج إلى قطعها بهذين الـــذكرين، فأخذ منها بحسن توفيق الله عز وجل، فقطعها، فلما فرغ منها، رجع الى الإقبال على العبادة فلم [ير][٢] عائقاً ولا شـــاغلاً<و>[٣]، وجـــد باعثـــا وداعياً، فنشط فى العبادة، فأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة، فأدامها فنظر، فإذا [تبدو][٤] لهذه العبادة التى احتمل فيها كل ذلك آفتان عظيمتان وهما: العجب؛ فيرائى بطاعته للناس، فيفسدها[٥] . وأخرى يستعظم ذلك ويكرم نفسه فيه، فيعجب بنفسه بمحيط العبادة عليه، فيفسدها. فاســـتقبلته هاهنا عقبة القوادح: فاحتاج إلى قطعها بالإخلاص، وذكر المّنة ونحوها، يسلم له ما يعمل خير، فأخذ فى قطع هذه العقبة[٦] لله تعالى بجد واحتياط وتيقظ؛ بحسن عصمة الجبار تعالى وتأييده. فلما فرغ مـــن هـــذه كلهـــا حصلت له العبادة كما يحق وينبغى، وسلمت من كل آفة.

ولكنه نظر فإذا هو غريق فى بحور مـــنن الله تعـــالى وأياديـــه

---

(١) أى ذلك الأمر، وهو الطاعة.

(٢) ط: يرى.

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) ط: تبدو.

(٥) يقصد العبادة.

(٦) + ط: نن.

وتأييده، من كثرة ما أنعم عليه من أمداد التوفيق والعصمة، وأنواع التأييد والحراسة، وخاف أن يكون منه إغفال الشكر، فيقع فى الكفران، فـيحط عن تلك [المرتبة][١] الرفيعة التى هى مرتبة الخدّام الخالـصين لله عـزّ وجل، وتزول عنه تلك النعم الكريمة من ضروب ألطـاف الله تعـالى، وحسن نظره إليه.

فاستقبلته هاهنا عقبة الحمد والشكر، فأخذ فى قطعها بما أمكنه من الحمد والشكر لله على كثير نعمه، فلما فرغ من هذه العقبة فنظر فإذا هو بمقصوده ومبتغاه بين يديه، فلم يلبث إلا قليلاً حتـى وقـع فـى سـبل القضاء[٢] وعرصات المحبة، ثم يقع فى رياض الرضـوان، وبـساتين الأنس، إلى بساط الانبساط، ومرتبة التقريب، ومجلس المناجـاة، وينـل الخلع والكرامات، فهو يتنعم فى هذه الحالات، ويتقرب فى طيبها، ينتظر المزيد[٣] فيهما حتى يمل الخلق كلهم، ويستقذر الدنيا، ويحن إلى الموت.

واستكمل الشوق إلى المَلِكِ الأعلى، فإذا هو برسل رب العـالمين إليه، [يردون][٤] إليه بالريح والريحان، والبشرى والرضوان، من عنـد رب راض غير غضبان، فينقلونه فى طيبة الـنفس، وتمـام البـشرى، والأنس من هذه الفانية المفتنة إلى الحضرة الإلهيـة، ومـستقر ريـاض الجنة، فيرى لنفسه الضعيفة الفقيرة نعيماً مقيماً، وملكاً عظيمـاً، ويلقـى هنالك المليك الرحيم المفضل الكريم، جل ذكره عن العطـف واللطـف،

---

(١) ط: الرتبة.

(٢) + ط: وصحر.

(٣) ط: لفظة غير مقروءة.

(٤) + ط: يرون.

والترحيب والتقريب، والتنعيم والإنعام، والإكرام ما لا يحيط به وصف الواصفين، كل يوم فى زيادة إلى أبد الآبدين، فيالها من سعادة عظيمة، ويالها من [راية] (١) عالية، وياله من عبد مسعود، وأمر مغبوط، وشان محمود نسأل الله البارّ الرحيم سبحانه أن يمن علينا وعليكم بهذه النعمة العظيمة، "**وما ذلك على الله بعزيز**"(٢)، وألاّ يجعلنا من الذين لا نصيب لهم فى هذا الأمر [ولا] (٣) وصف وسماع، وتمنٍ بلا انتفاع، وألاّ يجعل ما تعلمناه من العلم حجة علينا يوم القيامة، وأن يوفقنا جميعاً للعمل بذلك، والقيام به كما يحب ويرضى إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

وهذا هو الترتيب الذى ألهمنى مولاى فى طريق العبادة، واعلم الآن أن الحاصل من الجملة سبع عقبات:

الأولى عقبة العلم، الثانية عقبة التوبة، الثالثة عقبة العوائق، الرابعة عقبة العوارض، الخامسة عقبة البواعث، السادسة عقبة القوادح، السابعة عقبة الحمد والشكر، وبتمامها يتم كتاب "منهاج العابدين إلى الجنة".

ونحن الآن [نتتبع] (٤) هذه العقبات بشرح موجز اللفظ، مشتملاً على [النكتة](٥) المقصودة من هذا الشأن، ثم نتبعه بشرح كل منها فى باب مفرد إن شاء الله تعالى، والله سبحانه ولى التوفيق والتسديد بمنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

---

(١) ط : رواية .

(٢) سورة إبراهيم، آية٢٠ .

(٣) ط : ألا .

(٤) ط : نتبع .

(٥) ط: النكة، والصواب كما أوردتها "للنكتة" أى المعنى.

العقبة الأولى هى: عقبة العلم والمعرفة

فأقول وبالله التوفيق يا طالب الخلاص والعبادة، عليك أولاً وفقك الله بالعلم، فإنه القطب وعليه المدار، واعلم أن العلم والعبادة جوهران، لأجلهما كان كل ما[1] ترى وتسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين، ونظر الناظرين، بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، بل لأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهما من الخلق وتأمل آيتين فى كتاب الله عز وجل هما: قوله جلّ ذكره: "**الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً**"[2].

وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم، ولاسيما علم التوحيد، والآية الثانية قوله جل من قائل: "**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**"[3] وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العبادة، ولزوم الإقبال عليها، فأعظم بأمرين[4] هما المقصود من خلق الداريْن فَحُقَّ للعبد أن لا يشتغل إلا بهما، ولا ينبعث إلا لهما، ولا ينظر إلا فيهما، فاعلم أن ما سواهما من

---

(١) ط : كلما، والصواب كما أوردتها "كل ما" لأن ما موصولة بمعنى الذى فلا تأتى متصلة بكل، ولا تتصل بها إلا فى حالة الشرط. نحو قوله تعالى: "كلما دخل عيلها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً".

(٢) سورة الطلاق، آية ١٣.

(٣) سورة الذرايات، آية ٦٥ .

(٤) أعظم بأمرين: أسلوب تعجب كقولنا: "ما أعظمهما"، كقوله تعالى: " أسمع به وأبصر" فى سورة الكهف.

الأمور باطل لا خير فيه، ولغو لا حاصل له. فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما، قال النبى صلى الله عليه وسلم: "**نظرة إلى العالم أحب إلى الله من عبادة سنة صيامها وقيامها**"(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: " ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة؛ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "**هم علماء أمتى**"(٢). فبان ذلك أن العلم أشرف جواهراً من

---

(١) (٢) لم يرد هذان الحديثان بلفظهما فى معظم الكتب الصحيحة التى عوّلت عليها فى التحقيق، وما ورد فى نفس المعنى والموضوع ما يلى:

عن ثعلبة بن الحكم الصحابى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل العلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفصل عباده إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالى . رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات . قال الحافظ رحمه الله : وأنظر إلى قوله سبحانه وتعالى "علمى وحلمى" وأمعن النظر فيه يتضح لك بإضافته إليه عز وجل أنه ليس المراد به علم أكثر أهل الزمان المجرد عن العمل به والإخلاص [١٣٢] وروى عن أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول يا معشر العلماء إنى لم أضع علمى فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم . رواه الطبرانى فى الكبير. وروى عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يجاء [١٣٣] بالعالم والعابد فيقال للعابد أدخل الجنة ويقال للعالم قف حتى تشفع للناس. رواه الأصبهانى وغيره [١٣٤] وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبعث العالم والعابد فيقال للعابد أدخل الجنة ويقال للعالم أثبت حتى تشفع بما أحسنت أدبهم رواه البيهقى وغيره [١٣٥]. وروى عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً وذلك لأن الشيطان يبدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها. رواه الأصبهانى وعجز الحديث يشبه المدرج حضر الفرس يعنى عدوه [١٣٦] . وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد. رواه الترمذى وابن ماجه والبيهقى من رواية بن جناح تفرد به

العبادة، ولكن لابد للعبد من العبادة مع العلم، وإلا كان العلم هباءً منثوراً، فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة كمنزلة ثمرة من ثمراتها ، فالشرف للشجرة المثمرة؛ إذ هى الأصل، لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرتها، [فإذن][1] لابد للعبد منهما جميعاً. فالعلم أولى بالتقديم لا محالة من العبادة، ليسلم له شرف العلم، ولابد للعبد أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب، ولهذا قال الحسن البصرى[2] (رحمة الله تعالى عليه): "اطلبوا

عن مجاهد عنه (أبو محمد، عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، الترغيب والترهيب من = = الحديث الشريف، تحقيق محمد عوامة، دار الرشد، سوريا، ط الأولى ١٩٨٩، جـ ١، ص ٥٧).

(١) ط: فاذ.

(٢) الحسن البصرى: ولد الحسن البصري عام ٢١ هـ في المدينة إبان خلافة عمر بن الخطاب، ويقال إن الخليفة الثاني حنكه بيده ودعا له قائلاً : اللهم فقه في الدين وحببه إلي الناس . وكان والده فارسي نصراني أسر في ميسان أو بيسان (بيسابور) حين فتحها المسلمون ، ثم أسلم وتسمي باسم يسار حيث كان يسمي قبل الإسلام فيروز ، واتخذه زيد بن ثابت الانصاري رضي الله عنه مولي له . وتزوج يسار من أم الحسن بالمدينة واسمها خيرة واتخذتها أم سلمة زوج النبي ﷺ مولاة لها . ولما ولد لهما الحسن أعتقا . ويروى أن أم الحسن كانت إذا غابت في حاجة ، يبكي الحسن ، فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلي أن تجيء أمه ، فدر عليه ثديها فشربه ، فيرون أن حكمته وفصاحته كانت من بركة ذلك . وكانت أمه محدثة وقاصة ، وقد أثرت في حياة أبنها أكبر تأثير . نشأ الحسن البصري بالمدينة ، وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان ، ولازم الجهاد والعلم والعمل ، وكان أحد الشجعان الموصوفين . وقد نهل الحسن من ينابيع علوم الصحابة الذين كانوا أوعية العلم والمعرفة وحملة الإرث المحمدي أمثال عثمان بن عفان وعمران بن الحصين وعبد الرحمن بن سمرة ، والمغير بن شعبة ، وسمرة بن جندل ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمر .... وغيرهم ، ثم انتقلت أسرته إلي البصرة . فكان الحسن البصري معاصراً لعدد كبير من الصحابة، وقد أتاح له ذلك أن أرسل الحديث عن بعضهم ، وسمع من بعضهم ، وأثر =

= فيه من بينهم عبد الله بن العباس . فقد أتاحت له نشأته الأولي في المدينة أن يخالط أصحاب رسول الله ﷺ، ويقال أنه عرف منهم سبعين صحابياً ممن حاربوا في غزوة بدر .

وقد تتلمذ الحسن البصري في البصرة علي مجموعة من عبادها الكبار ، وبخاصة عامر بن عبد قيس ، وصلة بن أشير وصفوان بن محرز وغيرهم من طائفة القراء . فلقد أعده أهله من قبل وفي بيوت المدينة الهادئة ليكون قارئا، والقراءة كانت تعنى في هذا الوقت العبادة والانقطاع لها . وكان علي معرفة بأخبار السابقين من الأنبياء . وسرعان ما أصبح شيخا للقراء واجتمعت فيه كل علوم عصره واتجاهاته وتولي القضاء لفترة وقد عرف الحسن البصري بتقواه وإعراضه عن زخرف الدنيا وزينتها ، كما عرف أيضاً بتضلعه في الخطابة والرواية والحكمة .

وكان الحسن البصري ضمن جامعي القرآن في مصحف عثمان . وكان بعض الصحابة يؤثر الإمام الحسن بالفتيا ويشيد بحفظه للعلم . فقد روى الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ قال لمن جاءوا يسألونه الفتية : " سالوا الحسن فإنه حفظ ونسينا " . وقال في أمره قتادة التابعي الجليل : " ما جمعت علم الحسن إلي أحد من العلماء إلا وجدت له فضلاً عليه " وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يكتب إلي الحسن البصري كلما أشكل عليه أمر – وهو خليفة المسلمين – فيجيبه الحسن بثاقب عرفانه ونفاذ بصيرته وروائع عقله . وقد امتازت حياة أبا سعيد الحسن البصري الروحية بتشعبها إلي شعب عديدة فهو من الزهاد في الدنيا وزخرفها ، المداوم على العبادة ، التقي الورع ، المقبل علي الله ، الحزين الخائف ، العالم الفقيه ، الواعظ المؤثر ، وكل ذلك جعله يحتل في تاريخ الفكر الإسلامي ، مكانة لم يدانيه فيها من معاصريه من مفكري الإسلام ، أو عباد أو زهاد الأمة ، وجعلت منه مدرسة مميزة في تاريخ الحياة الروحية في الإسلام .

دعي الإمام إلي عدم التكالب علي الدنيا ، وأن يقنع المرء بما قسمه الله له منها ، والمؤمن الحق هو الذي يكون كذلك دون غيره ، إذ يقول : يا ابن آدم لا غني بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلي نصيبك من الآخرة أفقر مؤمن متهم ، و علج أغتم ، وأعرابي لا فقه له ، ومنافق مكذب ، و دنياوي مترف ، نعق بهم ناعق فاتبعوه ، فراش نار ، و ذبان طمع . والذي نفس الحسن بيده ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً رزيناً ، وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله . والناس ماداموا في عافية مستورون ، فإذا أنزل بلاء

صاروا إلي حقائقهم : فصار المؤمن إلي إيمانه ، والمنافق إلي نفاقه . أي قوم، إن نعمة = = الله عليكم أفضل من أعمالكم فسارعوا إلي ربكم فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة . إن سيرة البصري توضح لنا جلياً تأكيده الدائم علي ذم الدنيا والزهد فيها ، حتى صار هذا الجانب من أبرز جوانب شخصيته ، مظهراً وفعلاً ، وقولاً وعملاً . يقول الحسن في أحد مواعظه لأصحابه : والله لقد صحبنا أقواماً كانوا يقولون :ليس لنا في الدنيا حاجة ، ليس لها خلقنا فطلبوا الجنة بغدوهم ورواحهم، ولا تلقاه إلا صائماً ذليلاً متبائساً خائفاً ، إذ دخل إلي أهله قرب إليه شيء أكله، إلا سكت لا يسألهم عن شيء : ما هذا وما هذا . ويوجه البصري مواعظه إلي صنف من الناس قلما تخلو الدنيا منهم في كل زمان ومكان ، وأعني بهم هؤلاء الذين يجعلون شغلهم الشاغل هو الإتيان من الدنيا ، فيسخرون جل وقتهم في جمع المال ، فإذا جاء أجلهم تنصلوا من مالهم وتركوه لغيرهم ، وذهبوا إلي يوم لا ينفعهم فيه مالهم ، بل سيسألون عنه ، من أين اكتسبوه ، وفي أي الوجوه صرفوه ؟! وينعت البصري هذا الصنف بالحماقة ، ويوعظه قائلاً :أحمق إنما تجمع مالك لامرأة تذهب به إلي زوجها أو رجل يذهب به إلي زوجته ، فإن استطعت أن تكون أخسر الثلاثة نصيباً فافعل .. يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت "يا ابن آدم ذهبت الدنيا بحال بالها وبقيت الأعمال قلائد في أعناقكم . أنتم تسوقون الناس والدنيا تسوقكم وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ فكأن قد (أي فكأنها قد حضرت) . إنه لا كتاب بعد كتابكم ولا نبي بعد نبيكم ، يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، وتتطلب الآخرة من المؤمن في نظر البصري أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه ربه ، وأن يوزن أعماله في الدنيا قبل أن توزن عليه في الآخرة ، وذلك من باب تخفيف الحساب يوم " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " فيقول : "المؤمن قوام علي نفسه يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما شق الحساب يوم القيامة علي أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبه " فما زال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همه " .

وعن البكاء والخوف والاتعاظ بالموت : قال أحد تلامذة البصري : كنت اختلف إليه ، فقال لي يوما :يا بني آدم أحزن علي خير الآخرة لعله أنا يوصلك إليه ، وابك في ساعات الليل والنهار في الخلوة لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من

الفائزين ، قال : وكنت أدخل علي الحسن منزله وهو يبكي . وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوماً : إنك تكثر البكاء، فقال يا بني ماذا يصنع المؤمن إذ = = لم يبك ؟ يا بني إن البكاء ، داع إلي الرحمة ، فإن استطعت أن تكون عمرك باكياً فافعل لعله تعالي أن يرحمك . وقال :بلغنا أن الباكي من خشيه الله لا تقطر دموعه قطرة حتى تعتق رقبته من النار . وقال : لو أن باكياً بكى في ملأ خشية الله لرحموا جميعاً ، وليس شيء من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من خشية الله فإنه لا يقوم الله بالدمعة منه شيئاً . وقال : ما بكي عبد الله إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب ورحم الله رجلاً لبس خلقاً وأكل كسرة ولصق بالأرض ودأب في العبادة وبكي علي الخطيئة . وبينما كان الحسن في المسجد إذ تنفس تنفساً شديداً ثم بكي حتى أرعدت منكباه ، ثم قال : لو أن بالقلوب حياة ، لو أن بالقلوب صلاحاً لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة . إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ولا عين باكية من يوم القيامة . ومن الطبيعي أن البكاء من خشية الله يقترن دائماً بتذكير الموت ، فالباكي يستحضر دائماً عظمة الله ووقوفه أمامه يوم القيامة . وهو لن يقف هذا الموقف إلا بعد أن يذوق الموت الذي يعتبر من أعظم العظات للمؤمن . لذلك كان البصري يتعظ ويعظ بالموت دائماً ، إذ يقول : " ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأي ذلك في عمله ، ولا طال أمل عبد قط إلا ساء العمل " . وسأل رجل الحسن : كيف أنت ، كيف حالك ، قال الحسن : وما حال من أصبح وأمسي ينتظر الموت لا يدري ما يفعل الله به . إن الموت فضح الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً ، ربما ترجع مناسبة هذا القول من الحسن إلي أن رجلاً عاد أخاً له ، فوافقه الموت ، قال فرأي من مرآي عكر الموت وكرب الموت . قال : فرجع إلي أهله وجاءوا بغدائه ، فقال : يا أهلاه عليكم بغدائكم قالوا ، : يا فلان الضيعة ، قال يا أهلاه عليكم ضيعتكم ، فو الله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى أقدم عليه، ولذلك قال يونس بن عبيد الله ما رأيت أحد أطول حزناً من الحسن ، فكان يقول : نضحك ولعل الله قد اطلع علي أعمالنا فقال : لا أقبل منكم شيئاً . وللحسن رقائق ترق لها القلوب ، خاصة وأنها قد اقترنت بالبكاء أحد الخصال المميزة التي أشتهر بها .

ويري الإمام البصري أن الإيمان الحقيقي يوجد فيمن خشي الله عز وجل بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه ، وترك ما يسخط الله . ويربط البصري الإيمان الحقيقي بالعمل

، فالمؤمن الحق تراه ملتزم بما أمره الله به من الأفعال والأعمال ، وينتهي عما نهاه عنه . ولا يصح حسن الظن بالله عند البصري بدون عمل . فهو يري أن هناك أ قوماً ألهتم أماني المغفرة، ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا، وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم= : = إني لحسن الظن بالله ، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة ، يوشك من دخل المغارة من غير زاد ولا ماء أن يهلك ويري البصري أن حقيقة الإيمان الحقيقي لا يستحقه من يكون به عيباً ويعيب الناس به ، ويأمر بصلاح عيوبهم دون نفسه ، فيقول :" لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بيعيب فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره . وإنك ناظر إلي عملك بوزن خيره و شره ، فلا تحقرن شيئاً من الشر وأن صغر فإنك إذا رأيته ساءك مكانه . رحم الله رجلاً كسب طيباً وأنفق قصداً وقدم فضلاً ليوم فقره وفاقته . وإذا سئل البصري عن أصل الإيمان ، فإنه يجيب بأن الصلاة هي أصل الإيمان . ويؤيد إجابته هذه بحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه : " الصلاة مرضاة الله تعالي ، وحب الملائكة وسنة الأنبياء ، وأصل الإيمان .."

وقد عرف الحسن البصري بالشجاعة في الرأي والثبات علي الحق حتى أمام الحكام ، لا يخشى إلا الله ، ولا يهاب ذي سلطان ، إلا الواحد القهار . يروي أنه حينما سئل بعض كبار القوم في عهد معاوية بن أبي سفيان حول خلافه ابنه يزيد ، لم يجرؤ واحد منهم علي الإدلاء برأيه ، أما الحسن البصري فقد جهر بمخالفته لذلك . وقد أظهر الحسن هذه الشجاعة في الرأي في الرسائل التي بعث بها إلي عبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف الثقفي حاكم العراق علي أيامه . وكان للحسن مع الحجاج بصفة خاصة ، مواقف مشهورة ، فقد دارت بينهما مناظرات كثيرة وكان لا يرد عليه أحد كما يرد عليه الحسن . ومن أشهر وأصعب المواجهات التي وقعت للبصري وكادت أن تؤدي بحياته لولا نصرة الله له ، ما رواه أبو عبيدة ، حيث قال لما فرغ الحجاج من خضراء واسط ، نادى في الناس ، أن يخرجوا فيدعوا له بالبركة فخرجوا وخرج الحسن ، فاجتمع عليه الناس ، وخاف أهل الشام فرجع وهو يقول قد نظرنا يا أفسق الفاسقين ، ويا أخبث الأخبثين ، فأما أهل السماء فمقتوك ، وأما أهل الأرض فيلعنوك ، ثم قال : إن الله أخذ الميثاق علي العلماء

ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فبلغ ذلك الحجاج فقال : يا أهل الشام ، يا قوم عبد من عبيد أهل البصرة ، أفيتكلم بما يتكلم ، ولا يكون عند أحدكم نكير ، ثم قال : علي به ، وأمر بالنطع والسيف ، فاستعجل والحاجب علي الباب ، فلما دنا الحسن ، حرك شفتيه ، والحاجب ينظر ، فلما دخل قال له الحجاج : هاهنا فأجلسه قريبا منه وقال :ما تقول في= = علي وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خير مني ، عند من هو شر منك . قال فرعون لموسى :" فما بال القرون الأولي قال علمها عند ربي ، قال الحجاج : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية وغلف بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي قلت حين دخلت عليه ، قال قلت : يا عدتي عند كربتي ويا صاحبي عند شدتي ويا ولي نعمتي ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ارزقني مودته واصرف عني أذاه ، ففعل ربي عز وجل . ولا تعليق علي هذه الواقعة أصدق وأبلغ من قوله جل وعلي : " وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون " . ولما توفي الحجاج ، وبلغ الحسن البصري ، قال : فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، اللهم كما أمته فأمت عنا سنته . ويقول الحسن في الظالمين عموما :ليأتين يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فما يزال يؤخذ منهم لمن ظلموا ، حتى يبقي مفلساً فيفتل إلي النار . وعن تفسيرات آيات من القرآن ،أورد الإمام أحمد بن حنبل في كتابه الزهد كثيرا من الآيات التي أجتهد البصري في تفسيرها ، ومنها قال الحسن في قوله جل وعلي :" كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون " كانوا قليلاً من الليل ما يرقدون " " و با لأسحار هم يستغفرون " : مدوا الصلاة إلي السحر ، ثم دعوا وتضرعوا . " وأحاطت به خطيئته " مات عليها "ثم يتوبون من قريب "قبل أن يغرغروا بالموت " وتبتل إليه تبتيلا "أخلص إليه إخلاصاً "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها" : تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم وأنضجتهم ، قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا " إذا الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون" إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار أنهم أعجزوا الرب تبارك وتعالي ، ولكن كلما طاف بهم اللهب أرستهم النار . وبعد أن قال الحسن ذلك ، حمل مغشياً عليه . " لا يذكرون الله إلا قليلاً ": إنما قال لأنه لغير الله عز وجل " وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ": من عجز بالليل فإن له في النهار مستعتب، ومن عجز في النهار كان له في الليل مستعتب . ولا يزال العبد بخير ما إذا قال ، قال الله ، وإذا

هذا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم".

ولما استقرّ أنه لابد للعبد السالك منهما جميعاً، فالعلم أولى بالتقديم لا محالة لأنه الأصل والدليل، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " **العلم أمام العمل، والعمل تابعه**"(١)، وإنما صار العلم أصلاً متبوعاً يلزمك

عمل ، عمل لله عز وجل" الذين هم يراؤن": إن صلاها ، صلاها رياء ، وإن لم يصلها لم يبالها. أثرت أن أسجل هنا ترجمة مطولة بعض الشيء للحسن البصري ، نظراً لمكانته بين جموع الأمة الإسلامية، فهو إمام التابعين بدون منازع ، العابد ، الزاهد ، التقي، الورع ، المقبل علي الله ، الفقيه ، الواعظ ، المؤثر ، الحزين الخائف ، عرف مقام ربه ، فخاف منه ، وعمل ليوم لقاءه ، فشهد بوحدانيته ، وصلي وصام ، وزكي وحج البيت ،= = وزهد في الدنيا ، وتكلم بكلمات رهيبة عن الجنة والنار هزت المجتمع كله آنذاك ، وانتقلت حكمه ومواعظه وسيرته عبر الأجيال لتكون نبراساً يهتدي به من أراد الاقتداء بخير سلف الأمة بعد النبي -ﷺ- وصحابته الأخيار .(راجع خالد حربي ، الحسن البصري إمام التابعين ، ط الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٣) .

(١) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام منار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الإخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة قائمة تقتض آثارهم ويقتدى بفعالهم وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعه يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء". رواه ابن عبد البر النمرى ١٢٠ فى كتاب العلم من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشي: حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمى، عن أبيه، عن

تقديمه على العبادة لأمرين: أحدهما: لتحصل لك العبادة وتسلم، فإنك أولا يجب أن تعرف المعبود ثم تعبده، وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته؟، وما يجب له وما يستحيل فى نعته، فربما تعتقد فى صفاته شيئاً والعياذ بالله تعالى مما يخالف الحق، فتكون عبادتك هباءً منثوراً، وقد شرحنا ما فى ذلك من الخطر العظيم فى بيان معنى سوء الخاتمة [فى][1] "كتاب الخوف" من كتاب "إحياء علوم الدين"[2]. ثم يجب عليك أن تعرف ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعية على ما أمرت لتفعل ذلك، وما يلزمك تركه من المناهى لتترك ذلك، فكيف تقوم بطاعات لا تعرفها ماهى؟ وكيف هى؟ وكيف يجب أن تفعل؟ وكيف تجتنب معاصى لا تعلم أنها معاصٍ، حتى لا توقع نفسك فيها.

فالعبادات الشرعية كالطهارة والصلاة والصوم وغيرها يجب أن

الحسن ، عنه وقال: هو حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوى وقد رويناه من طرق شتى موقوفاً. كذا قال رحمه الله ورفعه غريب جداً والله أعلم [١٠٨]. وعن صفوان بن عسال المرادى رضى الله عنه قال: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم، فقال: "مرحباً بطالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب". رواه أحمد والطبرانى بإسناد جيد واللفظ له وابن حبان فى صحيحه = = والحاكم وقال صحيح الإسناد. وروى ابن ماجه نحوه باختصاره. وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم وواضع العلم عند أهله كمقلد الخنازير والجوهر واللؤلؤ والذهب" رواه ابن ماجه وغيره (الترغيب والترهيب جـ ١/ ص ٥٢).

(١) ط : من.

(٢) كتاب إحياء علوم الدين، من أشهر كتب الأمام الغزالى، وقد مرّ الحديث عنه.

تعلمها بشرائطها وأحكامها حتى تقيمها، فربما أنت مقيم على شئ سنين وإن[١] مما يفسد عليك طهارتك وصلواتك، وتخرجهما عن كونهما واقعين على وفاق السنة، وأنت لا تشعر بذلك، وربما يعترض لك مشكل ولا تجد من تساله عن ذلك، وأنت ما تعلمته. ثم هذا الشأن أيضاً على العبادات الباطنة التى هى مساعى القلب يجب <أن>[٢] تعلمها من التوكل والتفويض والرضا والصبر والتوبة والأخلاص وغير ذلك مما سيأتى ذكره إنشاء الله تعالى.

ويجب أن تعلم مناهيها التى هى أضدادها من الأمور، كالسخط والأمل والرياء والكبر والعجب والحسد لتتجنب ذلك، فإن هذه فرائض نص الله تعالى على الأمر بها، والنهى عنها أضدادها فى كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: "**وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**"[٣]، "**واصبر وما صبرك إلا بالله**"[٤]، "**واصبروا إن الله مع الصابرين**"[٥]، وقوله تعالى: "**وتبتل إليه تبتيلاً**"[٦]، أى أخلص إليه إخلاصاً، الآيات.

كما نص على الأمر بالصلاة والصوم، فما بالك أقبلت على الصلاة والصوم، وتركت هذه الفرائض، والأمر بها من رب واحد، فى

---

(١) + ط: مانا.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) سورة المائدة ، آية ٢٣ .

(٤) سورة النحل، آية ١٢٧.

(٥) سورة الأنفال، آية ٤٦.

(٦) سورة المزمل ، آية ٨.

كتاب واحد، بل غفلت عنها فلا تعرف شيئاً منها أبفتوى [ممن][1] أصبح بعاجل حظه مشغوفاً حتى صيّر المعروف منكراً، والمنكـــر معروفـــاً؟، وبمن أهمل[2] العلوم التي سماها الله تعالى فـــى كتابـــه نـــوراً وحكمـــه وهدى؛، وأقبل على ما به يكتسب الحرام، ويكون مصيره للحطام، أمـــا تخاف أيها المسترشد أن تكون مضيعاً لشئ من هـــذه الواجبـــات؟، بـــل لأكثرها، وتشتغل بصلاة التطوع، وصيام النفل ، فتكون فى لا شئ؟!.

وربما أنت مصرّ على معصية من هذه المعاصى التى تـــستوجب بها النار، وتترك مباحاً من طعام أو شراب أو نوم تبتغى به قربة إلى الله عز وجل فتكون فى لا شئ.

وأشد من ذلك كله أنك تكون فى أمر الأمل، والأمل فى معـــصية محضة، فتظنه فيه خير لجهلك بالفرق بينهما، وتقاربهمـــا فـــى بعـــض الوجوه، وكذلك تكون فى جزع وسخط فتظنه تضرعاً وابتهالاً إلـــى الله عز وجل، وتكون <فى>[3] رياء محضٍ وتحسبه حمداً لله، أو دعوة الناس إلى الخير، فتأخذ تعد على الله سبحانه وتعـــالى المعاصـــى بالطاعـــات، وتحسب الثواب العظيم فى مواضع العقوبات فتكون فى غرور عظـــيم، وغفلة قبيحة، وهذه والله مصيبة عظيمة للعاملين من غير علم، [و][4] ذلك أن الأعمال الظاهرة علائق من المساعى الباطنة، تـــصلحها وتفـــسدها، كالإخلاص والرياء والعجب وذكر المنة وغير ذلك، فمن لم يعلـــم هـــذه

---

(١) ط : من .

(٢) ط: مقروءة بصعوبة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ط : ما مح.

المساعى الباطنة، ووجه تأثيرها فى الأعمال الظاهرة، وكيفية الاحتراس منها، وحفظ العمل، فقل ما يسلم له عمل الظاهر أيضاً، فتفوتـــه طاعـــة الظاهر والباطن، فلا يبقى بيده إلا الشقاء والكدّ، وهـــذا هـــو الخـــسران المبين، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**نوم على علم خيـــر من صلاة على جهل**"[1] فإن العابد بغير علم يفسد أكثر مما يصلح.

والمعنى –والعلم عند الله– : أن إحدى شقوتيه أن لا يتعلم العلم، ثم يشقى وينصب فى العبادات على حَبَط، فلا يكون لـــه مـــن ذلـــك إلا العناء، نعوذ بالله من علم وعمل لا ينفع وعمل لا ينفـــع. ولهـــذا عنايـــة العلماء الزهاد العاملين رضى عنهم بالعلم خاصة من بين أبناء النـــاس، فإن مدار أمر العبودية، وملاك العبادة، والخدمة من رب العالمين علـــى العلم، وهذا يكون نظر أولى الأبصار، وأهل التوفيق والتأييد . فإذا تبين لك بهذه الجملة أن الطاعة لا تحصل للعبد ولا تسلم له إلا بالعلم، فيلـــزم إذن تقديمه فى شأن العبادة.

وأما الخصلة الثانية التى يجب تقديم العلم: إن العلم النافع يثمـــر

---

(١) الحديث ضعيف، ورد فيما يلى من الكتب: =

- محمد ناصر الألبانى، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبيـــر) المكتـــب الإسلامى، بيروت ١٤٠٨هـــ، جـــ ٥، ص ٥٩٧٣.
- الصنعانى، محمد بن أحمد بن جار الله العدى، النوافح العطـــرة فـــى الأحاديـــث المشتهرة، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، ط الثالثة، مؤسسة الكتب الثقافيـــة، بيروت ١٤١٤هـــ، جـــ ١٠، ص ٢٤٠٧. =
- أبو الفيض، أحمد بن محمد بن الـــصديق الغمـــارى، المغيـــر علـــى الأحاديـــث الموضوعة فى الجامع الصغير، ط دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠٢هـــ، جــــ ٥، ص ١٣٠.

خشية الله تعالى، ومهابته، قال الله تعالى: "**إنما يخشى الله من عباده العلماء**"[١] وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يَهَبْهُ حق مهابته، ولم يعظمه حق تعظيمه وحرمته، فصار العلم يثمر الطاعة كلها، ويحجز المعصية كلها، بتوفيق الله، <و>[٢] ليس وراء هذين مقصد للعبد فى عبادة الله سبحانه وتعالى، فعليك بالعلم أرشدك الله يا سالك طريق الآخرة أول شئ . والله ولى التوفيق بفضله.

لعلك أن تقول: قد ورد فى الخبر عن صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه أنه قال: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**"[٣] [فما العلم] [٤] الذى طلبه فرض لازم؟، وما الحمد الذى لابدّ للعبد من تحصيله فى أمر العبادة؟

فاعلم أن الأمور التى طلبها فى الجملة فرض ثلاثة: **علم التوحيد**[٥]، **وعلم السّر**، أعنى به ما يتعلق بالقلب ومساعيه، **وعلم**

(١) سورة فاطر، آية ٢٨ : .

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) حديث: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والله يحب إغاثة اللهفان" ضعيف ، أنظره فى محمد ناصر الدين ، الألبانى ، ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ، طبعة المكتب الإسلامى ، بيروت ، ط الثالثة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، ص ٥٣٠ .

(٤) ط : فالعلم .

(٥) علم التوحيد :التوحيد : مصدر وحدة الشئ ، يوحده توحيداً إذا أفرده ، ونفى عنه التعدد . والتوحيد فى عرف الشرع : نفى الكُفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، ونفى الشريك فى ربوبيته ، وعبادته عز وجلّ . قال تعالى فى نفى الكفء : "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكُن له كفواً أحد " (سورة الإخلاص بكاملها) . وقال : "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملكُ السمعَ والأبصارَ ومَنَ يُخرجُ الحى من الميت

الشريعة[1]، وما حدّ ما يجب من كل واحد منها؟

ويُخرج الميت من الحى ومَنَ يُدبرُ الأمر َ فسيقولُونَ الله" (سورة الرعد ، آية ١٦) . وقال : "قل من يرزقكم من الماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله" (سورة يونس ، آية ١٣) . وقال فى نفى الشريك فى العبادة : "فاعلم أنه لا إله إلا الله" (سورة محمد ، آية ١٩) . وقال : " قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمــرت وأنــا أول المسلمين" (سورة الأنعام ، آية ١٦٢) . ومن هنا كان التوحيد على ثلاثة أقسام : توحيد فى الذات والأسماء والصفات ، وتوحيد فى الربوبية ، وهى اختصاصه تعالى ، وتفرده بالخلق ، والرزق ، والتدبير لسائر الخلق والملكوت ، وتوحيد فى الألوهية ، أى فى العبادة وهو= = اختصاصه تعالى بسائر العادات ، وتفرده بها دون سائر مخلوقاته ، سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة ، والأنبياء ، والصالحين . أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات ؟ (انظر ، أبو بكر الجزائرى ، عقيدى المؤمن، دار الفكر العربى (د.ت) ، ص ٨٩-٩٠).

(١) علم الشريعة أو الشرع : هو علم صدر عن الشئ ، أو توقف عليه العلم الصادر عــن الشرع توقف وجود كعلم الكلام ، أو توقف كمال كعلم العربية والمنطق . كذا قال ابن حجر المكى فى شرح أربعين النووى . ومن آلات هذا العلم ، علم الــصرف والنحــو واللغــة والمعانى والبيان . والعلم الشرعى عبارة عن التفسير والحديث . وأما الفقه ، فهو من علوم الدنيا . والشرع ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام التى جاء بها كتابه المنــزل ونبيــه المرسل الموحى إليه منه تعالى ، سواء كانت متعلقة بكيفية الاعتقاد وتسمى فرعية وعملية ، ودون لها علم الفقه ، أو بكيفية الاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية ، ودون لها علم الكلام . ويسمى الشرع أيضاً بالدين والملة ، فإن تلك الأحكام من حيث إنها تطاع ، ديــن ، ومــن حيث إنها تُملى وتُكتب ، ملة. ومن حيث إنها مشروعة ، شرع. فالتفــاوت بينهــا بحــسب الاعتبار لا بالذات ، إلا أن الشريعة والملة تضافات إلى النبى ﷺ وإلى الأمة فقط استعمالاً ، والدين يضاف إلى الله تعالى أيضاً . وقد يعبر عنه بعبارة أخرى ، فيقال : هو وضع إلهى يسوق ذوى العقول باختيارهم المحمود إلى الخير والذات ، وهو ما يصلحهم فى معاشــهم ومعادهم . فالوضع الإلهى هو الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء عليهم الــسلام . وقــد يخص الشرع بالأحكام العملية الفرمية ، وإليه يشعر ما فى شرح العقائــد النــسفية: العلــم

فالذى يتعين فرضه من علم التوحيد مقدار ما يعرف <به> [1]ول الدين، وهو أن تعلم أن لك إلهاً عالماً، قادراً، حياً، متكلماً، سميعاً، بصيراً

المتعلقة بالأحكام الفرعية يسمى علم الشرائع والأحكام وبالأحكام الأصلية ، يسمى علم التوحيد والصفات . وما فى التوضيح من أن العلم بمعنى خطاب الله تعالى على قسمين : شرعى أى خطاب بما يتوقف على الشرح ولا يدرك لولا خطاب الشارع ، كوجوب الصلاة . وغير شرعى ،أى خطابه تعالى بما لا يتوقف على الشرع ، بل الشرع يتوقف عليه كوجوب الإيمان بالله تعالى وسوله ﷺ . وما فى شرح المواقف من أن الشرعى يجزم العقل بإمكانه ثبوتاً وانتفاء ولا طريق للعقل إليه ، ويقابله العقلى وهو ما ليس كذلك . وقد يطلق الشرع على القضاء ، أى حكم القاضى . والشرعى كما يطلق على مرّ ، كذلك يطلق على مقابل الحسى ، فالحسى ماله وجود حسى فقط ، والشرعى ماله وجود شرعى مع الوجود الحسى كالبيع ، فإن له وجوداً حسياً ، ومع هذا له وجود شرعى ، فإن الشرع يحكم بأن= = الإيجاب والقبول الموجودين حساً يرتبطان ارتباطاً حكمياً ، فيحصل معنى شرعى يكون الملك أثر له . فذلك المعنى هو البيع حتى إذا وجد الإيجاب والقبول فى غير المحل لا يعتبره الشرع . وقد يقال إن الفعل إن كان موضوعا فى الشرع لحكم مطلوب ، فشرعى ، وإلا فحسى . وقيل : الشرع المذكور على لسان الفقهاء بيان الأحكام الشرعية . والشريعة كل طريقة موضوعة بوضع إلهى ثابت من نبى من الأنبياء ، ويطلق كثيراً على الأحكام الجزئية التى يتهذب بها المكلف معاشاً ومعاداً ،سواء كانت منصوصة من الشارع ، أو راجعة إليه . وتالشرع كالشريعة : كل فعل أو ترك مخصوص من نبى من الأنبياء صريحاً أو دلالة ، فإطلاقة على الفروع مجاز ، وتطلق على ألصول حقيقة كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه غيرها ، ولا يتطرق النسخ فيها ، ولا تختلف أهل الاعتزال ورد مجيزاً لحكم العقل ومقرراً له ، لا منشأ ، وقوله تعالى "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً" قال ابن عباس : الشرعة ما ورد به القرآن ، والمنهاج ما ورد به فى السنة والشريعة هى الائتمار بالتزامه العبودية ، وقيل : هى الطريق فى الدين ، وحيئذ الشرع والشريعة مترادفان . كذا فى الجرجانى ، وكذا فى كشاف اصطلاحات الفنون (صديق حسن القونى ، أبجد العلوم ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م، ص ٤٢٣ -٤٢٤).

(١) زيادة يقتضيها السياق .

، مريداً، واحداً لا شريك له، متصفاً بصفات الكمال، منزها عن دلالة الحدوث، منفرداً بالقدم على كل محدث. وأن محمداً (ﷺ) عبده ورسوله الصادق فيما جاء به عن الله سبحانه وتعالى فيما ورد على لسانه من أمور الآخرة، ثم مسائل فى شعار السنة يجب معرفتها، وإياك أن تبتدع فى دين الله تعالى لم يأت به كتاب ولا أثر، فتكون مع الله تعالى على أعظم خطر .

وجميع أدلة التوحيد موجود أصلها فى كتاب الله تعالى، وقد ذكرها شيوخنا رضى الله عنهم فى كتبهم التى صنفوها فى أصول الديانات.

وعلى الجملة كل ما تأمن الهلاك مع جهله فطلب علمه فرض لا يسوغ لك تركه، فهذه هذه وبالله التوفيق.

وأما الذى يتعين فرضه من علم السرّ: فمعرفة مواجبه ومناهيه حتى يحصل لك تعظيم الله، والإخلاص والنية وسلامة العلم والعمل، وعامة ذلك يأتى فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى.

وأما علم الشريعة: فكلما[1] وجب عليك فرض فعله، وجب عليك معرفته كالطهارة والصلاة والصيام. وأما الحج والجهاد والزكاة إن تعيّن عليك[2] ، وجب عليك علمها لتؤديها، وإلا فلا. فهذه أحد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لا محالة، ويتعين ذلك بحيث لابد لك من ذلك.

فإن قلت: فهل يفترض علىّ أن أتعلّم من علم التوحيد ما انقضى

(١) + ط : ما .

(٢) + ط : لك.

به من ملل الكفر، وألزمهم حجة السنة، وأنقض جميع البدع[١]، وألزمهم حجة السنة؟، فاعلم أن هذا فرض على الكفاية، إنما [يتعّين][٢] عليك ما تصحح به اعتقادك فى أصول الدين لا غير. وكذلك لا يتعين معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه، والإتيان على جميع مسائله، نعم، وإن وردت عليك شبهة فى أمور الدين تخاف أن تقدح فى اعتقادك، فيتعّين عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع، والمماراة، والمجادلة، فإنها داء محض لا دواء له، فاحترف منه جهدك؛ فإن من ارتداه لم يفلح إلا أن يتعمده الله برحمته ولطفه.

ثم اعلم أنه إذا كان فى كل قطر داعٍ <من>[٣] دعاة أهل السنة يحل الشبهة، ويرد على أهل البدعة، ويشتغل بهذا العلم، ويصفى قلوب أهل الحق عن وسواس أهل المبتدعة، فقد سقط الفرض عن من سواه.

وكذلك لا يلزمك معرفة دقائق علم السرّ، وجميع شرح عجائب القلب، إلا ما يفسد عليك عبادتك فتجب معرفته لتجتنبه، وما يلزمك فعله كالإخلاص والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك، فيلزمك معرفته لتؤديه، وأما سواه فلا. وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أنواع الفقه من البيوع والإجارة والنكاح والطلاق والجنايات، إنما كل ذلك فرض على الكفاية.

فإن قلت: هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الإنسان من غير معلم؟ فاعلم أن الأستاذ فاتح ومسهل، فالتحصيل <معه>[٤] أحسن

---

(١) ط : مطموسة.

(٢) ط: يتعن.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

وأروج، والله تعالى بفضله يمنُّ على من يشاء من عبـــاده فيكـــون هـــو معلمهم سبحانه وتعالى.

ثم اعلم أن هذه العقبة التى هى عقبة العلم، عقبة كئود، ولكن بها ينال المطلوب والمقصود، نفعها كثير، وقطعها شديد، وخطرها عظيم، كم من عَدَلَ عنها، فضلّ، وكم من سلكها فذلّ، وكم [من][1] تائه فيها متحير، وكم من حسير منقطع، وكم من سالك قطعها فى مدة يسيرة، وآخر متردد فيها سبعين[2]، والأمر كله بيد الله عز وجلّ.

أما نفعه فعلى ما ذكرنا من شدة الحاجة للعبد إليه، وبنـــاء أمـــر العبادة كلها عليه، لاسيما علم التوحيد وعلم السرّ، فلقد روى أنه تعـــالى أوحى إلى "داود" عليه السلام فقال: **يا داود تعلم العلم النافع؟** قال: **ومـــا العلم النافع؟** قال: **"أن تعرف جلالى وعظمتى وكبريائى وكمـــال قـــدرتى على كل شئ فإن هذا هو الذى يقربك إلىّ"**. وعن علىّ[3] كرّم الله وجهه

---

(١) ط: منه.

(٢) لعله يقصد سبعين سنة، والله أعلم .

(٣) على : هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بـــن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الهاشمي . ابن عم رسول الله ﷺ ، وابـــن أبـــي طالب بن عبد مناف . أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وكنيته : أبو الحسن أخو رسول الله ﷺ ، وصهره علي ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين ، وهو أول هاشمي ولد بين هاشميين وأول خليفة من بني هاشم ، وكان علي أصغر من جعفر وعقيل وطالب . وهـــو أول الناس إسلاماً في قول مثير من العلماء .. وهاجر إلي المدينة ، وشهد بدراً ، وأحـــداً ، والخندق ، وبيعة الرضوان ، وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ إلا تبوك ، فإن رسول الله ﷺ خلفه علي أهله ، وله في الجميع بلاء عظيم وأثر حسن ، وأعطاه رسول الله ﷺ اللواء في مواطن كثيرة بيده ، منها يوم بدر – وفيه خلاف– ولما قتل مصعب بن عمير يوم أحد

وكان اللواء بيده دفعه رسول الله ﷺ إلي علي . وأخاه رسول الله ﷺ مرتين ، فإن رسول الله ﷺ آخي بين المهاجرين ، ثم آخي بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة ، وقال لعلـــي أنت أخي في الدنيا والآخرة .وعن إسلامه ﷺ ، يروي أنه جاء بعد إسلام خديجـــة بيـــوم واحد فوجدهما يصليان ، فقال علي : يا محمد ، ما هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : "ديـــن الله الذي أصطفي لنفسه ، وبعث به رسله ، فأدعوك إلي الله وإلي عبادته وتكفر باللات والعزي " فقال له علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاضي أمراً حتى أحدث أبا طالب . فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : يا علي ، إن لـــم تسلم فاكتم . فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام ، فأصبح غاديـــاً إلي رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد ؟ فقال له رسول الله ﷺ :"= = تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزي ، وتبرأ من الأنـــداد . ففعل علي وأسلم ومكث علي يأتيه سراً خوفاً من أبي طالب ، وكتم علي إسلامه . وكـــان ممن أنعم الله به علَي علي أنه ربي في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام . وعن أنس بـــن مالك قال : بعث النبي ﷺ يوم الاثنين . وأسلم علي يوم الثلاثاء . وقال علي: أنا أول مـــن صلي مع النبي ﷺ . وقال رسول الله ﷺ : " لقد صلت الملائكة علَي وعلي علَي سبع سنين ، وذاك أنه لم يصل معي رجل غيره ". وكان سن علي وقت أن أسلم خمس عشرة ســـنة ، وقيل ثمان سنين والأول أقرب إلي التصديق، وعن هجرته ﷺ روي أن رسول الله ﷺ أقام بعد أن هاجر أصحابه إلي المدينة ، ينتظر مجيء جبريل عليه السلام وأمره له أن يخرج من مكة بإذن الله له في الهجرة إلي المدينة ، حتى إذا اجتمعت قريش فمكـــرت بـــالنبي ، وأرادوا برسول الله ﷺ ما أرادوا ، أتاه جبريل عليه السلام وأمره أن لا يبيت في مكانه الذي يبيت فيه فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأمره أن يبيت علي فراشه ، ويتسجس له ببرد أخضر ، ففعل ، ثم خرج رسول الله ﷺ علي القوم وهم علي بابه . وتتابع الناس في الهجرة ، وكان آخر من قدم المدينة من الناس ولم يفتن في دينه علي بن أبي طالب وذلك أن رسول الله ﷺ أخره بمكة وأجله ثلاثاً وأمره أن يؤدي لكل ذي حق حقه ففعل علي وأدي أمانتـــه كلهـــا ، وأمره أن يضطجع علي فراشه ليلة خرج ، فاضطجع علي فراشه ، وكانت قريش تنظـــر علي فراش النبي ﷺ فيرون عليه علياً ، فيظنونه النبي ﷺ ، حتى إذا أصـــبحوا رأوا عليـــه علياً ، فقالوا :لو خرج محمد لخرج بعلي معه ، فحبسهم الله بذلك عن طلب النبي حـــين

رأوا علياً ، وأمر النبي ﷺ علياً أن يلحقه بالمدينة ، فخرج علي في طلبه بعدما أخرجه إليه أهله يمشي الليل ويكمن النهار ، حتى قدم المدينة . فلما بلغ النبي ﷺ قدومه قال : ادعوا لي علياً . قيل يا رسول الله ، لا يقدر أن يمشي . فأتاه النبي ﷺ ، فلما رآه اعتنقه وبكى ، رحمة لما بقدميه من الورم ، وكانتا تقطران دماً ، فتفل النبي ﷺ في يديه ، ومسح بهما رجليه ، ودعا له بالعافية فلم يشتكهما حتى استشهد ﷺ . وأجمع أهل التاريخ والسند على أنه شهد بدراً وغيرها من المشاهد ، وانه لم يشهد غزوة تبوك لا غير لأن رسول الله ﷺ خلفه علي أهله . وكان علي يخطر بسيف هام المشركين .وكان سعد بن عبادة صاحب راية رسول الله ﷺ في المواطن كلها فإذا كان وقت القتال أخذها علي بن أبي طالب . ويوم أحد قال علي : لما تخلي الناس عن رسول الله ﷺ ، نظرت في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ فقلت: والله ما كان ليفر وما أراه في القتلى، واكن الله غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيه ،=
= فما في خير من أن أقاتل حتى أقتل ، فكسرت جفن سيفي ، ثم حملت علي القوم فأفرجوا إلي ، فإذا برسول الله ﷺ بينهم . و لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء ، فلما كان من الغد أخذه عمر – وقيل : محمد بن مسلمة– فقال رسول الله ﷺ : لأدفعن لوائي إلي رجل لم يرجع حتى يفتح الله عليه ، فصلي رسول الله ﷺ صلاة الغداة ، ثم دفع باللواء ، فدعا علياً وهو يشتكي عينيه ، فمسحها ثم دفع إليه اللواء ففتح . وأخبار علي في حروبه كثيرة لا نطول بذكرها ، تحتاج إلي كتب . أما علمه ﷺ فقد روي عن النبي ﷺ فأكثر ، وروي عنه بنوه الحسن والحسين ومحمد وعمر ، وعبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو موسى الأشعرى وأبو سعيد الخدرى ، وأبو رافع ، و صهيب ، وزيد بن أرقم ، وجابر بن عبد الله ، وأبو أمامة ، وأبو هريرة ، وجابر بن سمرة ، وجرير بن عبد الله وعبد الرحمن بن أشيم ، وغيرهم من الصحابة . وروي عنه من التابعين : سعيد بن المسيب ، ومسعود بن الحكم الزرقى ، وقيس بن أبي حازم ، وعبيدة السلمانى ، وعلقمة بن قيس ، وعبد الرحمن بن أبي ليلي والأحنف بن قيس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وزر بن حبيش ، وشريح بن هانئ ، والشعبي وشقيق ، وخلق كثير غيرهم . فعن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ إلي اليمن ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثني إلي اليمن ، ويسألوني عن القضاء ولا علم لي به ! قال : ادن . فدنوت ، فضرب بيده علي صدري ، ثم قال : " اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه " فلا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة

ما شككت في قضاء بين اثنين بعد . فقال ابن عباس : لقد أعطي علي تسعة أعشار العلم ، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر . وقال : إذا ثبت لنا الشيء عن علي ، لم نعدل عنه إلي غيره . أما عن زهده وعدله ﷺ ، فكان من أزهد الناس في الدنيا ، ومن أقواله فيها : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً ، فليصبر علي مخالطة الكلاب . وقال عمار بن يسار : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب : يا علي ، إن الله قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب منها : الزهد في الدنيا ، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً ، ولا تنال الدنيا منك شيئاً . ووهب لك حب المساكين ، ورضوا بك إماماً ، ورضيت بهم أتباعاً ، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب عليك ، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك ، فهم جيرانك في دارك ، ورفقاؤك في قصرك ، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك ، فحق علي الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة . يقول علي : لقد رأيتني وأنا أربط الحجر علي بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار . وحدث أبو النوار بياع= = الكرابيس (كلمة فارسية تعني ثوب من القطن) قال : أتاني علي بن أبي طالب ومعه غلام له ، فاشتري مني قميص كرابيس ، فقال لغلامه : أختر أيهما شئت ، فأخذ أحدهما ، وأخذ علي الأخر فلبسه ، ثم مد يده فقال : اقطع الذي يفضل من قدر يدي . فقطعه وكفه (خاط حواشيه) ولبسه وذهب . وحدث رجل من ثقيف قال : استعملني علي بن أبي طالب علي مدرج سابور ، فقال : لا تضربن رجلاً سوطاً في جباية درهم ، ولا تتبعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاءً ولا صيفاً ، ولا دابة يعتملون عليها ، ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم . قلت يا أمير المؤمنين ، إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك . قال : وإن رجعت ويحك ! إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو – يعني الفضل . وزهده وعدله ﷺ لا يمكن استقصاء ذكرهما. أما عن فضائله ﷺ فيكفي أن نذكر لأن رسول الله ﷺ لما أراد الهجرة ، خلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده ، وأمره ليلة خرج إلي الغار وقد أحاط المشركون بالدار، أن ينام علي فراشة ، وقال له : اتشح ببردي الحضرمي الأخضر، فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه ، إن شاء الله تعالي . ففعل ذلك ، فأوحي الله إلي جبريل وميكائيل عليهما السلالم أني آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الأخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة ، فأوحي الله عز وجل إليهما : أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب ؟! آخيت بينه وبين نبيي محمد ، فبات علي فراشة يفديه

بنفسه ، ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلي الأرض فاحفظاه من عدوه . فنزلا ، فكان جبريل عند رأس عليٍ ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادي : بخ بخ ! من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله عز وجل به الملائكة !!؟ فأنزل الله عز وجل علي رسوله ﷺ ، وهو متوجه إلي المدينة في شأن علي : (ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله) . وقال ابن عباس في قوله تعالي : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية) قال : نزلت في علي بن أبي طالب ، كان عنده أربعة دراهم ، فأنفق بالليل واحداً ، وبالنهار واحداً ، وفي السر واحداً وفي العلانية واحداً . قال رسول الله ﷺ لعلي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ، ولما كان يوم الطائف دعا رسول الله ﷺ علياً فناجاه طويلاً ، فقال بعض أصحابه : لقد أطال نجوى ابن عمه قال – يعني رسول الله ﷺ – ما أنا انتجيته ، ولكن الله انتجاه . وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي ﷺ في سور بالمدينة ، فقال : يطلع عليكم رجل من أهل الجنة . فجاء أبو بكر فهنيناه ، ثم قال يطلع عليكم رجل من أهل الجنة . فجاء عمر فهنيناه، ثم قال: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة.= = قال : ورأيت رسول الله ﷺ يصغي رأسه من تحت السعف ويقول : اللهم إن شئت جعلته علياً . فجاء علياً فهنيناه .وعن ابن عمر قال : آخي رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فجاء علي فقال : يا رسول الله ، آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد . فقال رسول الله ﷺ : " أنت أخي في الدنيا والآخرة " . وعن خلافته ﷺ ، قيل : يا رسول الله ، من يؤمر بعدك ؟ قال :" إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة ، وإن تؤمروا عمر تجدوه قوياً أميناً ، لا يخاف في الله لومة لائم . وإن تؤمروا علياً – ولا أراكم فاعلين – تجدوه هادياً مهدياً ، يأخذ بكم الصراط المستقيم ". وروي أن رسول الله ﷺ : قال لعلي " أنت بمنزلة الكعبة ، تؤتي ولا تأتي ، فإن أتاك هؤلاء القوم فسلموها إليك – يعني الخلافة – فاقبل منهم ، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك ". قال علي : قبض النبي ﷺ وأنا أرى أني أحق بهذا الأمر ، فاجتمع المسلمون علي أبي بكر ، فسمعت وأطعت ، ثم إن أبا بكر أصيب ، فظننت أنه لا يعدلها عني ، فجعلها في عمر ، فسمعت وأطعت ثم أن عمر أصيب ، فظننت أنه لا يعدلها عني فجعلها في ستة أنا أحدهم ، فولوها عثمان ، فسمعت وأطعت . ثم إن عثمان قتل ، فجاءوا فبايعوني طائعين غير مكرهين ، ثم خلعوا بيعتي ، فوا لله ما وجدت إلا السيف أو الكفر بما أنزل الله عز وجل علي محمد ﷺ . وقد استخلف

أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وبويع له بالمدينة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل عثمان في ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين . فلما قتل عثمان ﷺ جاء الناس كلهم إلي علي يهرعون ، أصحاب محمد وغيرهم ، كلهم يقول : " أمير المؤمنين علي" حتى دخلوا عليه داره ، فقالوا : نبايعك فمد يدك ، فأنت أحق بها . فقال علي : ليس ذاك إليكم ، وإنما ذاك إلي أهل بدر ، فمن رضى به أهل بدر فهو خليفة . فلم يبقي أحد إلا أتي علياً ، فقالوا : ما نري أحد أحق بها منك ، فمد يدك نبايعك . فقال : أين طلحة والزبير؟ فكان أول من بايعه طلحة بلسانه ، وسعد بيده ، فلما رأي علي ذلك خرج إلي المسجد ، فصعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه ، فبايعه طلحة ، وتابعه الزبير ، وأصحاب النبي ﷺ رضي عنهم أجمعين . ولما دخل علي بن أبي طالب الكوفة ، ودخل عليه رجل من حكماء العرب فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد زنت الخلافة وما زانتك ، ورفعتها وما رفعتك ، وهي كانت أحوج إليك منك إليها . وسئل عبد الرحمن بن عوف : كيف بايعتم عثمان وتركتم علياً ؟ فقال : ما ذنبي ؟ قد بدأت بعلي فقلت أبايعك علي كتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر. قال فقال : فيما استطعت . قال فعرضتها علي عثمان فقبلها . ولما بايعه الناس= = تخلف عن بيعته جماعة من الصحابة منهم : ابن عمر ، وسعد ، وأسامة ، وغيرهم . فلم يلزمهم بالبيعة ، وسئل علي عمن تخلف عن بيعته ، فقال أولئك قعدوا عن الحق ، ولم ينصروا الباطل . وتخلف عنه أهل الشام مع معاوية فلم يبايعوه ، وقاتلوه . وعن أبي سعيد الخدرى قال : أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والساقطين والمارقين ، فقلنا : يا رسول الله ﷺ أمرتنا بقتال هؤلاء ، فمع من ؟ فقال : مع علي بن أبي طالب ، معه يقتل عمار بن ياسر . وقال علي عهد إلي رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين والساقطين والمارقين . ولعلي ﷺ في قتال الخوارج وغيرها آيات عظيمة يحتاج ذكرها كراريس مطولة . أما عن مقتله وإعلامه أنه مقتول ﷺ ، فقال : حدثني الصادق المصدوق ﷺ قال : لا تموت حتى تضرب ضربة علي هذه فتخضب هذه – وأومأ إلي لحيته وهامته – ويقتلك أشقاها ، كما عقر ناقة الله أشقي بني فلان من ثمود – نسبه إلي جده الأدنى . وعنه قال : أتاني عبد الله بن سلام – وقد وضعت رجلي في الغرز ، فقال لي : لا تقدم العراق ، فإني أخشى أن يصيبك فيها ذباب السيف . قال علي : وا أيم الله لقد أخبرني به رسول الله ﷺ . فقال أبو الأسود : فما رأيت كاليوم قط محارب يخبر بذا عن نفسه . وقال علي : قال لي رسول الله ﷺ : من

أشقي الأولين ؟ قلت عاقر الناقة . قال :صدقت . قال : فمن أشقي الآخرين ؟ قلت : لا علم لي يا رسول الله قال : الذي يضربك علي هذا – وأشار إلي يافوخه – وكان يقول : وددت أنه قد انبعث أشقاكم ، فخضب هذه من هذه – يعني لحيته من دم رأسه . وروي أن علياً لما جمع الناس للبيعة ، جاء عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، فرده مرتين ، ثم قال : علام يحبس أشقاها ؟ فو الله ليخضبن هذه من هذه ، ثم تمثل :

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا قيكا
ولا تجزع من القتل إذا حل بواديكا

ولما دخل شهر رمضان جعل علي يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين ، وليله عند عبد الله بن جعفر ، لا يزيد علي ثلاثة لقم ، ويقول : يأتي أمر الله وأنا خميص (جائع ضامر البطن) و أنما هي ليلة ليلتان . وفي الليلة الموعودة خرج علي لصلاة الفجر ، فاستقبله الأوز يصحن في وجهه فجعل بعض الصحابة يطردهن عنه فقال : دعوهن فإنهن نوائح . وهذا يدل علي أنه علم السنة والشهر والليلة التي يقتل فيها ، والله أعلم . ويروي أنه كان قد أُنتدب ثلاثة نفر من الخوارج : عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، وهو من حمير ، وعداده في بني مراد ، وهو حليف بني جبلة من كندة . والبرك بن عبد الله= = التميمي ، وعمرو بن بكر التميمي . فاجتمعوا بمكة ، وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاث علي بن أبي طالب ومعاوية وعمرو بن العاص ويريحوا العباد منهم . فقال ابن ملجم : أنا لكم بعلي ، وقال البرك : أنا لكم بمعاوية ، وقال عمرو بن بكر : أنا كافيكم عمرو بن العاص فتاعهدوا علي ذلك وتعاقدوا عليه ، وتواثقوا أن لا ينكص منهم رجل علي صاحبه الذي سمي له ، ويتوجه له حتى يقتله أو يموت دونه . فا تعدوا بينهم ليلة سبع عشرة من رمضان ، ثم توجه كل رجل منهم إلي المصر الذي فيه صاحبه ، فقدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة ، فلقي أصاحبه من الخوارج ، فكاتمهم ما يريد . وكان يزورهم ويزرونه ، فزار يوماً من بني تيم الرباب ، فرأي امرأة منهم يقال لها : قطام بنت شجنة بن عدي بن عمر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن تيم الرباب ، وكان علي قتل أباها وأخاها بالنهر وان ، فأعجبته فخطبها ، فقالت : لا أتزوجك حتى تشتفي لي . فقال : لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك . فقالت : ثلاثة آلاف ؛ وقتل علي بن أبي طالب . فقال : والله ما جاء بي إلي هذا المصر إلا قتل علي ، وقد أعطيتك ما سألت . ولقي ابن ملجم شبيب بن

بجرة الأشجعي . فأعلمه ما يريد ، ودعاه إلي أن يكون معه ، فأجابه إلي ذلك . وظل بـــن ملجم تلك الليلة التي عزم فيها أن يقتل علياً في صبيحتها يناجي الأشعث بن قيس الكندي في مسجده حتى يطلع الفجر ، فقال له الأشعث : فضحك الصبح . فقام ابن ملجم ، وشبيب بـــن بجرة ، فأخذ أسيافهما ، ثم جاء حتى جلسا مقابل السدة التي يخرج منها علي – قال الحسن بن علي : فأتيته سحيراً فجلست إليه فقال : إني بت الليلة أوقظ أهلي ، فملكتني عيناي وأنا جالس ، فسنح لي رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ما لقيت من أمتك من الأود واللدد فقال لي : ادع الله عليهم . فقلت اللهم أبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً لهم مني . ودخل ابن التياح المؤذن علي ذلك فقال " الصلاة " فقام يمشي ابن التياح بين يديـــه وأنـــا خلفه ، فلما خرج من الباب نادي "أيها الناس الصلاة الصلاة " كذلك كان يصنع كل يـــوم يخرج ومعه درتة يوقظ الناس فاعترضه الرجلان . فقال بعض من حضر : ذلـــك بريـــق السيف وسمعت قائلاً يقول : "لله الحكم يا علي لا لك" ثم رأيت سيفاً ثانياً فضرباً جميعـــاً ، فأما سيف بن ملجم فأصاب جبهته إلي قرنه ووصل إلي دماغه فقال علـــي " فـــزت ورب الكعبة " وأما سيف شبيب فوقع في الطاق فسمع لي يقول : "لا يفوتنكم الرجل " وشد الناس عليهم من كل جانب ، فأما شبيب فأفلت ، وأخذ ابن ملجم فأدخل علي علـــى ، فقـــال : أ طيبوا طعامه ، وألينوا فراشة ، فإن أعش فأنا ولي دمي : عفو أو قصاص ، وإن مـــت = = فألحقوه بي أخاصمه عند رب العالمين . فقالت أم كلثوم بنت علي : يا عدوا الله ، قتلت أمير المؤمنين !، قال : ما قتلت إلا أباك . قلت : والله إني لأرجو أن يكـــون علـــي أميـــر المؤمنين بأس . قال : فلم تبكين إذن ثم قال : والله لقد سممته شهراً – يعني سيفه – فـــإن أخلفنى أبعده الله وأسحقه . قال عمر ذي مر : لما أصيب علي بالضربة ، دخلت عليه وقد عصب رأسه ، قال قلت يا أمير المؤمنين ، أرني ضربتك . قال : فحلها، فقلـــت : خـــدش وليس بشيء . قال إني مفارقكم . فبكت أم كلثوم من وراء الحجاب ، فقال لها : اســـكتي ، فلو ترين ما أري لما بكيت . قال فقلت : يا أمير المؤمنين ، ماذا تري ؟ قال : هذه الملائكة وفود ، والنبيون ، وهذا محمد ﷺ يقول : يا علي ، أبشر فما تصير إليه خير مما أنت فيه . ولما فرغ علي من وصيته قال : اقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ثم لم يـــتكلم إلا بـــ " **لا إله إلا الله** " حتى قبضه الله ، رحمة الله ورضوانه عليه . وغسله ابناه ، وعبد الله بن جعفر . وصلي عليه الحسن ابنه ، وكبر عليه أربعاً . وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيهـــا

أنه قال: ما يسرّنى أن لو مِتُ طفلا، وأُدْخِلتُ الجنة، ولم أكبر فأعرف ربى، فإن أعلم الناس **بالله** أشدهم خشية، [وأكثرهم] [(١)] عبادة، وأحسنهم فى الله سبحانه نصيحة".

وأما شدتها فابذل نفسك فى الإخلاص فى طلب العلم، وليكن الطلب طلب دراية، لا طلب رواية، وأعلم أن الخطر عظيم، فيمن طلب العلم ليصرف وجوه الناس إليه، ويجالس به الأمراء، ويباهى به [النظراء][(٢)]، ويقصد فيه الحطام، فتجارته بائرة، وصفقته خاسرة[(٣)].

قال أبو [يزيد] [(٤)] البسطامى[(٥)]: "عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة،

قميص . ودفن في السحر . وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر. (راجع ، ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ / ٥٨٧، وبعدها بتصرف) .

(١) ط : وأكثر .

(٢) ط : النظر.

(٣) فى هذا المعنى قال النبى ﷺ : " من تعلم علماً لغير الله ، أو أراد به غير الله ، فليتبوأْ مقعدهُ من النار" . سنن الترمزى : باب ما جاء فى من يطلب بعلمه الدنيا ٢٩٨/٤ .= = وأخرجه النسائى فى "الكبرى" فى العلم (٣/٥٩١٠) باب (٤٣) من تعلم العلم لغير الله تعالى . وابن ماجه فى المقدمة (٢٥٨) باب (٢٣) الانتفاع بالعلم والعمل به .

(٤) ط : اليزيد .

(٥) أبو يزيد البسطامى : هو أبو يزيد ، طيفور بن عيسى بن شر وسان البسطامي (ت٢٦١ هـ). أحد الزهاد ، أخو الزاهدين : آدم وعلي ، وكان جدهم شر وسان مجوسياً ، وأسلم وروي عن إسماعيل السدي ، وجعفر الصادق أي ، الجد . أما أبو يزيد. فله كلام نافع ، منه قال :ما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته ، لولا اختلاف العلماء لبقيت حائراً . قال هذا فرحي بك وأنا أخافك ، فكيف فرحي بك إذا أمنتك ؟ ليس العجب من حبي لك ، وأنا عبد فقير ، إنما العجب من حبك لي ، وأنت ملك قدير . وقيل له : إنك تمر فى الهواء فقال :وأي أعجوبة في هذا ؟ وهذا طير يأكل الميتة ، يمر في الهواء . وقال : مادام

فما وجدت شيئاً أشد عليّ من العلم وخطره"، وإياك أن يزين لك الشيطان فيقول إذا كان قد ورد الخطر العظيم فى العلم فتركه أولى، فلا تظنن ذلك فلقد روى عن رسول الله ﷺ قوله: "**اطلعت ليلة المعراج على النار فوجدت أكثر أهلها الفقراء**"، قالوا: يا رسول الله من المال؟ **قال لا بل من**

العبد يظن أن في الناس من هو شرمنه ، فهو متكبر . الجنة لا خطر لها عند المحب ، لأنه مشغول بمحبته . ما ذكروا مولاهم إلا بالغفلة ، ولا خدموه إلا بالفترة . اللهم لا تقطعني بك عنك . العارف فوق ما نقول والعالم دون ما نقول . وقيل له علمنا الاسم الأعظم . قال : ليس له حد ، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته ، فإذا كنت كذلك ، فارفع له أي اسم شئت من أسمائه إليه . وقال : لله خلق كثير يمشون علي الماء ، لا قيمة لهم عند الله ، لو نظرتم إلي من أعطي من الكرامات حتى يطير ، فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والشرع . وله هكذا نكت مليحة ، وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها ، الشأن في ثبوتها عنه ، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر ، والغيبة والمحو ، فتطوي ولا يحتج بها إذ ظاهرها إلحاد مثل : سبحاني ، وما في الجنة إلا الله . وما النار ؟ لأ ستندن إليها غداً ، وأقول: اجعلني فداء لأهلها ، وإلا بلعتها . وما الجنة ؟ لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا . وما المحدثون ؟ إن خاطبهم رجل عن رجل ، فقد خاطبنا القلب عن الرب . وقال في اليهود : ما هؤلاء ؟ هبهم لي ، أي شيء هؤلاء حتى تعذبهم ؟ قال السلمي في "تاريخ الصوفية": توفي أبو يزيد عن ثلاث وسبعين سنة ، وله كلام حسن في المعاملات . ثم قال : ويحكي عنه في الشطح أشياء منها ما لا يصح ، أو يكون مقولا عليه ، وكان يرجع إلي أحوال سنية ، ثم ساق بإسناد له ، عن أبي يزيد ، قال من نظر إلي شاهدي بعين الاضطراب ، وإلي أوقاتي بعين الاغتراب ، وإلي أحوالي بعين الاستدراج ، وإلي كلامي= = بعين الافتراء ، وإلي عباراتي بعين الاجتراء ، وإلي نفسي بعين الازدراء ، فقد أخطاء النظر في . قال: لو صفا لي تهليلة ما باليت بعدها . وتوفي أبو يزيد ببسطام ، سنه إحدى وستين ومائتين . (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ٤٨١ – ٤٨٢) .

العلم"[١] فمن لم يتعلم لم [يتأت][٢] له أحكام العبادة، والقيام بحقوقها، ولو أن رجلاً عبد الله عبادة ملائكة السماء بغير علم، كان مـــن الخاســـرين، فشمر فى طلب العلم، بالبحث والتلقين والتـــدريس، واجتنـــاب الكـــسل [والملل][٣] ، وإلا فأنت فى خطر الضلال والعياذ بالله تعالى.

ثم جملة الأمر أنك إذا نظرت فى دلائل صنع الله تعالى، فأمعنت النظر، علمت أن لنا إلهاً واحداً ، قادراً ، عالماً ، مريداً ، سمعياً ، بصيراً ، متكلماً ، منزهاً عن حدوث الكلام والعلم والإرادة ، مقدساً عــن كــل نقص وآفة، لا يوصف بصفات الحوادث والآفات.

و<إذا>[٤] نظرت فى معجزات[٥] الرسول صلى الله عليه وســلم، وأعلام نبوته، تعلمت أنه صلى الله عليه وسلم رسول الله حقــاً، وأمينـــه على وحيه، وكما كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يعتقدونه، من أن الله تعالى يرى فى الآخرة لأنه موجود وليس فى جهة محدودة، فهو غير

---

(١) لم أجد لفظ هذا الحديث فى أكثر الكتب الصحيحة التى عولت عليها فى التحقيق. ومــا وجدته قريب من المعنى ما يلى: عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى قلت نعم يا رسول الله . قال: أفتــرى قلــة المال هو الفقر . قلت : نعم يا رسول الله : قال: إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلــب . رواه ابن حبان فى صحيحه (عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، الترغيب والترهيب، جـــ ١، ص٣٣٤).

(٢) ط: يتأتى، والصواب كما أوردته، لأن الفعل مجذوم بحرف العلة.

(٣) ط : الملل.

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

(٥) ط : مطموسة وتبدو هكذا.

محدود، وأن القرآن كلام الله تعالى، غير مخلوق[1]، ليس بحروف مقطعة، ولا أصوات، إذ لو كان كذلك، لكان من جهة المخلوقات، وأنه لا يكون فى الملك والملكوت فلتة ولا لفتة ناظر إلا بقضاء الله تعالى وقدره وإرادته ومشيئته، فمنه الخير والشر، والنفع والضر، والإيمان والكفر، إذ لا واجب على الله تعالى لأحدٍ من خلقه، من أثابه بفضله، ومن عاقبه فبعد له.

وما ورد على لسان صاحب الشرع (صلوات الله وسلامه) عليه من أمور الآخرة كالحشر والنشر، وعذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والميزان والصراط، فهذه أصول دَرَج **السلف** رضوان الله عليهم على اعتقادها والتمسك بها، ووقع الإجماع عليها قبل نبوع البدع، وظهور الأهواء، نعوذ بالله تعالى من الابتداع فى الدين، واتباع الهوى بغير دليل.

ثم نظرت فى أعمال القلب، والمواجب الباطنة، والمناهى التى

---

(١) مسألة كلام الله: سلكت مسألة الكلام الإلهى (القرآن) منحنى خطيراً فى مسار الفكر الإسلامى ، حيث دار الحوار والجدل الطويل بين الفرق حولها ، وشَكَّلَ رأى كل فرقة منها أحد الركائز الرئيسة التى تقوم عليها دعوتها بصفة عامة . ويدور البحث فى هذه المسالة حول سؤال رئيس واحد وهو : هل القرآن قديم ، أى غير مخلوق ، أم أنه محدث أى مخلوق ؟ أجمعت السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولا نعرف منه إلا ما هو بين أظهرنا فنبصره ونسمعه ونقرأه ونكتب . وصرح المعتزلة بخلق القرآن ، ووافقتهم فى ذلك : الخوارج وأكثر الزيدية وكثير من الرافضة والمرجئة ، وأن من الأخيرة من اختلفوا فيه ، فقالت طائفة إنه مخلوق ، وثانية قالت إنه غير مخلوق ، وثالثة قالت بالوقف . وقال الأشاعرة بقدم القرآن ، والقراءة التى هى الحروف والأصوات فمخلوقة (أنظر تفاصيل ذلك فى : خالد حربى ، بنية الجماعات العلمية العربية الإسلامية ، دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٤ ، ص ١٦٢ وبعدها) .

تتأتى فى هذا الكتاب، ليحصل لك علمه، ثم تعرف جملة ما تحتاج إلى استعماله، كالطهارة والصلاة والصوم ونحوه، فإذا فعلت ذلك فقد أدّيت فرض الله تعالى عليك الذى تعبّدك[1] به فى باب العلم، ولقد صرت من علماء أمة محمد ﷺ الراسخين فى العلم، فإن [عملت][2] بعلمك وأقبلت على عمارة معادك، كنت عبداً عالماً عاملاً لله تعالى، على بصيرة غير جاهل ولا مقلد ولا غافل، ولك الشرف العظيم، ولعلمك القيمة الكثيرة، والثواب الجزيل، وكنت قد قطعت هذه العقبة، وخلفتها [وراءك][3] [ورضيته][4] تعالى، المسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه وتيسيره، إنه أرحم الراحمين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم.

---

(١) المقصود: أى أمرك بعبادته عن طريقه.

(٢) ط: علمت.

(٣) ط: وراك.

(٤) ط: وقضيت.

العقبة الثانية وهى [عقبة][1] التوبة

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله بالتوبة، وذلك لأمرين: أحدهما: ليحصل لك توفيق الطاعة، فإن شؤم الذنوب يورث الحرمان، ويعقب الخذلان، وإن قيد الذنوب يمنع من المشى إلى طاعة الله عز وجل، والمسارعة فى الطاعات، وإن [الإصرار][2] على الذنوب يسوِّد القلب، فنجدها فى ظلمة وقساوة، ولا خلوص فيها ولا صفاوة، ولا لذة ولا حلاوة، فإن لم يرحم الله تعالى ، فستجر صاحبها إلى الكفر والشقاوة، فيا عجباً كيف يوفق للطاعة من هو فى شؤم وقسوة؟، وكيف يُدعى للخدمة من هو يصِرٌ على المعصية والجفوة؟، وكيف يقرب للمناجاة من هو متلطخ بالأقذار والنجاسات.

ففى الخبر عن الصادق المصدوق، رسول الله ﷺ أنه قال: "**إذا كذب ابن أدم يتخا الملكان من نتن ما يخرج منه**"[3]، فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله عز وجل؟ فلا يكاد يجد المصرّ على الذنوب توفيقاً، ولا

---

(١) ط: العقبة.

(٢) ط: الأسرار.

(٣) خدثنا يحيى بن موسى ، قال : قلت لعبد الرحيم بن هارون الغساني: حدثكم عبد العزيز بن أبى رداد عن نافع عن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نتن ما جاء به". قال يحيى فأقربه عبد الرحمن بن هارون فقال : نعم . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن جيد غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه تفرد به عبد الرحيم بن هارون (الترمذى، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمى، سنن الترمذى، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربى، بيروت (د.ت) جـ ٤، ص ٣٤٨. وأنظر الحديث أيضاً فى الترغيب والترهيب ٣/٣٦٩).

تخف أركانه لعبادة، وإن أتفق فبكد[1] لا حلاوة معه ولا صفوة، وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة، ولقد صدق من قال: "إذا لم تقو على[2] قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك مكبول قد كبلتك خطيئتك فهذه هذه.

والثانى من الأمرين: أنها تلزمك -التوبة- لتقبل منك عبادتك، فإن رب الديَّن لا يقبل منك [هدية][3]، وذلك أن التوبة عن المعاصى، وإرضاء الخصوم، وعامة العبادة التى تقصدها تقل، فكيف يقبل تبرعك والدين عليك حالٌ لم تقضه؟، وكيف تترك لأجله الحلال والمباح وأنت مصرّ على نقل المحظور والحرام؟ وكيف تناجيه وتدعوه وتثنى عليه، وهو العياذ بالله عليك غضبان؟، فهذا ظاهر حال العصاة المصرّين على المعصية وبالله المستعان.

فإن قلت: ما معنى التوبة النصوح، وحدّها؟، وما ينبغى للعبد أن يفعله حتى يتخلص من الذنوب كلها؟ فأقول: أما التوبة فإنها سعى ساعى القلب، وهى عند التحصيل <فى>[4] قول العلماء رضى الله عنهم تبرئة عن الذنب، قال شيخنا رحمه الله فى حدّ التوبة: "أنه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه" هذه منزلة لا صورة تعظيماً لله عز وجل، [وحذراً][5] من سخطه، فلها إذا أربعة شرائط:

أحدها: ترك اختيار الذنب البتة، فأما إن ترك الذنب وفى نفسه أنه

---

(١) أى بتعب وجهد ومشقة.

(٢) + ط: منه.

(٣) ط: هديته.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ط : وحذر.

ربما يعود إليه ولا يعزم على ذلك، بل يتردد، فإنه ربما **يقع** على العــوّد فإنه يمنع عن الذنب غير تائب عنه.

والثانية: أن يتوب عن ذنب قد سبق عنه مثله، إذ لو لــم يــسبق مثله لكان متقياً غير تائب، ألا ترى بأنه صح القول بأن **النبــي** ﷺ كــان متقياً عن الكفر، ولا يصح القول بأنه تائب عن الكفر، إذ لم يسبق عنــه كفر بحال، وأن **عمر بن الخطاب**[1] رضى الله عنه كان تائباً عن الكفــر

---

(١) عمر بن الخطاب ، هو : عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزيز بن رياح بن عبــد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القرشي العدوى ، أبو حفص . ولد بعــد الفيل بثلاث عشرة سنة . وكان من أشف قريش وإليه كانت السفارة في الجاهلية ، وذلك أن قريش كانوا إذا وقع بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم ، بعثوه سفيراً ، وإن نافر هم منافرا أو فاخرهم مفاخر ، رضوا به ، بعثوه منافراً ومفاخراً . ولما بعث الله محمداً ﷺ كان عمر شديداً عليه وعلي المسلمين . ثم أسلم بعد رجال سبقوه -- قال هلال بن يساف : أسلم عمر بعد أربعين رجلاً وإحدى عشر امرأة . وقيل: أسلم بعد تسعة وثلاثين رجــلاً وعــشرين امرأة ، فكمل الرجال به أربعين رجلاً . وقال الزبير: أسلم عمر بعد أن دخل رســول الله ﷺدار الأرقم ، وبعد أربعين أو نيف وأربعين بين رجال ونساء . وكان النبي ﷺ قد قــال " اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام – يعني أبــا جهل " يقول عمر : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد ســبقني إلــي المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة "الحاقة" فجعلت اعجب من تأليف القرآن – فقلت : هذا و الله شاعر كما قالت قريش . قال: فقرأ (إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون) قال : قلت كاهن . قال : (ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل مــن رب العالمين) (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الــوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) ....إلي أخر السورة ، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع . ويصف عمر قصة إسلامه قائلاً : كنت من أشد الناس علي رسول الله ﷺ فبينما أنا يوماً في يوم حار شديد الحر بالهاجرة ، في بعض طرق مكة ، إذ لقيني رجل من قريش فقال: أيــن تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك؟ قال قلت:=

= وماذا ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت . قال : فرجعت مغضباً – وقد كـان رسـوا الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلم عند الرجل بقوه ، فيكونان معه ، ويصيبان من طعامـه . وقد كان ضم إلي زوج أختي رجلين – قال فجئت حتى قرعت الباب : فقيل من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب – قال : وكان القوم جلوساً يقرئون القرآن في صحيفة معهم- فلما سـمعوا صوتي تبادروا واختفوا ، وتركوا – أو : نسوا الصحيفة من أيديهم قال : فقامـت المـرأة ففتحت لي ، فقلت : يا عدوة نفسها ، قد بلغني إنك صبأت ! قال : فارفعت شيئاً في يـدي فضربتها به ، فسال الدم . قال : فلم رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت : يا ابن الخطاب مـا كنت ، فاعلاً فافعل ، فقد أسلمت . قال : فدخلت وأنا مغـضب فجلـست علـي التسرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت ، فقلت : ما هذا الكتاب ؟ أعطينيه فقالت ما أعطيـك لست من أهلها، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر، وهذا لا يمسه إلا المتطهرون! قـال فلم أزل به حتى أعطتنيه، فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بـ (الـرحمن الرحيم) ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي – قال :ثم رجعت إلي نفسي ، فإذا فيها : (سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) – قال : فكل ما مررت باسم من أسماء الله عز و جل ذعرت ، ثم أرجع إلي نفسي ، حتى بلغت (أمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيها) حتى بلغت إلي قوله : (إن كنتم مؤمنين)- فقلت : " **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله** " فخرج القوم يتبادرون بالتكبير، استبـشاراً بمـا سمعوه مني وحمدوا الله عز وجل ،ثم قالوا: يا ابن الخطاب ابشر، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين : إما عمرو بن هاشم ، وإما عمر بـن الخطاب ، وإنّا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر. وكان إسلام عمر فـي الـسنة السادسة ، وسمي الفاروق لقول لرسول الله ﷺ (إن الله جعل الحق علي لسان عمر وقلبه ، وهو الفاروق : فرق الله به بين الحق والباطل) وعن هجرته ﷺ يقول علي كرم الله وجهه ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لمـا هـم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضي في يده أسهماً . ومضي قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف في البيت سبع متمكناً ، ثم أتي المقام فصلي متمكناً ، ثم وقف علـي الحلق (أي حلقات القوم) واحدة واحدة ، وقال لهم: شاهت (قبحت) الوجوه لا يرغم الله إلا هذا المعاطس (الأنوف) من أراد ، أن تثكله أمه ويتم ولده ، ويرمل زوجته ، فليلقنـي

وراء هذا الوادي . قال علي : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علـيهم فأرشـدهم= = ومضي لوجه. وشهد عمر بن الخطاب مع رسول الله ﷺ بدر وأحد ، والخنـدق وبيعـة الرضون و خيبر ، والفتح ، وحنين ، وغيرها من المشاهد وكان أشد الناس على الكفـار. ومن علمه ﷺ قال ابن مسعود لو أن علم عمر وضع في كفة ميزان ، ووضع علم النـاس في كفة ميزان لرجح علم عمر . فذكرت لإبراهيم فقال : قد والله ، قال : عبد الله أفـضل من هذا . قلت : ماذا قال : لما مات عمر ذهب أعشار العلم . وقال رسول الله ﷺ " رأيت كأني أتيت بقدح لبن ، فشربـت منه وأعطيت فضلي عمر بن الخطاب " . فقالوا: ما أولتـه يا رسول الله ؟ قال العلم. ومن زهده وتواضعه ﷺ قال : طلحة بن عبيد الله : ما كان عمر بن الخطاب بأولنا إسلاماً ولا أقدمنا هجرة ، ولكنه كان أزهدناً في الـدنيا و أرغبنـا فـي الآخرة . قال سعد بن أبي وقاص : والله ما كان عمر بأقدمنا هجرة وقد عرفت بأي شـئ فضلنا ، كان أزهدنا في الدنيا . وعن ثابت ابن عمر استسقي ، فأتي بإناء من عسل فوضعه علي كفة : فجعل يقول" أشربه فتذهب حلاوته وتبقي نقمته " ، فقالها ثلاثة ، ثم دفـع إلـي رجل من القوم فشربها. وبينما عمر قد وضع بين يديه طعامه إذا جاء الغلام فقـال : هـذا عتيبة بن فرقد بالباب ، قال : وما أقدم عتيبة ؟ ائذن له . فلما دخل رأي بين يـدي عمـر طعامه : خبز وزيت . قال : اقترب يا عتيبة فأصب من هذا . قال : فذهب يأكل فإذا هـو طعام جشب لا يستطيع أن يسيغه . قال : يا أمير المؤمنين ، هل من طعام يقال له الحواري ؟ قال : ويلك ، ويسع ذلك للمسلمين كلهم ؟ قال : لا والله قال : ويلك يا عتيبة . أفا أردت أن أكل طيباً في حياتي الدنيا واستمتع ؟ وقال أنس لقد رأيت بين كتفي عمر أربع رقع فـي قميصه . وقال أبو عثمان رأيت عمر بن الخطاب يرمي الجمرات وعليـه إزار مرقـوع بقطعة جراب . وعن فضائله ﷺ قال أبو هريرة بينما نحن عند رسول الله ﷺ قال : بينمـا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأتي تتوضأ إلي جانب قصر قلت لمن هذا القصر ؟ قالـت لعمر، فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً فبكي عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله؟! وقـال ﷺ بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ، ومنها مـا دون ذلك ، وعرض علي عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره قالوا : فما أولت ذلـك يـا رسول الله ؟ قال : الدين . وقال ﷺ : "إن أهل الدرجات العلي ليراهم من تحتهم كما يـري الكوكب الدري في الأفق من آفاق السماء ، وإن أبا بكر وعمر مـنهم " . وقـال : ﷺ :"

وزيري من أهل السماء جبريل وميكائيل ، ووزيري من أهل الأرض أبو بكر وعمـر ".
وقال ابن عمر: " ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل فيه القرآن علي=
= نحو ما قال عمر "وذلك نحو ما قال في أساري بدر فإنه أشار بقتلهم وأشار غيره بمفـاد
اتهم، فأنزل الله تبارك وتعالي : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم فيـه عـذاب
عظيم) . وقوله في الحجاب ، فأنزل الله تعالي ، وقوله في الخمر . وعن أنس : أن النبي
ﷺ قال: دخلت الجنة ، فإذا بقصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لشاب من قريش
، فظننت أني أنا هو ، فقلت: ومن هو ؟ قالوا : عمر بن الخطاب . وكان عمر يخطب يوم
الجمعة علي منبر الرسول ﷺ ، فعرض له في خطبته أن قال : " يا سارية بـن حـصن ،
الجبل الجبل – من استرعي الذئب ظلم " فتلفت الناس بعضهم إلي بعض ، فقـال علـي :
صدق ، والله ليخرجن مما قال . فلما فرغ من صلاته قال له علي :ما شئ سنح لك فـي
خطبتك ؟ قال :وما هو ؟ قال ؟ قولك : " يا سارية ، الجبل الجبل ، من استرعي الـذئب
ظلم " قال : وهل كان ذلك مني ؟ قال : نعم ، وجميع أهل المسجد قد سمعوه . قال أنه وقع
في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا ، فركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل ، فإن عدلوا
إليه قاتلوا من وجدوا وقد ظفروا ، وأن جاوزوا هلكوا ، فخرج مني ما تزعم أنك سمعته .
قال : فجاء البشير بالفتح بعد شهر ، فذكر أنه سمع في ذلك اليوم في تلك الساعة ، حـين
جاوزوا الجبل صوت يشبه صوت عمر ، يقول :" يا سارية بن الحصن ، الجبل الجبل" قال
: فعدلنا إليه ، ففتح الله علينا . وعن أبي هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال :ركـب رجـل
بقرة فقالت البقرة: " إنا والله ما لهذا خلقنا ! ما خلقنا إلا للحراثة " فقال القوم : سبحان الله
! فقال النبي ﷺ : " أنا أشهد ، وأبو بكر وعمر يشهدان ، وليسا ثم ".قال عبد الله بن مسعود
:فضل الناس عمر بن الخطاب بأربع : بذكر الأسري يوم بدر ، أمر بقـتلهم ، فـأنزل الله
تعالي :(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم) . وبذكر الحجاب ،
أمر نساء النبي ﷺ أن يحتجبن ، فقالت زينب : إنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في
بيوتنا ، فأنزل الله تعالي :(وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء الحجـاب) وبـدعوة
النبي ﷺ " اللهم أيد الإسلام بعمر"، وبرأيه في أبي بكر . وفي خلافته ﷺ اتسعت الفتوحات
اتساعاً عظيماً ، كما بشر بذلك النبي ﷺ ففتح العراق ، والشام ، ومـصر ، والجزيـرة ،
وديار بكر ، وأرمينية ، وأذربيجان ، وأرانية ، وبلاد الجبال وبلاد فـارس ، وخوزسـتان

وغيرها . وأدر العطاء علي الناس ، ونزل نفسه بمنزلة الأجير وكآحاد المسلمين في بيت المال ، ودون الدواوين ، ورتب الناس علي سابقتهم في العطاء والإذن والإكرام ، فكان أهل بدر أول الناس دخولاً عليه، وكان علي أولهم. وكذلك فعل بالعطاء، وأثبت أسماءهم= = في الديوان علي قربهم من رسول الله ﷺ فبدأ ببني هاشم ، والأقرب فا لأقرب . وعن مولي لعثمان بن عفان قال : بينما أنا مع عثمان في مال له بالعالية في يوم صائف ، إذ رأي رجلاً يسوق بكرين (البكر هو الفتي من الإبل) وعلي الأرض مثل الفراش من الحر ، فقال : ما علي هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد ثم يروح . ثم دنا الرجل فقال : انظر من هذا ؟ فنظرت فقلت : أري رجلاً معتماً بردائه ، يسوق بكرين . ثم دنا الرجل فقال :انظر .فنظرت فإذا عمر بن الخطاب ، فقلت : هذا أمير المؤمنين . فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا نفخ السموم ، فأعاد رأسه حتى حاذاه ، فقال : ما أخرجك في هذه الساعة ؟ فقال : بكران من إبل الصدقة تخلفا ، وقد مضي بإبل الصدقة ، فأردت أن ألحقهما بالحمى ، وخشيت أن يضيعا ، فيسألني الله عنهما . فقال عثمان : يا أمير المؤمنين ، هلم إلي الماء والظل نكفيك .فقال : عد إلي ظلك . فقلت : عندنا من يكفيك ! فقال : عد إلي ظلك. فمضي ، فقال عثمان : من أحب أن ينظر إلي القوي الأمين فلينظر إلي هذا ! ومر علي بن أبي طالب علي المساجد في شهر رمضان ، وفيها القناديل فقال : نور الله علي عمر قبره كما نور علينا مساجدنا . وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة . قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى مكة ، فما ضرب فسطاطاً ولا خباءً حتى رجع . وكان إذا نزل يلقى له كساء أو نطع (بساط من الجلد) على الشجر فيستظل به . وقال عمر : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . فإنه أهون –أو قال: أيسر – لحسابكم . وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا . وتجهزوا للعرض الأكبر (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية(وله فى سيرته عجيبة عظيمة ، لا يستطيعها إلا من وفقه الله تعالى ، فرضى الله عنه وأرضاه ، بمنه وكرمه . أما عن مقتله ﷺ ، فعن أنس : أن رسول الله ﷺ صعد أُحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف ، فضربه برجله وقال : أثبت أحد ، فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان . وفى تصوير مشهد قتله ﷺ يروى عمرو بن ميمون أن عمر : مر بين الصفين وقال : استووا ، حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر ، وربما قرأ بسورة "يوسف" أو "النحل" أو نحو ذلك فى الركعة الأولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن أكبر فسمعته يقول : قتلنى – أو : أكلنى الكلب – حين

طعنه ، فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه ، حتــى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجلاً من المسلمين طــرح عليــه برنساً ، فلما ظن العلج أنه ماخوذ نحو نفسه ، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، وأنا نواحى المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: " سبحان= = الله ، سبحان الله "فصلى بع عبد الرحمن ثصلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا بن عباس ، انظر من قتلنى ، فجال ساعة ، ثم جاء المسجد فقال : غلام المغيرة بن شعبة (أبو لؤلؤة) قال : الصنع ؟ قال : نعم . قال : قاتله الله! لقد أمرت به معروفاً ! الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة – وكان العباس أكثرهم رقيقاً – فقال : إن شت فعلت ؟ أى : إن شئت قتلنا فقال : كذبت ! بعــدما تكلموا بلسانكم ، وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم . واحتمل إلى بيته ، فانطلقا معــه ، وكــأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول : لا بأس وقائل يقول : أخاف عليه . فــأتى بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشربه ، فخرج منة جوفه ، فعرفوا أنه ميت . فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل ساب فقال : أبشر – با أميــر المــؤمنين- ببشرى الله لك، من صحبةرسول الله ﷺ وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة . قال : وددت أن ذلك كفافاً لا علي ولا لي . فلما أدبر إذا إزاره يمــس الأرض قال : رد علي الغلام ، قال يا ابن أخي ، ارفع ثوبك فإنه أنقي لثوبك ، وأتقي لربك ، يــا عبد الله بن عمر ، انظر ما علي من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحــوه – قال : إن وفي له مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل في بني عدي، فإن لم تف أموالهم فسل في بني قريش ، ولا تعدهم إلي غيرهم ، فأد عني هذا المال ، وانطلق إلي عائــشة أم المؤمنين فقل لها :يقرأ عليك عمر السلام – ولا تقل " أمير المؤمنين " فإني لــست اليــوم للمؤمنين أميراً – وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فسلم واســتأذن ، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام و يستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأوثرن به اليوم علي نفسي فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء . قال : ارفعوني . فأسنده رجل إليه ، فقال : ما لديك ؟ قال : الذي تحب ، قد أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شئ أهم إلي من ذلك ، فإذا أنا قبــضت فاحملوني ، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإذا أذنت فــأدخلوني ، وإن ردتنــي

لما سبق عنه.

والثالثة: أن الذى سبق يكون مثل ما يترك اختياره فى المنزلة والدرجة، لا فى الصورة، ألا ترى أن الشيخ الهرم الفانى الذى سبق عنه

ردوني إلي مقابر المسلمين . وجاءت أم المؤمنين حفصة ، والنساء تسير معها ، فلما رأينها قمنا ، فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال ، فولجت داخلاً لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين . استخلف . قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر – أو : الرهط – الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . فسمي : علياً وعثمان ، والزبير ، و طلحة ، وسعداً وعبد الرحمن بن عوف ، وقال: يشهدكم = = عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له – فإذا أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعين به أيكم ما أمر ، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة ..ثم قال لابنه عبد الله : خذ رأسي عن الوسادة فضعها في التراب ، لعل الله يرحمني ! وويل لي وويل لأمي إن لم يرحمني الله عز وجل ! فإذا أنا مت فأغمض عيني ، واقصدوا في كفني ، فإنه إن كان لي عند الله خير أبدلني ما هو خير منه ، وإن كنت علي غير ذلك سلبني فأسرع سلبي ، وأنشد :

ظلوم لنفسي غير أني مسلم   أصلي الصلاة كلها وأصوم

فقالت أم كلثوم : واعمرا ! وكان معها نسوة فبكين معها ، وارتج البيت بكاء فقال عمر : والله لو أني لي ما علي الأرض من شئ لافتديت به من هول المطلع . فقال ابن عباس : والله إني أرجو أن لا تراها إلا مقدار ما قال الله تعالي :(وإن منكم إلا واردها) إن كنت – ما علمنا – لأمير المؤمنين ، وأمين المؤمنين ، وسيد المؤمنين ، تقضي بكتاب الله ، وتقسم بالسوية . فأعجبه قولي ، فاستوي جالساً فقال : أتشهد لي بهذا يا ابن عباس ؟ قال : فكففت ، فضرب علي كتفي فقال : اشهد . فقلت : نعم ، أنا أشهد . وقبض عمر ﷺ وحمل علي سرير رسول الله ﷺ وغسله ابنه عبد الله ، وصلي عليه صهيب ، ونزل في قبره ابنه عبد الله ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن يزيد ، وعبد الرحمن بن عوف . وكانت خلافته عشر سنين ، وستة أشهر ، وخمس ليال ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة .(راجع ، ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ / ٦٤١ وبعدها بتصرف) .

الزنا، وقطع الطريق، إذا أراد أن يتوب عن ذلك تمكن <من>[١]التوبة لا محالة؟ إذ لم يُغلق عنه بابها، ولا يمكنه ترك اختيار الزنا وقطع الطريق، إذ هو لا يقدر الساعة على فعل ذلك، فلا يقدر على تركه، فلا يصح وصفه بأنه تارك له ممتنع عنه، وهو عاجز عنه غير متمكن منه، لكنه يقدر على ما هو مثل الزنا وقطع الطريق فى المنزلة والدّرجة، كالقذف والغيبة والنميمة إذ جميع ذلك معاصٍ، وإن كان يتفاوت فى كل واحدة بقدرها، لكن جميع هذه المعاصى الفرعية كلها بمنزلة واحدة ، وهى دون منزلة البدعة، ومنزلة البدعة دون الكفر، فكذلك صح منه التوبة عن الزنا وقطع الطريق، وسائر المعاصى من الذنوب التى هو عاجز عن أمثالها اليوم فى الصورة.

والرابع: أن يكون اختياره لذلك تعظيماً لله سبحانه وتعالى، وحذراً من سخطه وأليم عقابه مجرداً لا لرغبة دنيوية، أو رهبة من الناس، وطلب ثناء وصيت، أو ضعف فى النفس، أو فقر وغير ذلك.

فهذه شرائط التوبة وأركانها فإذا حصلت واستكملت فهى توبة حقيقية.

وأما مقدمات التوبة فثلاثة: **أحدها:** ذكر غاية قبح الذنب، **الثانية:** ذكر شدة عقاب الله تعالى، وأليم سخطه وغضبه الذى لا طاقة لك <به>[٢]. **والثالثة:** ذكر ضعفك وقلة حيلتك فى ذلك فإن من لا يحتمل حر الشمس، ولطمة شرطىّ، وقرض نملة، كيف يحتمل حرّ نار جهنم،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وضرب مقامع الزبانية، ولسع حيات كأعناق البخت[١]، وعقارب كالبغال، خلقت من النار فى دار الغضب والبوار، نعوذ بالله ثم نعوذ بـــالله مـــن سخطه وعذابه .

فإذا [واظبت][٢] على هذه الأذكار، وعاودتها أثناء الليل، وأطراف النهار، فإنها ستحملك على التوبة النصوح مـــن الـــذنوب، والله الموفـــق بفضله.

فإن قيل: أليس قد قال صلى الله عليه وسلم: "**الندم توبة**"[٣] ولـــم

---

(٢) أعناق البخت، أى أعناق الجمال.

(٣) ط : واضبت.

(١) أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفى ، حدثنا محفوظ بن أبى توبة ، حدثنا عثمان بن صـــالح السهمى ، حدثنا بن وهب ، عن يحيى بن أيوب قال: سمعت حميدا الطويل يقول :قلت لأنس بن مالك أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الندم توبة : قال نعم . [٦١٤] أخبرنـــا أبـــو عروبة ، أخبرنا المسيب بن واضح ، حدثنا يوسف بن أسباط بن مالك بن مغـــول ، عـــن منصور ، عن خيثمة ، عن ابن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "الندم توبة " صحيح ابن حبان جـــ ٢/ ص ٣٧٩ [٤٢٥١]. حدثنا أحمد بن منيع ، ثنا زيد بن الحبـــاب، ثنا على بن مسعدة ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كـــل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون". [٤٢٥٢] حدثنا هشام بن عمار ، ثنا سفيان ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن زياد بن أبى مريم ، عن بن معقل قال : دخلت مع أبى على عبد الله فسمعته يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الندم توبة" فقال له أبى : أ أنـــت سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول "الندم توبة" ؟ قال نعم [٤٢٥٣] حدثنا راشد بن سعيد الرملى ، أنبأنا الوليد بن مسلم ، عن بن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن جبيـــر بـــن نفير، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر" (ابن ماجه، محمد بن يزيد أبى عبد الله القزوينى، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر، بيروت (د.ت)، جـــ ٢، ص ١٤٢٠). وعن حميد

يذكر ما ذكرتم من شرائطها وشددتم شيئاً؟ يقال له: اعلم أولاً أن النـــدم غير مقدور للعبد، ألا ترى أنه تقع الندامة على أمور تكون فى قلبه وهو يريد أن لا يكون ذلك؟، والتوبة مقدورة للعبد ما لا ترى أنه يقع. مأمور بها ، ثم إنّا قد علمنا أنه لو ندم على الذنوب ، لما ذهب بذلك جاهه بـــين الناس، وما لُه فى النفقة فيها، فإن ذلك يكون من توبة بلا ريب، فعلمـــت بذلك أن فى الخير معنى لم تفهمه من ظاهره، وهو أن الندم لتعظـــيم الله

الطويل قال: قلت لأنس بن مالك رضى الله عنه: أقال النبى صلى الله عليه وســـلم "النـــدم توبة" ؟ قال: نعم. رواه ابن حبان فى صحيحه [٤٧٦٠] وعن عبد الله بن معقل قال : دخلت أنا وأبى على ابن مسعود رضى الله عنه ، فقال له أبى : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "الندم توبة" قال: نعم . رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد [٤٧٦١] وعـــن عائـــشة رضى الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره منه " . رواه الحاكم من رواية هشام بن زياد وهو ساقط ، وقال صحيح الإسناد [٤٧٦٢] وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ، ولـــيس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل= = ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل " . رواه مسلم [٤٧٦٣] وعن أبى هريـــرة رضـــى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكـــم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم " . رواه مسلم وغيره [٤٧٦٤] وعن عمـــران بن الحصين رضى الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهـــى حبلى من الزنا ، فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه على فدعا نبى الله صـــلى عليـــه وسلم وليها فقال :"أحسن إليها فإذا وضعت فأتنى بها " ، ففعل فأمر بها نبى الله صـــلى الله عليه وسلم ، فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرُجمت ، ثم صلى عليهاً ، فقال لـــه عمـــر تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت : قال:"لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين مـــن أهـــل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عـــز وجـــل " .رواه مـــسلم (الترغيب والترهيب ٤/٤٩).

سبحانه وتعالى وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح، فإن ذلك من صفات التائبين وحالهم، فإنه إذا ذكر الأذكار الثلاثة التى هى مقدمات التوبة ، ندم، وجملة الندامة على ترك اختيار الذنب، وتبقى ندامته فى قلبه فى المستقبل تحمله على الابتهال والتضرع، فلما [كان][1] فى ذلك من أسباب التوبة، وصفات التائب ، سماه باسم التوبة، فافهم ذلك موفقاً إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فكيف يمكن للإنسان أن يصير بحيث لا يقع منه ذنب البتة فى صغيرة ولا كبيرة؟ كيف وأنبياء الله تعالى (صلوات الله وسلامه عليهم) الذين هم أشرف خلق الله سبحانه قد اختلف أهل العلم فيهم، هل نالوا هذه الدرجة أم لا؟ فاعلم أن هذا الأمر ممكن من غير مستحيل، ثم إن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، ثم من شرط التوبة ألا يتعمد ذنباً، فأما إن وقع منه ذنب أو خطأ، فهو معفو عنه بفضل الله تعالى، وهذا هين على من وفقه الله تعالى.

فإن قلت: إن ما يمنعنى من التوبة أنى أعلم من نفسى أنى أعود إلى الذنب، ولا أثبت على التوبة فلا فائدة فى ذلك، فاعلم أن هذا من غرور الشيطان، ومن أين لك هذا العلم؟ فعسى أن تموت تائباً قبل أن تعود إلى الذنب، وأما الخوف من العوّد فعليك العزم والصدق فى ذلك وعليه الإتمام، فإن تم ، فذلك ، وإن لم يتم فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها، وتخلصت منها وتطهرت، وليس عليك إلا هذا الحدث الذى أحدثته الآن،

---

(١) ط : كاد.

وهذا هو [الربح][١] العظيم، والفائدة الكثيرة، ولا يمنعك خوف العوّد عن التوبة، فإنك من التوبة أبداً بين إحدى الحسنيين، والله تعالى ولى التوفيق والهداية ، فهذه هذه.

وأما الخروج من الذنوب والتخلص منها: فاعلم أن الذنوب فى الجملة ثلاثة أقسام: إحداها: ترك واجبات الله عز وجل عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها، فتبقى ما أمكن لك منها. والثانى ذنوب بينك وبين الله تعالى كشرب الخمر، وأكل الربا، وضرب المزامير، ونحو ذلك، فتندم على ذلك وتوطن نفسك على ترك العوّد إلى مثلها أبداً. والثالث: ذنوب بينك وبين العباد وهذا أشكل وأصعب، وهى أقسام قد تكون فى المال وفى النفس وفى العرض وفى الحرمة وفى الدين، فما كان فى المال فيجب أن ترده عليه إذا أمكنك، فإذا عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته، وأمكن التصدق عنه فافعل، وإن لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك، والرجوع إلى الله عز وجل بالتضرع والابتهال إليه أن يرضيه عنك يوم القيامة.

وأمّا <ما>[٢] كان فى النفس فتمكنه من القصاص <أو>[٣] أولياءه حتى يقتص منك أو يجعلك فى حل ، فإن عجزت، فالرجاء إلى الله عز وجل والابتهال أن يرضيه عنك يوم القيامة. فأما العِرض: فإذا اغتبته[٤] أو بهته أو شتمته، فحقك أن تكذب نفسك بين يَدَىْ من فعلت ذلك عنده،

---

(١) ط: الريح.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) + ط : أغتبته.

وأن تستحل من صاحبه إن أمكنك هذا، وإن لم تخش زيادة غيظ وهيج فتنة، من إظهار ذلك أو تجديده، فإذا خشيت ذلك فالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك، والاستغفار الكثير لصاحبه.

وأما الحرمة فإذا خنته في أهله وولده ونحوه فلا وجه للاستحلال والإظهار، لأنه يولد فتنة وغيظاً، بل [تضرع][1] إلى الله عز وجل ليرضيه عنك، وبجعل له خيراً في مقابلة ذلك، فإن أمنت الفتنة والهيج، وهو نادر [فاستحل] [2] منه.

وأما في الدين: فإذا كفّرته أو بدّعته أو ضلّلته، فهو أصعب الأمر، فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدى من قلت ذلك له، وأن تستحل من صاحبه إذا أمكنك، وإلاّ فالابتهال إلى الله سبحانه وتعالى جداً، والندم على ذلك ليرضيه عنك.

وجملة القول: فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت، وما لم يمكنك رجعت إلى الله سبحانه [بالتضرع][3] والصدق، [ليرضيهم] [4] عنك فيكون في مشيئة الله تعالى يوم القيامة، والرجاء منه بفضله العظيم، وإحسانه العميم، إنه إذا علم الصدق من قلب العبد فإنه يرضى خصماءه من خزانة فضله، ولا حكم عليه ، فاعلم هذه مقراً راشداً ، فهذه هذه.

فإذا أنت عملت ما وصفناه، وبرّأت القلب عن اختيار مثلها في المستقبل، فقد خرجت من الذنوب كلها، وإن حصلت منك تبرئة القلب ولم

---

(١) ط : يتفرع.

(٢) ط : مستحيل .

(٤) ط : بالتفرع.

(٥) ط : ليرضيه .

يحصل منك قضاء الفوائت، وإرضاء الخصوم، فالتبعات لازمة، وسائر الذنوب مغفورة، ولهذا الباب شرح يطول، ولا يحتمله هذا المختصر، وانظر كتاب **التوبة** [1]من إحياء علوم الدين أولاً ، وكتاب **القربة إلى**

---

(١) كتاب التوبة ، هو : الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، بدأه بعد ، بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب والصلاة على نبيه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه صلاة قائلاً : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح اسشتقامة المائلين ومطلع الأصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، ومن اشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم وتندم على ما سبق منه وتقدم.فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم= = ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين ، فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشربالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فخارج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجناً محكماً لا يخلصه إلا إحدى النارين : نار الندم أو نار جنهم ، فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار : إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها ، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : **(الركن الأول)** : فى نفس

الله[1] ثانياً وكتاب **الغاية القصوى**[2] ثالثاً، تجد فوائد كثيرة وشرحاً جماً، والذى [ذكرناه][3] هنا هو الأصل الذى لابّد منه وبالله التوفيق.

فصل: ثم اعلم يقيناً أن هذه العقبة عقبة صعبة، أمرها مهم، وضرها عظيم، فلقد بلغنا عن الأستاذ **أبى إسحق الاسفرائينى**[4] وكان

التوبة وبيان حدّها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة . **(الركن الثانى)** : فيما عنه التوبة، وهو الذنوب وبيان انقاسمها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر . **(الركن الثالث)** : فى بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة . **(الركن الرابع)** : فى السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين . ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل (الغزالى ، إحياء علوم الدين ٤/٣-٤).

(١) كتاب القربة إلى الله ، للغزالى ، تقدم ذكره فى مقدمة هذا الكتاب .

(٢) كتاب الغاية القصوى: ذكره حاجى خليفة ، قال من مؤلفات الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ خمس وخمسمائة . وهذا الكتاب موجود أيضاً فى كتاب الوسيط المحيط بأقطار البسيط للغزالى ، واستخرجه ولخصه ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٦٨٥ ، وسماه : الغاية القصوى فى دراسة الفتوى . وهو كتاب= = معتبر اعتنى عليه الفقهاء ، فشرحه الشيخ عبد الله بن محمد الفرغانى العبيدى ، وغياث الدين محمد بن محمد الواسطى المتوفى سنة ٧١٨ ، وشرحه أيضاً بدر الدين محمد بن أسعد التسترى ، المتوفى فى حدود سنة ٧٣٥ ، والشيخ جمال الدين محمد بن محمد الأقسرائى الشافعى المتوفى سنة ٧٧١ (انظر حاجى خليفة ، كشف الظنون فى اسامى الكتب والنفون ٢/١١٩٢) .

(٣) ط : ذكرناها.

(٤) هو : اسحاق بن أبى عمران الإمام، الفقيه ، الحافظ ، شيخ خرا سان ، أبو يعقوب الإسفراييني (ت ٢٨٤ هـ) . قال الحاكم : هو إسحاق بن موسى بن عمران أحد أئمة

من الراسخين فى العلم العاملين به أنه قال: "دعوت الله عز وجل ثلاثين سنة أن يرزقنى توبة نصوحاً، ثم تعجبت فى نفسى وقلـــت: ســـبحان الله

الشافعية ، والرحالة في طلب الحديث ، من رستاق إسفرايين ، تفقه عند أبـــي إبـــراهيم المزني ، وسمع "المبسوط" من الربيع ، وكتب الحديث بخرا سان والعـــراقيين والحجـــاز ومصر والشا م. وله مصنفات كثيرة. سمع بخرا سان : قتيبة بن ســـعيد ، وإبـــراهيم بـــن يوسف ، وإسحاق بن راهويه ، وعلي بن حجر وأقرانهم . وبالجبال محمد بن مقاتل ، وابن أحمد ، وطائفة . وببغداد : منصور بن أبي مزاحم ، ومحمد بن بكار، وعبيد الله القواريرى ، وأحمد بن عمران الأخنسى ، وأبا مسلم الواقدى ، وبالبصرة : عبد الأعلـــي بـــن حمـــاد النرسي ، وعبد الله بن معاوية ، وبنداراً ، وأبا موسى . وبالكوفة : عثمان بن أبي شـــيبة ، وأخاه القاسم ، وجبارة بن المغلس ، وأبا كريب ، وعبد الله بن عمر بن أبان ، وبالحجاز : إبراهيم بن محمد الشافعي ، وإبراهيم بن المنذر ، وأبا مصعب ،ويعقوب بن حميد ، وعدة . وبالشام : هشام بن عمار، ود حيماً ، وأحمد بن أبي الحواري ، وطبقـــتهم . وبمـــصر: محمد بن رمح ، وعيسى بن حماد ، وحرملة ، وأبا الطاهر بن السراح ، وطبقتهم . حدث عنه أبو عمرو الحيرى ، وأبو عوانة الإسفراييني ، ومؤمل بن الحسن ، ومحمد بن عبدك وغيرهم ، وأبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيبانى . وروى الإسفراييني بعض الأحاديـــث منها هذا الحديث ، أخبرنا المؤمل بن محمد كتابةً ، أخبرنا أبو اليمن الكندي ، أخبرنا أبو منصور الشيباني ، أخبرنا أبو بكر الخطيب ، أخبرنا محمد بن أحمد ، أخبرنا محمد بـــن= = نعيم الضبي ، حدثني محمد بن يحيي الإسفراييني الفقيه ، حـــدثنا محمـــد بـــن عبـــدك الإسفراييني ، حدثنا إسحاق بن أبي عمران ، حدثنا أبو محمد المر وزي وراق محمد بـــن غيلان ، حدثنا يحيي بن يحيي ، حدثنا علي بن المدينى ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا قتبة ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الطفيل ، عن معاذ : " أن النبي – ﷺ – خرج في غزوة تبوك ، فكان يؤخر الظهر حتى يدخل وقت العصر ، فيجمع بينهم " صحيح رواة البيهقي بلفظه عن الحاكم ، عن محمد بن نعيم الضبي . (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١١/ ٢٤- ٢٦) .

حاجة دعوت[1] الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت حتى الآن؟ فرأيت فيما يرى النائم أن قائلاً يقول لي: أتعجب من ذلك؟ أتدري ماذا نسأل الله تعالى؟ إنما نسأل الله تعالى أن يحبك، أما سمعت قوله عز وجل: "**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**"[2].

فهذه حاجة هينة فانظر هؤلاء الأئمة واهتمامهم ومواظبتهم على صلاح قلوبهم والتزود لمعادهم.

وأما الضرر المخوّف فإن أول الذنب قسوة، وآخره -والعياذ بالله- شُئم وشقوة، وإياك أن تنسى أمر إبليس، وبلعم بن ماعورا، كان مبدأ أمرهما ذنباً وكان آخره كفراً، فهلكا مع الهالكين . إن الأمر بيّن ، فعليك رحمك الله بالتيقظ والجهد، عسى أن تقتلع من قلبك عرق هذا الإصرار، وتخلص رقبتك من هذه الأوزار، ولا تأمن من قساوة القلب، وتأمل ذلك، فقد قال بعض الصالحين: "إن سواد القلب من الذنوب ، وعلامة سواد القلب ألا تجد من الذنوب مَفْزَعا، ولا للطاعات موقعاً، ولا للموعظة منجعاً، ولا تستحقرن الذنوب، فتحسب نفسك تائباً وأنت مصرّ على الكبائر، فلقد بلغنا عن أحد الصالحين أنه قال: "أذنبت ذنباً واحداً فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة قيل: ما هو ؟ قال: زارني أخ في الله، فاشتريت له سمكاً فأكل، ثم قمت إلى حائط جاري فأخذت منها [قطعة][3] طين فغسل بها يده.

---

(١) + ط : و.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٢٢.

(٣) ط : قطع.

فناقش نفسك وحاسبها، وسارع إلى التوبة، [وبادر] (١) فإن الأجل مكتوم، والدنيا غرور، وتضرع إلى الله سبحانه وابتهل، وأذكر حال أبينا آدم عليه السلام، الذى خلقه تعالى بيده، وحمله إلى جنته، علـــى أعنـــاق الملائكة لم يذنب إلا ذنباً واحداً فنزل به ما نزل حتى رُوِىَ أن الله تعالى قال له: "**يا آدم: أى جار كنت لك؟ قال: نعم الجار يارب، قـــال: يـــا آدم أخرج من حوارى وضع عن رأسك تاج كرامتى فإنه لا يجـــاورنى مـــن عصانى**" حتى انه فيما روى بكى على ذنبه مائتى سنة حتـــى قبـــل الله توبته، وغفر ذنبه الواحد، هذا حاله مع نبيه وصفيه فى ذنب واحد فكيف <حال>(٢) العبد فى ذنوب لا تحصى؟، وهذا تضرع التائـــب وابتهالـــه، فكيف بالمصرّ والمتّصف؟.

ولقد أحسن من قال: "يخاف على نفسه من يتوب فكيف بمـــن لا يتوب"؟ فإن تُبت ثم نقضت التوبة وعدت إلى الذنب ثانياً، فعدّ إلى التوبة مبادراً وقل لنفسك: لعلى أموت قبل أن أعود إلى الـــذنب هـــذه المـــرة، وكذلك ثانياً وثالثاً ورابعاً، وكما اتخذت الذنب والعوّد إليه حرّفة، فاتخـــذ التوبة والعود إليها حرفة، ولا تكن فى التوبة أعجز منك فى الـــذنب، ولا تيأس ، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك، فإنه دلالة الخير، أمـــا تسمع قوله ﷺ "**خياركم كل مُفتن تواب**"(٣) أى كثير الابتلاء بالذنب، كثير التوبة منه، والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى بالندامة والاستغفار، وتذكر

---

(١) ط : وبارد .

(٢) زيادة تقضيها السياق.

(٣) ضعيف، ذكره الالبانى فى ضعيف الجامع الصغير، وزيادته فى الفتح الكبير جـــ ٢، ص ٢٨٧٣.

قوله سبحانه: "**ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً**"(١) . فهذه هذه ، وبالله التوفيق.

وجملة الأمر أنك إذا ابتدأت فبرّأت قلبك عن الذنوب كلها، بأن توطنه على ألا تعود إلى الذنب أبداً البتة، <و>(٢) ليكن ما كان على وجه علم الله سبحانه وتعالى، وصدق عزمك من قلب تقى، وترضى الخصوم بما أمكنك، وتقضي الفوائت بما تقدر عليه، وترجع فى الباقى إلى الله عز وجل بالابتهال والتضرع ليكفيك ذلك، ثم تذهب فتغتسل وتغسل ثيابك وتصلى أربع ركعات كما يجب، وتضع وجهك بالأرض بمكان خال لا يراك فيه إلا الله سبحانه وتعالى، ثم تجعل التراب على رأسك، وتمرّغ وجهك الذى هو أعز أعضائك فى التراب، بدمع [جار](٣) وقلب حزين، وصوت عالٍ، تذكر ذنوبك واحداً واحداً ما أمكنك، وتلوم نفسك العاصية عليها، وتوبخها وتقول: أما تستحى يا نفسى؟، أما آن لك أن تتوبى؟، ألكِ طاقة بعذاب الله؟(٤) وتذكر من هذا كثيراً وتبكى ، ثم ترفع يدك إلى الرب الرحيم سبحانه وتقول: إلهى عبدك الآبق رجع إلى بابك، عبدك العاصى رجع إلى الصلح، عبدك المذنب أتاك بالعذر، فاعف عنى بجودك، وتقبل بفضلك ، وأنظر إلىّ برحمتك، اللهم أغفر لى ما سلف من الذنوب واعصمنى فيما بقى من الأجل، فإن الخير كله بيدك، وأنت بنا رءوف رحيم، ثم تدعو دعاء الشدة وهو:

---

(١) سورة النساء، آية ١١٠.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) ط : جارى، والصواب كما أوردته لأنه منقوص فى حالة الجر.

(٤) + ط : الك حاجة سبحانه .

يا مجلّى عظائم الأمور، يا منتهى همة المهمومين، يا مــن إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، أحاطت بنا ذنوبنا، أنت المدخور لها يا مدخوراً لكل شدة، كنت أدخرك لهذه الساعة ، فتُب علىّ، إنــك أنــت التواب الرحيم، ثم أكثر من البكاء، وقل يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا تغلطه المسائل، يا من لا يبرمه إلحاح الملحــين، أذقنــا بــرد عفوك وحلاوة رحمتك، إنك على كل شئ قدير، ثم تصلى علــى النبــى محمد صلى الله عليه وسلم، وتستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وترجع إلــى طاعة الله جل جلاله فتكون قد تُبت توبة نصوحاً، وخرجت من الــذنوب طاهراً كيوم ولدتك أمك، وأحبك الله تعالى وأدخر لك من الأجر والثواب، وأنزل عليك من البركة والرحمة ما لا يحيط به وصــل، وجعِــل لــك الأمن[1]، ونجوت من عقبة المعاصى وويلتها فى الدنيا والآخرة، وكنــت قد قطعت هذه العقبة بإذن الله سبحانه وتعالى ، والله ولى الهدايــة بمنــه وكرمه.

---

(١) بياض فى ط .

العقبة الثالثة: وهى عقبة العوائق

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله سبحانه بدفع العوائق حتى تستقيم عبادتك، وقد ذكرنا أن العوائق أربعة، أحدها الدنيا: ودفعها إنما هو بالتجرد عنها والزهد فيها، وإنما لزمك هذا التجرد والزهد لأمرين: أحدهما تستقيم العبادة وتكثر، فإن الرغبة فى الدنيا تشغلك، إما [ظاهرك][1] بالطلب، أو باطنك بالإرادة وحديث النفس، وكلاهما يمنع عن العبادة، فإن النفس واحدة والقلب واحد، فإذا انشغل بشئ انقطع عن ضده، وإن مثل الدنيا والآخرة كمثل الضَّرَّتَيْن، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وإنما هما كالمشرق من المغرب، بقدر ما تميل إلى إحداهما أعرضت عن الأخرى. وأما شغلها عن الظاهر فقد روى عن **أبى الدرداء** [2]رضى الله عنه أنه قال: "حاولت الجمع بين العبادة والتجارة فلم

---

(١) ط : ظاهر.

(٢) أبو الدرداء ، هو : عويمر بن قيس بن يزيد . وقيل : عويمر بن ثعلبة بن عامر بن زيد بن قيس بن أمية بن مالك بن عامر بن عدي بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج أبو الدر داء الأنصاري الخزرجي . وهو مشهور بكنيته . وكان من أفاضل الصحابة وفقهائهم وحكمائهم . قال النبي ﷺ فيه : " عويمر حكيم أمتي " وروي عنه أنس بن مالك ، و فضالة بن عبيد ، وأبو أمامة ، وعبد الله بن عمر ، وابن عباس وأبو إدريس الخولاني ، وجبير بن نفير، وابن المسيب ، وغيرهم . تأخر إسلامه فلم يشهد بدراً ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ وقيل إنه لم يشهد أحداً وأول مشاهده الخندق . وآخي رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي . ومن أخباره أنه مر علي رجل قد أصاب ذنباً ، وكانوا يسبونه ، فقال : أ رأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلي . قال فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله الذي عافاكم . قالوا : أفلا نبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله ، فإذا تركه فهو أخي . روي أبو الدرداء أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ منها :

يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة"، وعن عمر رضى الله عنه أنه قال: "لو كانتا مجتمعتين لأحد غيرى لاجتمعتا لى لما أعطانى الله من القوة واللين"[1].

وأما شغلها بالقلب وهو الباطن لمكان الإرادة ، فما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**من أحب دنياه أَضَرَّ بآخرته ومن أحب آخرته أَضَرَّ بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى**"[2]، فبان لك إذا

أن رسول الله ﷺ قال: " أيعجز أحدكم أن يقرأ كل ليلة ثلث القرآن؟ قالوا : نحن أعجز من= = ذلك وأضعف . قال : فإن الله عز وجل جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل (قل هو لله أحد) جزءاً من أجزاء القرآن " وولي أبو الدرداء قضاء دمشق في خلافة عثمان . ولما نزل به الموت ، بكي فقالت له أم الدرداء : وأنت تبكي يا صاحب رسول لله ؟! قال :نعم ، ومالي لا أبكي ولا أدري علام أهجم من ذنوبي . فالت ألم تك تخبرنا أنك تحب الموت ؟ قال : بلي وعزة ربي ، ولكن نفسي لما استيقنت الموت كرهته ، ثم بكي وقال : هذه آخر ساعاتي من الدنيا لقنوني" لا إله إلا لله " فلم يزل يرددها حتى مات . وقيل : دعا ابنه بلالاً فقال : ويحك يا بلال! أعمل للساعة ، اعمل لمثل مصرع أبيك ، واذكر بها مصرعك وساعتك ، فكأن قد ، ثم قبض . وتوفي قبل عثمان بسنتين ، قيل توفي سنة ثلاث أو اثنتين وثلاثين بدمشق ، وقيل : توفي بعد صفين سنة ثمان أو تسع وثلاثين . والأصح والأشهر والأكثر عند أهل العلم أنه توفي في خلافة عثمان ، ولو بقي لكان له ذكر بعد قتل عثمان إما في الاعتزال ، وإما في مباشرة القتال ، ولم يسمع له بذكر فيهما البتة ، و الله أعلم . (راجع ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ج٤ .، ص١٨- ١٩ ،ج٥ ص ٩٧) .

(١) + ط : فإذا كان الحديث كذلك والسلام.

(٢) أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل ، قال : حدثنا قتيبة بن سعيد ، قال : حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الإسكندرانى ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب ، عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فأثروا ما يبقى (ابن حبان، محمد بن أحمد أبى حاتم التميمى السبتى،

اشتغل ظاهرك بالدنيا، وباطنك بإرادتها، فلا تتأتى لك العبادة بحقها، وأما إذا زهدت فيها فتفرغت بظاهرك وباطنك ، تتسنى لك العبـــادة، [بـــل][1] تعاونك أعضاؤك، ولقد روى عن **سلمان الفارسى**[2] أنه قال: "إن العبـــد

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ط شعيب الأرنوؤط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤، جـــ ٢، ص ٤٨٦). =

= وحدثنا عبد الله ، حدثنى أبى ، ثنا سليمان بن داود الهاشمى ، قال: ثنا إسماعيل يعنى بن جعفر قال : أخبرنى عمرو ، عن المطلب بن عبد الله ، عن أبى موســـى ، أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرتـــه أضـــر بـــدنياه فآثروا على ما يفنى " (مسند أحمد ٤/٤١٢).

(١) ط : بلا.

(٢) سلمان الفارسى: هو ما يرويه هو قائلا: كنت رجلا من أهل فارس من أصبهان ، من جَي ، ابن رجل من دقاهينها – وكان أبي دهقان أرضه ، وكنت أحب الخلق إليه ، فأجلسني في البيت كالجواري ، فاجتهدت في المجوسية – فكنت في النار التي توقد فلا تخبو ، كان أبي صاحب ضيعة ، وكان له بناء يعالجه فقال لي يوما : يا بني ، قد شـــغلني مـــا تـــري فانطلق إلى الضيعة ، ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمي بـــك ، فخرجـــت لـــذلك فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون ، فملت إليهم وأعجبني أمرهم ، وقلت – هـــذا والله خير من ديننا . فأقمت عندهم حتى غابت الشمس ، لا أنا أتيت الضيعة ولا رجعت إليـــه ، فاستبطأني وبعث رسلاً في طلبي ، وقد قلت للنصارى حين أعجبني أمرهم: أين أصل هذا الدين ؟ قالوا: بالشام .فرجعت إلي والدي ، فقال: يا بني ، قد بعثت إليك رســـلاً ، فقلـــت: مررت بقوم يصلون في كنيسة ، فأعجبني ما رأيت من أمرهم ، وعلمت أن دينهم خير من ديننا . فقال: يا بني ، دينك ودين آبائك خير من دينهم ، فقلت: كلا والله . فخافني وقيدني . فبعثت إلي النصارى وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم ، وسألتهم إعلامي من يريـــد الـــشام ، ففعلوا . فألقيت الحديد من رجلي ، وخرجت معهم ، حتى أتيت الشام ، فسألتهم عن عالمهم ، فقالوا: الأسقف ، فأتيته ، فأخبرته ، وقلت: أكون معك أخدمك وأصلي معك؟ قال: أقـــم . فمكثت مع رجل سوء في دينه ، كان يأمرهم بالصدقة ، فإذا أعطوه شيئاً أمـــسكه لنفـــسه ،

حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، فتوفي ، فأخبرتهم بخبره ، ودللتهم على ماله فصلبوه ، ولم يغيبوه ورجموه ، وأحلوا مكانه رجلاً فاضلاً في دينه زهداً ورغبه في الآخرة وصلاحاً ، فألقي الله حبه في قلبي ، حتى حضرته الوفاة، فقلت: أوصني، فذكر رجلاً= = بالموصل ، وكنا على أمر واحد حتى هلك . فأتيت الموصل ، فلقيت الرجل ، فأخبرته بخبري ، وأن فلاناً أمرني بإتيانك ، فقال: أقم . فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة ، فقلت له: أوصني ، فقال: ما أعرف أحداً على ما نحن عليه إلا رجلاً بعمورية . فأتيته بعمورية ، فأخبرته بخبري ، فأمرني بالمقام وثاب لي شئ ، واتخذت غنيمة وبقيرات ، فحضرته الوفاة فقلت: إلي من توصي بي؟ فقال: لا أعلم أحداً اليوم على مثل ما كنا عليه ، ولكن قد أظلك نبي يبعث بدين إبراهيم الحنيفية ، مهاجره بأرض ذات نخل ، وبه آيات وعلامات لا تخفي ، بين منكبيه خاتم النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، فإن استطعت فتخلص إليه . فتوفي . فمر بي ركب من العرب ، من كلب ، فقلت: أصحبكم وأعطيكم بقراتي وغنمي هذه وتحملوني إلي بلادكم؟ فحملوني إلي وادي القرى ، فباعوني من رجل من اليهود ، فرأيت النخل ، فعلمت أنه البلد الذي وصف لي ، فأقمت عند الذي اشتراني ، وقدم عليه رجل من بني قريظة فاشتراني منه ، وقدم بي المدينة ، فعرفتها بصفتها ، فأقمت معه أعمل في نخله ، وبعث الله نبيه صلي الله عليه وسلم ، وغفلت عن ذلك حتى قدم المدينة ، فنزل في بني عمرو بن عوف ، وإني لفي رأس نخلة إذ أقبل ابن عم لصاحبي ، فقال: أي فلان ، قاتل الله بني قيلة (يريد الأوس والخزرج ، قبيلتي الأنصار ، وقيلة: اسم أم لهم قديمة) مررت بهم آنفاً وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة ، يزعم أنه نبي ، فو الذي ما هو إلا أن سمعتها ، فأخذني القر (البرد) ورجفت بي النخلة ، حتى كدت أن أسقط ، ونزلت سريعاً ، فقلت: ما هذا الخبر؟ فلكمني صاحبي لكمة ، وقال: وما أنت وذاك؟ أقبل علي شأنك . فأقبلت علي عملي حتى أمسيت ، فجمعت شيئاً فآيته به ، وهو بقباء عند أصحابه ، فقلت: اجتمع عندي ، أردت أن أصدق به ، فبلغني أنك رجل صالح ، ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة ، فرأيتكم أحق به ، فوضعته بين يدية ، فكف يديه ، وقال لأصحابه: كلوا . فأكلوا ، فقلت: هذه واحدة ، ورجعت . وتحولت إلي المدينة ، فجمعت شيئاً فاتيته به ، فقلت: أحببت كرامتك فأهديت لك هدية ، وليست بصدقة ، فمد يده فأكل وأكل أصحابه ، فقلت: هاتان اثنتان ، ورجعت . فأتيته وقد تبع جنازة في بقيع الغرقد

، وحوله أصحابه ، فسلمت ، وتحولت أنظر إلي الخاتم في ظهره ، فعلم ما أردت ، فــألقي رداءه ، فرأيت الخاتم ، فقبلته ، وبكيت فأجلسني بين يديه ، فحدثته بشأني كله كما حدثتك يا ابن عباس ، فأعجبه ذلك ، وأحب أن يسمعه أصحابه ، ففاتني معه بدر وأحدق بالرق ، فقال لي: كاتب يا سلمان عن نفسك ، فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته، علي أن أغرس لــه= = ثلثمائه ودية (نخله صغيرة) وعلي أربعين أوقية من ذهب ، فقال النبــي ﷺ "أعينــوا أخاكم بالنخل ، فأعانوني بالخمس والعشر ، حتى اجتمع لي" ، فقال لي: **فقر** (احفــر لهــا موضعاً تغرس فيه ، وتسمي الحفرة: فقر' ، بضم الفاء) لها ولا تضع منها شــيئاً حتــى أضعه بيدى ، ففعلت ، فأعانني أصحابي حتي فرغت ، فأتيتــه ، فكنــت آتيــه بالنخلــه فيضعها ، ويسوى عليها تراباً ، فأنصرف ، والذى بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة ، وبقي الذهب ، فبينما هو قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة ، من ذهب أصابه من بعض المعادن ، فقال: ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب ، فقال: أد هذه ، فقلت: يا رسول الله ، وأين تقع هذه مما علي؟ وروى أبو الطفيل ، عن سلمان ، قال: أعــانني رســول الله ﷺ ببيضة من ذهب ، فلو وزنت بأحد لكانت أثقل منه . وكان أول مشاهد سلمان مع رسول الله ﷺ الخندق ، ولم يتخلف عن مشهد بعد الخندق ، وآخي رسول الله ﷺ بينه ، وبــين أبــي الدرداء . وروى سلمان أن النبي ﷺ ، قال: "من اغتسل يوم الجمعة فتطهر ما استطاع من الطهر ، ثم ادهن من دهنه أو من طيب بيته ، ولم يفرق بين اثنين فإذا خرج الإمام أنصت ، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى . وعن أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله ﷺ "إن الجنة تشتاق إلي ثلاثة: علي وعمار وسلمان" . وكان سلمان من خيار الصحابة وزهــادهم وفضلائهم ، وذوى القرب من رسول الله ؛ قالت عائشة: كان سلمان يجلس من رســول الله ﷺ بالليل ، حتي كاد يغلبنا علي رسول الله ﷺ. وسئل علي عن سلمان ، فقال: علم العلــم الأول والعلم الآخر ، وهو بحر لا ينزف ، وهو منا أهل البيت . وكان رسول الله قد آخــي بين سلمان وأبي الدرداء ، وسكن أبو الدرداء الشام ، وسكن سلمان العراق ، فكتــب أبــو الدرداء إلي سلمان: سلام عليك ، أما بعد ، فإنك الله رزقني بعدك مالاً وولــداً ، ونزلــت الأرض المقدسة . فكتب إليه سلمان: سلام عليكم ، أما بعد ، فإن كتبت إلي أن الله رزقــك مالاً وولداً ، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ، ولكن الخير أن يكثر حلمــك ، و أن

إذا زهد فى الدنيا، استنار قلبه بالحكمة، وتعاونت أعضاؤه بالعبادة . فهذه هذه.

والثانى من الأمرين أن يكثر قيمة عملك ويعظم قدره ، ولقد قال (صلى الله عليه وسلم) : **"ركعتان من رجل زاهد قلبه خير أحب إلى الله سبحانه جل جلاله من عبادة المتعبدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً"**[1] فإن كانت العبادة تشرق وتكثر بذلك، فحق لمن طلب العبادة أن يزهد فى

ينفعك علمك، و كتبت إلى انك نزلت الأرض المقدسة، و إن الأرض لا تعمل لأحد، اعمل كأنك ترى ، واعدد نفسك من الموتى.

و قال حذيفة لسلمان : ألا نبنى لك بيتاً ؟ قال : لم؟ لتجعلني مالكاً، و تجعل لي داراً مثل بيتك الذي بالمدائن ، قال: لا، و لكن نبني لك بيتاً من قصب و نسقفه بالبردي، إذا قمت كاد أن يصيب طرفيك، قال: فكأنك كنت في نفسي. و كان عطاؤه خمسة الاف، فإذا خرج عطاؤه فرقه ، أكل من كسب يده و كان ينسج الخوص. و هو الذي أشار على رسول الله= = ﷺ بحفر الخندق لما جاءت الأحزاب، فلما أمر رسول الله ﷺ بحفره احتج المهاجرون و الأنصار في سلمان، و كان رجلاً قوياً، فقال المهاجرون: سلمان منا، و قال الأنصار : سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ : " سلمان منا أهل البيت ". و روى عنه ابن عباس، و أنس، و عقبة بن عامر، و أبو سعيد، و كعب بن عجرة، وأبو عثمان النهدى و شرحبيل بن السمط، و غيرهم. فعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ هل تدرى ما يوم الجمعة؟ قال: قلت: الله و رسوله أعلم، قال: هو الذى جمع الله عز و جل في أباكم، أو أباك، أدم عليه السلام، ما من عبد يتطهر يوم الجمعة ثم يأتي يوم الجمعة لا يتكلم، حتى يقضى الإمام صلاته إلا كان كفارة لما قبلها. و توفىَ سنة خمس و ثلاثين، في أخر خلافة عثمان، و قيل: أول سنة ست و ثلاثين، و قيل: توفى في خلافة عمر، والأول أكثر. (راجع ، ابن الآثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار الفكر بيروت ،١٤١٩ة- ١٩٩٨،ج٢،ص ٢٨٣-٢٨٧) .

(١) لم أجد لفظ هذا الحديث فى أغلبية كتب الحديث التى عولّت عليها فى التحقيق، وما وجدته قريب فى المعنى، قوله: "ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط". وهو ضعيف أورده الألبانى فى "ضعيف الجامع" جـ ٢، ص ٣١٣٥، وأورده الغمارى فى "المغير على الأحاديث الموضوعة"، جـ ٢، ص ٧٠.

الدنيا، ويتجرد عنها.

فإن قلت: فما معنى الزهد فى الدنيا وحقيقة ذلك؟ فاعلم أن الزهد عند علمائنا رحمهم الله تعالى زهدان: زهد مقدور للعبد، وزهد غير مقدور فالذى هو مقدور ثلاثة أشياء: ترك طلب المفقود من الدنيا، وتفريق المجموع منها، وترك إرادتها واختيارها. وأما الزهد [الذى][١] هو مقدور مقدمات للزهد الذى هو غير مقدور للعبد، فهو برودة الشئ على قلب الزاهد، ثم الزهد الذى هو مقدور مقدمات للزهد الذى هو غير مقدور، فإذا أتى به العبد بأن لا يطلب ما ليس عنده منها، <و>[٢]يترك بالقلب إرادتها واختيارها لآفاتها، أورثه ذلك برودة الدنيا على قلبه لأجل الله وعظيم ثوابه، وهذا عندى هو الزهد الحقيقى.

ثم أعلم أن أصعب الأمور الثلاثة هو ترك الإرادة بالقلب، إذ كم تارك لها بظاهره، مريداً لها بباطنه، فهو فى مكافحة ومقاساة فى نفسه شديدة، والشأن كله فى هذه، ألم تسمع قوله تعالى: "**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً**"[٣] علق الفعل بنفى الإرادة دون الطلب، والفعل للمراد، وقوله تعالى: "**من كان يريد حرث الآخرة نزدله فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب**"[٤]، وقوله تعالى: "**من كان يريد العاجلة**"[٥]، وقوله

---

(١) ط : الذ.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) سورة القصص، آية ٨٣.

(٤) سورة الشورى ، آية ٢٠.

(٥) سورة الإسراء، آية ١٨.

تعالى: "**ومن أراد الآخرة**"[١]، أما ترى الإشارة كلها إلى الإرادة؟!، فأمرها هو المهم إذن، لكن العبد إذا واظب واستقام على الأولبين، أعنى الترك والتعزيف[٢] فمأمول من فضل الله تعالى أن يوفقه لدفع هذه الإرادة والاختيار عن قلبه، فإنه المفضل الكريم عز وجل.

ثم الذى يبعث على الترك والتعزيف ويهون عليك ذلك، ذكر آفات الدنيا وعيوبها، وقد أكثر الناس من القول فى ذلك، فمنه قول بعضهم: "ترك الدنيا لقلة غنائها، وكثرة عنائها، وسرعة فنائها، وخسة شركائها"، قال شيخى الإمام رحمه الله تعالى "إن الدنيا عدوة الله عز وجل وأنت محبه، ومن أحب أحداً أبغض عَدُوَّه"، قال: "ولأنها فى أصلها وسخة جيفة، <ألا>[٣] ترى آخرها إلى القذر والفساد؟!، والتلاشى والاضمحلال؟، ولكنها جيفة قد ضمخت[٤] بطيب، وطريت بزيت، فاغتر بظاهرها الغافلون".

فإذا قيل: ما حكم الزهد فى الدنيا أهو فرض أم نفل؟ فاعلم أن الزهد فى الدنيا يقع عندنا فى الحلال والحرام، [فهو][٥] فى الحرام فرض، وفى الحلال نفل، ثم منزلة هذا الحرام [المستقيمى] [٦] الطاعة بمنزلة الميتة المستقذرة، لا يقدم عليها إلا عند الضرورة، بمقدار دفع الضرورة.

---

(١) سورة الإسراء، آية١٩ .

(٢) يقصد الإعراض وعدم الإرادة بالقلب.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) التضمخ بالطيب ، أى التلطخ به و (ضَمّخه) غيره (تضميخا) (مختار الصحاح ٣٨٣)

(٥) ط : فهى.

(٦) ط : المستقيمى .

وأما الزهد فى الحلال: إنما يكون فى منزلة الأبدال[1]، يكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة، لا يتناولون منه إلا قدراً لابّد منه، والحرام عندهم بمنزلة النار، لا يخطر ببالهم[2]، وهذا معنى البرودة على القلب، بأن تنقطع همته عنها، ويستنكرها جداً، فلا يبقى لها فى قلبه إرادة ولا اختيار.

فإن قلت : فكيف تصير الدنيا فى شهواتها ولذاتها العجيبة المطلوبة عند الإنسان بمنزلة النار، وبمنزلة الجيفة المستحيلة، والنية نيتنا، والطبع طبعنا؟، فاعلم أن من وفق التوفيق الخاص، وعلم آفاتها وقدرها فى أصلها، [صارت] [3] فى أصلها فقيرة عنده، كذلك وإنما يتعجب من هذا الراغبون العميان عن عيب الدنيا وآفاتها، [المفتونون][4] بظاهرها وزينتها، وسأضرب لذلك مثلاً [لذلك] [5]: فاعلم أن هذا يُمثَّل بإنسان دعا رجلين ووضع خبيصاً[6] بشرائطه من السكر الخالص، وغيره ثم طرح فيه قطعة سمٍّ قاتل، [وأعلم] [7] ذلك رجل ولم [يُعلمه] [8] آخر، ووضع الخبيص بين أيديهما مزخرفاً مزيناً، فالرجل الذى رأى ما فيه من

---

(١) الأبدال: مرتبة من مراتب المؤمنين العالية.

(٢) + ط : تصدتنا ولها بحال .

(٣) ط : فتصير .

(٤) ط : المفترون.

(٥) ط : كذلك .

(٦) الخبيص فى اللغة، هو الوعاء.

(٧) ط : وأبعد .

(٨) ط : يبعده .

السم يكون زاهداً فى هذا الخبيص، لا يخطر بباله أن يتناول منه بحال البتة، ويكون ذلك عنده بمنزلة النار بل أصعب، [لما][(١)] يعلم من آفاته، ولا يغتر بظاهره وزينته. وأما الرجل الآخر الذى لم يعلم ما جعل فيه، أغترّ بظاهره المزخرف، وحرص عليه ولم يصبر عنه، وأخذ يتعجب من صاحبه الزّاهد فيه وربّما يسفهه فى ذلك.

فهذا مثل حرام الدنيا مع البصراء المستقيمين، والجهال الراغبين، فإن لم يطرح فيه السمّ لكن يبصق فيه، وامتخط فيه، ثم ضمخه وزينه، [فأما] [(٢)] الرجل الذى شهد منه ذلك الفعل يكون مستقذراً لذلك الخبيص، نافراً منه، لا يكاد يقدم عليه إلا عند الضرورة، وشدة الحاجة، والذى لم يشهد ذلك فهو جاهل معجب بآفته، مغتر بظاهره، حريص عليه مكّب محبّ، فهذا مثل حلال الدنيا مع الفريقين أهل البصيرة والاستقامة، وأهل الرغبة والغفلة. وإنما اختلف حال الرجلين [مع][(٣)] تساويهما فى الطبع والبنية، لبصارة وعلم كان لأحدهما، وجهل وخفاء كان للآخر، فلو علم الراغب وأبصر ما علمه الزاهد لكان زاهداً مثله، ولو جهل الزاهد وعمى عن ما [عُمى] [(٤)] عنه الراغب لكان راغباً مثله، فعلمت بذلك أن هذا التمييز لمكان البصائر دون الطبائع. وهذا مثل مفيد وكلام بيّن سديد، اعترف به من عقل وأنصف والله ولى التوفيق والهداية بفضله.

---

(١) ط : لمكان ما.

(٢) ط : فما .

(٣) ط : معه.

(٤) ط : عمر .

فإن قيل: واعلم أن الزمان قد أصبح فى فَساد عظيم[١]، وأصبح الناس فى ضرٍ كبير، فأنهم يشغلونك عن عبادة الله عز وجل، حتى لا يكاد يحصل لك منها شئ، <ثم>[٢] يفسدون عليك ما حصل لك حتى لا يكاد يسلم لك شئ، فلزمتك العزلة والتفرد عن الناس والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله، والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته.

فإن قيل: فما حكم العزلة والتفرد عن الناس، فبّين لنا حال الخلق فيها، والذى يجب منها؟ فاعلم رحمك الله وإيانا [أن][٣] الناس فى هذا الباب رجلان، رجل الحاجة بالخلق إليه فى علم وبيان حُكم، فالأوْلى بهذا الرجل التفرد عن الناس، فلا يخالطهم إلا فى جمعة أو جماعة أو عيد أو حج أو مجلس علم بالسنة، أو حاجة فى معيشة لابد له منها، وإلا فيوارى شخصه، ويلزم كنه لا يَعرِف، ولا يُعرَف، فأما إن أحب هذا الرجل أن ينقطع عن الناس فلا يخالطهم فى أمر من الأمور البتة، من دين ودنيا وجمعة وجماعة وغيرها، لما يرى له فى ذلك من مصلحته وفراغه، فإنه لا يستقيم له ذلك إلا بأحد أمرين:

إما أن يصير إلى موضع لا تلزمه هناك هذه الفروض، كرءوس الجبال، وبطون الأودية ونحوها، ولعل هذه أحد الوجوه التى دعت العباد إلى تلك المواضع البعيدة عن الناس.

وإما أن يتيقن بالحقيقة أن الضرر الذى يلحقه فى مخالطة بسبب

(١) + ط : فساد.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ط : أنا.

هذه الفروض أعظم من تركها، فحينئذ يكون له عذر فى ذلك، ولقد رأيت أنا بمكة – حرسها الله – بعض المشايخ المنفردين من أهل العلم، وهو لا يحضر المسجد الحرام [فى](١) الجماعة مع قربه منه، وسلامة حاله، فجاورته فى ذلك يوماً فى حال ترددى إليه، فذكر من عذره ما أشرنا إليه، وهو أن ما يجده من الثواب لا يفى بما يلحقه من الأثام والتبعات فى الخروج إلى المسجد ولقاء الناس. فلا غبت على المعذور، والله تعالى أولى بالعذر، وهو عليم بذات الصدور، ولكن الطريق العدل فيها هو الأولى أن يشارك الناس(٢) فى الجمعة والجماعات، أو ضروب الخيرات، ويباينهم فيما سوى ذلك، فإذا [وجبت] (٣) الطريق [الثانية] (٤) بأن ينقطع عن الناس بالمرة، [فسبيله](٥) الخروج إلى مواضع لا [تتوجب] (٦) عليه هذه فيها.

ثم إن الطريق أن يكون مع الناس فى مِصر واحد ولا يحضر مع الناس جمعة ولا جماعة لعذر يراه من وزر، أو تباعة عليه، فإنه يحتاج إلى نظر دقيق، وعوارض عظيمة، حتى يسقط عنه ذلك، وفيه خطر من [الغلط] (٧)، وإلا [وأن] (١) <يكون>(٢)أسلَمَ وأحْفَظَ له، والله ولى الهداية

---

(١) ط : فيها.

(٢) مقروءة بصعوبة فى ط .

(٣) ط : جت .

(٤) ط : الثانى ، وما أوردته هو الصواب "الثانية" ، لأن الطريق فى اللغة مؤنث.

(٥) ط : فسبيل.

(٦) ط : تتوجه .

(٧) ط : الغلطى .

بفضله.

وأما الرجل الثاني: فرجل يكون قدوة فى العلم، بحيث يحتاج الناس إليه فى أمر دينهم لبيان حق، أو ردّ على مبتدع، أو دعوة إلى خير بفعل أو بقول أو نحو ذلك، فلا يَسَع هذا الرجل الاعتزال، بل ينصب نفسه بينهم، ناصحاً لخلق الله تعالى، ذاباً عن دين الله، مبيّناً لأحكام الله تعالى، ولقد روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "**إذ ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله تعالى**"[٣] هذا إذا كان بينهم، وإذا خرج من بينهم فلا يجوز له أيضاً.

ولقد حُكِيَ عن أستاذى "أبى بكر بن فورك"[٤] – رحمه الله تعالى – قصد أن ينفرد لعبادة الله تعالى عن الخلق، فبينما هو بأحد الجبال إذ

(١) ط : ولان .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) ضعيف ذكره الالبانى فى السلسلة الضعيفة، جـ ٤، ص ١٥٠٦. وقريب من لفظه ومعناه ما يلى من الأحاديث:

"إذا ظهرت البدع، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فلينشره، فإن كاتم العلم يؤمئذ لكاتم ما أنزل الله على محمد (صلى الله عليه وسلم)" (ضعيف الالبانى ٤/١٥٠٦).

"إذا ظهرت الفتن والبدع، وسب أصحابى، فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل ذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله له صرفاً ولا عدلاً" (ضعيف الالبانى ٤/١٥٠٦).

(٤) لم أعثر على ترجمة لأستاذ للغزالى بهذا الاسم فى غالبية كتب التراجم الثقة . ولعله أحد الصالحين المعاصرين للغزالى والله أعلم .

سمع صوتاً ينادى: "يا أبا بكر إذ صرت من حجج الله تعالى على خلقه تركت عباد الله" فرجع وكان هذا سبب صحبته للخلق. وذكر لى مأمون بن أحمد رحمه الله أن الأستاذ أبا إسحق[1] رحمه الله قال لعباد جبل لبنان: "يا أكلة الحشيش تركتم أمة محمد فى أيدى المبتدعة، [واشتغلتم][2] هاهنا بأكل الحشيش؟، قالوا له: "إنّا لا نقوى على صحبة الناس، وإنما أنت أعطاك الله قوة، فيلزمك ذلك".، فصنف بعد ذلك كتابه "الجامع للجلى والخفى"[3]. وكان لهم رضى الله عنهم <مع>[4] غزارة عملهم، العلم الجمّ، والنظر الدقيق فى سلوك طريق الآخرة.

واعلم أن هذا الرجل المحتاج إليه فى باب الدين، يحتاج فى صحبته للخلق إلى أمرين شديدين، **أحدهما:** صبر طويل، وحلم عظيم، ونظر لطيف[5]، واستعانة بالله تعالى دائمة، **والثانى:** أن يكون فى هذا المعنى منفرداً عنهم، وإن كان بالشخص معهم، فإن كلمهم، وإن زاروه عظمهم على قدرهم وشكرهم، وإن سكتوا عنه وأعرضوا عنه، [استغنم][6] ذلك منهم. وإن كانوا فى حق وفى خير ساعدهم. وإن صاروا

---

(١) يقصد أبا إسحاق السفرائينى ، وقد مرّت ترجمته .

(٢) ط : واستغلتم.

(٣) ذكره حاجى خليفة ، قائلاً: جامع الجلى والخفى فى اصول الدين والرد على الملحدين ، للشيخ أبى اسحق الاسفرائينى الشافعى الشهير بالأستاذ (انظر ، كشف الظنون ٥٣٩/١).

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

(٥) + ط : شديدين .

(٦) ط : استغنم.

إلى لغو وشر خالفهم، وهاجرهم[١] بل رد عليهم وزجرهم إن رجا قبولهم.

ثم يقوم "بجميع حقوقهم من الزيارة والعبادة وقضاء الحاجة التى ترفع إليه ما أمكنه، ولا يطالبهم بالمكافآت، ولا يرجو ذلك منهم، ولا يريهم من نفسه [استوحاشاً] [٢] لذلك، ويباينهم بالبذل إذا قدر، وينقبض عنهم فى الأخذ إذا أُعْطِيَ، ويحتمل منهم الأذى، ويظهر لهم"[٣] البشرى، ويحتمل لهم بظاهره، ويكتم حاجته عنهم ويفاسيها ويعالجها فى سِّره وباطنه.

ثم يحتاج مع ذلك أن ينظر لنفسه خاصة، فيجعل لها خطاً من العبادة الخالصة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: "إذا نمت الليل لأضعت نفسى، وإذا نمت النهار لأضعت الرعية، فكيف لى بالنوم بين هاتين". وفى هذا المعنى عرض لى أبيات من الشعر هى:

فإن كنتُ فى هَذِى الأئمةِ راغباً   فوطنْ على أن تركَبَنْكَ[٤] الوقائعُ

بنفسٍ وقورٍ عند كلِ كريهةٍ...

لسانُك محزونٌ وطَرْفُك مُلْجَمٌ   وقلبٍ صبورٍ وهو فى الصدرِ مائعُ

وذِكْرُكَ معمورٌ وبابُكَ مُغْلَقٌ   [وسِرُّك][٥] مكتومٌ لدى الربِّ ذائعُ

---

(١) مطموسة فى ط .

(٢) ط : استيحاشاً .

(٣) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: بجميع حقوقهم من الزيارة والعبادة وقضاء الحاجة التى ترفع إليه... إلى قوله : ويحتمل منهم الأذى ، ويظهر لهم . مقروءة بصعوبة فى ط.

(٤) ط : الصواب كما أوردته (تركبَنْكَ).

(٥) ط : وسر، والصواب عروضياً ما أوردته (وسرٌ له).

وقلبُكَ مجروحٌ وسـوقُكَ كاسِـدٌ ... ذائـــــــــــــــــــــــــــــعُ
وفى كل يومٍ أنت جارِ عُ غـصةٍ ... وثَغْـرُكَ بسَّـامٌ وبطنُـكَ جـائـعُ
نهارُكَ شُغْلُ الناسِ من غيرِ مِنَّـةٍ ... وفضلُكَ مدفونٌ وصدقُـكَ شـائـعُ
فدونك هذا الليلَ، خـذه ذريعـةً ... من الدَّهرِ والإخوانِ والقلـبُ طابعُ
وليلُك سوقٌ غابَ عنـكَ الطـلائـعُ
ليـومٍ عبوسٍ عزَّ فيه الـذَّرائـعُ[١]

نعم، تكون بالنفس معهم والقلب ما ابعده عنهم، وذلك لعمرى أمر شديد، وعيشن نكيد، وفيه يقول شيخنا رحمة الله عليه وصيته: "يا بنـى عش مع أهل زمانك ولا تَقْتَدِ بهم"، ثم قال: "ما أشده هـذا العـيش مـع الأحياء والاقتداء بالأموات"، وقال **ابن مسعود**[٢] رضى الله عنه: "خـالط

---

(١) الأبيات من بحر الطويل (مفعولن – مفاعلين – مفعولن – فاعلن).

(٢) ابن مسعود ، هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخـزوم بن ضاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مـضر أبو عبد الرحمن الهذلي ، حليف بني زهرة ، كان أبوه مسعود قد حالف في الجاهلية عبد بن الحارث بن زهرة ، وأم عبد الله بن مسعود أم عبد عبد بنت عبد ود بن سواء مـن هـذيل أيضاً . كان إسلامه قديماً أول الإسلام ، حين أسلم سعيد بن زيد وزوجتـه فاطمـة بنـت الخطاب ، وذلك قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمان ، كان إسلامه كما يروي : كنت غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن أبي معيط أرعاها ، فأتى النبي ﷺ ومعه أبو بكر ، فقال : يا غلام ، هل معك من لبن ؟ فقلت : نعم ، ولكني مؤتمن! فقال : ائتني بشاة لم ينزل عليها الفحل ، فأتيته بعناق – أو جذعة – فاعتقلها رسول الله ﷺ فجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت ، فأتاه أبو بكر بصخرة فاحتلب فيها ، ثم قال لأبي بكر أشرب : فشرب أبو بكر ، ثم شرب النبي ﷺ بعده ، ثم قال للضرع أقلص . فقلص فعاد كما كان ، ثم أتيت الرسول فقلت : يـا رسول الله علمني من هذا الكلام – أومن هذا القرآن – فمسح رأسي وقال : إنك غلام معلم . قال : فلقد أخذت منه سبعين سورة ، ما نزعني فيها بشر . وهو أول من جهر بـالقرآن

بمكة بعد رسول الله ﷺ حيث اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سـمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهم ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا. فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوا ! فقال : دعوني، فإن الله سيمنعني . فغدا عبد الله حتى أتي المقام في الضحى وقريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ، فقال رافعاً صوته : (بسم الله الرحمن الـرحيم * الـرحمن علـم القـرآن) فاستقبلهما فقرأ بها ، فتأملوا فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد فقاموا فجعلوا يضربون في وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلي أصحابه وقد أثروا بوجهه فقالوا : هذا الذي خشينا عليك ! فقـال : ما كان أعداء الله قط أهون علي منهم الآن ولئن شئتم غاد يتهم بمثلها غداً ؟ قالوا : حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون . ولما أسلم عبد الله أخذه رسول الله ﷺ إليه وكان يخدمه ، وقال له :" إذنك علي أن تسمع سوادي ويرفع الحجاب " فكان يلج عليه، ويلبسه نعليه، ويمشي معه وأمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، وكان يعرف في الصحابة بصاحب السـواد والسواك، وهاجر الهجرتين جميعاً إلي الحبشة وإلي المدينة ، وصلي القبلتين ، وشهد بدراً= = ، وأحداً ، والخندق ، وبيعة الرضوان ، وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك بعد النبي ﷺ، وهو الذي أجهز علي أبي جهل ، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة. وروي عن النبي ﷺ وروي عنه من الصحابة : ابن عباس ، وابن عمر ، وأبو موسى ، وعمران بـن حصين ، وابن الزبير ، وجابر ، وأنس ، وأبو سعيد ، وأبو هريرة ، وأبو رافع ، وغيرهم . وروي عنه من التابعين : علقمة ، وأبو وائل ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، وقيس بن أبي حازم ، وغيرهم . وهما رواة عن النبي ﷺ . قال لي رسول الله ﷺ :" اقـرأ علـي سورة النساء " قال قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال إني أحب أن أسمعه من غيـري . فقرأت عليه حتى بلغت (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك علي هؤلاء شهيداً).. إلي أخر الآية فاضت عيناه ﷺ . ومن مناقبه أنه بعد وفاة رسـول الله ﷺ شـهد المـشاهد العظيمة . منها : أنه شهد اليرموك بالشام وكان علي النفل ، وسيره عمر بن الخطـاب ﷺ إلي الكوفة ، وكتب إلي أهل الكوفة : إني قد بعثت عمار بن يسار أميراً ، وعبـد الله بـن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وأطيعوا وأسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله علي نفسي ". وروي عن علي بـن

الناس وزايلهم، ودينك لا تكل منه". فهذه نكتة مقنعة.

ثم أقول: إذا [هاجت][1] الفتن بعضها فى بعض، وتراجع الأمر، وولّى الناس عن أمر الدّين مدبرين، لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ، ولا ذمة، ولا يطلبون علماً، ولا يرمقون مفيداً، ولا من يعينهم على أمر دينهم البتة، وترى الفتنة تعم العامة، وتدبّ بين الخاصة، فللعالم العذر فى العزلة والتفرد ، ودفن العلم.

أبي طالب أنه قال : " أمر النبي ﷺ ابن مسعود فصعد علي شجرة يأتيه منها بشيء ، فنظر أصحابه إلي ساق عبد الله فضحكوا من حموشة ساقيه ، فقال رسول الله ﷺ :" ما تضحكون ؟ لرجل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد " . وكان علي مجتمعاً بجماعة ، فقالوا : ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً ، ولا أرفق تعليماً ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعاً ، من ابن مسعود . قال علي أنشدكم الله هو الصدق من قلوبكم ؟ قالوا : اللهم أشهد نـي أقوال مثل ما قالوا وأفضل . ولما دنا أجل ابن مسعود لقاه رجل فقال : لا تعدم حالماً مذكراً ، رأيتك البارحة ورأيت النبي ﷺ علي منبر مرتفع ، وأنت دونه وهو يقول يا ابن مسعود هلم إلي فلقد جفيت بعدي . فقال : والله لأنت رأيت هذا ؟ قال : نعم قال أفعزمت أن تخرج من المدينة حتى تصلي علي فما لبث أياماً حتى مات . وفي مرضه عاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي قال : فما تشتهى ؟ قال رحمت ربي . قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه . قال : يكون لبناتك . قال أتخشى علي بناتي الفقر ، إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :" من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً ". وتوفي ابن مسعود بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين . وأوصي إلي الزبير ، ودفن بالبقيع ، = = وصلي عليه الزبير ، ولم يعلم عثمان ﷺ بدفنه ، فعاتب الزبير علي ذلك . وكان عمره يوم توفي بضعاً وستين سنة ، ولما مات ابن مسعود نعي إلي أبي الدرداء فقال : " ما ترك بعده مثله " (راجع ، ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ / ٢٦٩- ٢٨٥ بتصرف).

(١) ط : هاج.

إن ما ذكرناه هو هذا الزمان النكد الصعب، والله المستعان وعليه التكلان، فهذا حكم العزلة والتفرد عن الناس، فافهمه فإن الغلط فيه عظيم، وضرره كثير وبالله التوفيق.

فإن قيل: أليس النبى صلى الله عليه وسلم يقول :"**عليكم بالجماعات فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان ذئب الإنسان يأخذ الشاذّة والناحية والقاصية**" . وقال عليه الصلاة والسلام: "**إن الشيطان مع الفذّ، وهو من الاثنين أبعد**"، فاعلم أن هذه وردت، ورُوِىَ أيضاً: "**الزم بيتك، وأخف مكانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بالخاصة ودع عنك أمر العامة**"(١)، وأمر بالعزلة والتفرد فى زمان

---

(١) هذا النص جمعه الغزالى من عدة أحاديث للنبى (صلى الله عليه وسلم)، ومقصود به جواز اعتزال المسلم للفتن. ومن أحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك ما يلى:

- حدثنا صالح بن عبد الله، حدثنا بن المبارك، وحدثنا سويف أخبرنا بن المبارك ، عن يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمامة، عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: "أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن (سنن الترمذى ٤/٦٠٥).
- أخبرنا محمد بن أحمد بن أبى عون ، قال: حدثنا أحمد بن الحسن الترمذى، قال: حدثنا مؤمل بن إسماعيل قال: قلت للحسن بن على حدثنى بشئ حفظته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يحدثك به أحد، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، قال: الخير طمأنينة والشر ريبة (صحيح ابن حبان ٢/٤٩٨).
- حدثنا أبو موسى الأنصارى، حدثنا عبد الله بن أدريس، حدثنا شعبة، عن بريد بن أبى مريم، عن أبى الحوراء السعدى، قال: قلت للحسن بن على ما حفظت من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: حفظت من رسول الله (صلى الله عليه

السوء، ولا تناقض فى قوله صلى الله عليه وسلم، ولابد من الجمع بـين الحديثين بحول الله وقوته: قوله صلى الله عليه وسلم: "**عليكم بالجماعـة**" يحتمل ثلاثة أوجه: إحداها: أنه يعنى فى الدين والحكم، إذ لا تجتمـع[1] هذه الأمة على ضلالة، فخرق الإجماع، والحكم بغير ما عليه الجمهـور من الأمة، والشذوذ عنهم باطل وضلال، وأما أن يعتزل عنهم لصلاح فى دينه فليس هذا من ذلك شئ.

والثانى "عليكم بالجماعة" أى: لا تنقطعوا عـنهم فـى جُمعهـم وجماعاتهم ونحوها، فإن فيها قوة الدين، وجمال الإسلام، وغيظ الكفـار والملحدين، ولا يخلو ذلك من بركات ونظر مـن الله تعـالى بالرحمـة، وكذلك نقول: إن حق المنفرد أن يشارك الناس فى الجموع، والعامة فـى الخير، وأن يجانبهم فى الصحبة والمزاحمة <فى>[2] سائر الأمور، لمـا فيها من ضروب الآفات.

والثالث: أن ذلك فى غير زمان الفتنة للرجل الضعيف فى أمـر الدين. و<أما> [3] أمر الرجل البصير القوى فى أمر الله إذا رأى زمـان الفتنة الذى حذر النبى صلى الله عليه وسلم منه الأمة وأمرهم بالعزلـة، فالعزلة له أولى لما فى الخلطة من الفساد والآفـة، وأن لا ينقطـع مـن جموع الإسلام والخيرات العامة.

وسلم): "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكـذب ريبـة" (سنن الترمذى ٤/٦٦٨).

(١) ط : تجمع.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

وإذا أراد أن ينفرد عن الناس بمرة، فليسكن شاهق جبل، أو بطن فلاة، لصلاح يراه فى دينه، ثم قلت: ولا أرى مثل هذا[1] الرجل أينما كان إلا ويمكنه الله عز وجل من حضور الجماعات والجُمعات، وسائر جموع الإسلام، فيحضر لئلا يفوته الحظ منها، فإن جموع الإسلام من الله عز وجل بمكان، فإن تغير الناس وفسدوا، كما سمعنا من حال الأبدال أنهم يحضرون جموع الإسلام أينما كانت، ويسيرون من الأرض حيث ساروا، فإن الأرض لهم قدماً [واحداً][2]، وفى الأخبار أن الأرض تطوى لهم، ويُنَادَوْن بالتحيات، ويتحفون بأنواع البر والكرامات، فهنيئاً لهم بما ظفروا به، وأحسن الله عزاً من أعقل النظر فى خلاص نفسه، وأعان الطالب الذى لم يصل إلى المقصود كمثالنا، ولقد عرض لى فى ضيقة حالى أبيات من الشعر وهى:

ظَفَرَ الطالبونَ واتصل الوصلُ	وفازَ الأحبابُ بالأحباب
وبقيْنَا مذنبين حَيَارَىَ	بين حَدِّ الوصَالِ والاجتنابِ
نرتجى القَربَ بالبعادِ وهذا	نفسُ حالِ المحالِ للألبابِ
فاسقنا منك شربةً تُذهِبُ الهم	وتَهْدى إلى سبيلِ الصوابِ
يا طبيبَ الجراح يا مبرئَ الجراح	ويا مَنقذى من الأوصابِ
لستُ أدرى بما أداوىِ سقامِى	أو بماذا أفوزُ يومَ الحسابِ[3]

ولنقبض الآن عنان الجنان، ونرجع إلى المقصود من شأن العزلة،

---

(١) + ط : هذا.

(٢) ط : واحد.

(٣) الأبيات من بحر الكامل (متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن).

فقد خرجنا عن شرط الباب، فإن قيل: أليس قد قال النبى صلى الله عليه وسلم: "**رهبانية أمتى الجلوس فى المساجد**"[1]، وفيه زجر عن التفرد؟، فأعلم أن ذلك فى غير زمان الفتنة كما ذكرنا، وأيضاً فإنه يجلس فى المسجد ، ولا يخالط الناس، ولا يداخلهم، فيكون بالشخص معهم، وفى المعنى منفرداً، وهذا هو المعنى فى العزلة والتفرد الذى نحن فى شرحه، لا التفرد بالشخص والمكان فافهم ذلك يرحمك الله، وفيه يقول **إبراهيم بن أدهم**[2] رحمه الله تعالى: "كن واحداً جامعياً، ومن ربك ذا أنس، ومن

---

(١) حديث موضوع ورد فى:

- السبكى، عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى، الأحاديث التى لا أصل لها فى كتاب الأحياء، تحقيق محمود محمد الطناحى، عبد الفتاح محمد الحلو، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة (د.ت)، جـ ١، ص ٣٧٩.
- الهروى، على بن محمد بن سلطان، المصنوع فى معرفة الحديث الموضوع، تحقيق عبد الفتاح أبو عزة، ط الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٨ هـ، جـ ١، ص ١٤٣.

أما أصل حديث الرهبانية، فروى عن انس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله (صحيح ابن حبان ٢/٧٩، ومُسند أحمد ٣/٢٦٦).

(٢) إبراهيم بن أدهم: هو القدوة الإمام، سيد الزهاد، أبو إسحاق العجلي، وقيل : التميمي، الخراساني البلخي، مولده في حدود المائة. حدث عن : أبيه، ومحمد بن زياد الجمحي – صاحب أبى هريرة – وأبى إسحاق السبيعى، ومنصور بن المعتمر، ومالك بن دينار، وأبى جعفر، ومقاتل بن حيان. وحدث عنه : رفيقه سفيان الثوري ، وشقيق البلخي ، وبقيه بن الوليد ، وضمرة بن ربيعة ، ومحمد بن حمير ، وخلف بن تميم ، وعتبة بن السكن ، وحكي عنه الأوزاعى ، وأبو إسحاق الفزاري . قال النسائي : هو ثقة مأمون ، أحد الزهاد . كما وثقة الدار قطني . وكان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه كثير المال والخدم ،

والمركب والجنائب والبزاة ، فبينما إبراهيم في الصيد علي فرسه يركضه ، إذا هو بصوت من فوقه : يا إبراهيم : ما هذا العبث ؟ (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) ، أتق الله ، عليك بالزاد ليوم الفاقة . فنزل عن دابته ، ورفض الدنيا . وفي" رسالة القشيرى " ، قال : هو من كورة بلخ ، من أبناء الملوك ، أثار ثعلباً أو أرنباً ، فهتف به هاتف : ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ فنزل ، وصادف راعياً لأبيه ، فأخذ من عباءته ، وأعطاه فرسه ، وما معه ، ودخل البادية ، وصحب الثوري ، والفضيل بن عياض ، ودخل الشام ، وكان يأكل من الحصاد وحفظ البساتين ، ورأي في البادية رجلاً ،علمه الاسم الأعظم فدعا به ، فرأى الخضر وقال : إنما علمك أخي داود ولقد تأثر إبراهيم بن أدهم أشد تأثير في زهده وحياته الروحية باثنين هما : مالك بن دينار ، وسفيان الثوري ، حيث كان الأول يمثل مدرسة الحسن البصري في البصرة ، والثاني كان يمثل مدرسة الحديث والفقه في الكوفة .ولقد تردد إبراهيم بين المدينتين إلي أن سار الشيخ الرسمي للزهاد بعد وفاة مالك بن دينار . وقد لجأ إليه أهل البصرة وهو يمر في أسواقهم يوماً ، وقالوا له : يا أبا إسحاق إن الله تعالي يقول في كتابه" ادعوني أستجب لكم " ونحن ندعوه منذ دهر ، فلا يستجيب لنا . فقال إبراهيم : يا أهل البصرة ماتت قلوبكم في عشرة أشياء ، أولها عرفتم الله ولم تؤدوا حقه. والثاني قرأتم كتاب الله ، ولم تعملوا به. والثالث، ادعيتم حب رسول الله ، وتركتم سنته . والرابع ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه. والخامس قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها.= = والسادس قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها . والسابع قلتم إن الموت حق ، ولم تستعداو له . والثامن انشغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم . والتاسع أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها . والعاشر دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بها . وتلك العشرة عمل بها إبراهيم بن أدهم ، ذلك الفتي الغني المترف الذي انتقل باختياره من حياة الغني والقصور إلي حياة الشظف القاسي ، ورفض أن يرث مال أبيه بعد موته ، وكره البقاء في خرا سان واندفع إلي بلاد الشام متنقلاً من جبل إلي جبل حتى قيل إنه " موسوس " . ولم يلجأ إلي السؤال، وكرهه أشد الكره ، واحتقر كل زاهد يسأل في الطريق ، أو علي أبواب المساجد يسأل الناس ، بل أخذ يعمل مزارعاً وبستانياً وحمالاً وحطاباً . ومع ما تمتع به من فقر ، إلا أنه كان كثير التصدق علي الفقراء والمساكين إلي الدرجة التي معها ضرب به أعظم مثل في الإيثار والتواضع والسخاء ، فكان يعمل للمسلم كما يعمل للمسيحي ويخدم أصحابه ، باع دابته لكي

ينفق عليهم في مرضهم ، ثم يحملهم على ظهره فراسخ في الطريق .. وعندما يشتد به الجوع هو وخادمه إبراهيم بن بشار يقول له : يا إبراهيم بن بشار ماذا أنعم الله تعالي علي الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة ، فملوك الدنيا أعزة في الدنيا ، أذلة يوم القيامة ، لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تجعلنا الراحة في الدنيا لا نبالي علي أي حال أصبحنا وأمسينا ، إذا أطعنا الله عز وجل ، بل إن الملوك وأبناء الملوك ، لو علموا ما نحن فيه من السرور والنعيم ، لحاربونا بأسيافهم . ورأى إبراهيم بن أدهم أن أشد الجهاد هو جهاد النفس ، ويدعو لأول مرة في تاريخ الزهد إلي النظر في مرآة التوبة ، ويذهب إلي أن جهاد النفس قاس ، حتى يصل السالك إلي درجة الصالحين ، فلابد له أن يجوز ست عقبات ، الأولى أن تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة . الثانية أن تغلق باب العز، وتفتح باب الذل . الثالثة أن تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد . الرابعة أن تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر . الخامسة أن تغلق باب الغني ، وتفتح باب الفقر. السادسة أن تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت . وقد اجتاز ابن أدهم هذه العقبات فوصل إلي مرتبة الصالح ، فوجد القلب يحجب بثلاثة أغطية ، ولن يكشف للعبد اليقين ، حتى ترفع هذه الحجب ، الفرح بالموجود ، والحزن علي المفقود ، والسرور بالمدح . ولقد ورث إبراهيم بن أدهم تقاليد نظرية " المحبة البصرية " وعرف مدرسة رابعة العدوية ، وسار في نفس الطريق ، فيرى أن غاية العابدين ليست هي الفوز بالجنة ، ولا النجاة من النار ، بل هي التلذذ برؤية الله. وقد= = وصل به الحب مداه إلي درجة أنه أراد تسكين قلبه برؤية الله قائلاً : يا رب إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم ، قبل لقائك فاعطني ذلك ، فلقد أضرَ بي القلق . فرأي في المنام أن الله أوقفه بين يديه وقال : يا إبراهيم ما استحيت منى أن تسألني ما يسكن به قلبك قبل لقائي . وهل تسكن الشقاق قبل لقاء حبيبه ، أم هل يستروح المحب إلي غير مشوقه . قال إبراهيم : يا رب تهت في حبك ، فلم أدر ما أقول ، فاغفر وعلمني ما أقول . فقال الله : قل اللهم أرضني بقضائك ، وصبرني علي بلائك ، وأوزعني شكر نعمائك . ذكر أبو نعيم في حليته أن سفيان الثوري قال : كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة لكان رجلاً فاضلاً . ومن أقوال إبراهيم بن أدهم : الزهد فرض وهو الزهد في الحرام ، وزهد سلامة ، وهو الزهد في الشبهات ، وزهد فضل ،

الناس وحشياً"، وقال أيضاً: "اتَّخِذِ الله صاحباً، ودع الناس جانبــاً". فــإن قيل: فما تقول فى [مدارسة] [1] علماء الآخــرة، ورباطــات الـصوفية، وسالكى طرق الآخرة والكون فيها؟ فاعلم أن ذلك الطريقة المثلى فى هذا الشأن لعامة أهل العلم والاجتهاد، وذلك أنها جمعت المعنيين والفائــدتين اللتين إحداهما العزلة عن الناس ، والتفرد عنهم بالــصحبة والمخالطــة والمزاحمة فى أمورهم. والثانية المشاركة معهم فى جُمعهم وجماعــاتهم، وتكثير شعائر الإسلام، فتحصل السلامة التى هى للمنفــردين، والخيــر الكثير الذى لعامة المسلمين، [مع][2] ما للناس فيه مــن العُــدّة والبركــة والنصيحة، فصار الكوّن فيها أعدل طريق، وأحسن حال، وأسلم ســبيل، ولهذا الشأن أقام أكثر العارفين بين الناس، لنفعهم لعباد الله تعالى فى باب الدين، وقلة أذاهم، ومشاهدة الخلق لآدابهم، وحسن رسومهم، ليقتدوا بهم، وإن لسان الحال أفصح من لسان المقال، فصار ذلك أحسن تدبير لأمــر الدين فى العلم والعبادة وأحكم رأى.

فإن قيل: فما حال المريد مع المجتهدين والمرتاضين، أيــصحبهم

وهو الزهد في الحلال . وقال :والله ما الحياة بثقة ، فيرجى نومها ، ولا المنيــة بعــذر ، فيؤمن عذرها ، ففيم التفريط والتقصير والاتكال والإبطاء ؟ قد رضينا من أعمالنا بالمعاني ، ومن طلب التوبة بالتواني ، ومن العيش الباقي بالعيش الفاني . وتوفي ســيد الزاهــدين إبراهيم بن أدهم سنة اثنتين وستين ومائه (راجع ، ابن الجوزي، صفة الصفوة ج ٢ ، ج٤ في مواضع مختلفة ، وأبو نعيم ، الحلية ، ج٧ ،ج٨ ، في مواضع مختلفة ، القشيرى ، ج١، ج٢ ، ج٨ ، في مواضع مختلفة ، وأبو طالب المكي ، قوت القلــوب ، ج١ ، ج٢ ، فــي مواضع مختلفة ، وسير أعلام النبلاء،٧/ ٢٧٩ - ٢٨٠).

(١) ط : مدارس .

(٢) ط : معه.

أم يعترضهم؟، فاعلم أنهم إذا كانوا ثابتين على رسـومهم [الأولـى][١]، وسيرّهم المُرضية الموروثة من سلفهم، فهم أجلّ إخـوان فـى الله عـز وجل، وأصحاب أعوان على عبادة الله تعالى، فلا تسعك عـنهم عزلـة وتفرد، وإنما [مثلهم][٢] مثل ما نسمع من زهاد لبنان وغيرهم، إن مـنهم جماعة يتعاونون بالبّر والتقوى، ويتواصون بالحق والـصبر، وإذا مـا تغيروا وتركوا رسومهم، وأخلوا بطـريقتهم الموروثـة عـن أسـلافهم الصالحين، فحكم هذا المجتهد والمرتاض معهم كحكمة مع سائر النـاس، يلزم زاويته ويكف [لسانه][٣] ويشاركهم فى خيراتهم، ويجانبهم فى سائر أحوالهم وآفاتهم، فيكون فى عزلة من أهل العزلة، منفرداً عن المنفردين.

فإن قلت: فإن اختار هذا المجتهد المرتاض أن يخرج من بينهم إلـى أى مكان آخر، لصلاح يراه فى نفسه، ويجتنب آفة تدخل عليه فى صحبتهم؟ فاعلم أن هذه المدارس بمثابة حصن يتحصن بها المجتهدون، فإن الخارج بمنزلة الصحراء، يدور فيه فرسـان الـشياطين عـسكراً ، فتـسلبه أو تستأسره، فكيف أنه إذا خرج [إلى][٤] الصحراء، وتمكـن العـدُو منـه <من>[٥] كل جانب، يعمل به ما يشاء، فإذ أليس لهذا الضعيف إلا لـزوم الحصن.

---

(١) ط : الأوله .

(٢) ط: مثل.

(٣) ط: لسان.

(٤) + ط : لى.

(٥) زيادة يقتضيها السياق .

وأما الرجل البصير الذى لا يغلبه الأعداء، واستوى [عنده][1] الحصن والصحراء، فلا بأس عليه إذا خُيِّر، غير أن السكون فى الحصن أحوط على كل حال، إذ لا تأمن الفلتان، والاتفاقات السوء، وإذا كان الأمر بهذه الجملة فإن البقاء مع رجال الله تعالى، والصبر على مشقّة الصحبة أولاً للمرتاص، وطالب الخير بكل حال، وإن لا مانع [للقوى] [2] البالغ مبالغ الاستقامة عن التفرد [عنهم] [3]، فاعلم هذه الجملة وتأملها تغنم وتسلم إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فما تقول فى زيارة الإخوان فى الله تعالى، ومواصلة الأصحاب بالتلاقى والتذكر؟، فاعلم أن زيارة [الإخوان][4] فى الله من جواهر عبادة الله عز وجل، وفيها الزلفة الكريمة إلى الله عز وجل، مع ما فيها من ضروب الفوائد وإصلاح القلب، ولكن بشرطين: أن لا يخرج ذلك عن الإكثار والإفراط <كما>[5]، قال النبى صلى الله عليه وسلم **لأبى هريرة**[6]: والثانى: أن تحفظ حق ذلك بالتجنب عن الرياء

---

(١) ط : عند.

(٢) ط : للتقوى .

(٣) ط : منهم .

(٤) ط : الأخوات.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) أبو هريرة ، هو : أبو هريرة الدوسي ، صاحب رسول الله ﷺ وأكثرهم حديثاً عنه . وهو دوسي من دوس بن عد نان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن مالك بن النضر بن الأزد ، واسمه عمير بن عامر بن عبد ذي الشري بن طريف بن عتاب بنَ أبي مصعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس .وقد اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً ، لم يختلف في اسم آخر مثله ولا ما يقاربه . فقيل : عبد اللهبن عامر .

والتزيُّن ، وقول اللغو والغيبة ونحو ذلك ، فيعود عليك وعلى أخيك الوباء ، فلقد حكى <أن> (١)

وقيل : برير بن عشرقة . ويقال : سكين بن دومة . وقيل : عبد الله بن عبد شمس . وقيل عبد شمس، قاله يحيي بن معين ، وأبو نعيم . وقيل : عبد نهم . وقيل : عبد غنم . وبالجملة فكل ما في هذه الأسماء من التعبيد فلا شبهة أنها غيرت في الإسلام ، فلم يكن النبي ﷺ يترك اسم أحد : عبد شمس ، أو عبد غنم ، أو عبد العزى ، أو غير ذلك . فقيل : كان اسمه في الإسلام عبد الله . وقيل : عبد الرحمن . وقال أبو هريرة نفسه : كان اسمي في الجاهلية : عبد شمس ، فسماني رسول الله ﷺ : عبد الرحمن ، وإنما كنيت بأبي هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي ، فقيل لي : أنت أبو هريرة . وقيل : رآه رسول الله ﷺ وفي كمه هرة : فقال : يا أبا هريرة . وأسلم أبو هريرة عام خيبر ، وشهدها مع رسول الله ﷺ ثم لزمه وواظب عليه رغبة في العلم فدعا له رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة : يا رسول الله أسمع منك أشياء فلا أحفظها ؟ قال : ابسط رداءك . فبسطته ، فحدث حديثاً كثيراً ، فما نسيت شيئاً حدثني به . وقال ابن عمر : لأبي هريرة :أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثة . قال أبو هريرة : إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ والله كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله ﷺ علي ملء بطني ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام علي أموالهم ، وقال رسول الله ﷺ : " من يبسط ثوبه فلن ينسي شيئاً سمعه مني " فبسطت ثوبي حتى قضي حديثه ، ثم ضممته إلي ، فما نسيت شيئاً سمعته. وعن أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ :إذا عاد الرجل أخاه أو زاره ، قال الله – عز وجل- طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلاً . قال البخاري: روي عن أبي هريرة أكثر من ثمانمائة رجل من صاحب= = وتابع ، فمن الصحابة : ابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ، وأنس ، وواثلة بن الأسقع . واستعمله عمر علي البحرين ثم عزله ، ثم أراده علي العمل فامتنع ، وسكن المدينة وبها كانت وفاته . سنة سبع وخمسين . وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وصلي عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، وكان أميراً علي المدينة لعمه معاوية بن أبي سفيان .(راجع ، ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥ / ٣٢١- ٣٢٤).

(١) زيادة يقتضيها السياق .

الفضيـــل [(١)] **وسفيـــان**[(١)] رحمه الله تعالى تذاكرا فبكيا، فقال سفيان: يـــا

(١) الفضيل: هو الفضيل بن عياض، ولد في سمر قند ، وقضي نشأته الأولي بأبيورد التي تعلم بها الحديث ، ثم أرتحل إلي الكوفة موطن أجداده ، وانتهي به الأمر إلي التعبد والتزهد في مكة التي فيها أقام ، ولازم الحرم بل وصار شيخ الحرم وأحد الأثبات حتى توفي ســـنة ١٨٧هـــ . وفي الحرم ينادي شيخه – أي الفضيل – قائلاً ما من ليلـــه اخـــتلط ظلامهـــا ، وأرخي الليل سر بال سترها ، إلا نادي الجليل جل جلاله من بطان عرشه : أنا الجواد ومن مثلي أجود علي الخلائق ، والخلائق بي عاصون ، وأنا لهم مراقب ، أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولي حفظهم كأنهم لم يذنبوا، أجود بالفضل علي العاصي ، وأتفضل علي المسيء ، من ذا الذي دعاني ، فلم أسمع إليه ، ومن ذا الذي سألني فلم أعطه ، من ذا الذي أناخ ببابي ونحيته ، أنا الفضل ومني الفضل ، أنا الجود ومني الجود ، أنـــا الكـــريم ومني الكرم ومن كرمي أن أغفر للعاصي بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطي التائـــب كأنه لم يعصني ، فأين عني تهرب الخلائق ، وأين عن بابي ينتحي العاصون ، أين التائبون من أمة محمد ؟ وكره الفضيل هؤلاء الذي يمشون في لباس الـــصوف ، مـــدعين الزهـــد والحكمة ، ويقول لهم : وددت أني لم أراكم ولم تروني ، أترون سلمت منكم حيث رأيـــتكم وترأيتم لي ، لأن أحلف عشراً أني مرائي ، وأني مخادع أحب إلي من أن أحلف واحدة أني لست كذلك . ودائماً ما كان إمام الحرم ينهي عن الشهرة ، فيقول لأحـــد أتباعـــه : أخـــف مكانك لا تعرف ، فتكرم بعملك ، واخزن لسانك إلا من خير . وعن رأيه في الدنيا ، يقول : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالاً ، لا أحاسب بها في الآخرة ، لكنت أتقـــذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة ، إذا مر بها أن تصيب ثوبة . ومن أقوال الفضيل فـــي الزهـــد= = المرتبط بالدنيا ، قوله : لا يسلم قلبك حتى لا تبالي ، من كل الدنيا . ولا يصل الإنـــسان إلي الإيمان حتى يزهد في الدنيا. وجعل الفضيل الخير كله في باب ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . أما عن أحوال الفضيل فقد روى أن الشهقة والصعقة كانتا تصيبانه عند ســـماع أحاديث النار . وكان لا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة ، ولا إن تقرأ عليه ، وكان دائما ما يصيح قائلاً : النار، ومتي الخلاص من النار . ويُذكر أن أمير المؤمنين قـــد أخلـــي لـــه الطواف ، وأراد الفضيل أن يغتنم الطواف ، فلم يستطع ، فقال له ابنه علي : يا أبت تغتنم خلوه الحور ، ثم قال :يا أبت سل الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة ، ثـــم

يا أبا عليّ أرجو أنّا ما جلسنا مجلساً أرجى لنا من هذا، قال: وكيف يا أبا عليّ ؟ فقال : ألست تعمد إلى أحسن حديثك فتحدثني به ، وعمدت [إليك][٢] أحسن ما عندى فأحدثك فتزينت لى وتزينت <لك>[٣].

فيجب أن تكون فى مجالستك للإخوان وملاقاتك لهم على مقدار قصد فى احتياط ونظر صحيح لطيف، فلا يقدح حينئذ فى عزلتك

بكي ، وحين مات علي هذا ، قال الفضيل : حبيبي من كان يساعدني علي الحزن والبكاء ، يا ثمرة قلبي ، شكرا لله علي ما علمه فيك . ورفض الفضيل قبول التعزية فيه قائلاً : إن الله قد أحب هذا له ، وهو يحب ما أحب الله . وأخيراً ترك الفضيل بن عياض وراءه مدرسة تعج بفطاحل العباد الزاهدين ، والمحدثين ، أمثال : صفيه وخادمه إبراهيم بن الأشعث ، وعبد الله بن يزيد مردو يه صاحب الفضيل الذي كان أغلب ما يرويه يتمثل في حكايات عن الفضيل ، وإبراهيم بن شماس السمر قندى ، وقادم الديلمي ... وغيرهم (راجع ، ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج٢ ، مواضع مختلفة بتصرف ، وأيضاً : أبو نعيم الأصفهاني ، حليلة الأولياء ، ط الرابعة دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٥هـ ج٨ في مواضع مختلفة بتصرف).

(١) سفيان : هو سفيان الثورى ، سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أُبى بن عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور بن عبد مناه بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (ت ١٦١ هـ) شيخ الإسلام ، إمام الحفاظ ، سيد العلماء العاملين في زمانه ، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد ، مصنف كتاب "الجامع" ولد سنة سبع وتسعين ، اتفاقاً ، وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده ، المحدث الصادق : سعيد بن مسروق الثوري ، وكان والده من ثقات الكوفيين ، وعداده في صغار التابعين . روى له الجماعة الستة في دواوينهم وشهد الجمل مع على وحدث عنه أولاده : سفيان الإمام، وعمر، و مبارك، وشعبة بن الحجاج، وزائدة، وأبو الاحوص، وأبو عوانة، وعمر بن عبيد الطنافسي، وآخرون.

(٢) ط : إلى .

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وتفردك، ولا يعود عليك وعلى أخيك بضرر وآفة، بل بخير كثير، ونفع عظيم، والله سبحانه الموفق.

فإن قلت: فما يبعثنى على العزلة عن الناس "والتفرد ويهوّن علىّ ذلك؟، فاعلم أن الذى يهون عليك ذلك ثلاثة أمور: **أحدها:** استغراق"[١] أوقاتك فى العبادة، فإن فى العبادة شغلاً، وإن الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، فاذا وجدت نفسك تتطلع إلى ملاقاة الناس وكلامهم من غير حاجة وضرورة، فاعلم أن هذا فضول ساقه الفراغ والبطر، ولقد أحسن من قال فى هذا المعنى:

إن الفراغَ إلى سلامِكَ قادَنى ولرُبَّما عَمِلَ الفضولَ الفارغُ[٢].

وقيل أيضاً:

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَة[٣] مَفْسدَةٌ للمرءِ أىَّ مَفْسَدَةْ[٤].

فإذا أعطيت العبادة حقها، وجدت حلاوة المناجاة، وأستأنست بكتاب الله عزّ وجل، واشتغلت عن الخلق، واستوحشت عن صحبتهم وكلامهم. وفى الخبر أن موسى عليه السلام كان إذا رجع من المناجاة يستوحش [عن][٥] الناس، وكان يضع إصبعيه فى أذنيه لئلا يسمع

---

(١) عبارات ما بين الأقواس مقروءة بصعوبة فى ط .

(٢) البيت من بحر الكامل (متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن).

(٣) الجَدِة فى اللغة: الغنى.

(٤) البيت من بحر الرجز (مستفعلن – مستفعلن – مستفعلن).

(٥) ط : عند.

كلامهم، وكان كلامهم عنده في النفور والوحشة في ذلك الوقت كأصوات الحمير. وعليك بما قاله شيخنا رحمه الله عليه: "ارض بالله صاحباً، ودع الناس جانبا، قَلّبَ الناس كيف شئت تجدهم عقاربا".

والثاني: قطع الطمع عنهم بالمرة، فيهون عليهم أمرهم، لأن من ترجو نفعه لا تخاف ضرّه، فوجوده وعدمه سواء.

والثالث: تبصر آفاتهم، وتذكر [ذلك][1] وتمرره على قلبك، فإن هذه الأفكار الثلاثة إذا التزمتها طردتك عن صحبة الخلق إلى باب الله تعالى، والتفرد لعبادته، وحَبَّبَتْهُ إليك، وألزمتك بابه، وبالله التوفيق والعصمة.

---

(١) ط : ذل.

عائق الشيطان

ثم عليك يا أخى بمحاربة الشيطان وقهـره، وذلـك لخـصلتين إحداهما: إنه عدو لا رجاء فيه لمصالحة واتقاء غيلته، بل لا يقنعـه إلا هلاكك، فلا وجه إذن للأمن من مثل هذا العدوّ والغفلة عنه، وتأمل آيتين من كتاب الله عز وجل إحداها قوله تعالى: "**ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين**"(١)، والثانية قوله: "**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً**"(٢)، هذا أقصى التحذير وغايته.

والثانية: أنه مجبول على عداوتك ومنتصب أبداً لعدواتك، فهـو آناء الليل وأطراف النهار يرميك(٣) بسهامه، وأنت غافل، فكيف تكـون الحال؟ ثم وقعت منك نكتة أخرى، وهى أنك وأنت فى عبادة الله تعـالى، ودعوة الخلق إلى باب الله تعالى، ففعلك وقولك هـدّ الـشيطان وهمتـه ومراده وحرفته، فصرت كأنك قمت وشددت وسطك [لتغايظ] (٤) الشيطان وتكايده وتناقضه، فهو أيضاً يشدّ وسطه ليعاديك ويقاتلك ويماكرك حتـى يفسد عليك شأنك، بل حتى يهلكك رأساً، إذ لا يأمن جانبك بعد، فإنه الذى يبنى ويقصد بالهلاك(٥) فلا يناقضه ويغايظه، بل يصادقه ويوافقه، كالكفار وأهل الضلالة وأهل الرغبة فى بعض الأحوال، فكيف قصده لمـن قـام لمغايظته، وتجرد لمناقضته، فله إذن مع سائر النـاس عـدواة عامـة،

---

(١) سورة يس، آية ٦٠.

(٢) سورة فاطر، آية ٦.

(٣) مطموسة فى ط .

(٤) ط : لتقايظ .

(٥) + ط : إلى.

[ومعك][1] أيها المجتهد فى العلم والعبادة عداوة خاصة، وإن أمـرك لـه لمهم، ومعه عليك أعوان أشدها عليك نفسك وهواك، وله أسباب وأبواب ومداخل أنت عنها غافل، ولقد صدق **يحيى بن معاذ الرازى**[2] رحمه الله حيث قال: "الشيطان فارغ وأنت مشغول، والشيطان يراك وأنت لا تراه، وأنت تنساه وهو لا ينساك، ومن نفسك للشيطان عليك عوناً، فلا بد من محاربته وقهره، وإلا فلا تأمن من الفساد".

فإن قلت: فبأى شئ أحارب الشيطان، وبأى شئ أقهره وأدفعه؟ فاعلم أن لأهل هذه الصناعة فى هذه المسألة طريقين، أحدهما: ما قال أحدهم : إن التدبير فى دفع الشيطان الاستعداد بالله تعالى لا غير، فإن الشيطان كلب سلّطه الله عليك لمحاربتك، فإذا اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت، وضاع عليك وقتك، فربما يظفر بك فيعقرك ويجرحك، [فارجع][3] إلى رب الكلب ليصرفه عنك أولاً.

والثانى ما قال آخرون: الطريق المجاهدة، والقيام عليه بالرد

---

(١) ط : ومعها.

(٢) يحيى بن معاذ الرازى، هو : من كبار المشايخ ، له كلام جيد ، ومواعظ مشهورة منها :لست أبكي علي نفسي إن ماتت ، إنما أبكي علي حاجتي إن فاتت . لا يفلح من شممت رائحة الرياسة منه . مسكين ابن آدم قلع الأحجار عنده أهون عليه من ترك الأوزار . لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طريقها بالذنوب . الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، وهو يسألك عن جناح بعوضة . وعنه قال :الدرجات سبع :التوبة ، ثم الزهد ، ثم الرضا ، ثم الخوف ، ثم الشوق ثم المحبة ، ثم المعرفة .وقد حدث عنه : علي بن محمد الطنافسي ، وغيره . وروي عنه : الحسن بن علوية، وأحمد بن محمد البذ شي ، وأبو العباس بن حمكويه (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ٤٣٥) .

(٣) ط: ما الرجوع.

والدفع والمخالفة. والذى عندى أن الطريق العدل الجامع فى أمره أن يجمع بين الطريقين، فيستعذ بالله تعالى أولاً من شرّه كما أمرَنا، وهو الكافى شرَّه، ثم إن رأيناه يتغلب علينا علمنا أنه ابتلاء من الله[1] تعالى ليرى صدق مجاهدتنا، وقوتنا فى أمر الله تعالى وصبرنا، كما أنه يسلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرِهم وشرِّهم، ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والتمحيص والشهادة، كما قال تعالى: "**ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**"[2] فكذلك هذا.

ثم محاربته وقهره فيما قال علماؤنا رضى الله عنهم فى ثلاثة أشياء، **أحدها:** أن تتعرف وتتعلم مكايده وحيله، فلا يتجاسر حينئذ عليك، كاللص إذا عَلِمَ أن صاحب الدار قد أحسّن به ، فرّ.

والثانى: أن تستخف بدعوته، فلا تعلق قلبك بذلك وتتبعه، فإنه بمنزلة الكلب النابح، إن أقبلت عليه ولع بك ولَحَّ، وإن أعرضت عنه سكت، ولذلك لا ينبغى أن تُعْرِض أولاً، وأنت حاذر [منه][3].

والثالث: أن تديم ذكر الله تعالى بقلبك ولسانك، فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن ذكر الله عز وجل فى جنب الشيطان كالأكلة فى جنب ابن آدم**"[4].

---

(١) + ط: من الله.

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٤٢.

(٣) ط: من.

(٤) لم أجد لفظ هذا الحديث فى أكثر كتب الحديث التى عولت عليها فى التحقيق، وما وجدته قريب من المعنى مايلى:

فإن قلت: فكيف تعلم مكائِده، وكيف الطريق إلى معرفة ذلـــك؟، فاعلم أنه له وجهين، أحدهما: أن له وسواساً بمنزلة السهام، ويرميك بها، وذلك إنما يتبّين بمعرفة الخواطر وأقسامها. والثانى: له حيـــل بمنزلـــة الشِبَاك التى ينصبها الصياد، وذلك يتبيّن بمعرفـــة المكائـــدِ وأوضـــاعها ومجاريها. ولقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم أبواباً فى الخواطر، وقـــد صنفنا كتاباً سميناه: **[تدليس] إبلـــيس**[1]، وكتابنا هذا لا يحتمل الإكثـــار، ولكننا نذكر - إن شاء الله تعالى - من كل واحد منها أصـــلاً كافيـــاً إذا اعتصمت به.

فأما أصل الخواطر: فاعلم [أن][2] الله تعالى وكّل بقلب ابـــن آدم ملكا يدعو إلى الخير، يقال له الملهم، فلدعوته الإلهام، وسلّط فى مقابلتـــه شيطاناً يدعو إلى الشر يقال له الوسواس، ولدعوته الوسوسة، فالملهم لا يدعو إلا إلى الخير، والوسواس لا يدعو إلا إلى الشر، فى أكثـــر قـــول علمائنا. وقد حكى عن شيخنا رحمة الله عليه أن الشيطان يدعو إلى الخير وقصده فى هذا الشرّ، بأن يدعوه إلى المفضول فيمنعـــه مـــن الفاضـــل، ويدعوه إلى خير [ليجرّه][3] إلى شرٍّ عظيم، لا يفى خيره بذلك الشر مـــن

"إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس وإن نسى الـــتقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس" (الالبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة.... ٣/١٣٦٧).

(١) ط : تلبيس ابليس ، والصواب كما أوردته "تدليس إبليس" وهـــو كتـــاب "مخطـــوط" ، للغزالى ، ذكره إسماعيل باشا البغدادى فى : هدية العـــارفين ، اســـماء المـــؤلفين وآثـــار المصنفين ، من كشف الظنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣ هــــ - ١٩٩٢ م ، جـ٦ ، ص ٨٠.

(٢) ط: أنه.

(٣) ط : ليجبره.

عُجْبٍ وغيره. فهذان داعيان قائمان على قلبه، يدعوانه وهو يسمع، وقلبه يحسّ بذلك، على ما روى فى الأخبار أنه إذا ولد لابن آدم مولود، قـــرن الله تعالى ملكاً، وقرن الشيطان به شيطاناً، فالشيطان جاثم على قلب ابن آدم الأيسر، والملك جاثم على أذن قلبه الأيمن يدعوانه، وقال النبى صلى الله عليه وسلم: **"للشيطان لمَّة بابن آدم وللملك لمَّـــة"**[١] يعنـــى نزلـــة، بالدعوة من قولهم لمَّ بالمكان، أو أَلَمّ به إذا نزل، ثم ركب الله تعالى فـــى بنية الإنسان طبيعة ميله إلى الشهوات، ونيل اللذات كيف كانـــت، مـــن حسن أو قبيح، وذلك هوى النفس إلى الآفات، فهذه ثلاث دعوات[٢].

ثم اعلم بعد هذه المقدمة أن الخواطر آثار تحدث فى قلب العبـــد، تبعثه على الأفعال والترك، وتـــدعوه إليهـــا، <و>[٣] سُـــميت خـــواطر لاضطرابها فى خطرات الريح ونحوه وحدوثها جميعاً فى قلب العبد من الله سبحانه، لكنها أربعة أقسام: قسم منها ما يحدثه الله تعالى فى القلـــب ابتداء فيقال له الخاطر فقط، وقسم يحدثه موافقاً لطبع الإنسان فيقال لـــه هوى النفس، ونُسِبَ إليه، وقسم يحدثه عقيب دعوة الملهم فينسب إليـــه،

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى سننه، وضعفه الالبانى، ولفظه هو: "إن للشيطان لمة بـــابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد الشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق الحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى، فليحمد الله، ومن وجـــد الأخـــرى فليتعوذ بالله من الشيطان. ثم قرأ: "الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء". قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث أبى الأحوص لا نعلمه إلا من حديث أبى الأحـــوص، (الالبانى، ضعيف الجامع ١٩٦٣/١).

(٢) يقصد ، دعوة الملك بالخير ، ودعوة الشيطان بالشر ، ودعوة النفس بالهوى .

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

فيقال له الإلهام، وقسم [يحدثه][١] عقب دعوة الشيطان فيقال له الوسوسة وتنسب إليه، فإنها خواطر من الشيطان وهى فى الحقيقة حادثة عند دعوته، فهو كالسبب فى ذلك لكنها تنسب إليه، فهذه أربعة أقسام من الخواطر.

ثم اعلم بعد هذا التقسيم أن الخاطر الذى من قِبل الله قد يكون بخير إكراماً، وإلزاماً للحجة، وقد يكون بشر امتحاناً وتغليظاً للمحنة. والخاطر الذى يكون[٢] من قِبل الملهم لا يكون إلا بخير، إذ هو ناصح مرشد، لم يرسل إلا لذلك. والخاطر الذى يكون من قِبل الشيطان لا يكون إلا بشر إغواءً واستزلالاً، فربما يكون بالخير مكراً واستدراجاً، والذى يكون من قبل النفس يكون بالشر، وربما لا خير فيه تمنعاً وتعسفاً. ولقد وجدت عند بعض السلف أن هوى النفس أيضاً قد يكون [بدعوة][٣] إلى خير والمقصود منه شرك الشيطان، فهذه أنواعها.

ثم اعلم بعد هذه أنك محتاج إلى معرفة ثلاثة فصول لابدّ منها البتة، وفيها المقصود، **أحدها:** الفرق بين خاطر الخير، وخاطر الشر فى الجملة، **والثانى:** الفرق بين خاطر الشر ابتلائى أو شيطانى أو هوائى، كيف يفرق بينها، فإن لكل واحد منها دفعا من نوع آخر، **والثالث:** الفرق بين خاطر خير ابتلائى أو شيطانى أو إلهامى، لتتبع ما يكون من الله أو من الملهم، وتجنب ما يكون من الشيطان، وكذلك الهوائى على قول من

---

(١) ط : يحدث.

(٢) + ط : كون.

(٣) ط : بدعو.

يقول به.

الفصل الأول: قال علماؤنـــا رضـــى الله عـــنهم: إذا أردت أن تعرف خاطر الخير من خاطر الشر، وتفرق بينهما، فزنه بأحد الموازين الثلاثة يتبين لك حاله، **فالأول:** أن تعرض الأمر الذى خطر ببالك علـــى الشرع، فإن وافق [جنسه](١) فهو خير، وإن كان بالـــضد برخـــصته أو بشبهة فهو شر، فإن لم يتبين بهذا الميزان فاعرضه على الاقتداء، فـــإن كان فى فعله اقتداء بالصالحين فهو خير، وإن كـــان بالـــضّدّ للاقتـــداء بالطالحين فهو شرّ، فإن لم يتبين لك بهذا الميزان فاعرضه على الـــنفس والهوى، وأنظر إن كان ما تنفر عنه النفس نفرة طبع، لا فقـــرة خـــشية وترهيب، فاعلم أنه خير، وإن كان مما تميل إليه النفس ميل طبع وحيلة، لا ميل رجاء إلى الله عز وجل وترغيب فهو شر، إذ النفس أمارة بالسوء لا تميل بأصلها إلى خير. فتأخذ هذه الموازين إذا نظرت وأمعنت، ليتبين لك خاطر الخير من خاطر الشرّ، والله تعالى ولىّ الهداية بفـــضله وإنـــه جواد كريم.

وأما الفصل الثانى: إذا أردت أن تفرق بين خاطر الشر الذى يكون من قِبل الشيطان، وبين خاطر شر يكون من قِبل هوى الـــنفس، أو من الله تعالى ابتلاءً، فانظر فيه فى ثلاثة أوجـــه، **أحـــدها:** إن وجدتـــه مصمماً راتباً على حالة واحدة فهو من الله عز وجل، أو من هوى النفس، وإن وجدته متردداً مضطرباً، فاعلم أنه من الـــشيطان. وكـــان بعـــض العارفين رحمه الله يقول: "مثل هوى النفس مثل النّمـــر، إذا حـــارب لا

(١) ط : جنس.

ينصرف إلا بقمع بالغ، وقهر ظاهر، أو مثل الخارجى الذى يقاتل تديناً، لا يكاد يرجع حتى يقتل، ومثل الشيطان مثل الذئب، إذا طردته من جانب دخل من جانب آخر. **وثانيهما:** إذا وجدته عقيب ذنب أذنبته فهو من الله تعالى، إهانة وعقوبة لشؤم ذلك الذنب، قال تعالى: "**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**"[١]. قال شيخى الإمام رحمة الله عليه: "هكذا تُرْدى الذنوب إلى قسوة القلب، أولها خاطر الشر ثم تُودِى إلى القسوة والرَّيْن"، وإذا كان هذا الخاطر مبتدئا، لا عقيب ذنب كان منك، فاعلم أنه من قِبل الشيطان، هذا على الأكثر، لأنه يبتدئ بدعوة الشرِّ ويطلب الإغواء بكل حال. **والثالث:** إن وجدته لا يضعف، ولا يقل[٢] بذكر الله تعالى، فهو من الشيطان، كما ذكر فى تفسير قوله تعالى: "**من شر الوسواس الخناس**"[٣] أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم إذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس.

وأما الفصل الثالث: فإن أردت أن تفرق بين خاط خير يكون من الله أو من الملك، فانظر فى ذلك من ثلاثة أوجه، <**الأول**>[٤]: فإن كان قوياً مصمماً فهو من الله سبحانه، وإن كان متردداً فهو من الملك، إذ هو بمنزلة الناصح يدخل معك من كل وجه، ويعرض عليك كل نصح، رجاء إجابتك ورغبتك فى الخير. **والثانى:** إذا كان عقيب اجتهاد منك أو

---

(١) سورة المطففين، آية ١٤.

(٢) + ط : يقل.

(٣) سورة الناس، آية ٤ .

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

طاعة فهو من الله، قال تعالى: "**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**"[١]، وقال: "**والذين اهتدوا زادهم هدى**"[٢]. وإذا كان مبتدئا فهو من الملك فى الأغلب، [إذا] [٣] الملك لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم. وأما خاطر الخير الذى يكون من قِبَل الشيطان استدراجاً إلى شرٍّ يؤدى إليه، فلقد قال شيخنا رحمه الله: "انظر إن وجدت نفسك"[٤] فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط لا مع خشية، ومع أمن لا مع خوف، ومع عمى العاقبة لا مع بصيرة، فاعلم أنه من الشيطان فاجتنبه، وإن وجدت نفسك على ضدِّ ذلك مع خشية لا مع نشاط، ومع توبة لا مع عجلة، ومع خوف لا مع أمن، ومع بصارة العاقبة لا مع عمى، فاعلم أنه من الله تعالى أو من الملك. قلت أنا: وكان النشاط فى خفة الإنسان للفعل مع غير بصيرة، وذكر الثواب ينشطه فى ذلك.

وأما **[الثالث]**[٥] فمحموداً لا فى مواضع معدودة، وذكر فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم: "**العجلة من الشيطان إلا فى خمسة: تزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدَّيْن إذا وجب، وتجهيز الميت إذا**

---

(١) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(٢) سورة محمد، آية ١٧.

(٣) ط : إذا .

(٤) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: الملك لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم. إلى قوله: أنظر إن وجدت نفسك . مقروءة بصعوبة فى ط .

(٥) ط : الثانى.

مات، ومِرَى الضيف إذا نزل، والتوبة من الـذنب إذا أذنـب"[1]. وأمـا الخوف فيحتمل أن يكون فى أدائه وإتمامه على وجهه وحقه، وقبـول الله تعالى إياه، وإنما بصارة العاقبة: بأن يبصر ويتبيّن أنـه رُشـد وخيـر، ويحتمل لرؤية الثواب ورجائه فى العقبى. فاعلم ذلك موقناً فهذه الأصول الثلاثة التى لزمتك معرفتها فى فصل الخواطر، فارعها وأمعن النظر فيها ما استطعت فإنها من العلوم اللطيفة والأسرار الشريفة فى هـذا البـاب، والله الموفق بفضله.

وأما فصل الحيل والمخادعات من الشيطان، فمجرى ذلك ومثاله أن مكائدِ الشيطان مع ابن آدم فى الطاعات من سبعة أوجه، أحـدها: أن ينهى عنها، فإن عصمه الله تعالى وردّه بأن قال: فأنى محتاج إلى هـذا العمل جداً، إذ لابد من التزويد من الدنيا للآخرة التى لا انقضاء لها، ثـم يأمره بالتسويف[2]، فإن عصمه الله تعالى وردّه بأن قال: لـيس أَجَلـى بيدى، على أننى إن سوّفت عمل اليوم إلى الغد، فعمل الغد متى أعمله؟، فإن لكل يوم عملاً. ثم يأمره بالعجلة، فيقول عجّل عجّل لتتفـرغ لكـذا وكذا، فإن عصمه الله تعالى وردّه بأن قال: قليل العمل مع التمام خير من كثيره مع النقصان. ثم يأمره بإتمام العمل مرائياً للناس، فإن عـصمه الله

---

(١) أورده عبد الوهاب السبكى هكذا: "العجلة من الشيطان إلا فى خمسة فإنها سنة رسـول الله صلى الله عليه وسلم: إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقـضاء الـدين، والتوبة من الذنب"،(عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى ت ٧٧١ هـ، الأحاديـث التى لا أصل لها فى كتاب الأحياء، تحقيق محمود محمد الطناحى، عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (د.ت)، جـ ١، ص ٣٠٩).

(٢) + ط: والتسويق.

وردّه بأن قال: ما الذى أعمل بمرآة الناس؟ أفلا نكتفى برؤية الله تعالى؟، ثم يريد أن يوقعه فى العجب، فيقول: ما أعظمك وأيقظك! فإن عصمه الله تعالى وردّه بأن قال المنّة لله تعالى فى ذلك دونى، وهو الذى خصنى بتوفيقه، وجعل لعملى قيمة بفضله، ولولا فضله ما كان لعملى قيمة، فى جنب نعمة الله تعالى علىّ، وجنب معصيتى له. ثم يأتيه من وجه سادس وهو أعظمها، ولا يقف عليه إلا متيقظ، وهو أن يقول: اجتهد أنت فى السرّ، فإن الله تعالى سيظهره عليك، ويلبس كل عمل عمله، وأراد بذلك ضرباً من الرياء، وإن عصمه الله وردّه بأن قال: يا ملعون إنى الآن كنت تأيتنى من وجه إفساد عملى، والآن تأتينى من إخلاصه لتفسده؟ إنما أنا عبد الله تعالى وهو سيدى، إن شاء أظهر [وإن شاء][1] أخفى، وإن شاء جعلنى خطيراً، وإن شاء جعلنى حقيراً، وذلك له، وما أبالى إن اظهر ذلك للناس، وإن لم يظهره، فليس بأيديهم شئ.

ثم يأتيه من وجه سابع فيقول: لا حاجة لك إلى ذلك العمل، لأنك إن خلقت سعيداً لم يضرك ترك العمل، <وإن>[2] خلقت شقياً لم ينفعك فعلك، فإن عصمه الله تعالى وردّه بأن قال: إنما أنا عبد الله، وعلى العبد امتثال الأمر لعبوديته، والرّب أعلم بربوبيته، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، ولأنه ينفعنى العمل كيفما كنت، فإن كنت سعيداً احتجت إليه لزيادة الثواب، وإن كنت شقياً احتجت إليه كيلا أذُمّ على أن الله تعالى لا يعاقبنى على الطاعة بكل حال، ولا تضرنى على أننى إن دخلت النار وأنا مطيع،

---

(١) ط : وإشاء.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

أحب إلى من أن أدخل النار وأنا عاصٍ، فكيف ووعد الله حــق وقولــه صدق، وقد وعد الله تعالى على الطاعة بالثواب، فمن لقى الله تعالى على الإيمان، لا يدخل النار البتة، [ويدخل][١] الجنة، لا لاستحقاقه لها بعمله[٢]، ولكن لوعده الصادق تعالى. ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء إذ قالوا: "**الحمد لله الذى صدقنا وعده**"[٣].

فتيقظ رحمك الله فإن الأمر كما ترى وتسمع، وقِسْ عليه ســائر الأحوال والأفعال، واستعن بالله، واستعذ به، فإن الأمر بيده ومنه التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلِيّ العظيم.

عائق النفــس

ثم عليك عصمك الله وإيانا بالحذر من هــذه الــنفس الأمّــــارة بالسوء ، فإنها أضرّ الأعداء، وبلاؤها أصعب البلاء، ودواؤها أصــعب الأشياء ، ودواؤها أعضل الداء ، ودواؤها أشكل الدواء ، وإنمــا ذلــك لأمرين أحدهما: [أنها] [٤] عدو من داخــل ، واللــص <إذا>[٥] كـــان مـــن داخل البيت عزت الحيــلة فيه ، وعظم الــضرر ، ولقــد صـــدق القائل:

---

(١) ط : ودخل.

(٢) + ط : الجنة .

(٣) سورة الزمر ، آية ٧٤ .

(٤) ط : أنه .

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

نفسى إلى ما ضرَّنى دَاعِى ويكْثر اسقَامِى وأوْجَاعِى
كيف احْتِيالى من عَدُوِّى إذا كان عندى بيْنَ أضْلاعِى[١]

والثانى: [أنها][٢] عدو ومحبوب، والإنسان أعمى من عيوب من يحبه، لا يكاد يبصر عيبه.

فإذا استحسن الإنسان من نفسه كل قبيح ، ولا يكاد يطلع على عيب لها ، وهى فى عداوتها وإضرارها ، فما أوشك ما توقف فى فضيحة وهلاك وهو لا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله، [ويعينه][٣] عليها برحمته.

ثم أقول: تأمل أيها <الإنسان>[٤] نكتة جامعة مقنعة، وهى أنك إذا نظرت وجدت أصل كل قبيحة وفضيحة وخزى وهلاك وآفة وذنب[٥] وقع فى خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة. من قِبل هذه النفس، إما وحدها أو بمعونتها أو مشاركتها ومساعدتها ، فأول [معصية][٦] لله [كانت][٧] من إبليس، وكان سببه، بعد القضاء السابق ،

---

(١) البيتان من بحر السريع (مستفعلن – مستفعلن – مفعولات) وهما للعباس بن الأحنف.

(٢) ط : أنه .

(٣) ط : ويعين.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ط : وذنب وآفة .

(٦) ط : المعصية .

(٧) ط : كان .

هوى النفس، بكبرها وحسدها، ألقته بعد عبادة الله ثمانين ألف سنة فيما قيل فى بحر الضلال فغرق أبد الآبدين، إذ لم يكن هناك ذنب ولا خلق ولا شيطان، بل كانت النفس بكبرها وحسدها، فعملت ما عملت.

ثم ذنب آدم عليه السلام وحواء، طرحته شهوة النفس فى ذلك وحرصها على البقاء والحياة، حتى اغترّ بقول إبليس، فكان ذلك إذن بعون إبليس وشركتها[1]، حتى سقط بذلك من جوار الله تعالى، وقرار الفردوس، إلى هذه الدنيا الحقيرة النكرة الفانية المهلكة، حتى لقى ما لقى، ولقى أولاده ما لقوا، من ذلك اليوم إلى أبد الآبدين.

ثم حديث **هابيل وقابيل**[2]، كان السبب الحسد والشحّ ، ثم هلمّ جرّاً، إلى يوم القيامة، بل لا تجد فى المفاتن فتنة، ولا فضيحة ولا ضلالة ولا معصية، إلاّ وكان أصلها النفس وهواها، وإلا كان الخلق فى سلامة وخير. وإذا كان عدو بهذا الضرّ كله، فحق للعاقل أن يهتم بأمره، والله تعالى ولى التوفيق بفضله.

فإن قلت: فما الحيلة إذن لنا فى هذا العدوّ، ما التبرير لأمره؟ فبيّن لنا ذلك، فاعلم أنّا ذكرنا فيما تقدم أن أمرها عسير صعب، إذ لا يمكن قهرها بمرة كسائر الأعداء، إذ هى المطية والآلة. قيل[3]:دعا أعرابياً[4] لإنسان بخير فقال: "كبت الله كل عدوك إلا نفسك"، ولا يمكن إهمالها بمرة، لمكان ضررها، فيحتاج إلى طريق بين الطريقين قريبة، وتقويه

---

(١) يقصد مشاركة النفس.

(٢) حديث هابيل وقابيل: معروف وأشهر من أن يُعرف هنا.

(٣) + ط : كان .

(٤) ط : أعرابياً دعا .

بقدر ما يحتمل فعل الخير، وتضعفها وتحبسها على حدٍّ لا يتمادى، فإن أنت من أمرها فى علاج شديد، ونظر لطيف، ثم قد ذكرنا من أمرها أن تلجمها بلجام التقوى والورع، لتحصل لك الفائدتان جميعاً.

فإن قيل: فإن هذه دابة جموع، وبهيمة صعبة شكيمة، لا تنقاد للجام، فما الحيلة التى تمكننا منها؟ فاعلم أنك لصادق، والحيلة <فى>[١] تذليلها حتى تنقاد للجام، قال علماؤنا رضى الله عنهم: "إنما يذلل النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء، **أحدها:** منع الشهوات، فإن الدابة الحرون تلين إذ تنقص من علفها. **والثانى:** جبل أثقال العبادات، فإن الحمار إذا زيد من حمله مع النقصان من علفه تذلل وانقاد. **والثالث:** الاستعانة بالله والتضرع إليه بأن يعينك، وإلا فلا مخلص، أما تسمع قول **يوسف** عليه السلام: "**إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى**"[٢]، فإذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت النفس الجموح بأذن الله، فحينئذ يبادر إلى أن تملكها أو تلجمها، فتأمن من شرها.

فإن قلت: فبيّن لنا الآن ما هو <طريق>[٣] التقوى حتى نعلمه، فاعلم أولاً أن التقوى كنز عزيز فلئن ظفرت به وتخلصت فكم تجد فيه من جوهر شريف، وعلف نفيس، وخير كثير، ورزق كريم، وفوز كبير، وغُنْم كثير، وملك عظيم، فكأن الدنيا والآخرة قد جمعت لك فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التى هى التقوى، وتأمل فى القرآن من ذكرها، كما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سورة يوسف، آية ٥٣.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

علق بها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضـــاف إليهـــا مـــن سعادة، وأنا أعدُّ لك من جملتها اثنى عشر خصلة.

أولها: المدحة والثناء، قال تعالى: "**وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**"[1]، **والثانى:** الحفظ والحراسة من الأعداء قال تعـــالى: "**وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**"[2]، **والثالث:** التأييد والنصر، قال تعالى: "**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محـــسنون**"[3]، **والرابـــع:** النجاة من الشدائد والرزق الحلال، قال تعالى: "**ومن يتق الله يجعل لـــه مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**"[4]، **والخامس:** إصلاح العمل، قـــال تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً ســـديداً يـــصلح لكـــم أعمالكم**"[5]، **والسادس:** غفران الـــذنوب، قـــال تعـــالى: "**ويغفـــر لكـــم ذنوبكم**"[6]، **والسابع:** محبة الله تعـــالى: "**فـــإن الله يحـــب المتقـــين**"[7]. **والثامن:** القبول، قال تعالى: "**إنما يتقبل الله من المتقين**"[8]. **والتاســـع:** الإكرام والإعزاز، قال تعالى: "**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**"[9]؛ **والعاشـــر:** البشارة عند الموت، قال الله عز وجل: "**الذين آمنوا وكانوا يتقون لهـــم**

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٢٠.

(٣) سورة النحل، آية ١٢٨.

(٤) سورة الطلاق، من الآيتين ٢، ٣.

(٥) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ ، ٧١ .

(٦) سورة الأحزاب، من الآية ٧١.

(٧) سورة آل عمران ، آية ٧٦ .

(٨) سورة المائدة ، آية ٢٧.

(٩) سورة الحجرات ، آية ١٣.

البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة"[١]؛ **والحادى عشر**: النجاة من النار، قال تعالى: "**ثم ننجى الذين اتقوا**"[٢]، وقوله: "**وسيجنبها الأتقى**"[٣]؛ **والثانى عشر**: الخلود فى الجنة، قال تعالى: "**أُعدت للمتقين**"[٤]، فهذا كل خير وسعادة فى الدارين هذه التقوى، فلا تنس نصيبك أيها الرجل منها.

ثم الذى يختص بهذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول، **أحدها**: التوفيق والتأييد أولاً، وهو للمتقين، كما قال تعالى: "**أن الله مع المتقين**"[٥]؛ **والثانى**: إصلاح العمل، وإتمام التقصير، كما قال تعالى: "**يصلح لكم أعمالكم**"[٦]، **والثالث**: قبول العمل، قال تعالى: "**إنما يتقبل الله من المتقين**"[٧].

ومدار العبادة على هذه الأمور الثلاثة: التوفيق أولاً حتى يعمل، والإصلاح للتقصير حتى يتم، ثم القبول إذا تم، وهذه الثلاثة التى يتضرع فيها العابد <والعابدون>[٨] إلى الله عز وجل ويبتهلون فيقولون: ربنا وفقنا إلى طاعتك وأتمم تقصيرنا وتقبل منا. وقد وعد الله ذلك كله على التقوى، وأكرم بها التقىَّ سأل أو لم يسأل. فعليك بهذه التقوى إن أردت

---

(١) سورة يونس ، الايتان ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) سورة مريم، آية ٧٢.

(٣) سورة الليل، آية ١٧.

(٤) سورة آل عمران ، آية ١٣٣.

(٥) سورة البقرة ، آية١٩٤ .

(٦) سورة الأحزاب، آية ٧١.

(٧) سورة المائدة، آية ٢٧.

(٨) زيادة يقتضيها السياق.

عبادة الله سبحانه وتعالى ، بل أن أردت سعادة الدنيا والعقبى، ولقد صدق القائل:

من اتقى الله فذاك الذى   سبق إلى المتجر الرابح[١]

وقال آخر: "من عرف الله ولم تغنه معرفة الله فذاك الشقى، ما يصنع العبد بعز الغنى، والعُز كل العزّ للمتقى" <و>[٢] كتب على بعض القبور: "ليس زاد سوى التقى فخذ منه أو دع". ثم تأمل أصلاً واحداً وهو أنه: هب أنك قد تعبت جميع عمرك فى العبادة، وجاهدت وكابدت حتى حصل لك ما تمنيت، أليس الشأن كله فى القبول، وقد علمت أن الله تعالى يقول: "**إنما يتقبل الله من المتقين**"[٣]، فرجع الأمر كله إلى التقوى، ولذلك روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: "**ما أعجب رسول الله صلى عليه وسلم بشئ من الدنيا، ولا أعجبه أحد إلا ذو تقى**"[٤]، وعن **قتادة**[٥] أنه قال: "مكتوب فى التوراة: يا بن آدم اتق الله ونم حيث شئت".

---

(١) البيت من بحر السريع (مستفعلن – مستفعلن – مفعولات) ، وهو لأبى نواس .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٤) حدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا حسن قال: ثنا ابن لهيعة، ثنا أبو الأسود عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت: "ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقى (الأمام أحمد، المسند ٦/٦٩).

(٥) قتادة، هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز وقيل : قتادة ابن دعامة بن عكابة . حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه ، مولده في سنة ستين . وروى عنه عبد الله بن سرجس وأنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، وزراره بن أوفي ، والنضر بن أنس ، وعكرمة مولي ابن عباس ، وأبي المليح بن أسامة ، والحسن البصري ، وبكر بن عبد الله المزني ، ومعاذة العدوية ، ، وحميد بن عبد

الرحمن بن عوف ، ومحمد بن سيرين ،ونصر بن عاصم الليثي ، وأبي هريرة مرسـلا ، وعن مسلم بن يسار ، وقزعة بن يحيي ، وعامر الشعبي وخلق كثير . وكان مـن أوعيـة العلم ، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ . وروى عنه أئمة الإسلام أيوب السختياني ، وابن أبي عروبة ، والأوزاعى ، وعمرو بن الحارث المصري ، وشيبان النحوي ، وهمام بن يحيي ، وأبان العطار ، وسعيد بن بشير ، وسلام بن أبي مطيع ، ويزيد بـن إبـراهيم التستري ،وأبو عوانة الوضاح . وهو حجة بالإجماع ، وكان يري القدر ، نسأل الله العفو . ومع هذا فما توقف أحد في صدقه ، وعدالته ، وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه ، والله حكم عدل لطيف بعبـاده ، ولا يسـأل عما يفعل . ثم أن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه ، وعلم تحريه للحق ، واتسع علمه ، وظهر ذكاؤه ، وعرف صلاحه وورعه واتباعـه ، يغفـر لـه الله ، ولا نـضلله ونطرحه ، وننسي محاسنه . نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه . قال قتادة: ما في القرآن آي إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، وعنه قال : ما سمعت شيئاً إلا وحفظته ، وقال محمـد بـن سيرين : قتادة أحفظ الناس ، أو من أحفظ الناس . وكان قتادة إذا سمع الحـديث يختطفـه اختطافاً يأخذه العويل والزويل ، حتى يحفظه .

وقال قتادة : جالست الحسن – يعني البصري – اثنتي عشرة سنة أصـلي معـه الصبح ثلاثين . قال : ومثلي يأخذ من مثله . قال أبو هلال : سألت قتادة عن مسألة ، فقال: لا أدرى ، فقلت : قل فيها برأيك ، قال : ما قلت برأي منذ أربعين سنة ، وكان يومئذ لـه نحو خمسين سنة . قلت : فدل علي أنه ما قال في العلم شيئاً برأيه . وقال عوانة : سمعت قتادة يقول : ما أفتيت برأي منذ ثلاثين سنة . وقال قائد لقتادة : قدت قتادة عشرين سـنة ، وكان يبغض الموالي ، ويقول : دباغين حجامين أسا كفة ، قلت : مـا يؤمنـك أن يجـئ بعضهم فيأخذ بيدك، فيذهب بك إلي بئر فيطرحك فيها ؟ قال : كيف قلت ؟ فأعدت عليه ،= = فقال : لا قدتني بعدها . وقيل في زمانه : إن لم تجد إلا مثل عبادة ثابت ، وحفظ قتادة ، وورع ابن سيرين ، وعلم الحسن ، وزهد مالك بن دينار فلا تطلب العلم . قال قتادة تكرير الحديث في المجلس يذهب نوره ، وما قلت لأحد قط : أعد علي. وسأله بعضهم : نكتب ما نسمع منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب ، وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتـب ، فقـال (علمها عند ربي في كتاب) وقال : الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر . وقال : باب من

وبلغنى عن عامر بن عبد قيس[1] أنه بكى عند موته، وكان يصلى كـل

العلم يحفظه الرجل لصلاح نفسه وصلاح من بعده أفضل من عبادة حـول . وقـال :مـا سمعت شئ قط إلا وعاه قلبي . وقال في قوله تعالي : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) كفي بالرهبة علماً ، اجتنبوا نقض الميثاق ، فإن الله قدم فيه وأوعد ، وذكره فـي آي مـن القرآن تقدمة ونصيحة وحجة ، إياكم والتكلف والتنطـع والغلـو والإعجـاب بـالأنفس ، تواضعوا لله لعل الله يرفعكم ، وكان قتادة يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث ، فإذا جاء العشر ختم كل ليلة . قال أحمد بن حنبل : كان قتادة علماً بالتفـسير ، وباختلاف العلماء ، ثم وصفه بالفقه والحفظ ، وأطنب في ذكره ، وقال : قلما تجـد مـن يتقدمه . وقال سفيان الثوري : وهل كان في الدنيا مثل قتادة . وكان قتادة أيضاً رأساً فـي العربية والغريب وأيام العرب ، وأنسابها حتى قال فيه أبو عمرو بن العلاء : كان قتادة من أنسب الناس ، فكان الرجلان من بني أمية يختلفان في البيت من الشعر ، فيبردان بريداً إلي العراق يسألان قتادة عنه وقد روي قتادة كثير من الأحاديث الصحيحة عن النبيﷺ-- منها :عن قتادة عن أنس بن مالك ، عن أبي موسى الأشعرى ، قال رسول الله ﷺ-- : " مثـل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الـذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لـيس لهـا ريح وطعمها مر" . وعن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ-- : " ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طائر أو إنسان إلا كانت له صدقة " . وتوفي قتادة – رحمه الله – سنة سبع عشرة ومائة . علي حد قول أحمد بن حنبل وأبـو نعيم .. وغيرهم (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٦ / ٩٤- ١٠٥).

(١) عامر بن عبد قيس، هو: هو القدوة الولي الزاهد أبو عبد الله ، ويقـال : أبـو عـامر التميمي ، العنبري ، البصري . روى عن :عمر وسلمان .وعنه : الحسن ، ومحمد بن= = سيرين ، وأبو عبد الرحمن الحبلى وغيرهم . قيل عنه : ثقة من عُبـاد التـابعين ، رآه كعب الأحبار فقال : هذا راهب هذه الأمة . وروى ابن سعد في طبقاته أنه :وشي بعـامر بن عبد قيس إلى زياد ، فقالوا : ها هنا رجل قيل له : ما إبراهيم -عليه السلام- خيراً منك فسكت ، وقد ترك النساء . فكتب فيه إلى عثمان ، فكتب إليه : انفه إلى الشام على قتـب . فلمـا

جاءه الكتاب ، أرسل إلى عامر ، فقال : أنت قيل لك : ما إبراهيم خيراً منك فسكت ؟! قال :أما والله ، ما سكوتي إلا تعجب ، ولوددت أني غبار قديمه . قال : وتركت النساء ؟ قال : والله ما تركتهن إلا أني قد علمت أنه يجيء الولد وتشعب في الدنيا ، فأحببت التخلي . فأجلاه علي قتب إلى الشام ، فأنزله معاوية معه في الخضراء وبعث إليه بجارية ، وأمرها أن تعلمه ما حاله . فكان يخرج من السحر ، فلا تراه إلا بعد العتمة فيبعث معاوية إليه بطعام ، فلا يعرض له ، ويجيء معه بكسر، فيبلها ويأكل ، ثم يقوم إلى أن يسمع النداء فيخرج ، فكتب معاوية إلى عثمان يذكر حاله . فكتب : اجعله أول داخل وآخر خارج . ومر له بعشرة من الرقيق، وعشرة من الظهر فأحضره وأخبره . فقال : إن على شيطاناً قد غلبني ، فكيف أجمع على عشرة . وكانت له بغلة . وكان عامر بن عبد قيس يسأل ربه أن ينزع شهوة النساء من قلبه ، فكان لا يبالي أذكراً لقي أم أنثى . وقيل له : ما هذا ألم يقل الله : (وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) قال : أفلم يقل الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقيل له : إنك تبيت خارجاً ، أما تخاف الأسد ؟! فقال : إني لأستحي من ربي أن أخاف شيئاً دونه . وقيل: كان عامر لا يزال يصلي من طلوع الشمس إلى العصر ، فينصرف وقد انتفخت ساقاه فيقول : يا أمارة بالسوء ، إنما خلقت للعبادة . وهبط وادياً به عابد حبشي ، فانفرد يصلي في ناحية ، والحبشي في ناحية ، أربعين يوماً لا يجتمعان إلا في فريضة. وقال محمد بن واسع :عن يزيد بن الشخير ، أن عامراً كان يأخذ عطاءه ، فيجعله في طرف ثوبه ، فلا يلقي مسكيناً إلا أعطاه ، فإذا دخل بيته ، رمى به إليهم ، فيعدونها فيجدونها كما أعطيها . وروى أن عامراً بن عبد قيس ، بعث إليه أمير البصرة :ما لك لا تتزوج النساء ؟ قال : ما تركتهن وإني لدائب في الخطبة . قال وما لك لا تأكل الخبز ؟ قال : إنا بأرض فيها مجوس ، فما شهد مسلمانِ أن ليس فيه ميتة فأكلته . قال : وما يمنعك أن تأتي الأمراء ؟ قال : إن لدي أبوابكم طلاّب الحاجات ، فادعوهم وقضوا حاجتهم ، ودعوا من لا حاجة له إليكم . وقال الحسن البصري : بعث عامر بن عبد قيس إلى الشام ، فقال : الحمد لله الذي حشرني راكباً . قال قتادة : لما احتضر عامر بكي،= = فقيل : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكي جزعاً من الموت ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولكن أبكي علي ظمأ الهوا جر ، وقيام الليل . وروى عثمان بن عطاء الخرساني ، عن أبيه ، أن قبر

يوم وليلة ألف ركعة،ء ثم يأتى إلى فراشه فيقول للنفس: يا مـــأوى كـــل شرّ، والله ما رضيتك لله طرفة عين، فقيل له: ما يبكيك؟، فقـــال: قولـــه تعالى: "**إنما يتقبل الله من المتقين**"(١).

ثم تأمل نكتة أخرى، وهى أصل الأصول، وهى ما ذكره بعـــض الصالحين، قال لبعض أشياخه: أوصنى، فقال: أوصـــيك بوصـــية ربّ العالمين للأولين والآخرين قوله تعالى: "**ولقد وصينا الذين أتوا الكتـــاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله**"(٢)، قلت أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد، أو ليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد؟، فلو كانت فى العالم خصلة هى أنفع للعبد وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجلّ فـــى العبودية، وأعظم فى القدر، وأولى بالحال، وأنجـــح للآمـــال مـــن هـــذه الخصلة التى هى التقوى، كان الله تعالى أمر بها عباده، وأوصى خواصه بذلك، لكمال حكمته ورحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة التى هى التقوى، وجمع الأولين والآخرين من عباده فى ذلك، واقتـــصر عليهـــا، فعلمت أنها الغاية التى لا متجاوز عنها، ولا مقتصد دونها، وأنه تعالى قد جمع كل نصح وإرشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب فى هذه الوصـــية الواحدة، كما يليق بحكمته ورحمته، وعلمتَ أن هذه الخصلة التـــى هـــى

عامر بن عبد قيس ببيت المقدس . وقيل توفي في زمن معاوية (راجع الذهبى ، سير أعلام النبلاء ٥/٥٨- ٦٢ بتصرف) .

(١) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٢) سورة النساء، آية ١٣١.

التقوى هى الجامعة [لخير][١] الدنيا والآخرة، الكافية لجميع المهمات، المبلغة إلى أعلى الدرجات فى العبودية، وهذا أصل لا مزيد عليه، وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى، وعمل بذلك واستغنى، والله ولى الهداية بفضله.

فإن قلت قد عظم خطر هذه الخصلة، وجلّ موقعها واشتدت الحاجة إلى معرفتها، فلابد إلا من تفصيلها، فأعلم أن الأمر كذلك، فحق لها أن يجل قدرها، ويلزم طلبها، وتمس الحاجة إلى علمها، ولكنك تعلم أن كل خطير وكبير يحتاج فى اجتلابه إلى طلب كثير، وتعب كثير، وهمة عالية، وجهد شديد، فإذن كما علمت أن هذه الخصلة خصلة عظيمة كبيرة، فالمجاهدة فى طلبها والقيام بحقها، والعناية فى تحصيلها لفضل كبير وشأن عظيم، فإن المكارم على حسب المكاره، وإن اللّذات على حسب المؤونات، والله تعالى يقول: "**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**"[٢]، وإن الله تعالى هو الرءوف الذى بيده تيسّير كل عسير، فاسمع وتنبه، "وافهم حديث هذه الخصلة التى تعلمها، ثم تشمر للقيام بها، واستعن بالله عز وجل حتى تفعل بما تعلم، فإن الشأن كله فى ذلك، والله ولى التوفيق والهداية بفضله.

فنقول أولاً: إن التقوى فى رأى شيوخنا"[٣] رحمهم الله تعالى:

---

(١) ط : لخيرى، على اعتبار ما بعده مثنى (الدنيا والآخرة)، وهذا خطأ لغوى شائع، والصواب كما أوردته (لخير).

(٢) سورة العنكبوت ، آية ٦٩.

(٣) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: وافهم حديث هذه الخصلة التى تعلمها، ثم تشمر للقيام بها.. إلى قوله: إن التقوى فى رأى شيوخنا. وردت فى هامش الصفحة فى ط .

"تبرئة القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله، حتى يجعل العبد من قوة العزم على تركه وقاية بينه وبين المعاصي"؛ هذا قول شيخنا رحمه الله تعالى، وذلك أن أصل لفظة التقوى فى اللغة هو الوقوى (بالواو)، وهو مصدر الوقاية[1]، يقال: وقايتى وقاية ووقوى، فأبدلت عن الواو تاء كما هو فى: الوكلان، التكلان ونحوهما، فقيل: تقوى. فإذن كما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصى من قوة عزمه على تركها، أو وطّن قلبه على ذلك، فيوصف حينئذ بأنه متقى، ويقال لذلك التبرئة والعزم والتوطين تقوى.

والتقوى فى القرآن تطلق على ثلاثة أشياء، **أحدها:** بمعنى الخشية والهيبة، قال الله تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**"[2]، قال **ابن عباس**[3] " أطيعوه حق طاعته"،

---

(١) + ط : الوقاية.

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٠٢.

(٣) ابن عباس، هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، أبو العباس القرشي الهاشمي . ابن عم رسول الله ﷺ كني بابنه العباس ، وهو أكبر ولده ، وأمه لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية وهو ابن خالة خالد بن الوليد وعنه قال : "ضمني رسول الله ﷺ وقال :" اللهم علمه الحكمة " وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ما سبقه ، وفقه احتيج إليه من رأيه ، وحلم ونسب ونائل ، وما رأيت أحد كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه في رأي منه ، ولا اعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه ، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه ، ويوماً التأويل ، ويوماً المغازي ويوماً شعراً ، ويوماً أيام العرب ، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له ، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً . وقال ليس بن أبي سليم : لزمت هذا الغلام – يعني ابن العباس – وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ؟! قال إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله=

وقال **مجاهد**[1] "هو أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُذكر

= ﷺ إذا تدارءوا في أمر صاروا إلي قول ابن العباس . وقال : شعيب بن درهم: كان هذا المكان – وأومأ إلي مجري الدموع من خديه – من خدي ابن العباس مثل الشراك البالي من كثرة البكاء ، واستعمله علي بن أبي طالب علي البصرة ، فبقي عليها أميراً ، ثم فارقها قبل أن يقتل علي بن أبي طالب ، وعاد إلي الحجاز ، وشهد مع علي صفين ، وكان أحد الأمراء فيها . وروي ابن عباس عن النبي ﷺ ، وعن عمر ، وعلي ، ومعاذ بن جبل ، وأبي ذر ، وروي عنه عبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وأبو الطفيل ، و أبو أمامة بن سهل بن حنيف ، وأخوه كثير بن عباس ، وعكرمة ، وكريب ، وأبو معبد نافذ ومجاهد ، وابن أبي ملكية وعمر بن دينار ، وعبيد بن عمير ، وسعيد بن المسيب ، والقاسم بن محمد ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وسليمان بن يسار ، وعروة بن الزبير ووهب بن منبه ، وأبو الضحى ، وخلق كثير غيرهم . روي عن عبد الله بن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ فقال :" يا غلام ، إني أعلمك كلمات :احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ،وإذا استعنت فاستعن بالله ،واعلم أن الأمة لو اجتمعت علي أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا علي أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف " وتوفي ﷺ سنة ثمان وستين بالطائف وهو ابن إحدى وسبعين سنة ، فصلي عليه محمد بن الحنفية ،فأقبل طائر أبيض فدخل في أكفانه ،فما خرج منها حتى دفن معه ، فلما سوي عليه التراب قال ابن الحنفية ، مات والله اليوم حَبر هذه الأمة (راجع ، ابن الأثير ،أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ / ١٨٥-١٨٩ بتصرف).

(١) مجاهد، هو: الإمام ، شيخ القراء والمفسرين ، أبو الحجاج المكي ، الأسود ، مولي السائب بن أبي السائب المخزومى ، ويقال : مولي عبد الله بن قيس بن الحارث المخزومى ، روى عن ابن عباس، فأكثر و أطاب ، وعنة أخذ القرآن ، والتفسير ، والفقه ، وعن أبى هريرة ، وعائشة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمرو ، وابن عمر ، ورافع بن خديج ، وأم كرز ، وجابر بن عبد الله ، وأبي سعيد الخدرى ، وأم هانئ ، وأسيد بن ظهير ، وعدة . تلا عليه جماعة : منهم ابن كثير الداري ، وأبو عمرو بن العلاء ، وابن محيصن . وحدث عنه عكرمة ، وطاوس وعطاء ، وهم من أقرانه ، وعمرو بن دينار ، وأبو الزبير

فلا يُنسى".

والثالث[1] بمعنى تبرئة القلب عن الذنوب، وهذه هى الحقيقة فـــى

، والحكم بن عتيبة ، وسليمان الأعمش ، وأيوب السختياني ، وابن عون ، و قتـــادة بـــن=
= دعامة ، والفضل بن ميمون وإبراهيم بن مهاجر ، وعبد الكريم الجزري ، وأبو حصين ، والعوام بن حوشب ، وفطر بن خليفة ، وابن كثير ، والنضر بن عربي ، وخلـــق كثيـــر . ومن أقوال مجاهد : عرضت القرآن ثلاث عرضات علي ابن عباس ، أقفه عند كل آيـــة ، أسأله فيما نزلت ، وكيف كانت . ولذلك قال فيه سفيان الثوري : خذوا التفسير من أربعة : مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والضحاك . وقال ابن جريج : لأن أكون ســمعت من مجاهد ، فأقول : سمعت مجاهداً أحب إلى من أهلي ومالي . وقال سلمة بن كهيل : ما رأيت أحداً يريد بهذا العلمَ وجه الله إلا هؤلاء الثلاثة : عطاء ، ومجاهد ، وطاوس . وقال مجاهد : لا تنوهوا بي في الخلق . ولقد قدم مجاهد علي سليمان بن عبد الملك ثم علي عمر بن عبد العزيز ، وشهد وفاته حيث قال : يا مجاهد ما يقول الناس فيّ؟ قال مجاهد : يقولون مسحور . قال ما أنا بمسحور . ثم دعا غلاماً له فقال : ويحك ، ما حملك علي أن ســقيتني السم ؟ قال : ألف دينار أعطيتها وأن أعتق ، قال هاتها ، فجاء بها ، فألقها في بيت المـــال وقال : اذهب حيث لا يراك أحد . وذاك هو عمرو بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين . ومجاهد ثقة ، فقيه ، عالم ، كثير الحديث ، ومن أقواله أيضاً : مـــا أدرى أي النعمتـــين أعظم ، أن هداني للإسلام ، أو عفاني من هذه الأهواء . ويقصد بالأهواء : مذهب الرافضة ، والقدرية ، أوالجهمية . وروي مجاهد كثير من الأحاديث الصحيحة منها هذا الحـــديث : أخبرنا أحمد بن إسحاق ، أنبأنا محمد بن هبة الله ، أنبأنا محمد بن عبد العزيز الـــدينورى ، أنبانا عاصم بن الحسين ، أنبأنا أبو عمر بن مهدي ، أنبأنا الحسين بن إســـماعيل ، حـــدثنا يعقوب الدورقي ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن خصيف ، عن مجاهد ، عن أبـــي ســـعيد الخدرى ، قال : سمعت رسول الله -ﷺ- ، مرتين علي المنبر يقول : "الذهب بالـــذهب ، والفضة بالفضة وزناً بوزنٍ " . وتوفي مجاهد سنة ثنتين ومائة ، وقيل أربع ومائة ، وقيـــل سبع ومائة ، وقيل ثمان ومائة . (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٣٦٧- ٣٧٢ بتصرف) .

(١) لم يذكر المصنف المعنى الثانى للتقوى، حيث بدء الفقرة بقوله: والتقوى فـــى القـــرآن تطلق على ثلاثة أشياء، وذكر الأول ثم اتبعه بالثالث.

التقوى دون <المعنين>[١] الأوَّليين، ألا ترى أن الله تعالى يقول: "**ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**"[٢]، ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، وهى تبرئة القلب كما ذكرنا. ثم قالوا رحمهم الله: منازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصى الفرعية، وقد ذكرها الله فى آية واحدة وهى قوله تعالى: "**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين**"[٣].

التقوى **الأولى**: تقوى عن الشرك والإيمان فى مقابلة التوحيد، والتقوى **الثانية** تقوى عن البدعة، الإيمان الذى ذكر معها إقرار السنة والجماعة، والتقوى **الثالثة** عن المعاصى الفرعية، والإقرار فى هذه المنزلة فيقابلها بالإحسان، وهون الطاعة والاستقامة عليها، فتكون منزلة مستقيمى الطاعة، فهذا ما قاله العلماء فى بيان معنى التقوى.

قلت أنا: وجدت التقوى فى اجتناب فضول الحلال، وهو ما روى فى الخبر المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**إنما سمى المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذراً مما به البأس**"[٤]، فأحببت أن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سورة النور ، آية ٥٢.

(٣) سورة المائدة ، آية ٩٣.

(٤) حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، ثنا هاشم بن القاسم، ثنا أبو عقيل، ثنا عبد الله بن يزيد، حدثنى ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس، عن عطية السعدى وكان من أصحاب النبى صلى

أجمع بين ما قال علماؤنا، وما جاء في الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم، فيكون حدّاً جامعاً، ومعنى بالغاً، فأقول: التقوى هى اجتناب كل ما تخاف منه ضرراً فى دينك، ألا ترى أنه يقال للمريض المحض إنه يتقى إذا اجتنب كل شئ يضره فى بدنه من طعام أو شراب أو فاكهة[1] أو غيرها.

ثم الذى يُخاف منه الضرر فى أمر الدين قسمان: محض الحرام والمعصية، أو فضول الحلال، لأن الانشغال بفضول الحلال والانهماك فيه سيَجُر صاحبه إلى الحرام، ومحض العصيان، وذلك لشر النفس وطغيانها، وتمرد الهوى وعصيانه، فمن أراد أن يأمن الضرر فى أمر دينه اجتنب الخطر، فامتنع عن فضول الحلال حذراً أن يجرّه إلى محض الحرام أى ترك فضول الحلال حذراً من الوقوع فى الحرام، فالتقوى

الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس" (سنن ابن ماجه ٢/١٤٠٩).

حدثنا أبو بكر بن أبى النضر، حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو عقيل الثقفى عبد الله بن عقيل، حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنى ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس، عن عطية السعدى وكان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس". قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. (سنن الترمذى ٤/٦٣٤).

وعن عطية بن عروة السعدى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لا يبلغ العبدَ أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس". رواه الترمذى، وقال حديث حسن، وابن ماجه، والحاكم وقال صحيح الإسناد (الترغيب والترهيب ٢/٣٥٢).

(١) + ط: أو فاكهة.

البالغة الجامعة اجتناب كل ما فيه ضرر لأمرين اللّذَيْن هما: المعـصية والفضول، هذا تفصيلهما.

وأما إذا أردت تحديداتها على موضع علم السرّ، فنقـول: حـد التقوى الجامع تبرئة القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم عـن تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شرّ، ثم الشرور ضربان: شر أصلى، وهو ما نهى عنه كالمعاصى المحضة، وشر غير أصلى، وهو ما نهى عنه تأديباً، وهو حصول الحلال كالمباحات المـأخوذة بالـشهوات، فالأولى تقوى خَوْضٍ يلزمك بتركها عذاب النار، والثانية تقـوى خيـر وأدب يلزمك بتركها الحبس والحساب والتعبير واللوم، فمن أتى بالأولى فهو فى الدرجة الأولى من التقوى، [وهى][١] منزلة[٢] مستقيمى الطاعات، ومن أتى بالأخرى فهو من الدرجة العليا مـن التقـوى، وذلـك منزلـة مستقيمى ترك المباح، وإذا جمع العبد بينهمـا باجتنـاب كـل معـصية وفضول، فقد استكمل معنى التقوى، وقام بحقها، وجمع على كـل خيـر فيها، وهذا هو الورع الكامل، الذى هو ملاك أمر الدين، وذلـك منزلـة الأدب على بابه الله تعالى، فهذا معنى التقوى، وبيانها فى الجملة فافهمه موفقاً إن شاء الله تعالى.

فإن قلت: ففصل لنا هذا المعنى <فى>[٣] النفس، واستعماله فيها فإن الحاجة جاءت من هناك، لنعلم كيف نلجم النفس بهذا المعنى الـذى

---

(١)ط : وهو.

(٢) + ط : منزلة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

فَصلّْت من حقيقة التقوى. فأقول أجل، إنما تفصيله فى أمر هذه النفس أن يقوم عليها بقوة العزم، فيمنعها عن كل معصية، ويصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى فى يمينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك، وألجمتها بلجام التقوى، ولهذا الباب شرح يطول، وقد أشرنا إليه فى " إحياء علوم الدين".

وأما الذى لابد منه هاهنا أن نقول: من أراد أن يتقى الله فيراعى الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول، وهى العين والأذن واللسان والقلب والبطن، فتحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضرر فى أمر الدين من معصية وحرام وفضول، وإسراف من حلال، فإذن حصل بالتقوى الجامعة <طاعة>[1] [جميع][2] [يدنك] [3] لله عز وجلّ.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ط : لجميع.

(٣) ط : بدنه .

الفصل الأول: العـــيـــن

عليك وفقك الله وإيانا بحفظ العين فإنها سبب كل فتنة وآفة، وأذكر فى أمرها ثلاثة أصول، أحدها: ما قاله الله سبحانه وتعالى "**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بمـــا يصنعون**"(١). واعلم أنى تأملت هذه الآية فإذا فيها مع قصرها ثلاثة أمور عزيزة، تأديب وتنبيه وتهديد، فأما التأديب فقوله تعالى: "**قـــل للمـــؤمنين يغضوا أبصارهم**"، ولابد للعبد أن يطيع أمر السيد، والتأديب بأدبـــه، وإلا فيكون سيئ الأدب، يحجبه ولا يأذن له فى حضور المجلـــس، والنّـــول بالحضرة، فافهم هذه النكتة، وتأمل ما تحتها. فإن فيها مـــا فيهـــا، وأمـــا التنبيه فقوله تعالى: "**ذلك أذكى لهم**"، ينطلق علـــى معنيـــين والله أعلـــم، أحدهما: أى هذا أطهر لقلوبهم، والزكاة الطهارة، والتزكيـــة التطهيـــر، والثانى: ذلك إنما لخيرهم وأكثر، والزكاة فى الأصل النمو، فنبه على أن فى غض البصر تطهير القلب، وتكثير الطاعة والخير.

وذلك إذا لم تغض بصرك، وأرضيتَ عنانك تنظر إلى ما يعنيك، فلا تخلو(٢) أن تقع عينك على حرام(٣)، فذنب وكبيرة، وربما يعلق قلبـــك بذلك فتهلك إن لم يرحمك الله تعالى، فلقد رُوِيَ أن العبد ينظر النظـــرة، فيثقل فيها قلبه، كما يثقل الأديم فى الدباغ، لا ينتفع به أبـــداً، وإن كـــان

---

(١) سورة النور، آية ٣٠.

(٢) + ط : إما.

(٣) + ط : قاد تعمده.

مباحاً، فربما يشتغل قلبك به، فجاك الوسواس والخواطر بسببه، ولعلك لا تصل إليه فتبقى مشغول القلب، منقطعاً عن الخير، وإذا كنت لم ترد ذلك[1] ، فقد كنت مستريحاً عن ذلك كله، وفى معنى ذلك ذكر عن **عيسى** صلوات الله عليه وسلامه: **"إياكم والنظرة، فإنها تزرع فى القلب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة"**، وقال **ذو النون المصرى**[2] رحمه

---

(١) + ط : فقد .

(٢) ذو النون المصرى، هو : أبو الفياض ثوبان بن إبراهيم – وقيل الفيض إبراهيم – المصري المعروف بذي النون ، الصالح المشهور ، كان أوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً ، وهو معدود في جملة من روي الموطأ عن الإمام مالك، وكان أبوه نوبياً ، وقيل : من أهل إخميم ، وسئل عن سبب توبته فقال : خرجت من مصر إلي بعض القرى ، فنمت في الطريق في بعض الصحاري ، ففتحت عيني ، فإذا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها علي الأرض ، فانشقت الأرض فخرجت منها سكرجتان : إحداهما ذهب ، والأخرى فضة ، وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا ، فقلت : حسبي ، قد تبت ، ولزمت الباب إلي أن قبلني ، ومن أخباره أنه سعوا به إلي المتوكل مرة ، فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكي المتوكل ورده مكرماً . وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي ، ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحي هلا بذي النون . ومن كلامه :إذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح . وقال إسحاق بن إبراهيم السرخسي بمكة : سمعت ذا النون وفي يده الغل وفي رجليه القيد وهو يساق إلي المطبق ، والناس يبكون من حوله ، وهو يقول: هذا من مواهب الله تعالي ومن عطاياه ، وكل عذاب حسن طيب ، ثم أنشد :

لك من قلبي المكان المصون ... كل لوم علي فيك يهون

لك عزم بأن أكون قتيلاً ... فيك والصبر عنك ما لا يكون

وروي إن بعض الفقراء من الناس تلامذته فارقه من مصر ، وقدم بغداد فحضر بها سماعاً فلما طاب القوم وتواجدوا قام ذلك الفقير ودار واستمع ، ثم صرخ ووقع ، فحركوه فوجدوه ميتاً فوصل خبره إلي شيخه ذي النون ، فقال لأصحابه : تجهزوا حتى نمشي إلي بغداد ،

فلما فرغوا من أشغالهم خرجوا إليها فقدموا عليها ، وساعة قدومهم البلد قال الشيخ :ائتوني بذلك المغني ، فأحضروه إليه، فسأله عن قضية ذلك الفقير، فقص عليه قصته، فقال له:= = مبارك . ثم شرع هو وجماعته في الغناء ، فعند ابتدائه فيه صرخ الشيخ علي ذلك المغني ، فوقع ميتاً ، فقال الشيخ : قتيل بقتيل ، أخذنا ثأر صاحبنا . ثم أخذ في التجهيز والرجوع إلي الديار المصرية . وقيل أن ذا النون كان يعرف اسم الله الأعظم علي ما يقوله يوسف بن الحسين : قيل لي إن ذا النون يعرف اسم الله الأعظم ، فدخلت مصر وخدمته سنة ثم قلت : يا أستاذ إني قد خدمتك وقد وجب حقي عليك ، وقيل لي أنك تعرف اسم الله الأعظم ، وقد عرفتني ولا تجد له موضعاً مثلي فأحب أن تعلمني إياه ، قال :فسكت عني ذو النون ولم يجبني وكأنه أومأ إلي أنه يختبرني ، قال فتركني بعد ذلك ستة أشهر ثم أخرج إلي من بيته طبقاً ومكبة مشدوداً في منديل ، وكان ذا النون يسكن الجيزة ، فقال :تعرف فلاناً صديقنا من الفسطاط ؟ فقلت : نعم ، قال :وأحب أن تؤدي هذا إليه . قال : فأخذت الطبق وهو مشدود وجعلت أمشي طول الطريق وأنا مفكر فيه : مثل ذي النون يوجه إلي فلان هدية ؟ تري أي شيء هي ؟ فلم أصبر إلي أن بلغت الجسر ، فحللت المنديل ورفعت المكبة ، فإذا فأرة قد قفزت من الطبق ومرت ، قال فاغتظت غيظاً شديداً وقلت : ذو النون يسخر بي ويوجه مع مثلي فأرة ، فرجعت علي ذلك الغيظ ،فلما رآني عرف ما في وجهي ، فقال : يا أحمق إنما جربناك ، ائتمنتك علي فأرة فخنتني أفأئتمنك علي اسم الله الأعظم ؟مر عني فلا أراك أبداً ، وكان المتوكل قد أمر بأشخاصه سنة خمس وأربعين ومائتين فوصل إلي سر من رأي فأنزله الخليفة في بعض الدور وأوصي به رجلاً يعرف بزرافة ، وقال :إذا أنا رجعت من ركوبي فأخرج إلي هذا الرجل ، فقال له زرافة : إن أمير المؤمنين قد أوصاني بك ، فلما رجع من الغد قال له :تستقبل أمير المؤمنين بالسلام ،فلما أخرجه إليه قال : سلم علي أمير المؤمنين ، فقال ذو النون : ليس هكذا جاءنا الخبر ، إن الراكب يسلم علي الراجل ، قال : فتبسم الخليفة وبدأه بالسلام ، ونزل إليه فقال له :أنت زاهد مصر، قال :كذا يقولون ، ثم وعظه ، وأكرمه الخليفة ورده إلي مصر مكرماً .وتوفي الشيخ في ذي القعدة سنة خمس وأربعين – وقيل : ست وأربعين ، وقيل ثمان وأربعين ومائتين –ﷺ– بمصر ودفن بالقرافة الصغرى.(راجع، ابن خلكان، وافيات الأعيان١/ ٢٩٨– ٣٠٠– ٣٨٦) .

الله: "نعم صاحب الشهوة غض الأبصار"، ولقد أحسن القائل:

وأنْتَ إذْا أرْسَلْتَ طَـرفَكَ رَائِدا لـِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبْتـك المَنَاظِـرُ
رأيْتُ الّذِى لاكلُّهُ أنـْتَ قـادرٌ عَلَيْهِ ولا عَنْ بَعْضِهِ أنتَ صَابِرُ[1]

فإذا كنت غاض البصر، حافظاً للعين، لا تنظر إلى ما لا يعنيك ولا يهمك، كنت نقى الصدر، فارغ القلب، مستريحاً من كثير الوسواس، سالم النفس عن الآفات، متزايداً فى الخيرات، فتنبه لهذه النكتة الجامعة، والله عز وجل الموفق بفضله.

وأما التهديد، فقوله تعالى: "**إن الله خبير بما يصنعون**"، وقال تعالى: "**يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور**"[2]، وكفى بها تحذيراً لمن خاف مقام ربه، فهذا أصل واحد من كتاب الله تعالى.

والأصل الثانى: ما روِّينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن النظر إلى محاسن المرأة سهم من سهام إبليس، فمن تركها أذاقه الله طعم عبادة تسره**"[3]، وإن وجد أن حلاوة العبادة، ولذّة المناجاة من

---

(١) الأبيات من بحر الكامل (متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن).

(٢) سورة غافر، آية ١٩.

(٣) عن عبد الله بن مسعود ، قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم :"النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتى أبدلته إيمانا يجد له حلاوته فى قلبه". رواه الطبرانى وفيه عبد الله بن إسحق الواسطى وهو ضعيف. (مجمع الزوائد ٦٣/٨).

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى عن ربه عز وجل :"النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه" رواه الطبرانى والحاكم من حديث حذيفة وقال صحيح الإسناد. قال الحافظ : خرجاه من رواية عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو واه.

العابدين بمكان، وهذا شئ مجرَّب، علمه وتحقق منه مَنْ عمل به، إنه إذا امتنع عن النظر إلى ما لا يعنيه، يجد لذة العبادة وحلاوتها، وللقلب صفوة لم يجدها قبل ذلك.

والأصل الثالث: أن تنظر لكل عضو من أعضائك يصلح لماذا، أو تنظر له ماذا، فعلى حسب ذلك تصونه، فالرِجْلُ للمشى فى رياض الجنة وقصورها، واليد لكأس الشراب، وتناول الثمار، وكذلك سائر الأعضاء، فالعين إنما هى للنظر لرب العالمين سبحانه وتعالى، وليس فى الدارَيْن كرامة أجلّ وأكبر من ذلك، فحقيق لشئ ينتظر وترجى له مثل هذه الكرامة، أن يصاب ويُحفظ، ويُعزّ ويُكرم.

فهذه الأصول الثلاثة إذا تأملت فيها كفتك المؤنة فى هذا الفصل، والله ولى التوفيق برحمته.

روى عن أبى أمامة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:" ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه". رواه أحمد والطبرانى ، إلا أنه قال ينظر إلى امرأة رمقة. والبيهقى قال إنما أراد إن صح= = والله أعلم أن يقع بصره عليها من غير قصد فيصرف بصره عنها تورعا (الترغيب والترهيب ٣/٢٣).

الفصل الثانى: الأُذُنْ

عليك بصيانة سمعك عن الخنا[1] والفضول، وذلك كأمرين، أحدهما: أن المستمع شريك المتكلم، وفى ذلك يقول القائل:

تحرّ من الطُّرقْ أوسَاطَهَا وَعُدْ عَنْ الجَانبِ المشْتِبهْ
وسَمْعُكَ عن سماعِ القبيحِ كَصَوْنَ اللسانِ عَن النطقِ بهْ
فإنك عند سماعِ القبيحِ شريكٌ لِقَائلِه فانْتَبِهْ[2]

والثانى أن ذلك يهيج الخواطر والوسواس فى القلب، ثم من ذلك تبدأ الأشغال فى البدن، فلا يبقى للعبادة شئ.

ثم اعلم بأن الكلام الذى يقع فى قلب الإنسان وسمعه بمنزلة الطعام الذى يقع فى جوفه، فمنه الضار، ومنه النافع، ومنه الغذاء، ومنه السُمّ، بل إن إبقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ، فإن الطعام يزول عن المعدة بنوم أو نحوه، وربما يبقى أثره زماناً ثم يزول، وله دواء [يزيل][3] أثره من جسم الإنسان، وأما الكلام الذى وقع فى قلب الإنسان، ربما بقى معه جميع عمره ولا ينساه، فإن كان شيئاً رديئاً فلا يزال يتبعه وترد بسببه خواطر فى القلب ووسواس، ويحتاج إلى أن يعرض عنها، ويعدل بقلبه عن تذكرها، ويستعين بالله تعالى من شرها، ولا يأمن أن تحمله

---

(١) الخَنا فى اللغة : الفُحْش ، وقد (خَنِىَ) عليه من باب صدَىَ و (أخْنَى) عليه فى مَنْطقِه ، أى أفْحَشَ وأَخنَى عليه الدّهْرُ ، أتى عليه وأهلكه (مختار الصحاح ص ١٩٢) .

(٢) الأبيات من بحر الوافر التام (مفاعلتن – مفاعلتن – فعولن).

(٣) ط : يزيد.

تحمله على بليّة[1] ما له، حتى يقع آخر الأمر فى آفة عظيمة بسبب ذلك، ولو كنت حفظت سمعك عن ما لا يعنيك كنت عن هذه المؤن مستريحاً، فلينظر العاقل فى ذلك، وبالله التوفيق.

---

(٤) ط : كلمة غير مقروءة.

الفصل الثالث: اللّـسّـانْ

ثم عليك بحفظ اللسان وقيده وضبطه، فإنه أشد الأعضاء جماحـاً وطغياناً، وأكثرها فساداً وعدواناً، ولقد روينا عن سفيان بن عبد الله قال: "قلت: يا رسول الله، ما أكبر ما تخاف عليّ؟، **فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه وقال: هذا**"[1]، وعن **قيس بن عبيد**[2] أنه قال: "إني وجدت نفسي تحتمل مئونة الصوم في الحرّ الشديد بالبصرة، ولا تحتمـل تـرك كلمة لا تعنيها"، فعليك إذن بالتحفظ جداً، وبذل المجهود، وتذكر خمـسة أصول:

---

(١) حدثنا أبو مروان محمد بن عثمان العثماني، ثنا إبراهيم بن سعد، عن بن شهاب، عـن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز العامري أن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسـول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: "قل ربي الله ثم استقم". قلت يا رسول الله مـا أكثـر مـا تخاف علي، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه ثم قال: "هذا" . (سـنن ابـن ماجه ١٣١٤/٢). ورواه الترمذي قائلاً: حدثنا سويد بن نصر، أخبرنا بن المبـارك، عـن معمر ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن ماعز، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله حدثني بأمر اعتصم به قال: "قل ربي الله ثم استقم". قلت يا رسـول الله مـا أخوف ما نخاف علي، فأخذ بلسان نفسه ثم قال :"هذا". قال أبو عيسى هذا حـديث حـسن صحيح وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي باب منـه (سـنن الترمـذي ٦٠٧/٤). والحديث رواه أيضاً أحمد بن حنبل في مُسنده ٤١٣/٣، والترغيـب والترهيـب ٣٨/٣.

(٢) قيس بن عبيد، هو: قيس بن عبيد بن الحُرَيْر بن عُبَيد بن الجَعد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنيم بن مازن بن النجار ، أو بشر .. له صحبه ، شهد أحداً ، والمشاهد كلهـا ، واستشهد يوم اليمامة (ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٣١/٤).

الأصل الأول: روى أبو سعيد الخدرى[1]: "أن ابن آدم إذا أصبح

---

(١) أبو سعيد الخدرى : هو الإمام المجاهد ، مفتى المدينة ، سعد بن مالك بن سنان بن = = ثعلبة بن عبيد بن الأبجر بن عوف بن الحارث بن الخروج . واسم الأبجر : خدرة ، وقيل : بل خُدرة هى أم الأبجر . [ت ٧٤هـ] وأخو أبى سعيد لأمه هو قتادة بن النعمان الظفرى أحد البدريين . استشهد أبوه مالك يوم أحد ، وشهد أبو سعيد الخندق ، وبيعة الرضوان . وحدث عن النبى ﷺ ، فأكثر وأطاب ، وعن أبى بكر ، وعمر ، وطائفة ، وكان أحد الفقهاء المجتهدين . حدث عنه : ابن عمر ، وجابر ، وأنس ، وجماعة من أقرانه ، وعامر بن سعد ، وعمرة بن سليم ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، ونافع العمرى ، وبشر بن سعيد ، وبشر بن حرب الندبى ، وأبو الصديق الناجى ، وأبو الوداك ، وأبو المتوكل الناجى ، وأبو نضرة العبدى ، وأبو صالح السمان ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الله بن خباب ، وعبد الرحمن بن أبى سعيد الخُدرى ، وعبد الرحمن بن أبى نعم ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعطاء بن يزيد الليثى ، وعطاء بن يسار ، وعطية العوفى ، وأبو هارون العبدى ، وعياض بن عبد الله ، وقزعة بن يحيى ، ومحمد بن على الباقر ، وأبو الهيثم سليمان بن عمرو العتوارى ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وخلق كثير . وعن عبد الرحمن بن أبى سعيد ، عن أبيه ، قال : عرضت يوم أحد على النبى ﷺ وأنا ابن ثلاث عشرة ، فجعل أبى يأخذ بيدى ويقول : يا رسول الله ! إنه عبل (ممتلئ) العظام . وجعل نبى الله يصعد فى النظر ، ويصوبه ، ثم قال : "رده" فردنى . إسماعيل بن عياش : أنبأنا عقيل بن مدرك ، يرفعه إلى أبى سعيد الخدرى قال : عليك بتقوى الله فإنه رأس كل شئ . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى أهل السماء ، وذكرك فى أهل الأرض وعليك بالصمت إلا فى حق ، فإنك تغلب الشيطان . وروى حنظلة بن أبى سفيان ، عن أشياخه : أنه لم يكن أحد من أحداث أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من أبى سعيد الخدرى . قال أبو عقيل الدورقى : سمعت أبا نضرة يحدث قال : دخل أبو سعيد يوم الحرة غاراً ، فدخل عليه فيه رجل ، ثم خرج ، فقال لرجل من أهل الشام : أدلك على رجل تقتله ؟ فلما انتهى الشامى إلى باب الغار ، وفى عنق أبى سعيد السيف ، قال لأبى سعيد : اخرج ، قال : لا أخرج ، وإن تدخل أقتلك ، فدخل الشامى عليه ، فوضع أبو سعيد السيف ، وقال : بؤ بإثمى وإثمك ، وكُن من أصحاب النار . قال : أنت أبو سعيد الخدرى ؟ قال : نعم . قال : فاستغفر لى ، غفر الله

بكّدت الأعضاء كلها اللسان، وقلن له[1]: ننشدك الله أن تستقيم، فإنـك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا"، قلت: والمعنى والله أعلم: أن نطق اللسان يؤثر فى الأعضاء كلها بالتوفيق والخذلان، يؤكد هذا المعنى ما حكى عن **مالك بن دينار**[2] أنه قال: "إذا رأيت قساوة فى قلبك، ووهناً

لك . وعن عبد الله بن عمر : عن وهب بن كسيان ، قال : رأيت أبا سعيد الخدرى يلـبس الخز ، وقد روى بقى بن مخلد فى "مسنده الكبير" لأبى سعيد الخدرى بالمكرر ألف حديث ومائة وسبعين حديثاً ، وأنفرد البخارى بستة عشر حديثاً ، ومسلم باثنين وخمسين . قـال= = الواقدى وجماعة :مات سنة أربع وسبعين . ولابن المدينى مع جلالته فى وفاة أبى سعيد قولان شذ بهما ووهم ، فقال إسماعيل القاضى : سمعته يقول : مات سنة ثلاث وسـتين . وقال البخارى : قال على : مات بعد الحرة بسنة (راجع ، الذهبى ، سير أعلام النـبلاء ، ٢٩٦/٤-٢٩٧ بتصرف).

(١) + ط : له.

(٢) مالك بن دينار، هو: علم العلماء الأبرار ، معدود فى ثقات التابعين ، ومن أعيان كتبه المصاحف ، كان من ذلك بلغته . ولد فى أيام ابن عباس ، وسمع من أنس بن مالك ، ومن بعده ، وحدث عنه ، وعن الأحنف بن قيس ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والقاسم بن محمد ، وعدة . حدث عنه : سعيد بن أبى عروبة ، وعبد الله بـن شوذب ، وهمام بن يحيى ، وأبان بن يزيد العطار ، وعبد السلام بن حرب ، والحارث بن وجية ، وطائفة سواهم ، وليس هو من أساطين الرواية . وثقـة النـسائى فـى غيـره ، واستشهد به البخارى ،وحديثة فى درجة الحسن . قال على بن المدينى : له نحو من أربعين حديثاً . قال جعفر بن سليمان : سمعت مالك بن دينار يقول : وددت أن رزقى فى حـصاة وأمتصها لا ألتمس غيرها ، حتى أموت . وقال : منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ، ولم أكره منهم ذمهم لأن حامدهم مفرط ، وذامهم مفرط ، إذا تعلم العالم العلم للعمـل كـسره ، وإذا تعلمه لغير العمل ، زاده فخراً . قال الأصمعى عن أبيه : مر المهلب على مالك بـن دينار متبختراً ، فقال : أما علمت أنها مشية يكرها الله إلا بين الصفين ؟ فقال المهلب : أما تعرفنى ؟ قال : بلى ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمـل =

فى بدنك، وحرماناً فى رزقك، فاعلم أنك تكلمت بما لا يعنيك".

والأصل الثانى: حفظ وقتك، فإن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى، إلا أقلّ القليل يكون لغواً يضيع به الوقت، وذكر أن **حسان بن ثابت** [1] مرّ على غرفة بُنّيت، فقال: من كم بنيت هذه؟، ثم

العذرة . فانكسر ، وقال : الآن عرفتنى حق المعرفة . قال حزم القطعى : دخلنا على مالك وهو يكبد بنفسه ، فرفع طرفه ، ثم قال : اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء لبطن ولا فرج . قال جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار : إذا لم يكن فى القلب حزن خرب ، وعن مالك بن دينار قال : من تباعد من زهرة الدنيا ، فذاك الغالب هواه . وقيل دخل عليه = لص ، فما وجد ما يأخذ ، فناده مالك : لم تجد شيئاً من الدنيا ، أفترغب فى شئ من الآخرة؟ قال : نعم . قال : توضأ ، وصل ركعتين ، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد . فسئل من ذا ؟ قال : جاء ليسرق فسرقناه . وقال : مالك بن دينار : خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شئ فيها ، قيل : وما هو ؟ قال : معرفة الله تعالى ؟ وقال : إن الصدقين إذا قُرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الأخرة . ثم يقول : خذوا ، فيتلو ، ويقول : اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه . قال محمد بن سعد : مالك ثقة ، قليل الحديث ، كان يكتب المصاحف . قال الدارقطنى : مالك بن دينار ثقة ، ولا يكاد يُحدث عنه ثقة . وقال السرى بن يحيى : قال مالك بن دينار : إنه لتأتى على السنة لا آكل فيها لحماً إلا من أضحيتى يوم الأضحى . وقال سليمان التيمى : ما أدركت أحداً أزهد من مالك بن دينار . وقال جعفر بن سليمان ، سمعت مالكاً يقول : وددت أن الله يجمع الخلائق ، فيأذن لى أن أسجد بين يديه ، فأعرف أنه قد رضى عنى ، فيقول لى : كن تراباً . وقال لو استطعت لم أنم مخافة أن ينزل العذاب . يأيها الناس النار النار . قال معلى الوراق : سمعت مالك بن دينار يقول : خلطت دقيقى بالرماد فضعفت عن الصلاة . قال السرى بن يحية : توفى مالك بن دينار سنة سبع وعشرين ومائة . وقال ابن المدينى : سنة ثلاثين ومائة (راجع ، الذهبى ، سير أعلام النبلاء ١٧٣/٦ -١٧٦ بتصرف) .

(١) حسان بن ثابت ، هو: حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك بن النجار . واسمه تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج ،

الأنصاري الخزرجى ، ثم من بني مالك بن النجار ، يكني أبا الوليد ، وقيل: أبو عبد الرحمن وقيل: أبو حسام ؛ لمناضلته عن رسول الله ﷺ ولتقطيعه أعراض المشركين ، يقال له: شاعر رسول الله ﷺ، ووصفت عائشة رسول الله ﷺ فقالت: كان والله كما قال فيه حسان:

متي يبد في الداجي البهيم جبينه — يلح مثل مصباح الدجي المتوقد

فمن كان أو من ذا يكون كأحمد — نظام لحق أو نكال لملحد

وكان رسول الله ﷺ ، ينصب له منبراً في المسجد ، يقوم عليه قائماً ، يفاخر عن رسول الله ﷺ ، ورسول الله يقول: إن الله يؤيد حسان بروح القدس ، ما نافح عن رسول الله ﷺ وروى أن الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ من مشركي قريش: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزبعرى ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب . وقال قائل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: اهج القوم الذين يهجوننا ، فقال: إن أذن رسول الله ﷺ فعلت ، فقال رسول الله: إن علياً ليس عنده ما يراد من ذلك . ثم قال: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بأسيا فهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصري وصنعاء ، قال رسول الله ﷺ : كيف تهجوهم وأنا منهم؟ وكيف تهجو أبا سيفان وهو ابن عمي؟ فقال: يا رسول الله ، لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، فقال: آئت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي إلي أبي بكر رضي الله عنه ليقفه علي أنسابهم ؛ فكان يقول له: كف عن فلانة وفلانة ، واذكر فلانة وفلانة . فجعل يهجوهم ، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا: هذا شعر حسان قالوا: هذا شعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة . فمن قول حسان في أبي سفيان بن الحارث:

وأن سنام المجد من آل هاشم — بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

ومن ولدت أبناء زهرة منهم — كرام ولم يقرب عجائزك المجد

ولست كعباس ولا كابن أمه — ولكن لئيم لا يقام له زند

وأن امرأ كانت سمية أمه — وسمراء مغموز إذا بلغ الجهد

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال: هذا شعر لم يغب عنه ابن أبي قحافة . وقال ابن دريد ، عن أبي حاتم ، عن أبي عبيدة ، قال: فضل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في

الجاهلية ، وشاعر النبي ﷺ في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام . وقال الأصمعي: الشعر نكد يقوي قي الشر ويسهل ؛ فإذا دخل في الخير يضعف . لأن هذا حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره . وقيل لحسان: لأن شعرك هرم يا أبا الحسام ؛ فقال للسائل: يا ابن أخي ، إن الإسلام يحجز عن الكذب. يعني أن الإجادة = = في الشعر هو الإفراط في الذي يقوله ، وهو كذب يمنع الإسلام منه ، فلا يجئ الشعر جيداً . وكان حسان ممن خاض في الإفك ، فجلد فيه في قوله بعضهم ، وأنكر قوم ذلك ، وقالوا: إن عائشة كانت في الطواف ، ومعها أم حكيم بنت خالد بن العاص ، وأم حكيم بنت عبد الله بن أبي ربيعة ، فذكرتا حسان بن ثابت وسبتاه ، فقالت عائشة: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبي ﷺ بلسانه ؛ أليس القائل:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

وبرأته من أن يكون افتري عليها ، فقالتا: ألم يقل فيك؟ فقالت: لم يقل شيئاً ، ولكنه الذي يقول:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فإن كان ما قد قيل عني قلته فلا رفعت سوطي إلي أناملي

وكان حسان من أجبن الناس حتى إن النبي ﷺ جعله مع النساء في الآطام يوم الخندق: عن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، قال: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع ، حصن حسان بن ثابت ؛ قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه ، مع النساء والصبيان ، حيث خندق النبي ﷺ قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ؛ قالت له صفية: إن هذا اليهودي يطيف بالحصن كما تري ، ولا آمنه أن يدل علي عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله ، قال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت صفية: فلما قال ذلك أخذت عموداً ، ونزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتي قتلته ، ثم رجعت الي الحصن ، فقلت: يا حسان ، انزل فاسلبه ، فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب . ولم يشهد مع النبي ﷺ شيئاً من مشاهده لجنبه ، ووله النبي ﷺ جاريته سيرين أخت مارية ، فأولدها عبد الرحمن بن حسان ، فهو وأبراهيم بن رسول الله ﷺ ابنا خالة . وتوفي حسان في خلافة علي ، وقيل: مات سنة خمسين ، وقيل: سنة أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشرين سنة ، لم

أقبل على نفسه وقال يا نفس الغرور، تسألينى عما لا يعنيك، وعاقبها بصوم سنة قلت: فياطوبى للمهتمين بأنفسهم!، ويا ويح الغافلين الذين خلعوا الأعذار، وأرخو العنان، والله المستعان. ولقد صدق القائل وأحسن:

اغْتَنِم رَكْعتيْن فى ظُلْمَةِ الليل إذا كنت خالياً مُستَرِيْحَاً
وإذَا همّ لِسانُكَ باللغوِ فى البَاطِلِ فاجْعَلْ مَكَانَهُ تَسْبيحا[١].

والأصل الثالث: حفظ الأعمال الصالحة، فإن من لم يصن لسانه وأكثر الكلام، يقع لا محالة فى غيبة الناس، كما قيل: "من كثر كلامه كثر لغطه، ومن كثر لغطه كثر سقطه"، والغيبة هى الصاعقة المهلكة للطاعات على ما قيل، [إن][٢] مثل من يغتاب الناس، كمثل من نصب منجنيقاً، فهو يرمى به حسناته شرقاً وغرباً، يميناً وشمالاً، وبلغنا عن **الحسن**[٣] أنه قيل: يا أبا سعيد أن فلاناً اغتابك، فبعث إليه بطبق فيه رطب، وقال: بلغنى أنك أهديت إلىّ حسناتك فأردت أن أكافئك. وذكرت

يختلفوا في عمره وأنه عاش ستين سنة في الجاهلية ، وستين في الإسلام ، وكذلك عاش أبوه ثابت ، وجده المنذر ، وأبو جده حرام؛ عاش كل واحد منهم مائة وعشرين سنة ، ولا يعرف في العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد ، وعاش كل منهم مائة وعشرين سنة غيرهم ، قال سعيد بن عبد الرحمن: ذكر عند أبي عبد الرحمن عمر أبيه ، وأجداده ، فاستلقي علي فراشه وضحك ، فمات وهو ابن ثمان وأربعين سنة . (راجع ، ابن الأثير = = حياة الصحابة ، ١/٥٤٨ – ٥٥٢ بتصرف) .

(١) البيتان من بحر الخفيف (فاعلاتن – مستفعلن – فاعلاتن).

(٢) ط : إنن.

(٣) هو الحسن البصرى، وقد مرّت ترجمته.

الغيبة عند **ابن المبارك**[1] فقال: "لو كنت مغتاباً لاغتبت أمي، لأنها أولى

(١) ابن المبارك، هو: عبد الله بن المبارك بن واضح (ت ١٨١ هـ) هو الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه ، وأمير الأتقياء في وقته ، أبو عبد الرحمن الحنظلى ، مولاهم التركي ، ثم المروزى، الحافظ ، الغازي ، أحد الأعلام ، وكانت أمه خوارزمية . مولده في سنة ثمان عشرة ومائة . وطلب العلم وهو ابن عشرين سنة ، وأقدم شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخرساني ، تحيل ودخل إليه إلى السجن ، فسمع منه نحواً من أربعين حديثاً ، ثم ارتحل في سنة إحدى وأربعين ومائة وأخذ عن بقايا التابعين ، وأكثر من الترحال ، والتطوف ، وإلى أن مات في طلب العلم وفي الغزو والتجارة، والإنفاق على الإخوان في الله = = وتجهزيهم معه إلي الحج . سمع من : سليمان التيمي ، وعاصم الأحول ، وحميد الطويل ، وهشام بن عروة ، والاوزعي ، وأبى حنيفة ، وابن جريج ، ومعمر ، والثوري ، وشعبة ، ومالك والليث ، وابن لهيعة ، وإسماعيل بن عياش ، وابن عيينة ، وبقية بن الوليد ، وخلق كثير. وصنف التصانيف النافعة الكثيرة . حدث عنة معمر ، والثوري ، وأبو إسحاق الفزاري ، وطائفة من شيوخه ، وابن وهب ، وابن مهدى ، وطائفة من أقرانه ، وأبو داود ، وعبد الرزاق بن همام ، والقطان ، وابن معين ، وأبو بكر بن أبى شيبة ، ومسلم بن إبراهيم ، وعلى بن حجر ، والحسن بن عيسى بن ما سرجس ، والحسين بن الحسن المروزى ، والحسن بن عرفة، وإبراهيم بن مجشر ، ويعقوب الدورقي ، وأمم يتعذر إحصاؤهم و ويشق استقصاؤهم . وحديثة حجة بالإجماع وهو في المسانيد والأصول . قال نعيم بن حماد : كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي-ﷺ- وأصحابه ؟! قال أحمد العجلي : ابن المبارك ثقة ثبت في الحديث ، رجل صالح يقول الشعر ، وكان جامعاً للعلم . قال العباس بن مصعب : جمع عبد الله الحديث ، والفقه ، والعربية ، وأيام الناس ، والشجاعة ، والسخاء ، والتجارة ، والمحبة عند الفرق . قال محمد بن عبد الوهاب الفراء : ما أخرجت خرا سان مثل هؤلاء الثلاثة : ابن المبارك ، والنضر بن شميل ، ويحي بن يحي . قال يحي ابن آدم كنت إذا طلبت دقيق المسائل ، فلم أجده في كتب ابن المبارك ، أيست منه . قال أبو أسامة ابن المبارك في المحدثين مثل أمير المؤمنين . قال أشعت بن شعبة : قدم الرشيد الرقة ، فانجفل الناس خلف ابن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرقت أم ولد لأمير

المؤمنين من قصر الخشب ، فقالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان ، قدم . قالت : هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرطي وأعوان . قال عمر بن حفص الصوفي : خرج ابن المبارك من بغداد ، يريد المصيصة ، فصحبه الصوفية ، فقال لهم : أنتم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم . يا غلام هات الطست ، فألقي علية منديلاً ثم قال : يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه ، فجعل الرجل يلقى عشرة دراهم ، والرجل يلقى عشرين ، فأنفق عليهم إلى المصيصة ، ثم قال : هذه بلاد نفير فنقسم ما بقي ، فجعل يعطى الرجل عشرين ديناراً ، فيقول : يا أباعبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً، فيقول : وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته . وكان ابن المبارك إذا كان وقت الحج، اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون : نصحبك، فيقول:= = هاتوا نفقاتكم ، فيأخذ نفقاتهم ، فيجعلها في صندوق ، ويقفل عليها ،ثم يكتري لهم ، ويخرجهم من مرو إلى بغداد ، فلا يزال ينفق عليهم ، ويطعمهم أطيب الطعام ، وأطيب الحلوى ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة ، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول -ﷺ- فيقول لكل واحد : ما أمرك عيالك أن تشترى لهم في المدينة من طرفها ؟ فيقول : كذا وكذا ، ثم يخرجهم إلى مكة ، فإذا قضوا حجهم ، قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالك أن تشترى لهم من متاع مكة ؟ فيقول كذا وكذا ، فيشترى لهم ، ثم يخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو فيجصص بيوتهم وأبوابهم فإذا كان بعد ثلاثة أيام ، عمل لهم وليمة وكساهم ، فإذا أكلوا وسروا ، دعا بالصندوق ، ففتحة ودفع إلى كل رجل منهم صرته عليها اسمه . وقال عبد الله بن مبارك مرة للفضيل : لولاك وأصحابك ما اتجرت . وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم .وجاء رجل إلى ابن المبارك ، فسأله أن يقضى ديناً عليه ، فكتب له إلى وكيل له ، فلما ورد علية الكتاب ، قال له الوكيل : كم الدين الذي سألته قضاءه ؟ قال سبعمائة درهم ، وإذا عبد الله قد كتب له أن يعطيه سبعة آلاف درهم ، فراجعه الوكيل ، وقال :إن الغلات قد فنيت ، فكتب إليه عبد الله : إن كانت الغلات قد فنيت فإن العمر أيضاً قد فني ، فأجز له ما سبق بقلمي . وكان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طر سوس ،وكان ينزل الرقة في خان ، فكان شاب يختلف إليه ، ويقوم بحوائجه ، ويسمع منه الحديث ، فقدم عبد الله مرة ، فلم يره في (النفير)، فلما رجع سأل عن الشاب ، فقيل : محبوس على عشرة آلاف درهم ، فاستدل على الغريم ، ووزن له

عشرة آلاف ، وحلفه ألا يخبر أحداً ما عاش ، فأخرج الرجل ، وسرى ابن المبارك ، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة ، فقال له : (يا) فتى ، أين كنت ؟ لم أرك . قال : يا أبا عبد الرحمن كنت محبوساً بدين . قال : وكيف خلصت ؟ قال جاء رجل ، فقضي ديني ، ولم أدر . قال : فاحمد الله ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله . وقال على بن الفضيل ، سمعت أبى يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل ، والبلغة ، ونراك تأتي بالبضائع ، كيف ذا ؟ قال : يا أبا على ، إنما أفعل ذا لأصون وجهي ، وأكرم عرضي ، وأستعين به على طاعة ربى . قال : يا بن البارك ما أحسن ذا إن تم ذا . قال ابن المهدى : الأئمة أربعة : سفيان ومالك ، وحماد بن زياد ، وابن المبارك . وقال : ما رأيت رجلاً أعلم بالحديث من سفيان ، ولا أحسن عقلاً من مالك ، ولا أقشف من شعبة ، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك . وقال سفيان الثوري: إني لأشتهي من عمري كله أن= = أكون سنة مثل ابن المبارك ، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام. وسأل رجل سفيان ، فقال : من أين أنت ؟ قال : من أهل المشرق ، قال أو ليس عندكم أعلم من أهل المشرق ؟ قال : ومن هو ؟ قال : عبد الله بن المبارك . قال : وهو أعلم أهل المشرق ؟ قال : نعم ، وأهل المغرب . وكان فضيل وسفيان ومشيخة جلوساً في المسجد الحرام ، فطلع ابن المبارك من الثنية ، فقال سفيان : هذا رجل أهل المشرق . فقال فضيل : رجل أهل المشرق والمغرب وما بينهما . وابن المبارك إمام المسلمين أجمعين على زمانه . قال ابن عيينة : نظرت في أمر الصحابة ، وأمر عبد الله ، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي -ﷺ- وغزوهم معه . ومدح عمار بن الحسن ابن المبارك قائلاً :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة ... فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأحبار في كل بلدة ... فهم أنجم فيها وأنت هلا لها

وقال فيه البعض :أمير المؤمنين في الحديث . وسئل ابن المبارك : هل تتحفظ الحديث ؟ فتغير لونه . وقال : ما تحفظت حديثاً قط ، إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه ، فما اشتهيته علق بقلبي . وأخبر صخر ، صديق ابن المبارك ، قال : كنا غلماناً في الكتّاب ، فمررت أنا وابن المبارك ، ورجل من القوم ، فقال : هاتها ، فأعادها ، وقد حفظها . وقال عبدة بن سليمان المروزى : كنا سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفان ، خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة وقتله ،

فازدحم إليه الناس ، فنظرت فإذا هو عبد الله ابن المبارك ، وإذا هو يكتم وجهه بكمه ، فأخذت بطرف كمه فمددته ، فإذا هو . فقال وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا !!. وقال العباس بن مصعب : حدثني بعض أصحابنا قال : سمعت أبا وهب يقول : مر ابن المبارك برجل أعمى ، فقال له :أسألك أن تدعو لي أن يرد الله علي بصري ، فدعا الله ، فرد عليه بصره وأنا أنظر . وقال الحسن بن عرفه قال لي ابن المبارك : استعرت قلماً بأرض الشام ، فذهبت على أن أرده ، فلما قدمت مرو ، نظرت فإذا هو معي و فرجعت إلى الشام حتى رددته على صاحبه . قال أسود بن سالم : كان ابن المبارك إماماً يقتدي به ، كان من أثبت الناس في السنة ، إذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك ، فاتهمه على الإسلام . قال أحمد بن حنبل : لم يكن أحد في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه . قال العباس بن مصعب : عن إبراهيم بن إسحاق البناني ، عن ابن المبارك ، قال : حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ ، فرويت عن ألف شيخ، ثم قال العباس: فتتبعتهم حتى وقع لي ثمانمائة شيخ له. قال الحسن= = بن عيسى بن ماسرجس مولي ابن المبارك : اجتمع جماعة مثل الفضل بن موسى ، ومخلد بن الحسين ، فقالوا : تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبوا ب الخير ، فقالوا : العلم ، والفقه ، والأدب والنحو ، واللغة ، والزهد ، والفصاحة ، والشعر ، وقيام الليل ، والعبادة ، والحج ، والغزو ، والشجاعة ، والفروسية ، والقوة ، وترك الكلام فيما لا يعنيه ، والإنصاف ، وقلة الخلاف على أصحابه . وقال حبيب الجلاب : سألت ابن المبارك : ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : غريزة عقل . قلت : فإن لم يكن ؟ قال حسن أدب . قلت : فإن لم يكن ؟ قال : أخ شفيق يستشيره . قلت : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل . قلت : فإن .... ! قال : موت عاجل. ومن أقواله أيضاً: عجبت لمن لم يطلب العلم ، كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة . قال شقيق البلخي : قيل لابن المبارك : إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا ؟ قال : أجلس مع الصحابة والتابعين ، أنظر في كتبهم وآثارهم ، فما أصنع معكم ؟ أنتم تغتابون الناس. وعنه قال: من بخل بالعلم، ابتلى بثلاث : إما موت يذهب علمه ، وإما ينسى ، وإما يلزم السلطان ، فيذهب علمه. وعنه قال : أول منفعة العلم أن يفيد بعضهم بعضاً . وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمن الغوغاء ؟ قال : خزيمة وأصحابه ، يعنى من أمراء الظلمة . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم . وعنة قال : ليكن مجلسك مع المساكين ، وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة . وقال : إذا عرفت الرجل قدر نفسه ، يصير عند نفسه أذل من

كلب. وعنه قال : لا يقع موقع الكسب على العيال شيء ، ولا الجهاد في سبيل الله . وقال رُب عمل صغير تكثره النية ، ورُب عمل كثير تصغره النية . وعن رأيه في الجهمية ، أتباع الجهم بن صفوان ، والقائلين بالقدر ، وأن الإنسان مجبر في جميع أفعاله ، بل هو كريشة معلقة في الهواء ، لا إرادة له فيما يفعل به ، قال ابن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . وسأله ابن الحسن بن شفيق : كيف يعرف ربنا عز وجل ؟ قال في السماء على العرش . فقال له ابن الحسن إن الجهمية تقول هذا . قال : لا نقول كما قالت الجهمية : هو معناها هنا . وذهب الذهبي إلى أن الجهمية يقولون : إن الباري تعالي في كل مكان ، والسلف يقولون : عن علم الباري في كل مكان ، ويحتجون بقولة تعالى (وهو معكم أينما كنتم) يعنى : بالعلم ويقولون : إنه على العرش استوى ، كما نطق به القرآن والسنة .قال الأوزاعى ، وهو إمام وقته : كنا – والتابعون متوافرون – نقول : إن الله تعالى فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته ، ومعلوم عند أهل العلم من الطوائف أن مذهب السلف إمرار آيات الصفات = = وأحاديثها كما جاءت من غير تأويل ولا تحريف ، ولا تشبيه ولا تكييف ، فإن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات المقدسة . وقد علم المسلمون أن ذات الباري موجودة حقيقة ، لا مثل لها ، وكذلك صفاته تعالى موجودة ، لا مثل لها . وروى أن رجلاً قال لعبد الله بن المبارك ، قد خفت الله تعالى من كثرة ما أدعو على الجهمية قال : لا تخف ، فإنهم يزعمون أن إلهك الذي في السماء ليس بشيء . وقرأ ابن المبارك شيئاً من القرآن ، ثم قال : من زعم أن هذا مخلوق – يقصد المعتزلة – فقد كفر بالله العظيم . واحتج ابن المبارك في مسألة الإرجاء ، وأن الإيمان يتفاوت ، بما روى عن عمر حين قال لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض ، لرجح . قال ابن المبارك مرا د عمر-ﷺ- أهل زمانه . وعن رأيه في فتنه الصحابة وقتالهم بعضهم بعضاً في صفين والجمل ... وغيرهم من الموقعات ، قال :السيف الذي وقع بين الصحابة فتنة ، ولا أقول لأحد منهم هو مفتون . وكان ابن المبارك رحمة الله شاعراً ، محسناً ، قوالاً بالحق ، ومن شعره :

تهوي بساكنها طوراً وترفعه إذا رجوا مخرجاً من غمها قمعوا

لينفع العلم قبل الموت عالمه قد سال قوم بها الرجعي فما رجعوا

وفي أبيات غاية في الحسن والنظم والبراعة يوضح ابن المبارك اعتقاد سلف الأمة أجمع في أمور جد خطيرة ، هي :

بحسناتي". وذكر أنه فات **حاتم الأصم**[1] ليلة القيام، فعزته زوجته، فقال:

إني امرؤ ليس في ديني لغـامزة ... لـين ولـست علـى الإسـلام طعانـاً
فلا أسب أبـا بكـر ولا عمـراً ... ولـن أسـب معـاذ الله عثمانـا
ولا ابن عم رسـول الله أشـتمه ... حتـى ألـبس تحـت التـراب اكفانـا
ولا الزبير حواري الرسـول ولا ... أهـدي لطلحـة شـتماً عـز أوهانـا
ولا أقول على في الـسحاب إذاً ... قـد قلـت والله ظلمـاً ثـم عـدوانا
ولا أقول بقـول الجهـم إن لـه ... قولاً يـضارع أهـل الـشرك أحيانـا
ولا أقـول تخلـى مـن خليقتـه ... رب العبـاد وولـى الأمـر شـيطانا
ما قال فرعون هذا فـي تمـرده ... فرعون موسـى ولا هامـان طغيانـا
لولا الأئمة لم تـأمن لنـا سـبل ... وكـان أضـعفنا نهبـاً لأقوانـا

فيقال : إن الرشيد أعجبه هذا ، فلما أن بلغه موت ابن المبارك بهيت قال: إنا لله وإنا إليــه راجعون مات سيد العلماء يا فضل:إيذن للناس يعزونا في ابن المبارك وكان ذلك في شهر= – رمضان سنه إحدى وثمانين ومائة . وقال : أما هو القائل : الله يدفع بالسلطان معـضلة (راجع الذهبي، سير أعلام النبلاء ٧ / ٥٣٨ –٦٠٧ بتصرف) .

(١) حاتم الأصم : هو الزاهد القدوة الرباني ، أبو عبد الرحمن، حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الواعظ الناطق بالحكمة ، الأصم، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم ، كان يقال له : لقمان هذه الأمة (ت ٢٣٧هـ) روى عن: شقيق البلخي وصحبه ، وسعيد بن عبد الباقي الماهياني ، وشداد بن حكيم ، ورجاء بن محمد وغيرهم ، ولم يرو شيئاً مسنداً فيما أري . وروي عنه : عبد الله بن سهل الرازي ، وأحمد بن خضر ويه البلخي ، ومحمد بن فارس البلخي وعبد الله الخواص ، وأبو تراب النخشبي ، وحمدان بن ذي النون ، ومحمد بن مكارم الصفار ، وآخرون . واجتمع بالإمام أحمد ببغداد . قيل له علي ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال :علي خصال أربع :علمت أن رزقي لا يأكله غيري ، فاطمأنت به نفسي ، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتي بغتةً فأنا أبادره ، وعلمت أني لا أخلو عين الله ، فأنا أستحي منه . وعنه : من أصبح مستقيماً في أربع فهو بخير : التفقه ، ثم التوكل ، ثم الإخلاص ، ثم المعرفة . وعنه : تعاهد نفسك في ثلاث :إذا عملت فاذكر نظر الله إليك ، وإذا تكلمت ، فاذكر سمع الله منك ، وإذا سكت

إن أقواماً صلوا بالليل البارحة فلما أصبحوا نالوا منى، فتكون صـــلاتهم يوم القيامة فى ميزانى.

، فاذكر علم الله فيك . قال أبو تراب : سمعت حاتماً يقول : لي أربع نسوة ،وتسعة أولاد ، ما طمع شيطان أن يوسوس إلي في أرزاقهم . سمعت شقيقاً يقول :الكسل عون علي الزهد . وقال شقيق لحاتم : منذ صحبتني، أي شيء تعلمت مني ؟ قال : ست كلمات :رأيت الناس في شك من أمر الرزق ، فتوكلت علي الله . قال الله تعالي (وما من دابة في الأرض إلا علي الله رزقها) ورأيت لكل رجل صديقاً يفشي إليه سره ، ويشكو إليه ، فصادقت الخير ليكون معي في الحساب ، ويجوز معي في الصراط . ورأيت كل أحد له عدو ، فمن اغتابني ليس بعدوي ، ومن أخذ مني شيئاً ليس بعدوي ، بل عدوي من إذا كنت في طاعة الله ، أمرني بمعصية الله ، وذلك إبليس وجنوده ، فاتخذتهم عدواً وحاربتهم .ورأيت الناس كلهم لهم طالب ، وهو ملك الموت ، ففرغت له نفسي . ونظرت في الخلق ، فأحببت ذا ، وأبغضت ذا . فالذي أحببته لم يعطني ، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئاً ، فقلت من أين أتيت ؟ فإذا من هو الحسد فطرحته ، وأحببت الكل ، فكل شئ لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم. ورأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوي، ورأيت مأواي القبر، فكل شئ= = قدرت عليه من الخير قدمته لنفسي لأعمر قبري . فقال شقيق : عليك بهذه الخصال . قال أبو عبد الله الخواص :دخلت مع حاتم الأصم الري ، ومعنا ثلاثمائة وعشرون رجلاً نريد الحج ، عليه الصوف والزربنانقات ، ليس معهم جراب ولا طعام . ويروى عنه قال : أفرح إذا أصاب من ناظرني ، وأحزن إذا أخطأ وقيل : إن أحمد بن حنبل خرج إلي حاتم ، ورحب به ، وقال له :كيف التخلص من الناس ؟ قال أن تعطيهم مالك ، ولا تأخذ من مالهم ، وتقضي حقوقهم ، ولا تستقضى أحداً حقك ، و تحتمل مكروههم ، ولا تكرههم علي شئ ، وليتك تسلم . وقال أبو تراب : سمعت حاتماً يقول : المؤمن لا يغيب عن خمسة : عن الله ، والقضاء ، والرزق ، والموت ، والشيطان . وعن حاتم قال : لو أن صاحب خبر جلس إليك ، لكنت تتحرز منه وكلامك يعرض علي الله فلا تحترز! . قال الذهبي : هكذا كانت نكت العارفين وإشارتهم ، لا كما أحدث المتأخرين من الفناء والمحو والجمع الذي آل بجهلهم إلي الاتحاد وعدم السوي (الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ٩ / ٤٦٤-٤٦٦).

الأصل الرابع: السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان الثوري: "لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك". وقال آخر: **"لا تطلق لسانك فيفسد عليك شأنك"، ولله درّ القائل، رحمة الله عليه، ابن المبارك[١]:**

احْفَظْ لِسانَكَ لا تقولُ بغيبتي	**إنَّ البَلاءَ مُوكَّلٌ بالمنْطِقِ**
واحْفَظْ لِسانَكَ إنَّ اللسانَ	**سريْعٌ إلى المَرْءِ في قتْلِه**
وإن اللسانَ دَليلُ الفُؤاد	**يَدلُّ الرجالَ على غَفْلَةٍ**
فصنه عن الخِنا بِلجَامِ صَمْتٍ	**يَكُنْ لَكَ مِنْ بُنَيَّاتِ سِتاره[٢]**

وفي المثل السائر: رب كلمة تقول لصاحبها دعني".

والأصل الخامس: ذكر آفات الآخرة ، وعاقبتها ، وأذكر فيها نكتة واحدة، وهو[٣]لا يخلو أن يقول قولاً محظوراً حراماً، وقولاً مباحاً من فضول لا يعنيك، فإذا كان محظوراً ففيه عذاب الله الذي لا طاقة لك به، **وعن أبي قلابة[٤]** : "إن الغيبة خراب القلب من الهدى"، فنسأل الله العصمة بفضله ،

---

(١) هو : عبد الله بن المبارك : وقد مرّت ترجمته .

(٢) الأبيات من بحر الكامل (متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن).

(١) الحديث هنا بالمذكر لأنه يعود على الأصل الخامس، وهو مذكر.

(٢) أبو قلابة : هو عبد الله بن يزيد بن عمرو أو عامر بن نائل بن مالك ، الإمام ، شيخ الإسلام ، أبو قلابة الجرمي البصري وجَرْم بطن الحاف بن قضاعة ، قدم الشام وانقطع بداريا، وما علم الذهبي متي ولد، حدث عن ثابت بن الضحاك في الكتب كلها ، وعن أنس كذلك ، ومالك ابن الحويرث كذلك ، وعن حذيفة في سنن أبى داود – ولم يلحقه – وسمرة بن جندب في سنن النسائي ، وعبد الله بن عباس في سنن الترمذي ، وعنبسة

بن سعيد بن العاص في البخاري ومسلم ، وعن زهدم بن مضرب وعمة أبي لهب الجرمي ، وأبي الأشعث الصنعاني ، وأبى هريرة في سنن النسائي والترمذي ، وعن زهدم فى سنن النسائي ، ومعاذة العدوية ، وزينب بنت أم سلمة الجرمي في البخاري وسنن النسائي ، والنعمان بن بشير في أبي داود والنسائي ، وابن ماجة ، وقبيصة بين مخارق في أبي داود والنسائي ، وعن خلق سواهم . وهو يدلس ، وكان من أئمة الهدي . قال القاضي عبد الجبار بن محمد الخولاني في تاريخ داريا : مولد أبي قلابة بالبصرة ، وقدم الشام فنزل داريا وسكن بها عند ابن عمه بيهس بن صهيب بن عامل بن ناتل . قال عنة ابن سرين : ذاك أخي حقاً . وكان من الفقهاء ذوي الألباب أعلم الناس بالقضاء وأشدهم منه فراراً ، فقد ذكر أبو قلابة للقضاء ، فهرب حتى أتي اليمامة ، وقال : ما وجدت مثل القاضي العالم إلا مثل الرجل وقع في بحر فما عسي أن يسبح حتى يغرق . قال أيوب السختياني : رآني أبو قلابة وقد اشتريت تمراً رديئاً ، فقال: أما علمت أن الله قد نزع من كل رديء بركته . وقال = : ليس شيء أطيب من الروح ، ما انتزع من شيء إلا أنتن . وقال : تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم ، فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم ، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون . وقال : إذا حدثت الرجل بالسنة ، فقال : دعنا من هذا وهات كتاب الله ، فاعلم أنه ضال . ويروي أن أبا قلابة عطش وهو صائم فأكرمه الله لما دعا ، بأن أظلته سحابة وأمطرت على جسده ، فذهب عطشه . ومن أمثلة الأحاديث التي رواها أبو قلابة هذا الحديث : قال رسول الله -ﷺ- :" أرحمُ أُمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياءً عثمان ، وأقرأهم لكتاب الله أبى بن كعب ، وأفرَضُهُم زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ألا وإن لكل أمة أميناً ، ألا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"وهذا حديث صحيح . وقد أخبرني عبد المؤمن – شيخ الذهبي – أن أبا قلابة ممن ابتلى في بدنه ودينه ، أريد على القضاء ، فهرب إلى الشام ، فمات بعريش مصر سنة أربع ومائة، وقيل سنة خمس أو ست أو سبع ومائة وقد ذهبت يداه ورجلاه ، وبصره ، وهو مع ذلك حامد شاكر . (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٨٠ – ٣٨٤) .

هذا كلام فى المحظور.

وأما المباح ففيه أربعة أمور، أحدها: شغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه ولا فائدة، وحق للمرء أن يستحى منهما فلا يؤذيهمـــا، قـــال الله سبحانه: "**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**"(١). **والثانى:** إرسال كتاب إلى الله تعالى <خالى>(٢) من اللغو والهذر، فليحذر العبـــد مـــن ذلـــك، وليخشى الله عز وجل، وذُكر أن بعضهم رُؤِىَ ينظر إلى رجل يتكلم [فى الخفاء](٣) فقال: "يا هذا إنما تملى كتاباً إلى ربك، فانظر مـــاذا تملّـــى". **والثالث:** قراءته يوم القيامة على رءوس الأشهاد، بين يدى الملك الجبار، بين الشدائد والأهوال، عطشان، جوعان، عريان، منقطعـــا عـــن الجنـــة محبوساً عن النعمة. **والرابع:** اللوم والتعبير بما قلت، وانقطاع الحجـــة، والحياء من رب العزّة، وقد قيل: "إياك والفضول، فإن حسابه يطـــول". وكفى بهذه الأصول واعظاً لمن اتعظ، وقـــد بـــسطت كتـــاب: "**أســـرار معاملات الدين**"(٤) ما فيه مقنع، فانظر فيه تجد الشفاء.

---

(١) سورة ق، آية ١٨.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) ط : بالخفا.

(٤) كتاب أسرار معاملات الدين: مرّ ذكره ى بداية الكتاب .



الفصـــل الرابـــع: الـــقَـــلْـــب

ثم عليك بحفظ القلب وإصلاحه، والنظر فى ذلك، وبذل المجهود، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطراً، وأدقها أمراً، وأشقها إصلاحاً، وأذكر فيه خمسة أصول مقنعة.

الأصل الأول: "يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور"[(١)] كم ذكره وكرره فى القرآن، فكفى بإطلاع العليم الخبير تحذيراً وتهديداً للخـــواص من العباد، لأن المعاملة مع علام الغيوب خطيرة، فانظر ماذا تعلم مـــن قلبك.

الأصل الثانى: القلب موضع نظر رب العالمين، فيا عجبـــاً لمـــن يهتم بالوجه الذى هو منظر الخلق، فيغسله وينظفه من الأقذار والأدناس، ويزينه بما أمكنه، لئلا يطلع عليه مخلوق على عيب، ولا يهـــتم بالقلـــب الذى هو محل نظر رب العالمين، فيطيبه ويزينه كيلا يطلع الرب جـــلّ ذكره على دنس وشين وآفة وعيب، بل[(٢)] يهمله بفضائح وأقذار وقبـــائح، لو أطلع الخلق على واحد منها لهجروه، وتبرأوا منـــه وطـــردوه، والله المستعان.

الأصل الثالث: إن القلب ملك مطاع، ورئيس متبـــع، والأعـــضاء كلها له تبع، فإذا صلح المتبوع صلح التبع، وإذا استقام الملك اســـتقامت الرعية، بَيَّن ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وســـلم: **"ألا إن فـــى**

---

(١) سورة غافر، آية ١٩.

(٢) + ط : بل.

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب"، وإذا كان صلاح الكل فى ذلك، وجب صرف العناية إليه.

والأصل الرابع: إن القلب خزانة كل جوهر لعقد نفيس، وكل معنى خطير، أولها العقل، وأجلها معرفة الله عز وجل، ثم النية الصالحة فى الطاعات، التى بها يتعلق ثواب العبد، ثم أنواع العلوم والحكم التى هى شرف العبد، وسائر الأخلاق الشريفة، والخصال التى بها تفاضل الرجال على ما فصلنا، وشرحنا فى كتاب: "**أسرار معاملات الدين**"، وحق لمثل هذه الخزانة أن تحفظ، وتصان عن الأدناس والآفات، وتحرّس من السُرَّاق والقُطَّاعِ، وتلزم وتحصن بضروب الكرامات، لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس، ولا يظفر بها، والعياذ بالله تعالى، عدو.

والأصل الخامس: إنى تأملت حاله، فوجدت له خمسة أحوال، ليس لغيره من أعضاء ابن آدم، **إحداها:** أن العدو قاصد له، [مقبل][(١)] عليه، ملازم له، فإن الشيطان جاثم على قلب العبد، فهو <فى>[(٢)] منزلة الإلهام والوسوسة، يقرعانه أبداً بالدعوتين، الملك والشيطان. **والثانى:** إن الشغل له أكبر، فإن الهوى والعقل وكلاهما فيه، فهو معترك العسكرين، الهوى وجنوده، والعقل وجنوده، فهو أبداً بين تحاببهما، ولقائيهما وتنقاضهما، وحُقَّ بالنفر أن يحرس ويحسن ولا يغفل. **والثالث:** العوارض له أكثر، فإن الخواطر كالسهام، ولا تزال تقع فيه كالمطر، لا

---

(١) ط: مقببل.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

يزال يمطر عليه ليلاً ونهاراً، لا ينقطع، ولا أنت تقدر على منعها فيمتنع، وليس كالعين التى بين جفنين، تغمض وتستريح، أو تكون فى موضع خالٍ، أو ليل مظلم، فَتُكْفَى رؤيتها، أو اللسان الذى هو وراء الحجابين، الأسنان والشفتين، وأنت القادر على منعه وتسكينه. بل أن القلب عرض للخواطر، لا يقدر على منعها، والتحفظ عنها بحال، ولا هى تنقطع عنك بوقت، ثم النفس مسارعة إلى اتباعها، والامتناع عن ذلك فى مجهود الطاعات أمر شديد، ومحنة عظيمة. **والرابع:** إن علاجه عليك عسير، إذ هو غيب عنك، فلا تكاد تشعر حتى تدب فيه آفة، وتحدث له حاله، فتحتاج أن تبحث عن ذلك أتمّ البحث، بطول الجهد، ودقيق النظر، وكثرة الرياضة.

والخامس: إن الآفات إليه أسرع، فهو للانقلاب أقرب، فلقد قيل: "القلب أكثر انقلاباً من القِدر فى غليانها".

ثم إن القلب والعياذ بالله فز لله عظيم، ووقوعه أصعب وأفظع، أدناه قسوة، وميل إلى غير الله سبحانه وتعالى، ومنتهاه ختم ونكرة بالله عز وجل، أما تسمع قوله تعالى: "**ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه**"[1]، فكان الميل، واتباع الهوى، فحمله ذلك الذنب المشئوم بنفسه، أما تسمع قوله تعالى: "**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون**"[2]، ولهذا المعنى – أيها الرجل – خاف عباد الله الخواص على قلوبهم وبكوا عليها، وصرفوا عنايتهم إليها، قال تعالى: "**يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار**"[3]، جعلنا الله وإياكم

(١) سورة الأعراف، آية ١٧٦.

(٢) سورة الأنعام، آية ١١٠ .

(٣) سورة النور، آية ٣٧.

من المعتبرين بالعبر، المهّمين بمواضع الخطر، الموفقين لإصلاحها بحسن النظر، إنه أرحم الراحمين.

فإن قيل: إن هذا القلب لمهم جداً، فأخبرنا عن المعانى التى تصلحه، وعن الآفات التى تعترضه فتفسده عسى أن يوفق بالاجتهاد العمل بذلك. يقال له: إعلم أن تفصيل كل هذه المعانى تطويل لا يحتمله الكتاب، وإنما علماء الآخرة عنوا باستخراج ذلك [وتصنيفه] [١] فى هذه النكتة لا غير، وقد ذكروا فيما يحتاج إليه من ذلك نحو سبعين خصلة محمودة، فى أضدادها المذمومة، ثم من الأفعال والمساعى الواجبة والمحظورة، نحو ذلك فى سائر تفاصيلها، ولعمرى أن مَنْ أهمه أمر دينه، وانتبه من رقدة الغافلين، فنظر لنفسه، فلا يكون تحصيل ذلك والعمل به كثيراً إذا وفقه الله تعالى.

وقد ذكرنا نبذة منها فى شرح عجائب القلب، من "إحياء علوم الدين"، وأتينا على شرح جميعها بتفاصيلها، وكيفية معالجتها فى كتاب: "أسرار معاملات الدين"، وهو كتاب مستقل بنفسه وعظيم الفائدة، ولا ينتفع <به>[٢] إلا مخول العلماء الراسخين فى علم الآخرة، وموضوع هذا الكتاب أن ينفع به المبتدئ القوىّ والضعيف، فنظرنا فى الأصول التى لابد من ذكرها فى علاج القلب، والحاجة إليها ماسَّة، وما غنية عنها البتة فى شأن العبادة، فوجدنا أربعة أمور، وهى مداحض العابدين، وآفات المجتهدين، وهن فتن القلب، [وبليات][٣] النفوس، تعوق وتشين وتتلف

---

(١) ط : وتصنيفها .

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ط : وبلبات.

وتفسد، وأربعة فى مقابلتها فيها قوام العباد، وانتظام العبـادة، وإصـلاح القلوب.

فالآفات الأربع: الأمل والحسد والاستعجال والكبـر، **والمناقـب الأربع:** قصر الأمل، والتأنى فى الأمور، والنصيحة للخلق، والتواضـع والخشوع، فهذه هى الأمور فى صلاح القلب وفساده، والنكت التى عليها المدار، فلنبذل المجهود فى التَّحَذُّر من هذه الآفـات، والتحـصُّل لهـذه المناقب، تُكْفَ المؤن، وتظفر بالمقصود وإن شاء الله تعالى[(١)]، سأخبرك عن هذه الآفات بكلمات وجيزة مقنعة.

أما طول الأمل: فإنه العائق عن كل خير وطاعة، [والجالـب][(٢)] لكل شر وفتنة، وإنه الداء العضال، الذى يوقع فى أنواع التطلعات، واعلم أنك إذا طال أملك هاج لك منه أربعة أشياء، **أحدها:** ترك الطاعة والكسل فيها، تقول غداً سوف أفعل، والأيام بين يدىّ، ولا يفوتنى ذلـك، ولقـد صدق بعضهم حيث يقول: "من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله، وقال **يحيى بن معاذ الرازى**[(٣)] (رحمه الله): "الأمل مانع من كل خير، والطمع مانع من كل حق، والصبر صائر إلـى كـل ذى ظفر، والنفس داعية إلى كل شرّ". **والثانى:** ترك التوبة وتسويفها، تقول: سوف أتوب، وفى الأيام سعة، وأنا شاب، وسنى قليل، والتوبة بين يدىّ، وأنا قادر عليها متى ما رمتها، ورجى اغتسال الحمام علـى الاحتـراز،

---

(١) + ط : و .

(٢) ط : الجلب.

(٣) يحيى بن معاذ الرازى، مرّت ترجمته.

واختطفه الأجل قبل إصلاح العمل.

والثالث: الحرص على الجمع، والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، تقول أخاف الفقر فى الكبر، وربما أضعف عن الاكتساب، ولابدّ لى من شئ فاضل أدَّخِرْه لمرض أو هرم أو فَقْد، هذا أو نحوه يحرك إلى الرغبة فى الدنيا والحرص عليها، والاهتمام بالرزق، تقول: أى شئ أكل، وأى شئ ألبس[1] هذا الشتاء، وهذا الصيف، ومالى شئ، ولعل العمر يطول، فأحتاج، والحاجة مع الشيب شديدة، ولابد لى من قوت وغِنْيَة عن الناس، هذه وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا، والرغبة فيها، والجمع لها، والمنع لما عندك منها، وأقل ما فى الباب يشغل قلبك، ويضيع عليك وقتك، ويكثر همّك وغمّك بلا فائدة، ولا طائل، على ما روى عن **أبى ذر**[2] -

---

(١) + ط: و.

(٢) أبو ذر، هو: أبو ذر الغفاري . اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً ، فقيل : جندب بن جنادة ، وهو أكثر وأصح ما قيل فيه ، وقيل برير بن عبد الله ، وبرير بن جنادة ، وبريرة بن عشرقة ، وقيل : جندب بن عبد الله ، وقيل : جندب بن سكن . والمشهور جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صغير بن حرام بن غفار . وقيل : جندب بن جنادة بن سفيان ابن عبيد بن حرام بن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة الغفاري . وأمه رملة بنت الوقعية . من بني غفار أيضاً . وكان أبو ذر من كبار الصحابة وفضلائهم ، قديم الإسلام . يقال : أسلم بعد أربعة وكان خامساً ، ثم انصرف إلي بلاد قومه وأقام بها ، حتى قدم علي رسول الله ﷺ المدينة . وعن ابن عباس قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلي هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ثم ائتني . فانطلق الأخ حتى قدم وسمع قوله ، ثم رجع إلي أبي ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر . فقال : ما شفيتني مما أردت . فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتي المسجد ، فالتمس النبي ﷺ وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض

الليل ، فاضطجع فرآه علي ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده إلي المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسي، فعاد إلي مضجعه فمر به علي فقال : ما آن للرجل أن يعلم منزله ؟= = فأقامه فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فأقامه علي معه ثم قال :ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت . ففعل ، فأخبره قال : إنه حق ، وإنه رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي . ففعل ، فانطلق يقفوه حتى دخل علي النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه . فقال النبي ﷺ ارجع إلي قومك فأخبرهم متى يأتيك أمري . قال والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد فنادي بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتي العباس فأكب عليه وقال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه طريق تجاركم إلي الشام ؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها ، فضربوه وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه . وقال النبي ﷺ :" أبو ذر في أمتي علي زهد عيسى بن مريم " . وقال علي : وعي أبو ذر علماً عجز الناس عنه ، ثم أوكي (الوكاء هو الخيط الذي يشد به الكيس أو الصرة) عليه فلم يخرج منه شيئاً . وعن ابن مسعود قال : لما سار رسول الله ﷺ إلي تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان . فيقول دعوه ، إن يكن فيه خيراً فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه . حتى قيل : يا رسول الله ، تخلف أبو ذر . فقال رسول الله ﷺ ما كان يقوله ، فتلوم (أي تمهل) أبو ذر علي بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله علي ظهره ، ثم خرج يتبعه رسول الله ﷺ ماشياً ، ونظر ناظر من المسلمين فقال : إن هذا الرجل أبو ذر الغفاري . اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً ، فقيل : جندب بن جنادة ، وهو أكثر وأصح ما قيل فيه ، وقيل برير بن عبد الله ، وبرير بن جنادة ، وبريرة بن عشرقة ، وقيل : جندب بن عبد الله ، وقيل : جندب بن سكن . والمشهور جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صغير بن حرام بن غفار . وقيل : جندب بن جنادة بن سفيان ابن عبيد بن حرام بن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة الغفاري . وأمه رملة بنت الوقعية . من بني

غفار أيضاً . وكان أبو ذر من كبار الصحابة وفضلائهم ، قديم الإسلام . يقال : أسلم بعـد أربعة وكان خامساً ، ثم انصرف إلي بلاد قومه وأقام بها ، حتى قدم علي رسـول الله ﷺ المدينة . وعن ابن عباس قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلي هـذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من = = قوله ثم ائتني . فانطلق الأخ حتى قدم وسمع قوله ، ثم رجع إلي أبي ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر . فقال : ما شفيتني مما أردت . فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتي المسجد ، فالتمس النبي ﷺ وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل ، اضطجع فرآه علي ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده إلي المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسي ، فعاد إلي مضجعه فمر به علي فقال : ما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فأقامه علي معه ثم قال :ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت . ففعل ، فأخبره قال : إنه حق ، وإنه رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي . ففعل ، فانطلق يقفوه حتى دخل علي النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه . فقال النبي ﷺ ارجع إلي قومك فأخبره محتى يأتيك أمري . قال والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد فنادي بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتي العباس فأكب عليه وقال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه طريق تجاركم إلي الشام ؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها ، فضربوه وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه . وقال النبي ﷺ :" أبو ذر في أمتي علي زهد عيسى ابن مريم " . وقال علي : وعي أبو ذر علماً عجز الناس عنه ، ثم أوكي (الوكاء هو الخيط الذي يشد به الكيس أو الصرة) عليه فلم يخرج منه شيئاً . وعن ابن مسعود قال : لما سار رسول الله ﷺ إلي تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان . فيقول دعوه ، إن يكن فيه خيراً فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه . حتى قيل : يا رسول الله ، تخلف أبو ذر . فقال رسول الله ﷺ ما كان يقوله ، فتلوم (أي

تمهل) أبو ذر علي بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله علي ظهره ، ثم خرج يتبعه رسول الله ﷺ ماشياً ، ونظر ناظر من المسلمين فقال : إن هذا الرجل يمشي علي الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، وهو والله أبو ذر . فقال رسول الله ﷺ :" يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويحشر وحده ". فضرب الدهر من ضربه، وتوفي أبو ذر سنة إحدى وثلاثين أو أثنين وثلاثين ، وسير إلي= = الربذة وصلي عليه عبد الله بن مسعود ، ثم مات بعده في ذلك العام (راجع ، ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥ / ٩٩ – ١٠١). أبو ذر الغفاري . اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً ، فقيل : جندب بن جنادة ، وهو أكثر وأصح ما قيل فيه ، وقيل برير بن عبد الله ، وبرير بن جنادة ، وبريرة بن عشرقة ، وقيل : جندب بن عبد الله ، وقيل : جندب بن سكن . والمشهور جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صغير بن حرام بن غفار . وقيل : جندب بن جنادة بن سفيان ابن عبيد بن حرام بن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة الغفاري . وأمه رملة بنت الوقعية . من بني غفار أيضاً . وكان أبو ذر من كبار الصحابة وفضلائهم ، قديم الإسلام . يقال : أسلم بعد أربعة وكان خامساً ، ثم انصرف إلي بلاد قومه وأقام بها ، حتى قدم علي رسول الله ﷺ المدينة . وعن ابن عباس قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلي هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ثم ائتني . فانطلق الأخ حتى قدم وسمع قوله ، ثم رجع إلي أبي ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر . فقال : ما شفيتني مما أردت . فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتي المسجد ، فالتمس النبي ﷺ وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل ، اضطجع فرآه علي ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده إلي المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسي ، فعاد إلي مضجعه فمر به علي فقال : ما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك فأقامه علي معه ثم قال :ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت . ففعل ، فأخبره قال : إنه حق ، وإنه رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق

رحمه الله– أنه قال: "قَتَلَنِي همٌّ يومٍ لم أدركه، قيل: وكيف ذلك يا أبا ذر؟ قال: من أملى جاوز أجلي".

الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي . ففعل ، فانطلق يقفوه حتى دخل علي النبي ﷺ ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه . فقال النبي ﷺ ارجع إلي قومك فأخبره محنى يأتيك أمري . قال والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد فنادي بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتي العباس فأكب عليه وقال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه طريق تجاركم إلي الشام ؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا= = إليه ، فأكب العباس عليه . وقال النبي ﷺ :" أبو ذر في أمتي علي زهد عيسى ابن مريم " . وقال علي : وعي أبو ذر علماً عجز الناس عنه ، ثم أوكي (الوكاء هو الخيط الذي يشد به الكيس أو الصرة) عليه فلم يخرج منه شيئاً . وعن ابن مسعود قال : لما سار رسول الله ﷺ إلي تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان . فيقول دعوه ، إن يكن فيه خيراً فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه . حتى قيل : يا رسول الله ، تخلف أبو ذر . فقال رسول الله ﷺ ما كان يقوله ، فتلوم (أي تمهل) أبو ذر علي بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله علي ظهره ، ثم خرج يتبعه رسول الله ﷺ ماشياً ، ونظر ناظر من المسلمين فقال : إن هذا الرجل يمشي علي الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، وهو والله أبو ذر . فقال رسول الله ﷺ :" يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويحشر وحده ". فضرب الدهر من ضربه ، وتوفي أبو ذر سنة إحدى وثلاثين أو أثنين وثلاثين ، وسير إلي الربذة وصلي عليه عبد الله بن مسعود ، ثم مات بعده في ذلك العام (راجع ، ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥ / ٩٩ – ١٠١). يمشي علي الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذر . فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر . فقال رسول الله ﷺ :" يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويحشر وحده ". فضرب الدهر من ضربه ، وتوفي أبو ذر سنة إحدى وثلاثين أو أثنين وثلاثين ، وسير إلي الربذة وصلي عليه عبد الله بن مسعود ، ثم مات بعده في ذلك العام (راجع ، ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥ / ٩٩ – ١٠١ بتصرف).

والرابع: القسوة فى القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا تأملت العيش الطويل، لا تذكر الموت والقبر، كما قال **على بن أبى طالب**[1] (رضى الله عنه): "أخوف ما أخاف عليكم اثنان: طول الأمل، واتباع الهوى، ألا وإن طول الأمل يُنْسى الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق"، فإذن يصير فكرك ومعظم قلبك فى حديث الدنيا، وأسباب العيش فى صحبة الخلق ونحوها، ويفسد القلب من ذلك، وإنما رقة القلب وصفوته إنما هو بذكر الموت والقبر والثواب والعقاب، وأحوال الآخرة، وإذا لم يكن شئ من ذلك، فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة؟، قال تعالى: "**فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم**"[2]، فإنك إذا طوّلت أملك، قلّت طاعتك، وتأخرت توبتك، وتكثرت معصيتك، واشتد حرصك، وقسى قلبك، وعظمت غفلتك عن العاقبة، فذهبت والعياذ بالله – إن لم [يرحمك][3] الله تعالى – آخرتك، فأى حال أسوأ من هذه؟، وأى آفة أعظم من هذه؟، وكل هذا بسبب طول الأمل.

وأما إن قصرت أملك، وقربت من نفسك موتك، وتذكرت حال أقرانك وإخوانك الذين عانقهم الموت فى وقت لم يحسبوا، ولعل حالك مثل حالهم، قلت: فاحذرى يا نفس الغرور، واحذرى فيما قال **عبد الرحمن بن عوف**[4] –رحمه الله–: "كم من مستقبلٍ يوماً لم يستكمله،

---

(١) على بن أبى طالب : وقد مرّت ترجمته .

(١) سورة الحديد، آية ١٦.

(٢) ط: يرحم.

(٣) عبد الرحمن بن عوف، هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشي الزهري يكنى أبا محمد . كان أسمه في الجاهلية : عبد

عمرو ، وقيل : عبد الكعبة ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن . وأمه الشفا بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة . ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، وأسلم قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلي الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا علي يد أبي بكر . وكان من المهاجرين الأولين ، هاجر إلي الحبشة ، وإلي المدينة . وآخي رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه رسول الله إلي دومة الجندل ، وعممه بيده وسدلها بين كتفيه . وقال له : إن فتح الله عليك فتزوج ابنة ملكهم أو قال شر يفهم وكان الأصبغ بن ثعلبة بن ضمضم الكلبي شر يفهم،= = فتزوج ابنته تماضر بنت الأصبغ ، فولدت له أبا سلمة بن عبد الرحمن . وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة المشهود لهم بالشورى ، الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة فيهم ، وأخبر أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض . وجرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة . وجرح في رجله فكان يعرج منها ، وسقطت سنّتيه فكان أهتم . وكان كثير الإنفاق في سبيل الله ، عز وجل ، أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً . حدث سعيد بن زيد حدثه في نفر أن رسول الله ﷺ قال : عشرة في الجنة : أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة ، وعلي ، وعثمان، والزبير ، و طلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص ، قال : فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر فقال القوم : ننشدك الله من العاشر ؟ قال نشد تموني بالله ، أبو الأعور في الجنة " قال هو سعيد بن يزيد بن عمرو بن نفيل . وعن : أنس أن رسول الله ﷺ آخي بين المهاجرين والأنصار ، وآخي بين سعيد بن الربيع وبين عبد الرحمن بن عوف ، قال له سعد : إن لي مالاً فهو بيني وبينك شطران ، ولي امرأتان فانظر أيتها أحببت حتى أخالعها ، فإذا حلت فتزوجها . فقال : لا حاجة لي في أهلك ومالك ، بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني علي السوق ، فكان يشتري السمينة والأقيطة والإهاب ، فجمع فتزوج ، فأتي النبي ﷺ فقال :" بارك الله لك ، أولم ولو بشاة " وصار عبد الرحمن بن عوف عظيم التجارة ذو حظ كبير فيها ، فكثر ماله ، حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق والطعام ، فلما دخلت المدينة ، سمع لأهلها رجة ، فقالت عائشة ما هذه الرجة ؟ فقيل لها : عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف ، فقالت عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً " فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، قال : يا أمه إني أشهدك أنها بأجمالها وأحلاسها(الحلس هو الكساء الذي يلي

ظهر البعير) وأقتابها في سبيل الله عز وجل . وقال النبي ﷺ : " عبد الرحمن بن عوف أمين في السماء ، أمين في الأرض " ولما توفي عمر ﷺ ، قال عبد الرحمن بن عوف لأصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم : من يخرج نفسه منها ، ويختار للمسلمين؟ فلم يجيبوه إلي ذلك، فقال : أنا أخرج نفسي من الخلافة وأختار للمسلمين ، فأجابوه إلي ذلك وأخذ مواثيقهم عليهم ، فاختار عثمان فبايعه . وروي معمر عن الزهيري قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف علي عهد رسول ﷺ بشطر ماله أربعة ألف ، ثم تصدق بأربعين ألف ، ثم تصدق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل علي خمسمائة فرس في سبيل الله ، ثم حمل علي خمسمائة راحلة في سبيل الله . وروي حميد ، عن أنس، قال :=
= كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال" دعوا لي أصحابي ، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك أحدكم مد أحدهم ولا نصفية " وهذا إنما كان بينهم لما سير رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلي بني جذيمة بعد فتح مكة ، فقتل فيهم خالد خطاء ، فودي رسول الله ﷺ القتلى ، وأعطاهم ثمن ما أخذ منهم . وكان بني جذيمة قد قتلوا في الجاهلية " عوف بن عبد عوف " والد عبد الرحمن بن عوف ، وقتلوا الفاكة بن لمغيرة عم خالد ، فقال عبد الرحمن : إنما قتلتهم لأنهم قتلوا عمك . وقال : خالد : إنما قتلوا أباك ، وأغلظ في القول ، فقال النبي ﷺ ما قال. وأن رسول الله ﷺ لما أنتهي إليه عبد الرحمن بن عوف وهو يصلي بالناس أراد عبد الرحمن أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ : أن مكانك ، فصلي ، وصلي رسول الله ﷺ لصلاة عبد الرحمن . روي عنه بن عباس ، وابن عمر ، وجابر، وأنس وجبير بن مطعم ، وبنوه : إبراهيم ، وحميد ، وأبو سلمة ومصعب أولاد عبد الرحمن ، و الميسور بن مخرمة ، وهو ابن أخت عبد الرحمن ، وعبد الله بن عام بن ربيعة ، ومالك بن أوس بن الحدثان ، وغيرهم . وتوفي سنة إحدى وثلاثين بالمدينة ، وهو ابن خمسة وسبعين سنة وأوصي بخمسين ألف دينار في سبيل الله ، قال عروة بن الزبير ، وقال الزهيري : أوصي عبد الرحمن لمن بقي ممن شهد بدر ، لكل رجل أربعمائة دينار ، وكانوا مائة فأخذوها ، وأخذها عثمان فيمن أخذ : وأوصي بألف فرس في سبيل الله . ولما مات قال علي بن أبي طالب : " اذهب يا بن عوف قد أدركت صفوها ، وسبقت رنقها " وكان سعد بن أبي وقاص فيمن حمل جنازته ، وهو يقول : واجبلاه . وخلف مالاً

ومنتظر غداً لم يبلغْه، لو نظرتم الأجل ومصيره، لأبغضتم الأجل وغروره"، أما سمعت قول عيسى -عليه السلام-: "الدنيا ثلاثة أيام: **أمس مضى بيدك منه شئ، وغدٌ لا تدرى، أتدركه أم لا ، ويومك أنت فيه فاغتنمه**"، ثم قول أبى ذر -رضى الله عنه-: "الدنيا "ثلاث ساعات: ساعة مضت، وساعة أنت فيها، وساعة لا تدرى أتدركِها أم لا"، فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة، إذ الموت من ساعة إلى ساعة، ثم قول شيخنا -رضى الله عنه-: "الدنيا ثلاثة أنفاس: نفس مضى عملت فيه ما عملت، ونفس أنت فيه، ونفس لا تدرى أتدركِه أم لا"، إذ كم من تنفس نفساً، فجاءه الموت قبل النفس الآخر، فلست تملك إلا نفساً واحداً، لا ساعة، ولا يوماً"[1]، فبادر فى هذا النفس الواحد إلى الطاعة، قبل أن يفوت، وإلى التوبة، فلعلك فى النفس الثانى تموت، ولا تهتمّى يا نفس بالرزق فلعلك لا تبقين لتحتاجى إليه، فيكون وقتك ضائعاً، والهمّ فضل، وما عسى أن يهتم الإنسان [بيوم] [2] واحد، أو ساعة واحدة، أو نفس واحد.

عظيماً ، من ذلك ذهب قطع بالفئوس ، حتى مجلت (أي ظهر فيها ما يشبه البثور)، وترك ألف بعير، ومائة فرس ، وثلاثين ألف شاة ترعي بالبقيع (راجع ، ابن الأثير أسد الغابة ، في معرفة الصحابة ، ٣ / ٣٧٥- ٣٨٠ بتصرف).

(١) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من: ثلاث ساعات: ساعة مضت، وساعة أنت فيها، وساعة لا تدرى أتدركها أم لا.. إلى قوله: فلست تملك إلا نفساً واحداً، لا ساعة، ولا يوماً. مقروءة بصعوبة بالغة فى المخطوط .

(٢) ط : ليوم .

فإذا أنت أيها الرجل – تذكرت – هذه الأركان، [وواظبت][1] على ذلك، بالإعادة والتكرار، قصر أملك بأذن الله تعالى، فحينئذ ترى نفسك تبادر إلى الطاعة، وتعجل توبتك فتسقط عنك معصيتك، وتزهد في الدنيا وطلبها، فيخف حسابك [وتبعث] [2] في قلبك ذكر الآخرة وأهوالها، وما هو من نفس إلى نفس، [فتصير] [3] إليها، وتعانيها واحداً فواحداً، فتزول عنك القسوة، وتبدو لك الصفوة والرأفة، وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشية، فيستقيم لك امر عبادتك، ويقوى الرجاء في أن تسعد في عاقبتك، وتظفر بالمراد في آخرتك، وكل هذا بعد فضل الله تعالى بسبب هذه الخصلة التي هي قصد الأمل.

ولقد حكى أن **زرارة بن أوفى**[4] –رحمه ال–له قيل له في النوم

---

(١) ط: وواظبت.

(٢) ط : وتبعثك ، والمقصود : الطاعة .

(٣) ط : تصبر ، والمقصود ، الآخرة .

(٤) زراره بن أوفى، هو: الإمام الكبير ، قاضي البصرة أحد الأعلام (ت ٩٣) . سمع من عمران بن حصين ، وأبا هريرة ، وابن عباس . وروى عنه أيوب السختياني ، و قتادة ، وبهز بن حكيم ، والأعرابي ، وآخرون . وثقه النسائي وغيره . وعن قتادة ، عن زرارة ابن أوفي ، عن ابن عباس ، قال : سأل رجل النبي –ﷺ– : أي العمل أحب إلي الله ؟ فقال : " الحال المرتحل " . قال : يا رسول الله ، وما الحال المرتحل ؟ قال : "صاحب القرآن ، يضرب في أوله حتى يبلغ آخره وفي آخره حتى يبلغ أوله " وكذا رواه يعقوب الحضرمي ، وزيد بن الحباب ، عن صالح ، وهو لين والحديث ضعيف أخرجه الطبراني في " الكبير " (١٢٧٨٣) . وصح أن زراة بن أوفي قرأ في صلاة الفجر فلما قرأ : (فإذا نقر في الناقور) خر ميتاً وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين . (راجع ،الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٤١٣) .

بعد موته: "أى الأعمال أبلغ فيما عندكم؟، قال: الرضا وقصر الأمل"، فانظر لنفسك أيها الأخ، وابذل المجهود فى هذا الأصل الكبير، فإنه المهم والأعظم فى صلاح الأمر والنفس، والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته.

وأما الحسد فإنه المفسد للطاعات، الباعث على الخطيئات، وأنه الداء الكبير الذى يُبتَلَى به الكثير من القراء والعلماء، فضلاً عن العامّة والجهال حتى أهلكهم، وأوردهم النار، أما تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ستة يدخلون النار بستة: العرب بالعصبية، والأمراء بالجور، والدهاقين بالكبر، والتجار بالخيانة ، والرسّائين والفقراء بالجهل، والعلماء بالحسد"**[1] وإن بلَيَّة بلغ شؤمها أن أوردت العلماء النار، لحقيق أن يحذر منها.

واعلم أن الحسد يهيج خمسة أشياء، **أحدها:** إفساد الطاعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"**[2].

---

(١) السبكى الأحاديث التى لا أصل لها فى الأحياء، ٣٤٤/١.
- محمد طاهر بن على الفتن، تذكرة الموضوعات، جـ ١، ص ٢٤.

(٢) حدثنا هارون بن عبد الله الجمال، وأحمد بن الأزهر، قال: ثنا بن أبى فديك، عن عيسى بن أبى عيسى الحناط، عن أبى الزناد، عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والصيام جُنة من النار"، (سنن ابن ماجه ١٤٠٨/٢).
- حدثنا عثمان بن صالح البغدادى، ثنا أبو عامر يعنى عبد الملك عمرو، ثنا سليمان بن بلاب عن إبراهيم بن أبى أسيد عن جده، عن أبى هريرة أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب" (سنن أبى داود ٢٧٦/٤).

والثاني: فعل المعاصي والشرور، على ما قاله **وهب بن منبه**[1]

---

(١) وهب بن منبه، هو: الأسوار الإمام ، العلامة الأخباري القصصي ، أبو عبد الله الانباوى ، اليماني الذمارى الصنعاني ، أخو همام بن منبه ، ومعقل بن منبه ، وغيلان بن منبه . مولده في زمان عثمان سنة أربع وثلاثين ، ورحل وحج . وأخذ عن : ابن عباس ، وأبى هريرة – إن صح – وأبى سعيد ، والنعمان بن بشير ، وجابر ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص –على خلاف فيه – وطاوس . ء حدث عنه ولداه : عبد الله وعبد الرحمن ، وغيرهما مثل: عمرو بن دينار ، وسماك بن الفضل ، وعوف الأعرابي ، والمنذر بن النعمان ، وابن أخيه عقيل بن معقل ، وخلق سواهم . وروايته للمسند قليلة ، وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات ، ومن صحائف أهل الكتاب . وهو تابعي ثقة ، كان على قضاء صنعاء ، وقال أبو زرعة والنسائي : ثقة .وعن كثير ، أنه سار مع وهب، = = فباتوا بصعدة عند رجل ، فخرجت بنت الرجل فرأت مصباحاً، فاطلع صاحب المنزل فنظر إليه صافا قدميه في ضياء كأنه بياض الشمس ، فقال الرجل : رأيتك الليلة في هيئة ، وأخبره فقال : اكتم ما رأيت . وقال المثنى بن الصباح ، قال : لبث وهب بن منبه أربعين سنة لم يسب شيئاً فيه الروح ، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً . قال وهب : لقد قرأت ثلاثين كتاباً نزلت على ثلاثين نبياً. وروى عبد الرزاق بن همام ، عن أبيه ، قال : رأيت وهبا إذا قام في الوتر قال : لك الحمد السرمد ، حمداً لا يحصيه العدد ، ولا يقطعه الأبد ، كما ينبغي لك أن تحمد ، وكما أنت له أهل ، وكما هو لك علينا حق . وقيل لوهب : إنك يا أبا عبد الله كنت ترى الرؤيا ، فتحدثنا بها فتكون حقاً !قال هيهات ، ذهب ذلك عني منذ وليت القضاء . وعنه : الدراهم خواتيم الله في الأرض ، فمن ذهب بخاتم الله قضيت حاجته . قال عمرو بن دينار ، دخلت على وهب داره بصنعاء ، فأطعمني من جوزة في دارة ، فقلت له وددت أنك لم تكن كتبت في القدر كتاباً فقال : وأنا والله . وعن عبد الرزاق ، سمعت أبى يقول : حج عامة الفقهاء سنة مائة ، فحج وهب ، فلما صلوا العشاء ، أتاه نفر فيهم عطاء والحسن ، وهم يريدون أن يذاكرونه القدر ، قال : فافتن في باب من الحمد ، فما زال فيه حتى طلع الفجر ، فافترقوا ولم يسألوه عن شيء . قال أحمد : اتهم بشيء منه ورجع . وقال العجلي : رجع . وقال وهب : كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء ، في كلها : من جعل إلى نفسه شيئاً من

-رحمه الله-: "للحاسد ثلاث علامات: يتملّق إذا شهد، ويغتاب إذا غاب،

المشيئة فقد كفر ، فتركت قولي . وقال وهب في العلم والعلماء : كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفون إليها ، وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم في علمهم ، فأصبح أهل العلم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم . وعنه قال : احفظوا عني ثلاثاً : إياكم وهوى متبعاً ، وقرين السوء ، وإعجاب المرء بنفسه . وعنه : دع المراء والجدل ، فإنه لن يعجز أحد رجلين : رجل هو أعلم منك ، فكيف تعادى وتجادل من هو أعلم منك ؟! ورجل أنت أعلم منه ، فكيف تعادى وتجادل من أنت أعلم منه ولا يطيعك ؟! . وقال : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قيمه ، والصبر أمير جنوده ، والرفق أبوه ، واللين أخوه . وعنه المؤمن ينظر ليعلم ، ويتكلم ليفهم ، ويسكت ليسلم ، ويخلو ليغنم .. والإيمان عريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء وماله الفقه . وعنه: أيضاً : ثلاث من كن فيه أصاب البر : السخاء ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام. وعنه : إذا سمعت من = يمدحك بما ليس فيك ، فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك . وجاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : قد حدثت نفسي أن لا أخالط الناس ، قال : لا تفعل ،إنه لابد لك من الناس ، ولا بد لهم منك ، ولهم إليك حوائج ولك نحوها ، ولكن كن فيهم أصم سميعاً، أعمى بصيراً، سكوتاً نطوقاً . وقال : المؤمن يخالط ليعلم ، ويسكت ليسلم ، ويتكلم ليفهم ويخلو ليغنم . وعن وهب بن منبه ، عن ابن عباس ، قال: قال رسول الله- ﷺ- : " من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتي السلطان افتتن " (حديث صحيح) . وقال وهب طوبى لمن شغله عيبه عن عيب أخيه ، طوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة ، طوبى لمن تصدق من ماله جمعه من غير معصية ، طوبى لأهل الضر وأهل المسكنة، طوبى لمن جالس أهل العلم والحلم ، طوبى لمن أقتدي بأهل العلم والحلم والخشية ، طوبى لمن وسعته السنة فلم يعدها . وعنه قال : الأحمق إذا تكلم فضحه حمقه ، وإذا سكت فضحه عيه ، وإذا عمل أفسد ، وإذا ترك أضاع ، لا يعينه ، ولا علم غيرة ينفعه ، تود أمه أنها ثكلته ، وامرأته لو عدمته ، ويتمنى جاره منه الوحدة ، ويجد جليسة منة الوحشة . وقيل إن وهب توفى سنة عشر ومائة . وقيل : سنة أربع عشرة ومائة . وقيل مات في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة ومائة (راجع ، الذهبى، سير أعلام النبلاء ، ٥/٤٣٣-٤٣٨ بتصرف).

ويشمت بالمصيبة"، قلت: وحسبنا أن الله تعالى أمرنا بالاستعاذة من شر الحاسد فقال: "**ومن شر حاسد إذا حسد**"[1]، كما أمرنا بالاستعاذة من شر الشيطان، فانظر كم له من الشرّ والفتنة، حتى أنزله منزلة الشيطان والساحر، حتى استعان عليه، ولا مستعاذ إلا بالله رب العالمين.

والثالث: التعب والهم من غير فائدة، بل مع كل وزر ومعصية، كما قال ابن **السماك**[2] -رحمه الله-: لم أر ظالماً بأشبه بمظلوم من

---

(١) سورة الفلق، آية ٥.

(٢) ابن السماك، هو : الزاهد ، القدوة ، سيد الوعاظ ، أبو العباس محمد بن صبيح العجلي ، مولاهم الكوفي ، ابن السماك (ت ١٣٨ هـ) روى عن هشام بن عروة ، والأعمش ، ويزيد بن أبي زياد ، وطائفة. ولم يكثر. وروى عنه : يحي بن يحي ، وأحمد بن حنبل ،= = ويحي بن أيوب العابد ومحمد بن عبد الله بن نمير ، وآخرون . وقال ابن نمير صدوق قلت : ما وقع له شيء في الكتب الستة . وهو القائل : كم من شيء إذا لم ينفع يضر ، لكن العلم إذا لم ينفع ، ضر . قيل : وعظ مرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لك بين يدي الله مقاوماً ، وإنه لك من مقامك منصرفاً ، فانظر إلى أين تكون . فبكي الرشيد كثيراً . وقيل : دخل ابن السماك على رئيس في شفاعة لفقير . فقال إني أتيك في حاجة ، والطالب والمعطى عزيزان إن قضيت الحاجة ، ذليلان إن لم تقض ، فاختر لنفسك عز البذل عن ذل المنع ، وعز النجح على ذل الرد . وعنة قال : همة العاقل في النجاة والهرب ، وهمة الأحمق في اللهو والطرب ، عجباً لعين تلذ بالرقاد ، وملك الموت معها على الوساد ، حتى متى يبلغنا الوعاظ أعلام الآخرة، حتى كأن النفوس عليها واقفة ، والعيون ناظرة ، أفلا منتبه من نومته ، أو مستيقظ من غفلته ، ومفيق من سكرته ، وخائف من صرعته كدحاً للدنيا كدحاً ، أما تجعل للآخرة منك حظاً، أقسم بالله ، لو رأيت القيامة تخفق بأهوالها ، والنار مشرفة على آلها ، وقد وضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة ، أبعد الدنيا دار معتمل ، أم إلى غير الآخرة منتقل ؟ . هيهات ولكن صُمت الآذان عن المواعظ ، وذهلت القلوب عن المنافع ، فلا الوعظ ينتفع ، ولا السامع ينتفع . وعنة : هب الدنيا في يديك ، ومثلها ضم إليك ، وهب المشرق والمغرب

الحاسد ، نفس دائم، وعقل هائم، وهم لازم.

والرابع: عمى القلب، حتى لا يكاد يفهم حكماً من أحكام الله عز وجل، ولقد قال **سفيان**[١] -رحمه الله-: عليك بطول الصمت تملك الورع، ولا تكن حريصاً على الدنيا تكن حافظاً، ولا تكن طعاناً تبخُ في ألسنة الناس، [ولا][٢] تكن حاسداً تكن سريع الفهم".

والخامس: الحرمان والخذلان، فلا تكاد تظفر بمراد، وتنصر على عدو، كما قال **حاتم**[٣]: "الطعين غير ذى دين، والعائب غير عائد،

يجيء إليك ، فإذا جاءك الموت ، فماذا في يديك ؟! ألا من امتطى الصبر ، قوى على العبادة ، ومن أجمع الناس ، استغنى عن الناس ، ومن أهمته نفسه لم يول مرمتها غيرة ، ومن أحب الخير ، وفق له ، ومن كره الشر ، جنبه ، ألا متأهب فيما يوصف أمامه ، ألا مستعد ليوم فقرة ، ألا مبادر فناء أجله . ما ينتظر من ابيضت شعرته بعد سوادها ، و تكرش وجهه بعد انبساطه ، وتقوس ظهره بعد انتصابه وكل بصره ، وضعف ركنه ، وقل نومه ، وبلي منه شيء بعد شيء في حياته ، فرحم الله امرأ عقل الأمر ' وأحسن النظر ، واغتنم أيامه .وعنه :الدنيا كلها قليل ، والذي بقي منها قليل ، والذي لك من الباقي قليل ، ولم يبق من قليلك إلا قليل ، وقد أصبحت في دار العزاء ، وغداً تصير إلى دار الجزاء ، فاشتر نفسك لعلك تنجو .توفى ابن السماك سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وقد أسنَ (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٥٤٧ – ٥٤٩) .

(١) سفيان، هو : سفيان الثورى ، وقد مرّت ترجمته .

(٢) ط : ولم.

(٣) حاتم، هو: حاتم الأصم هو الزاهد القدوة الرباني ، أبو عبد الرحمن، حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الواعظ الناطق بالحكمة ، الأصم، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم ، كان يقال له : لقمان هذه الأمة (ت ٢٣٧هـ) روى عن: شقيق البلخي وصحبه ، وسعيد بن عبد الباقي الماهياني ، وشداد بن حكيم ، ورجاء بن محمد وغيرهم ، ولم يرو شيئاً مسنداً فيما أري . وروي عنه : عبد الله بن سهل الرازي ، وأحمد بن خضر ويه

البلخي ، ومحمد بن فارس البلخي وعبد الله الخواص ، وأبو تراب النخشبي ، وحمدان بن ذي النون ، ومحمد بن مكارم الصفار ، وآخرون . واجتمع بالإمام أحمد ببغداد . قيل له علي ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : علي خصال أربع :علمت أن رزقي لا يأكله غيري ، فاطمأنت به نفسي ، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به وعلمت أن الموت يأتي بغتةً فأنا أبادره ، وعلمت أني لا أخلو عين الله ، فأنا أستحي منه . وعنه : من أصبح مستقيماً في أربع فهو بخير : التفقه ، ثم التوكل ، ثم الإخلاص ، ثم المعرفة . وعنه : تعاهد نفسك في ثلاث :إذا عملت فاذكر نظر الله إليك ، وإذا تكلمت ، فاذكر سمع الله منك ، وإذا سكت ، فاذكر علم الله فيك . قال أبو تراب : سمعت حاتماً يقول : لي أربع نسوة ،وتسعة أولاد ، ما طمع شيطان أن يوسوس إلي في أرزاقهم . سمعت شقيقاً يقول :الكسل عون علي الزهد . وقال شقيق لحاتم : منذ صحبتني، أي شيء تعلمت مني ؟ قال : ست كلمات :رأيت الناس في شك من أمر الرزق ،فتوكلت علي الله . قال الله تعالي (وما من دابة في الأرض إلا علي الله رزقها) ورأيت لكل رجل صديقاً يفشي إليه سره، ويشكو إليه= = ، فصادقت الخير ليكون معي في الحساب ، ويجوز معي في الصراط . ورأيت كل أحد له عدو ، فمن اغتابني ليس بعدوي ، ومن أخذ مني شيئاً ليس بعدوي ، بل عدوي من إذا كنت في طاعة الله ، أمرني بمعصية الله ، وذلك إبليس وجنوده ، فاتخذتهم عدواً وحاربتهم .ورأيت الناس كلهم لهم طالب ، وهو ملك الموت ، ففرغت له نفسي . ونظرت في الخلق ، فأحببت ذا ، وأبغضت ذا . فالذي أحببته لم يعطني ، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئاً ، فقلت من أين أتيت ؟ فإذا من هو الحسد فطرحته ، وأحببت الكل ، فكل شئ لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم . ورأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوي ، ورأيت مأواي القبر ، فكل شئ قدرت عليه من الخير قدمته لنفسي لأعمر قبري . فقال شقيق : عليك بهذه الخصال . قال أبو عبد الله الخواص :دخلت مع حاتم الأصم الري ، ومعنا ثلاثمائة وعشرون رجلاً نريد الحج ، عليه الصوف والزربنانقات ، ليس معهم جراب ولا طعام . ويروى عنه قال : أفرح إذا أصاب من ناظرني ، وأحزن إذا أخطأ وقيل : إن أحمد بن حنبل خرج إلي حاتم ، ورحب به ، وقال له :كيف التخلص من الناس ؟ قال أن تعطيهم مالك ، ولا تأخذ من مالهم ، وتقضي حقوقهم ، ولا تستقضى أحداً حقك ، و تحتمل مكروههم ، ولا تكرههم علي شئ ، وليتك تسلم . وقال أبو تراب : سمعت حاتماً يقول : المؤمن لا يغيب عن خمسة :

والنمام غير مأمون، والحسود غير منصور". قلت والحسود كيف يظفر بمراده، ومراده زوال نعمة الله عن عباده المسلمين، وكيف ينصر على أعدائه، [وهم][١] عباد الله المؤمنون؟، ولقد أحسن القائل فيما قال: "اللهم صبرنا على تمام النعم على عبادك، وحسن أحوالهم".

وإن ذلك يفسد عليك الطاعة، ويكثر شرك ومعصيتك، ويمنعك راحةِ النفس، وفهم القلب، والنصر على الأعداء، والظفر بالمطلوب، فأى داء يكون أدوى منه؟، فعليك بمعالجة نفسك من ذلك، والله تعالى ولى الهداية والتوفيق.

وأما الاستعجال والترف، فإنه الخصلة للمقاصد الموقعة فى المعاصى، وإن منها تبدو آفات أربع، **أحدها:** أنه يقصد العابد منزلة فى العبادة والخير والاستقامة، ويجتهد، فربما يستعجل فى نيلها، وليس ذلك بوقتها، فإما أن يفتر وييأس، ويترك الاجتهاد، فيحرم تلك المنزلة، وإما أن يغلو <فى>[٢] الجهد وإتعاب النفس، فينقطع عن تلك المنزلة، فهو بين إفراط وتفريط، وكلاهما نتيجة الاستعجال، ولقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم: "**إن ديننا هذا متين فأغلوا فيه برفق، فإن المنبتّ لا أرضاً**

عن الله ، والقضاء ، والرزق ، والموت ، والشيطان . وعن حاتم قال : لو أن صاحب خبر جلس إليك ، لكنت تتحرز منه وكلامك يعرض علي الله فلا تحترز! . قال الذهبي : هكذا كانت نكت العارفين وإشارتهم ، لا كما أحدث المتأخرين من الفناء والمحو والجمع الذي آل بجهلهم إلي الاتحاد وعدم السوي (الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ٩ /٤٦٤-٤٦٦).

(١) ط : وهو .

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

قطع، ولا ظهراً أبقى"[1]، وفى المثل السائر: "إن لم تستعجل تصل"

والثانية: أن تكون للعابد حاجة فيدعو الله عز وجل، ويكثر الدعاء ويجدّ، فربما يستعجل الإجابة قبل وقتها، فلا يجدها، فيغتر ويسأم ويترك[2] الحكم فيه، فعليك بترك الحكم فى ذلك البقاء وإرادته، والمراد بالذكر ذكر القلب، ثم المراد منه التوطين على ذلك، والتنبيه عليه، فافهمه راشداً إن شاء الله عز وجل.

ثم الأمل ضربان: أمل العامة وأمل الخاصة، فأمل العامة أن يريد الحياة والبقاء لجمع الدنيا، والتمتع بها، وهذه معصية محضة، وضدّها قصر الأمل، قال الله عز وجل: "**ويلههم الأمل فسوف يعلمون**"[3]، وأما أمل الخاصة: أن تريد البقاء لإتمام خير فيه خطر، وهو ما لا يستيقن الصلاح له فيه، فإنه ربما يكون خيراً معيناً، لا يكون لعبد فيه أو فى

---

(١) قال عبد الله وجدت فى كتاب أبى بخط يده، ثنا زيد بن الحباب، قال: أخبرنى عمرو بن حمزة، ثنا خلف أبو الربيع إمام مسجد سعيد بن أبى عزوبة، ثنا أنس بن مالك، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن هذا الدين متين فأغلوا فيه برفق" (مُسند أحمد ١٩٨/٣).

- وعن أنس (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " إن هذا الدين متين فأغلوا فيه برفق" رواه أحمد ورجاله موثقون إلا أن خلف بن مهران لم يدرك أنساً، والله أعلم. وعن جابر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى" رواه البزاز، وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب (مجمع الزوائد ٦٢/١).

(٢) + ط: ترك.

(٣) سورة الحجر، آية ٣.

تمامه صلاح، بأن يقع [بسبباً] [١] فى آفة لا يقوم بها هذا الخير، فـإذن ليس للعبد إذا ابتدأ فى صلاة أو صوم <أو>[٢] غيره، بأن يحكم بأنه يتمه، إذ هو غيب، ولا أن يقصد ذلك قطعاً، لأنه ربما لا يكون فيه صلاح، بل يقيّد بالاستثناء، وشرط الصلاح، ليتخلص من مميت الأمل، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: "**ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله**"[٣].

وضد هذا الأمل فيما قال العلماء: "النيَّة"، وإنما قالوا ذلك على ضرب من الاتساع، لأن الناوى بالنية المحمودة يكون ممتنعاً من الأمل، فهذا حكم الأمل، والنيَّة المحمودة إذا قدمت الحاجة إلى معرفتها مع أنها الأصل والأصيل، قالوا كلهم رحمهم الله فى حدّها الجامع التام، إن النية الصحيحة المحمودة إرادة أخذ عمل ببداية، قبل سائر الأعمال بالحكم، مع إرادة إتمامه بالتفويض والاستثناء. فإن قيل: فلم جاز الحكم فى الابتداء، ووجب التفويض والاستثناء فى الإتمام؟ يقال له: لفقد الخطر فى الابتداء، هو فى حال الابتداء ليس بشئ متراخ عنك، وثبوت الخطر فى الإتمام، إذ هو يقع فى وقت متراخٍ، ففيه الخطر إذا خول[٤] الوصول، لا يدرى[١]

---

(١) ط : بسببن .

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) سورة الكهف، الآيتان ٢٣ - ٢٤.

(٤) فى اللغة : (خَوّله) الله الشيئ (تخويلاً) فلّكه إياه . و (التَّخول) التّعهدُ . وفى الحديث "كان النبى ﷺ يتَخَوّلنا بالموعظة مخامة الشامة". وكان الأصمعى يقول : يتَخَولنا بالنون، أى يتعهدنا . و(خَوَلُ) الرجل حَشمهُ، والواحد (خَائِل) . وقد يكون الخول واحداً ، وهو اسم يقع

أيصل إلى ذلك أم لا، وخطر الفساد لا يُدْرَى، هل فى ذلك صلاح أم لا، فإذن وجب الاستثناء لخطر الوصول، والتفويض لخطر الفساد، فإذا حصلت الإرادة على هذه الشروط، تكون حينئذ نية محمودة مخرجة من حد الأمل وآفته، فتأمل هذه واعلم أن قصر الأمل حصن وطول الأمل يأخذ على غرّة وبغتة، وهو فى غرور وفتون، فاحتفظ بهذه الخصلة، وحصلها موفقاً، فإن إليها الحاجة ماسة، ودع عنك تضييع الوقت فى القيل والقال، وملاحاة الرجال، والله تعالى الموفق بفضله.

وأما الحسد: فهو إرادة زوال نعمة الله عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها وكنت تريد لنفسك مثلها، فهو غبطة، وعلى هذا يحمل قوله صلى الله عليه وسلم: **"لا حسد إلا فى اثنتين..."**[٢]

على العبد والأمة . قال الفراء : هو جمع خائل وهو الراعى. وقال غيره : هو مأخوذ عن التخويل وهو التمليك (مختار الصحاح ، ص ١٩٣).

(١) + ط : هى .

(٢) حدثنا الحميدى قال: حدثنا سفيان قال: حدثنى: إسماعيل بن أبى خالد على غير ما حدثنا الزهرى قال: سمعت قيس بن أبى حازم: سمعت عبد الله بن مسعود قال: قال: النبى= = صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها (صحيح البخارى ٣٩/١).

- حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعمرو الناقد وزهير بن حرب كلهم عن بن عيينة، قال زهير ، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا الزهرى، عن سالم عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه أناء الليل وأناء النهار" (صحيح مسلم ٥٥٨/١).
- أخبرنا محمد بن يحيى بن خالد، أنبأنا محمد بن رافع، حدثنا مصعب بن المقدم، حدثنا داود الطائى، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم قال:

الخبر، أى لا غبطة إلا فى ذلك، فعبر عن الحسدِ بالغبطة اتساعاً لمقارنتها، فإن لم يكن فيها صلاح فأردت زوالها عنه، فذلك غيرة، فهذا <هو>[١] الفرق بين [هذه][٢] الخصال.

وأما ضد الحسد: **فالنصيحة**، وهى إرادة بقاء نعمة الله عز وجل، على أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن قيل: كيف يعرف أن له فيها صلاح أو فساد، فينصحه أو يحسده؟، فاعلم أنه قد يكون لنا غالب الظن بذلك، وغلبة الظن ما يجرى مجرى العلم فى هذه المواضع، ثم إن اشتبه عليك فلا تردنّ زوال نعمة أحد من المسلمين، وإبقائها اللامقيد بالتفويض، وشرط الصلاح، لتخلص من[٣] حكم الحسد، تحصل لك فائدة النصيحة. وأما حصن النصيحة المانع من الحسد فهو ، ذكر ما أوجب الله تعالى من موالاة المسلمين، وحصن الحصن: ذكر ما عظّم الله تعالى من

سمعت بن مسعود يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها " . (صحيح ابن حبان ٢٩٢/١).

وأيضاً:

- ابن ماجه ١٤٠٨/٢.
- مُسند أحمد ٣٨٥/١.
- الترمذى ٣٣٠/٤.
- مجمع الزوائد ٢٥٦/٢.
- الترغيب والترهيب ٥٤/١.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ط : هذا.

(٣) + ط: منه.

حق المؤمن، ورفع قدره، وماله عند الله من الكرامات العظيمة في العقبى، ومالك فيه من الفوائد الجليلة، في الدنيا من التعاون والتظاهر، والجماعات والجُمّعات، ثم ما ترجو من شفاعته في الآخرة، فهذه ونحوها مما تبعث على النصح لكل مسلم، وتجنبك أن تحسده في نعمة أعطاه الله إياها، والله سبحانه ولي التوفيق بفضله.

وأما **العجلة**، فإنها المعين الراتب في القلب، الباعث على الإقدام على الأمر بأول خاطر، دون التوفيق فيه، والاستطلاع منه، بل الاستعجال في إتباعه والعمل به، وضدها الإنابة، وهو المعنى الثابت في القلب، الباعث على الاحتياط في الأمور، والنظر فيها، والتأني في اتباعها والعمل بها.

وأما التوقف فضده التنفس، قال شخنا رحمه الله: "الفرق بين التوقف [قبل][1] الدخول في الأمور حتى يستبين له رشده، والتأني بعد الدخول فيه، حتى يؤدي لكل جزء منه حقه". ثم مقدمات الآفات ذكر وجوه الخطر في الأمور التي [تعترض][2] الإنسان، وضروب الآفات المخوفة فيها، وذكر ما في النظر، ولا التثبيت من السلامة، وما في النفس، والاستعجال من الندامة والملامة، فهذه وأمثالها ما يبعث على التأني والتوقف في الأمور، وتمنع من الاستعجال والتعسف، والله وليّ العصمة بفضله.

وأما **الكبر**: فاعلم أنه خاطر في رفع النفس، واستعظامها، والتكبر

---

(١) ط : قيل.

(٢) ط : تفترض .

اتباعه، والتواضع خاطر فى وضع النفس، واحتقارها، والتواضع اتباعه، ولكل منها خاصٌ وعامّى، فالتواضع العامى هو الاكتفاء بالدون <من>[١] الملبس والمسكن والمركب، والتكبر فى مقابلة الترفع عن ذلك، والتواضع الخاص هو تذليل النفس على قول الحق مما كـان وضـيعاً أو شـريفاً، والتكبر فى مقابلة الترفع عن ذلك، وهو معصية كبيرة، وخطيئة عظيمة. ثم حصن التواضع العامى أن تذكر مبدأك ومنتهاك، وما أنت عليه فـى الحال <من>[٢]ضروب الآفات والأقذار، كما قال بعضهم: "أولك نطفـة قذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بينهما حامـل العـذرة". وحـصن التواضع الخاص هو ذكر عقوبة العادل عن الحق، المتمادى فى الباطل، فهذه جملة كافية لمن استبصر.

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

الفصل الخامس: فى البطن وحفظه[1]

ثم عليك بحفظ البطن وإصلاحه فإنه أشد الأعضاء إصلاحاً على المجتهد، وأكثرها مؤنة وشغلاً، وأعظمها أثراً وضرراً، كأنه المنبع والمعدن، ومنه تهيج الأمور فى الأعضاء من قوة وضعف، وخفة وجماع، ونحوه، فعليك أولاً بصيانته عن الحرام والشبهة، ثم عن فضول الحلال ثانياً، إذا كانت لك همة فى العبادة لله.

فأما الحرام والشبهة: فإنه يلزمك البحث [عنهما] [2] لثلاثة أمور، **أولها:** حذراً من نار جهنم، قال تعالى: "**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**"[3]، وقال صلى الله عليه وسلم: "**كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به**"[4]. **والثانى:** إن أكل

---

(١) + ط: و.

(٢) ط : عنها .

(٣) سورة النساء، آية ١٠.

(٤) أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع السختيانى، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر بن عبد الله، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يا كعب بن عجرة أعيذك بالله من إمارة السفهاء إنها ستكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم صدقهم بكذبهم فليس منى ولست منه ولن يرد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض، يا كعب بن عجرة الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة تطفئ الخطية كما يطفئ الماء النار والناس غاديان فمبتاع نفسه ، ومعتق رقبته وموبقها، يا كعب بن عجرة أنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت (صحيح ابن حبان ٥/٩). قال أبو حاتم رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "ليس منى ولست منه" يريد ليس مثلى وليس

الحرام والشبهة مكروه لا يوفق للعبادة إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى إلا كل طاهر مطهر، قلت أنا: أليس الله تعالى منع الجُنب من الدخول إلى بيته، والمحدث من مس كتابه، قال الله عز وجل قائل: "**ولا جنباً إلا عابرى سبيل**"(1)، وقال: "**لا يمسه إلا المطهرون**"(2)، مع أن الجنابة والحدث أمر مباح، فكيف بمن هو منغمس فى قِدْر الحرام، ونجاسة

مثله فى ذلك الفعل والعمل وهذه لفظة مستعملة لأهل الحجاز. وقوله: لا يدخل الجنة لحم= = نبت من سحت ، يريد به جنة دون جنة لأنها جنان كثيرة وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة ولد الزنى ولا يدخل العاق الجنة ولا منان ، يريد جنة دون جنة (صحيح ابن حبان ١٠/٥).

حدثنا غالب أبو بشر، عن أيوب بن عائذ الطائى، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن كعب بن عجرة قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدى فمن غشى أبوابهم فصدقهم فى كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولا يرد على الحوض، ومن غشى أبوابهم أو لم يغش فلم يصدقهم فى كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض يا كعب بن عجرة الصلاة برهان والصوم جنة حصينة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، يا كعب بن عجرة إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به. قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى وأيوب بن عائذ الطائى يضعف، ويقال كان يرى رأى الإرجاء، وسألت محمداً عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى واستغربه جداً (سنن الترمذى ٥١٢/٢).

وأيضاً:

- مُسند أحمد ٣٢١/٣.
- مجمع الزوائد ١٨٣/٥.
- الترغيب والترهيب ٣٤٩/٢.

(١) سورة النساء، آية ٤٣.

(٢) سورة الواقعة، آية ٧٩.

السحت والشبهة؟، متى يُدعَى إلى خدمة الله العزيز، وذكره الشريف، كلا فلا يكون ذلك، وقد قال يحيى بن معاذ الرازى: "الطاعات مخزونة فى خزائن الله تعالى، ومفتاحه الدعاء، وأسنانه الحلال، فإذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا يفتح، فإذا لم يفتح باب الخزانة، فكيف يصل إلى ما فيها من الطاعات؟.

والثالث: أن آكل الحرام والشبهة محروم، وإن اتفق له فعل الخير، فهو مردود عليه، غير مقبول منه، فإذن لا يكون له من ذلك إلا العناء والكدّ وشغل الوقت، قال صلى الله عليه وسلم: "**كم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ**"[1]، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: "لا يقبل الله صلاة امرئ وفى جوفه حرام" فهذه هذه.

وأما فضول الحلال، فإنه آفة العبادة، وبلية أهل الاجتهاد، وأنى تأملت فوجدت فيه عشر آفات هى أصول <هذا> [2] الشأن.

الأولى: فى كثرة الأكل قسوة القلب وذها بذوره، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: "**لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن**

---

(١) حدثنا عمرو بن رافع، ثنا بن عبد الله بن المبارك، عن أسامة بن زيد، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "رُب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُب قائم ليس من قيامه إلا السهر" (سنن ابن ماجه ٥٣٩/١).

- حدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا أبو خالد، الأحمر، عن أسامة عن سعيد، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر"(مسند أحمد ٤٤١/٢) وأيضاً: الترغيب والترهيب ٩٤/٢.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء"[1]، ولقد شبه ذلك بعض الصالحين بأن المعدة كالقدر تحت القلب، تغلى والبخار يرتفع إليه، وكثرة البخار يفسده ويكدره ويسخنه.

[والثانية][2] أن كثرة الأكل فتنة الأعضاء، وهيجانها وانبعاثها للفضول والفساد، فإن العبد إذا كان شبعاناً بَطِناً، اشتهت عينه النظر إلى ما لا يعنيه، من حرام أو فضول، والأذن الاستماع إليه، واللسان التكلم، والفرج الشهوة، والرِجْل المضى إليه، وإن كان جائعاً فتكون الأعضاء كلها ساكنة هادئة، لا تطمع إلى شئ منها، ولا تنبسط لها. فالبطن عضو إن جاع هو، تشبع سائر الأعضاء".

وجملة القول إن الرجل الرجل وأقواله على حسب طعامه وشرابه، إن دخل الحرام خرج الحرام، وإن دخل الفضول خرج الفضول، كأن الطعام يُدِرُّ الأفعال، والأفعال نبت تبدأ منه.

والثالثة: إن فى كثرة الأكل قلة الفهم والعلم، فإن البطنة تذهب بالفطنة ولقد قال **الرازى**[3] (رحمه الله): "إذا أردت أن تقضى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها، فإن الأكل يغير العقل والفهم"، وهذا أمر ظاهر علمه من اختبره.

والرابعة: أن فى كثرة الأكل قلة العبادة، فإن الإنسان إذا أكثر الأكل، ثقل بدنه، وغلبته عينه، وفترت أعضاؤه، فلا يجئ منه شئ، وإن اجتهد إلى

---

(١) "لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلوب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء" (محمد ناصر الدين الالبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ فى الأمة، ٢/٧٢١).

(٢) ط: والثانى.

(٣) + ط: حيث قال، الرازى ، هو : يحى بن معاذ ، وقد مرّت ترجمته .

العبادة فلا حلاوة فيها، إلا النوم كالجيفة الملقاة، وقد قيل: "إذا كنت بطناً، فعدّ نفسك زمناً"، وقد ذكر عن **يحيى**(١) عليه السلام أن إبليس بَـدَا لـه، وعليه معاليق، فقال له يحيى ما هذه؟، قال: [هذه](٢) الشهوات التى أُصيد بها بنى آدم، فقال: هل تجد لى شيئاً؟، فقال: لا، إلا أنك شبعت ذات ليلة فشغلناك عن الصلاة، فقال يحيى: **لا جُرم، إنى لا أشبع بعد اليوم**، فقـال إبليس: لا جُرم، إنى لا أنصح بعدها أحداً أبداً". فهذه فيمن لم يشبع فـى عمره إلا ليلة، فكيف بمن لا يجوع فى عمره ليلة، ثم [يطمـع](٣) فـى العبادة؟، وقال سفيان: البضاعة حرفة، وحانوتها الخلوة، وآلتها المجاعة.

والخامسة: أن فى كثرة الأكل، فَقد حلاوة العبادة، قال **أبو بكر**(٤)

---

(١) يحيى هو: نبى الله يحيى بن زكريا، عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، صلاة الله وتسليمه.

(٢) ط: هذه.

(٣) ط : تطمع .

(٤) أبو بكر، هو: أبو بكر الصديق، هو :عبد الله ، ويقال: عتيق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعيد تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشـي التيمـي -ﷺ- روي عن النبي-ﷺ- وروي عنه : خلق من الصحابة وقدماء التابعين . من آخرهم أنس بن مالك ، وطارق بن شهاب ، وقيس بن أبي حازم ، ومرة الطيب . كان أعلم قريش بأنسابها . وأنفق أمواله علي النبي-ﷺ- وفي سبيل الله . قال رسول الله-ﷺ- :" ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر" . وقال عروة بن الزبير : أسلم أبو بكر يوم أسلم وله أربعون ألف دينار . وقال عمرو بن العاص: يا رسول الله أي الرجال أحب إليك ؟ قال :" أبو بكر" وقال أبو سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله-ﷺ- " لا يبغض أبا بكر وعمـرو مـؤمن ولا يحبهما منافق " وعن علي :أن النبي-ﷺ- نظر إلي أبي بكر. وعمر فقال :" هـذان سـيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا علي " وقـال ابن مسعود :قال رسول الله-ﷺ-: "لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً" روي مثله ابن عباس فزاد : " ولكن أخي وصاحبي في الله ، سدوا كل خوخة في المسجد غير خوخة

أبي بكر" . وعن عمر قال : أبا بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلي رسول الله -ﷺ- . وعن ابن عمر أن النبي -ﷺ- قال لأبي بكر : " أنت صاحبي علي الحوض وصاحبي في الغـار ". وأتت امرأة رسول الله -ﷺ- فكلمته في شئ ، فأمرها بأمر ، فقالت : أ رأيت يا رسول الله إن لم أجدك ؟ قال : "إن لم تجديني فأتي أبا بكر "، وعن عائشة قالت: قال لي رسول الله= = -ﷺ- في مرضه : " ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً ، فإني أخـاف أن يتمنـي متمن ويقول قائل ، و يأبي الله والمؤمنون إلا أبا بكر" ولما قبض رسول الله -ﷺ- قالـت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير، فأتاهم عمر فقال : ألستم تعلمون أن رسول الله -ﷺ- قـد أمر أبا بكر فأم الناس ، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر. فأبو بكر خليفة رسول الله -ﷺ- في القرآن لأن في القرآن في المهاجرين :(أولئـك هم الصادقون) فمن سماه الله صادقاً لم يكذب ، هم سموه وقالوا : يا خليفة رسـول الله . وقالت عائشة : لما استخلف أبو بكر ألقى كل دينار ودرهم عنده في بيت المال وقال : قـد كنت أتجر فيه وألتمس به ، فلما وليتهم شغلوني . وقالت والله ما قال أبو بكر شـعراً فـي الجاهلية ولا في إسلام ، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية . وروي إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي : (ونزعنا ما في صدروهم من غلٍ إخواناً) وصعد عمر المنبر قائلاً ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، فمن قال غير ذلك بعد مقـامي هذا فهو مفتر، عليه ما علي المفتري . وقال علي : "خير هذه الأمة بعد نبيهـا أبـو بكـر وعمر" فقاتل الله الرافضة ما أجهلهم . أما خلافة الصديق-ﷺ- وأرضاه فابتدأت سنة إحدى عشرة ، عن عائشة : إن النبي -ﷺ- توفي وأبو بكر بالسنح ، فقال عمر : والله ما مـات رسول الله -ﷺ- والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك ، و ليبعثنه الله فيقطع أيـدي رجـال وأرجلهم ، فجاء أبو بكر الصديق فكشف عن رسول الله -ﷺ- فقبله ، وقال : بابي أنـت وأمي ، طبت حياً وميتاً ، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله موتتين أبداً ، ثم خرج فقال :أيهـا الحالف علي رسلك ، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فقال بعد أن حمد الله وأثني عليه : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يمـوت ، وقـال : (إنك ميت وإنهم ميتون) (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبلة الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم علي أعقابكم) الآية فنشج الناس يبكون ، واجتمعت الأنصار إلي سعد بن عباده فـي سقيفة بنى ساعدة ، فقالوا : منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ،

فذهب عمر يتكلم فسكته أبو بكر، فكان عمر يقول : والله ما أردت بذلك إلا أني هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ، فتكلم فأبلغ ، فقال في كلامه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، فقال الحباب بن المنذر : لا والله لا نفعل أبداً ، منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر : لا ، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء ، قريش أوسط العرب داراً وأعزهم أحسابًا فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة ، فقال عمر : بل نبايعك ، أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلي= = رسول الله-ﷺ-، وأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الأنصار ووثبوا علي سعد بن عباده ، فقال قائل : قتلتم سعداً ، فقال عمر: قتل الله سعداً ، وقال : يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن أبا بكر قد أمره النبي-ﷺ- أن يؤم الناس ؟ قالوا : بلي ، قال : فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قلت : يعني في الصلاة – فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر . وكان أول أعمال الخليفة ، هو تسيير جيش أسامة . فكان رسول الله-ﷺ- يقول في مرضه :" أنفذوا جيش أسامة "، فسار حتى بلغ الجرف (موضع علي ثلاثة أميال من المدينة)، فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول: لا تعجل فإن رسول الله ثقيل ، فلم يبرح حتى قبض رسول الله-ﷺ- فلما قبض رجع إلي أبي بكر فقال : إن رسول الله-ﷺ- بعثني وأنا علي غير حالكم هذه ، وأنا أتخوف أن تكفر العرب ، وإن كفرت كانوا أول من يقاتل ، وإن لم تكفر مضيت ، فإن معي سر وات الناس وخيارهم ، قال : فخطب أبو بكر الناس ، ثم قال : والله لأن تخطفني الطير أحب إلي من أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله-ﷺ- قال : امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به ، ثم أغز حيث أمرك رسول الله-ﷺ-من ناحية فلسطين ، وعلي أهل مؤتة ، فإن الله سيكفي ما تركت ، ولكن إن رأيت أن تأذن لعمر فأستشيره وأستعين به فافعل ، ففعل أسامة ، وسار بالجيش ، فلما دنوا من الشام أصابتهم ضبابة شديدة فسترتهم ، حتى أغاروا وأصابوا حاجتهم ، فقدم بنعي رسول الله-ﷺ- علي هرقل وإغارة أسامة في ناحية أرضه خبراً واحداً ، فقالت الروم : ما بال هؤلاء يموت صاحبهم ويغيرون علي أرضنا ! ومن أجل وأعظم الأعمال التي قام بها الخليفة الأول ، هي تسييره الجيوش لمحاربة المرتدين عن الإسلام وما يفي الزكاة بعد وفاة النبي-ﷺ- فلما اشتهرت وفاة النبي بالنواحي ، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام ومنعوا الزكاة ، فنهض أبو بكر الصديق-ﷺ- لقتالهم ، فأشار عليه عمر وغيره أن يفتر عن قتالهم . فقال : والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلي رسول الله-ﷺ-

لقاتلتهم علي منعها ، فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله-ﷺ- : "أمـــرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابه علي الله " فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال وقد قال : إلا بحقها. فقال عمر : فوا لله ما هو إلا أن رأيــت الله شـــرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق ، فخرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار حتى بلغ نقعاً حذاء نجد، وهربت الأعراب بذراريهم ، فكلم الناس أبا بكر وقالوا: ارجع إلي المدينة= = وإلي الذرية والنساء وأمر رجلاً علي الجيش ، ولم يزالوا به حتى رجع وأمر خالد بـــن الوليد ، أن يقاتل الناس علي خمس ، من ترك واحدة منهن قاتلة كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً : علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأقام الـــصلاة ، وإيتـــاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت . واستمرت حروب المرتدين شهور حتى رجعـــت كل القبائل المرتدة إلي الإسلام ، فبدأ الخليفة الفتوحات الإسلامية . فابتدأ بتوجيه المـــسلمين قِبل فلسطين والشام سنة ثلاث عشرة وكان أول لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاص ، ثم عزله قبل أن يسير خالد ، وقيل : بل عزله بعد أشهر من مسيره ، وكتب إلي خالد فسار إلي الشام ، فأغار علي غسان بمرج راهط ، ثم سار فنزل علي قناة بصري ، وقـــدم أبـــو عبيدة وصاحباه فصالحوا أهل بصري ، فكانت أول ما فتح من مدائن الشام ، ثـــم ســـاروا جميعاً قِبل فلسطين ، فالتقوا بأجناد ين بين الرملة ، وبيت جبر يـــن(مدينـــة بفلـــسطين) والأمراء كل علي جنده ، وقيل : أن عمراً كان عليهم جميعاً وعلي الروم القبقلار (رتبـــة عسكرية رومية) فقتل ، وانهزم المشركون يوم السبت لثلاث من جمادى الأول سنة ثلاث عشرة . ثم كانت وقعة مرج الصفر (موضع قرب دمشق) في أول سنة أربع عشر، وعلي المشركين يومئذ قلقط ، وقتل من المشركين مقتلة عظيمة وانهزموا . واستشهدا يومها خالد بن سعيد بن العاص ويقال أخوه عمرو قتل أيضاً ، والفضل بن العباس ، وعكرمة بن أبي جهل . وفتح الله علي المسلمين في عهد أبي بكر بلاداً كثيرة: ثم مرض الخليفـــة ، قالـــت عائشة : أول ما بدئ مرض أبي بكر أنه اغتسل ، وكان يوماً بارداً فحم خمسة عشر يومـــاً لا يخرج إلي صلاة ، وكان يأمر عمر بالصلاة ، وكانوا يعودونه ، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه . ولما ثقل الخليفة دعا عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرني عن عمر ، فقال : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني ، فقال هو والله أفضل من رأيك فيه ، ثم دعـــا

(رضى الله عنه): "**ما شبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة زلى، وما رويت منذ أسلمت اشتياقاً إلى لقاء ربى**"، وهذه صفات المكاشفين، وكان رضى الله عنه مكاشفاً، وإليه أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: "**ما فضلكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صوم، وإنما هو شئ وقر فى قلبه**"(١)، وقال الدارانى(٢): "أحلى ما تكون العبادة، إذا التصق بطنى بظهرى".

عثمان فسأله عن عمر ، فقال : علمي فيه أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله ، فقال : يرحمك الله ! والله لو تركته ما عدوتك ، وتشاور معهم سعيد بن يزيد ، وأسيد بن الخضير وغيرهما ، فقال قائل : ما تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر وقد ترى غلظته ؟ فقال : أجلسوني ، أبا الله تخوفوني !أقول : استخلفت عليهم خير أهلك . وتوفي رضي الله عنه مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقيت من جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة ، وكانت خلافته سنتين ومائة يوم (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٢ / ٤١٥ ، وبعدها بتصرف) .

(١) الحديث ضعيف، وقد ورد فيما يلى من الكتب:-

- الألبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة ٩٦٢/٢.
- أبو عبد الله، محمد بن البشير بن محمد حسن ظافر المدنى، تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين، تحقيق مُحى فى الدين مستو، ط الأولى، دار ابن كثير، دمشق ١٤٠٥، جـ ١، ص ١١٢.
- أبو عبد الله، محمد بن على بن محمد الدمشقى، الشذرة فى الأحاديث المشتهرة، تحقيق كمال بسيونى زغلول، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣ هـ، جـ ٢، ص ٨٣٢.
- أبو الخير، محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى، المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩، جـ ١، ص ٩٧٠.

(٢) هو أبو سليمان الدارانى الإمام الكبير، زاهد العصر، أبو سليمان ، عبد الرحمن بن أحمد ،عبد الرحمن بن عطية . وقيل : ابن عسكر العنسي الداراني (ت ٢١٥ هـ) ولد في

والسادسة: أن فيه خطر الوقوع فى الشبهة والحرام، لأن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام يأتيك جزافاً، ولقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم: "**إن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام يأتيك** –وفى رواية– **جرفاً جرفاً جزافاً**"(١).

حدود الأربعين ومائة . وروى عن : سفيان الثوري ، وأبي الأشهب العطاردي ، وعبد الواحد بن زيد البصري ، وعلقمة بن سويد ، وصالح بن عبد الجليل . وروي عنه : تلميذه أحمد بن أبي الحواري ، وهاشم بن خالد ، وحميد بن هشام العنسي ، وعبد الرحيم بن صالح الداراني ، وإبراهيم بن أيوب الحوراني .. وغيرهم. وقال أبو سليمان عن نفسه : كنت بالعراق أعمل ، وأنا بالشام أعرف . وقال : صل خلف كل مبتدع إلا القدري ، لا تصلى خلفه ، وإن كان سلطاناً . وقال : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة. وقال : أفضل الأعمال خلاف هوي النفس . وقال : لكل شئ علم ، وعلم الخذلان ترك البكاء ، ولكل شئ صدأ ، وصدأ القلب الشبع .= = وقال : أصل كل خير الخوف من الدنيا ، ومفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . وقال : من رأي لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة . وعنه : إذا تكلف المتعبدون أن يتكلموا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم . وعنه : إن من خلق الله تعالي خلقاً لو زين لهم الجنان ما اشتاقوا إليها فكيف يحبون الدنيا وقد زهدهم فيها . وقال : لولا الليل لما أحببت البقاء في الدنيا ، ولربما رأيت القلب يضحك ضحكاً. وقال : من اشتغل بنفسه شغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس . وقال : من وثق بالله في رزقه زاد في حسن خلقه ، وأعقبه الحلم ، وسخت نفسه ، وقلت وساوسه في صلاته.وعنه الفتوة أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . وتوفي أبو سليمان سنة خمس عشرة ومائتين .(راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٨/ ٤٧٧– ٤٧٩) .

(١) لم أجد لفظ هذا الحديث فى معظم الكتب التى عولت عليها فى التحقيق، ما وجدته قريب من لفظه ومعناه ما يلى:

"ما اتمع الحلال والحرام إلا غلب جانب الحرام" (الألبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣٨٧/١).

والسابعة: إ فيه شغل القلب والبدن، بتحصيله أولاً، وتهيئة ثانياً، ثم بأكله ثالثاً، ثم بإفراغه والتخلص منه رابعاً، ثم بالسلامة منه خامساً، بأن يبدو منه آفة فى البدن، بل آفات وعلل، ولقد قال صلى الله عليه وسلم: "**أصل كل داء [البردة]**[1]، (يعنى التخمة)، **وأصل كل دواء الأزم** (يعنى الجوع والحمية). وعن مالك بن دينار أنه كان يقول: "يا هؤلاء، لقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييت"، ثم ما فى هذه الجملة من طلب الدنيا، والطمع فى الناس، وتضييع الوقت بسبب كثرة الأكل ما لا يخفى.

والثامنة: من أمور الآخرة، شدة سكرات الموت، فقد روى فى الأخبار أن شدة سكرات الموت على قدر لذات الحياة، فمن أكثر فى هذه، أُكْثِر له فى تلك.

والتاسعة: نقصان الثواب فى العقبى، قال تعالى: "**أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا..**"[2] الآية، فإنه بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص لك من لذات الآخرة، ولهذا المعنى أن الله عز وجل عرض الدنيا على نبينا محمد (ﷺ) ، فقال له: "**ولا أنقص من آخرتك**

- ابن طولون، الشذرة جـ ٢، ص ٨٠٧.
- الغزى، الاتقان، جـ ٢، ص ١٥٦٦.

(١) ط : البركة، وحديث: أصل كل داء البردة، ضعيف ورد فى: الألبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة، ٥/٢٣٨٨.

- أبو حفص، عمر بن بدر بن سعيد الموصلى الورانى، الوقوف على الموقوف، تحقيق محمود محمد الحداد، ط الأولى، دار العاصمة، الرياض ١٤٠٧، جـ ١، ص ٢٢.
- أبو عبد الله، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى، التذكرة فى الأحاديث المشتهرة ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦ هـ، جـ ١، ص ١٤٦.

(٢) سورة الإحقاف، آية ٢٠.

شيئاً"، خصه بذلك ، فدلّ أن لغيره النقصان، إلا أن يتفضل الله تعالى عليه بذلك ، ولقد روى أن **خالد ابن الوليد**[1] أضاف **عمر بن**

(١) خالد بن الوليد ، هو : خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، أبو سليمان ، وقيل : أبو الوليد ، القرشي المخزومي، أمه لبابة الصغرى، وقيل: الكبرى، والأول أصح ، وهي بنت الحارث بن حزن الهلالية ، وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وهو ابن خالة أولاد العباس الذي من لبابة. وكان أحد أشراف قريش في الجاهلية ، وكان له القبة وأعنة = الخيل في الجاهلية ، أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان يكون المقدم علي خيول قريش في الحرب . ولما أراد الإسلام قدم إلي رسول الله ﷺ هو وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري ، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال لأصحابه : "رمتكم مكة بأفلاذ كبدها" وقد اختلف في وقت إسلامه وهجرته ، فقيل : هاجر بعد الحديبية وقبل خيبر ، وكانت الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، و خيبر بعدها في المحرم سنة سبع ، وقيل : بل كان إسلامه سنة ثمان ، وقال خمس بعد فراغ رسول الله ﷺ من بني قريظة ، وليس بشيء .وقيل : كان إسلامه سنة ثمان ، وقال بعضهم : كان علي خيل رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، وكانت الحديبية سنة ست ، وهذا القول مردود فإن الصحيح أن خالد بن الوليد كان علي خيل المشركين يوم الحديبية . وعن أبي هريرة قال : نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله ﷺ : من هذا يا أبا هريرة ؟ فأقول فلان ، فيقول : نعم عبد الله هذا ، حتى مر خالد بن الوليد ، فقال : من هذا ؟ قلي : خالد بن الوليد ، فقال : نعم عبد الله خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله فيها . ولعل هذا القول كان بعد غزوة مؤتة ، فإن النبي ﷺ إنما سمي خالد سيفاً من سيوف الله فيها ، فإنه خطب الناس وأعلمهم بمقتل زيد وجعفر وابن رواحة ، وقال : ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ، ففتح الله عليه ، وقال خالد لقد اندق يومئذ في يدي سبعة أسياف فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية ، ولم يزل من حين أسلم يوليه رسول الله ﷺ أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب ، وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة فأبلي فيها ، وبعثه رسول الله ﷺ إلي " العزى " وكان بيتاً عظيماً لمضر تبجله فهدمه وقال :

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ولا يصح لخالد مشهد مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة بعثه إلي بني جذيمة من بني عامر بن لؤي ، فقتل منهم من لم يجز له القتل ، فقال النبي ﷺ : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد . وأرسل مالاً مع علي بن أبي طالب ﷺ فودي القتلى ، وأعطاهم ثمن ما أخذ منهم ، حتى ثمن مليغة (الإناء الذي يشرب فيه الكلب)، وفضل معه فضلة من المال فقسمها فيهم ، فلما أخبرنا رسول الله ﷺ بذلك استحسنه ، ولما رجع خالد بن الوليد من بني جذيمة أنكر عليه عبـ الرحمن بن عوف ذلك ، وجري بينهم كلام ، فسب خالد عبد الرحمن بن عوف ، فغضب النبي ﷺ وقال لخالد : لا تسبوا أصحابي، فلو أن= = أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد (ربع صاع) أحدهم ولا نصفيه . وكان علي مقدمة رسول الله ﷺ يوم حنين في بني سليم ، فجرح خالد ، فعاده رسول الله ﷺ ونفث في جرحه فبرأ ، وأرسله رسول الله ﷺ إلي أكيدر بن عبد الملك ، صاحب دومة الجندل ، فأسره ، وأحضره إلي رسول الله ﷺ فصالحه علي الجزية ، ورده إلي بلده ، وأرسله رسول الله ﷺ سنة عشر إلي بني الحارث بن كعب بن مذحج ، فقدم معه رجال منهم فأسلموا ، ورجعوا إلي قومهم بنجران ، ثم أن أبا بكر أمره بعد رسول الله ﷺ علي قتال المرتدين منهم : مسيلمة الحنفي في اليمامة ، وله في قتالهم الأثر العظيم ، ومنهم مالك بن نويرة ، في بني يربوع من تميم وغيرهم ، إلا أن الناس اختلفوا في قتل مالك بن نويرة ، فقيل : إنه قتل مسلماً لظن ظنه خالد به وكلام سمعه منه ، وأنكر عليه أبو قتادة وأقسم انه لا يقاتل تحت رايته ،وأنكر عليه عمر بن الخطاب ﷺ . ولخالد الأثر المشهور في قتال الفرس والروم ، وافتتح دمشق ، وكان في قلنسوته التي يقاتل بها شعر من شعر الرسول ﷺ يستنصر به وببركته ، فلا يزال منصوراً . قال خالد بن الوليد : اعتمرنا مع رسول الله ﷺ في عمرة اعتمرها ، فحلق شعره ، فاستبق الناس إلي شعره ، فسبقت إلي الناصية فأخذتها ، فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدم القلنسوة فما وجهته في وجه إلا وفتح له . وروي خالد عن النبي ﷺ وروي عنه ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، والمقدام بن المعد بن يكرب وأبو أمامة بن سهل بن حنيف ، وغيرهم وروي معمر عن الزهري ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن عبد الله ، عن خالد بن الوليد : أنه دخل مع رسول الله ﷺ بيت ميمونة فأتي بضب محنوذ (مشوي) فأهوي إليه رسول الله ﷺ يريد أن يأكل منه ،

الخطـــاب[١]؛ رضى الله عنهما، وهيأ له طعاماً، فقال له عمر (رضى الله عنه) : هذا لنا، فما لفقراء المهاجرين الذين لم يشبعوا من خبز الشعير؟، قال خالد: لهم الجنة يا أمير المؤمنين، لقد فازوا بالجنة، وكان هذا حظنا من الدنيا، فقد بانوا منا بَوْناً مبيناً". وروى أن عمر (رضـــى الله عنـــه) عطش يوماً فدعا بماء، فجاءه رجل بإداوة فيها ماء نبذ فيه ثمرات، فلمـــا قربها عمر من فيّه وجد الماء بارداً وحلواً [فأمسك][٢]، وقال أوه؛ فقـــال الرجل: والله ما ألذه حلاوةً يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ذلك الذى منعنى عنه، ويحك لولا الآخرة لشاركنا فى عيشكم".

والعاشرة: الحبس واللوم والحساب والتعيير فى ترك الأدب بترك الفضول، وطلب الشهوات، فإن الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقـــاب،

فقالوا يا رسول الله ،هو ضب. فرفع رسول الله ﷺ يده ، فقلت أ حرام هو ؟ قال لا ولكنه لم يكن بأرض قومي ، فأجدنى أعافه . قال خالد : فاجتزرته فأكلته ورسول الله ﷺ ينظر . ولما حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، وها أنا أموت علي فراشي كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجي من (لا إله إلا الله) وأنا متتـــرس بهـــا . وتوفي بحمص من الشام وقيل : بلي توفي بالمدينة سنة إحدى وعشرين ، في خلافة عمـــر بن الخطاب ، وأوصي إليّ عمرﷺ ، ولما بلغ عمر أن نساء بني المغيرة اجتمعن فـــي دار يبكين خالد ، قال ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة ، قيل : لم تبق امرأة من بني المغيرة إلا وضعت لمتها علي قبر خالد ، يعني حلقت رأسها .ولما حضرته الوفاة= = حبس فرسه وسلاحه في سبيل الله . (راجع ، ابن الأثير ، أســد الغابـــة فـــي معرفـــة الصحابة ١ / ٦٦٩- ٦٧١ بتصرف) .

(١) عمر بن الخطاب ، مرّت ترجمته .

(٢) ط : أمسك.

وزينتها إلى تبات.

فهذه جملة العشرة، وفى أحدها كفاية لمن نظر لنفسه، فعليك أيها المجتهد بالاجتهاد البالغ فى القوت، كيلا تقع فى حرام وشبهة، فيلزمك العذاب، ثم بالاقتصاد من الحلال، على ما يكون عُدّة على عبادة الله سبحانه، فلا تقع فى شر، فتبقى فى الحبس والحساب، والله تعالى ولى التوفيق.

فإن قلت: فبين لنا أولاً حكم الحرام والشبهة وحدهما، فأقول: لعمر الله لقد أشبعنا القول فى "**أسرار معاملات الدين**"[١]، وذكرنا له كتاباً مفرداً فى كتاب "**الأحياء**"، لكننا نشير إلى كلمات مفردة بحيث تصل إلى فهم الضعيف المبتدئ، إذ مقصود هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدئ فى العبادة، قال بعض العلماء: "ما تيقنت كونه ملكاً للغير، منهى عنه فى الشرع ، فهو حرام محض، وأما إذا لم يكن لك يقين بذلك، ولكن يغلب على ظنك أنه كذلك، فهو شبهة. وقال آخرون بل الحرام المحض ما يكون به علم أو غالب ظن، لأن غلبة الظن منا يجرى مجرى العلم فى كثير من الأحكام، فأما إذا ساوتك الأمارتان حتى تبقى شاكاً، لا يكون لأحدهما ترجيح عندك فذلك شبهة، يشبه أنه حلال أو يشبه أنه حرام، فأشبه أمرّه عليك، وألبس حاله.

ثم الامتناع الذى حرم محض حتم واجب، وعن الذى هو شبهة تقوى وورع، وهذا أولى القولين عندنا.

فإن قيل: فما تقول فى قبول جوائز السلطان فى هذا الزمان ،

(١) كتاب أسرار معاملات الدين للغزالى، مرّت ترجمته.

فاعلم أن العلماء اختلفوا فيه، فقال قوم كل ما لا يتيقن أنه حرام فله أخذه، وقال آخرون: لا يحق أخذ ما لا يتحقق أنه حلال، لأن الأغلب <فى> (١) هذا العصر على السلاطين الحرام، والحلال فى أيديهم معدوم وعزيز. وقال قوم إن صلات السلاطين تحل للغنى والفقير، إذا لم يتحقق أنه حرام، وإنما التبعة على المعطى، قالوا لأن النبى ﷺ قَبِلَ هدية المقوقس ملك الإسكندرية، واستقرض من اليهودى مع قول الله سبحانه: "**أكالون للسحت**"(٢)، قالوا وقد أدركنا جماعة من الصحابة أيام الظَّلَمَة، وأخذوا، منهم **أبو هريرة**(٣)، **وابن عباس**(٤)، وابن عمر(٥) وغيرهم.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سورة المائدة ، آية ٤٢ .

(٣) أبو هريرة، هو: مرّت ترجمته

(٤) ابن عباس، مرّت ترجمته.

(٥) ابن عمر، هو : عبد الله عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى . وأمه وأم أخته حفصة : زينب بنت مظعون بن حبيب الجمحية . مولده قبل المبعث بسنة . قيل إنه أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم ، وقيل :إن إسلامه قبل إسلام أبيه . ولا يصح وإنما كانت هجرته قبل هجرة أبيه ، فظن بعض الناس أن إسلامه قبل إسلام أبيه . أجمعوا على أنه لم يشهد بدراً ، استصغره النبي ﷺ فرده ، واختلفوا في شهوده أحداً ، فقيل : شهدها . وقيل : رده رسول الله ﷺ مع غيره ممن بلغ الحلم ، والصحيح أن أول مشاهده الخندق ، وشهد غزوة مؤتة مع جعفر بن أبي طالب ﷺ عنهم أجمعين وشهد اليرموك ، وفتح مصر وإفريقية . وكان أكثر الاتباع لآثار رسول الله ﷺ حتى أنه ينزل منازله ، ويصلي في كل مكان صلي فيه ، وحتى إن النبي ﷺ نزل تحت الشجرة . فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس . وعنه قال : رأيت في المنام كأنما بيدي قطعة إستبرق ، ولا أشير بها إلي موضع من الجنة إلا طارت بي إليه ، فقصصتها علي حفصة ، فقصتها حفصة علي النبي ﷺ فقال : " إن أخاك رجل صالح – أو إن عبد الله رجل صالح " وذات مرة : خرج ابن

عمر في بعض نواحي المدينة ، ومعه أصحاب له ، ووضعوا السفرة له ، فمر بهم راعي غنم ، فسلم ، فقال : ابن عمر : هلم يا راعي فأصب من هذه السفرة . فقال له : إني صائم . فقال ابن عمر : أتصوم في مثل هذا اليوم الحار الشديد سمومه ، وأنت في هذه الحال ترعي هذه الغنم ؟ فقال : والله إني أبادر أيامي هذه الخالية . فقال له ابن عمر – وهو يريد أن يختبر ورعه –: فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه فنعطيك ثمنها ونعطيك من لحمها ما تفطر عليه ؟ قال : إنها ليست لي بغنم ، إنها غنم سيدي . فقال له ابن عمر : فما يفعل سيدك إذا فقدها ؟ فولي الراعي عنه وهو رافع إصبعه إلي السماء ، وهو يقول فأين الله ؟ قال : فجعل ابن عمر يردد قول الراعي ، يقول :" قال الراعي فأين الله "؟ قال : فلما قدم المدينة بعث إلي مولاه ، فاشتري منه الغنم والراعي فأعتق الراعي ووهب منه الغنم .=

= وكان ابن عمر شديد الإحباط والتوقي لدينه في الفتوى ، وكل ما تأخذ به نفسه ، حتى إنه ترك النازعة في الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم له ، ولم يقاتل في شئ من الفتن ، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه ، حين أشكلت عليه ، ثم كان بعد ذلك يندم علي ترك القتال معه . قال حين حضره الموت :" ما أجد في نفسي من الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي . وكان جابر بن عبد الله يقول : "ما منا إلا من مالت به الدنيا ومال بها ، ما خلا عمر وابنه عبد الله ". وكان بعد رسول الله ﷺ يكثر الحج ،وكان كثير الصدقة وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً . وكان إذا أشتد عجبه بشيء من ماله قربه لربه ، وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه ، فربما لزم أحدهم المسجد ، فإذا رآه ابن عمر علي تلك الحال الحسنة أعتقه ، فيقول له أصحابه : يا أبا عبد الرحمن ، والله ما بهم إلا أن يخدعوك! فيقول ابن عمر : من خدعنا بالله انخدعنا له . وكان يسمع وهو ساجد يقول : " قد تعلم يا ربي ما يمنعني من مزاحمة قريش علي الدنيا إلا خوفك " وقال نافع : كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) بكي حتى يغلبه البكاء . ومن أقواله : " البر شئ هين : وجه مطلق ، وكلام لين " وروي ابن عمر عن النبي ﷺ فأكثر . وروي عن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان، وأبي ذر ، ومعاذ بن جبل ، ورافع بن خديج ، وأبي هريرة ، وعائشة . وروي عنه ابن عباس ، وجابر والأغر المزني من الصحابة . وروي عنه من التابعين ، بنوه : سالم ، وعبد الله ، وحمزة ، وأبو سلمة وحميد ابنا عبد الرحمن بن عوف ، ومصعب بن سعد ، وسعيد بن المسيب ، وأسلم مولي

وقال آخرون: لا يحلّ من أموالهم شئ لغني ولا فقير، إذ هم موسومون بالظلم، والغالب في حالهم السحت، والحرام، والحكم للغالب، فيلزم الاجتناب. وقال آخرون: لا يحل من أموالهم شئ لغني، ما لم يتيقن أنه حرام، فهو حلال للفقير دون الغني، إلا أن يعلم الفقير أن ذلك غير الغصب، فليس له أن يأخذه، إلا ليرده على مالكه، ولا حرج على الفقير أن يأخذ من أموال السلطان، لأنها إن كانت ملك السلطان، فأعطى الفقير فله أخذه بلا ريب في ذلك، وإن كان فَئْ، أو خراج أو عشر، فللفقير فيه

عمر ، ونافع مولاه ، وخلق كثير . ومما رواه عبد الله بن عمر ، قال : أخذ رسول الله ﷺ يوماً ببعض جسدي ، وقال لي : يا عبد الله ، كن في الدنيا كأنك عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور ، ثم قال لي :يا عبد الله بن عمر ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، إنما هي حسنات وسيئات ، جزاء بجزاء ، وقصاص بقصاص ، ولا تتبرأ من ولدك في الدنيا فيتبرأ الله منك في الآخرة فيفضحك علي رؤوس الأشهاد ، ومن جر بثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ". توفي عبد الله بن عمر سنة ثلاث وسبعين ، بعد قتل الزبير بثلاثة أشهر ، وكان سبب قتله أن الحجاج أمر رجلاً فسم زج رمح وزحمه في الطريق ، ووضع الزج في ظهر قدمه ، وإنما فعل الحجاج ذلك لأنه خطب يوماً وأخر الصلاة ، فقال له ابن عمر : إن الشمس لا تنتظرك . فقال له الحجاج : لقد هممت أن أضرب الذي فيه عيناك ! قال : إن تفعل فإنك سفيه مسلط! وقيل إن الحجاج حج مع عبد الله بن عمر، فأمره عبد الملك بن= = مروان أن يقتدي بابن عمر ، فكان ابن عمر يتقدم الحجاج في المواقف بعرفة وغيرها ، فكان ذلك يشق علي الحجاج ، فأمر رجلاً معه حربة مسمومة فلصق بابن عمر عند دفع الناس ، فوضع الحربة علي ظهر قدمه ، فمرض منها أياماً ، فأتاه الحجاج يعوده ، فقال له : من فعل بك ؟ قال : وما تصنع قال : قتلني الله إن لم أقتله ! قال : ما أراك فاعلاً ! أنت أمرت الذي نخسني بالحربة ! فقال : لا تفعل يا أبا عبد الرحمن . وخرج عنه ، ولبث أياماً ، ومات وصلي عليه الحجاج . ومات وهو ابن أربع وثمانين سنة (راجع ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ / ٢٣٥- ٢٣٩ بتصرف).

حق، وكذلك لأهل العلم، قال على [رضى الله عنه][1]: "من دخل الإسلام طائعاً، وقرأ القرآن طاهراً، فله فى بيت مال المسلمين كل سـنة مائتـا درهم". وروى **ابن دينار**[2] إنه إذا لم يأخذ فى الدنيا أخذها فى الآخـرة، وإذا كان كذلك فللفقير والعالم يأخذان من حقهما، قالوا: وإذا كان المـال مختلطاً بمال مغصوب، لا يمكن تمييزه، أو غصباً لا يمكـن رده علـى صاحبه وذريته، "فلا مخلص للسلطان منه، إلا أن يتصدق به، وما كـان الله ليأمره بالصدقة على الفقير، وينهى الفقير عن قبوله، أو يأذن للفقيـر بقبوله وهو عليه حرام، فإن للفقير أن يأخذ عين الغصب، والحرام فليس له أخذه.

وهذه المسائل لا يمكن الفتـوى فيهـا إلا ببـسط"[3] وتـشقيق، واستيعاب القول فيها يخرج عن المقـصود مـن الكتـاب، فـإن أردت معرفتها، فطالع كتاب **الحلال والحرام**[4] من كتاب "إحياء علـوم الـدين"

---

(١) ط : عليه السلام: وعلى بن أبى طالب ، وقد مرّت ترجمته .

(٢) يقصد مالك بن دينار، وقد مرّت ترجمته.

(٣) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: فلا مخلص للسلطان منه، إلا أن يتصدق به.. إلى قوله: لا يمكن الفتوى فيها إلا ببسط" مقروءة بصعوبة فى ط .

(٤) كتاب الحلال والحرام : هو الكتاب الرابع من ربع العبادات من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، بدأه بعد بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة على محمـد الهـادى مـن الضلال وعلى آله خير آل ، وسلم تسليماً كثيراً ، قائلاً : أما بعد فقد قال ﷺ "طلـب العلـم فريضة على كل مسلم " رواه ابن مسعود رضى الله عنه ، وهذه الفريضة من بـين سـائر الفرائض: أعصاها على العقول فهما ، وأثقلها على الجوارح فعلاً ، ولذلك اندرس بالكليـة علماً وعملاً ، وصار غموض علمه سبباً لا ندراس علمه ، إذ شن الجهال أن الحلال مفقود ، وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود ، وأنه لم يبق من الطيبـات إلا المـاء الفـرات ،

الذى تجده مشروعاً مبيناً إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فما تقول فى صلات أهل السوق وغيرهم، هل يلزم ردها والبحث عنها، وقد علمت مجازفتهم، [وقلة][1] نظرهم فى معاملتهم، وكذلك صلات الإخوان؟، فالجواب: أنه إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر فلا بأس عليك فى قبول صلتهم وصدقتهم، ولا يلزم البحث بأن يقال: قد فسد الزمن، فإن هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم، بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به.

ثم اعلم ما هو الأصل فى هذا الباب، وهو أن هاهنا شيئين، **أحدهما:** حكم الشرع، وظاهره، **والثانى:** حكم الورع وحقه، فحكم الشرع

والحشيش النابت فى الموات ، وما عداه فقد أخبثته الأيدى العادية ، وأفسدته المعاملات الفاسدة ، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع فى المحرمات ، فرفضوا هذا القطب من الدين أصلاً ، ولم يدركوا بين الأموال فرقاً وفصلاً ، وهيهات هيهات فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات ! ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات . ولما كانت هذه بدعة عم فى الدين ضررها ، واستطار فى الخلق شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان ، ولا يخرجه التضييق عن حيز الإمكان . ونحن نوضح ذلك فى سبعة ابوب : (الباب الأول) فى فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام . (الباب الثانى) فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام . (الباب الثالث) فى البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها فى الحلال والحرام . (الباب الرابع) فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية . (الباب الخامس) فى إدارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم. (الباب السادس) فى الدخول على= = السلاطين ومخالطتهم . (الباب السابع) فى مسائل متفرقة (الغزالى ، إحياء علوم الدين (١٢٤/٢ - ١٢٥) .

(١) ط: وقل.

أن تأخذ ما آتاك ممن ظاهره الصلاح، ولا تسأل إلا أن تتيقن إن غصب أو حرام[١] بعينه، وحكم الورع أن لا تأخذ من أحد شيئاً حتى تبحث عنه غاية البحث، وتستقصى غاية الاستقصاء، فتستيقن أنه لا شبهة فيه بحال، وإلا فترده، ولقد روينا عن أبى بكر الصديق (**رضى الله عنه**): أن غلاماً له أتاه بلبن فشربه فقال الغلام: كنت إذا جئتك بشئ تسألنى عنه، ولم تسألنى عن هذا اللبن، فقال: وما قصته؟ فقال: رقيت قوماً فى الجاهلية فأعطونى هذا اللبن، فتقيأ أبو بكر، وقال اللهم هذا مقدرتى، وما بقى فى العروق فأنت حسبه"، فهذا يدلك على وجوب البحث عما تقدم عليه، إذا كان لك نظر فى الورع وحقه، فهذه هذه.

فإن قلت: فكأن الورع يخالف الشرع وحكمه، فاعلم أن الشرع موضوع على اليسر والسماحة، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: "**بعثت بالحنيفية السمحاء**"[٢]، والورع موضوع على التشديد والاحتياط،

---

(١) + ط : حرام.

(٢) حدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا يزيد قال: أنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن بن عباس. قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسم أى الأديان أحب إلى الله، قال الحنيفية السمحة (مُسند أحمد ١/٢٣٦).

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأديان أحب إلى الله، قال: "الحنيفية السمحة" رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط والبزاز وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ولم يصرح بالسماع. وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت" رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وقال تفرد به عثمان بن كثير. قلت ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

كما قيل: الأمر على المتقى أصعب من عقد التسعين، ثم الورع من الشرع أيضاً، وكلاهما فى الأصل [واحد][1] ، ولكن الشرع حكمان، حكم الجواز، وحكم الأفضل الأحوط، فالجائز نقول له حكم الشرع، والأفضل الأحوط نقول له حكم الورع، فهما مع تميزهما، واحد فى الأصل، فافهم ذلك راشداً.

فإن قلت: إذا جاز لنا البحث والاستقصاء عن كل شئ، فَسَدَ علينا ما نأخذه فى هذا الزمان، وتعذر الأمر بالمرة على صاحب الورع، إذ لابد له من بلاغ يبلغه إلى الطاعة، فاعلم أن طريق الورع شديد، وإن من قصد سلوكه، شرط أن يوطن نفسه على احتمال الشدة، وإلا فلا يتم له ذلك، ولهذا المعنى صار الأكثر من أهل الورع، السابقون إلى جبل لبنان وغيره، فاقتصروا على أكل الحشيش، وثمرة تافهة، لا شبهة فيها بحال، فمن سمت همته إلى [نيل][2] منزلة الورع الأعلى، إذ يحتمل الشدائد، ويصبر عليها، ويسلك طريق أولئك لينال منزلتهم، وأما من أقام بين الناس، وأكل مما يتداولونه فى أيديهم، فليكن عنده بمنزلة الميتة، لا يقوم عليها إلا عند الضرورة ، ثم لا يتناول منه إلا بمقدار ما يبلّغه إلى الطاعات، فيكون له عذر فى ذلك ، ولا يضره ، إذ كان فى أصله شبهة ، فإن الله تعالى أولى بالعذر ولقد قال الحسن البصرى (رحمه الله): "إذا فسد السوق فعليكم بالقوت" ، ولقد بلغنى عن **وهيب**

وسلم: "إن أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة" رواه فى الأوسط وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفارى منكر الحديث.

(١) ط: واحدة.

(٢) ط : نبل.

بن الورد[1] إنه كان يجوّع نفسه يوماً ويومين وثلاثة، ثم يأخذ رغيفاً ويقول: اللهم أنك تعلم أنى لا أقوى على العبادة، وأخشى الضعف، وإلا لم آكله، اللهم وإن كان فيه شئ من خبث أو حرام، فلا تؤاخذنى، ثم يبل الرغيف فى الماء ويأكله".

قلت: فهذان الطريقان للطبقة العليا من أهل الروع فيما نعلمه، وأما من دونهم فلهم احتياط وبحث على مقدار، ولهم أيضاً نصيب <من>[2] الورع على مقدار، وبقدر ما تَتَعنّى تنال ما تَتَمنّى، والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وهو عليم بما يفعلون.

فإن قيل: فهذا جانب الحرام، فأخبرنا عن جانب الحلال، وما حد الفضول، الذى يلزم منه الحساب والحبس، وما المقدار الذى يلزم إذا أخذه العبد يكون أدباً، ولا يكون فضولاً، ولا عليه فيه حبس ولا حساب، يقال له: اعلم أن أحوال المباح فى الجملة ثلاثة أقسام، **أحدها:** أن يأخذه العبد مفاخراً مكاثراً مباهياً مرائياً، فيكون الأخذ منه فعلاً منكراً، يستوجب

---

(١) وهيب بن ورد ، هو : أخو عبد الجبار ابن الورد ، العابد الرباني ، أبو أمية ، ويقال أبو عثمان المكي ، مولى بني مخزوم . ويقال : اسمه : عبد الوهاب (ت ١٥٣ هـ) أخذ عن تابعي لقي عائشة ، وعن حميد الأعرج ، وعمر بن محمد بن المنكدر وأخذ عنه : بشر بن منصور السلمي ، وابن المبارك ، وعبد الرزاق ، وإدريس بن محمد الروزى ، وآخرون . قال ابن إدريس : ما رأيت أعبد منه .وقال ابن المبارك : قيل لوهيب : يجد طعم العبادة من يعصي ؟ قال ولا من يهم بالمعصية . وعن الثوري أنه قال : قوموا إلى الطبيب – يعنى وهيباً – وقيل : أنه حلف أن لا يضحك حتى تعلمه الملائكة بمنزلته إذا احتضر . قال ابن معين : ثقة .وقال النسائي : ليس به بأس .(الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٧ / ١٤٤) .

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

على ظاهر فعله الحبس والحساب، واللوم والتعيير، وهو منكر وشر، ويستوجب على باطن فعله وهو التكاثر والتفاخر عذاب النار، وذلك القصد فيه معصية وذنب، قال تعالى: "**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر..** إلى قوله **عذاب شديد**"(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: "**من طلب الدنيا حلالاً متباهياً مفاخراً مكاثراً مباهياً لقى الله تعالى وهو عليه غضبان**"(٢)، فالوعيد على قصد ذلك بقلبه.

والثانى: أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير، فذلك منه شر يستوجب عليه الحبس والحساب، قال تعالى: "**ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم**"(٣).

والقسم الثالث: أن يأخذ الحلال فى حال العذر قدراً يستعين به على عبادة الله، ويقتصر على ذلك، فذلك له خير وحسنة وأدب، لا يستوجب عليه حساب ولا عذاب، بل يستوجب عليه الأجر والمدحة، لقوله تعالى: "**أولئك لهم نصيب مما كسبوا**"(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: "**من طلب الدنيا حلالاً واستعفافاً عن المسألة، وتعطفا على جاره،**

---

(١) سورة الحديد، آية ٢٠.

(٢) من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً تفاخراً لقى الله تعالى وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر (السبكى، تذكرة الموضوعات ١/١٧٤) .

- من طلب الدنيا حلالاً استعفافاً عن المسألة وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره، بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر، ومن طلبها حلالاً متكاثراً بها مفاخراً لقى الله وهو عليه غضبان (الألبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٣/١٠٣٢) .

(٣) سورة التكاثر، آية ٨.

(٤) سورة البقرة، آية ١٥٧.

وسعياً على عياله، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر"[١]، وذلك لما قصد هذه المقاصد المحمودة لله تعالى، فهذه هذه فاعلمها.

فإن قيل: فما شرط المباح، حتى يصير خيراً وحسنة كما ذكرتم؟، فاعلم أنه يحتاج كونه خيراً فى الأصل، إلى شرطين: **أحدهما:** الحلال، **والثانى:** القصد فى الحلال يجب أن يكون فى حال عذر، وهو بحيث إن لم يأخذ يؤخذ، وتفسيره أن يكون حاله إن لم يأخذ هذا المباح، فينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل، [يكون][٢] ذلك أفضل من ترك المباح، فإن ترك مباح الدنيا فضيلة، فإذا كان الحال كذلك فهو حال العذر.

وأما القصد فهو أن يقصد به العُدة، والاستعانة على عبادة الله تعالى، وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا ما فيه من التوصل إلى عبادة الله سبحانه، ما أخذت ذلك، فهذا ذكر الحجة فى حال العذر، وصار ذلك الأخذ من الدنيا الحلال خيراً وحسنة وأدباً، وأما إن كان حاله حال العذر، ولا يكون هذا القصد والذكر، أو يكون له هذا الذكر، ولا يكون فى حال العذر، فلا يصير ذلك الأخذ من جملة الخيرات.

[أما] [٣] <أمر>[٤] الاستقامة على حفظ هذا الأدب فيحتاج إلى بصيرة وقصد، يحمل بأنه لا يأخذ الدنيا بحال، إلا للعُدّة على عبادة الله سبحانه، حتى أنه <إذا>[٥]سهى عن ذكر الحجة فى الحال، أجزأه ذلك

---

(١) أنظر تخريج الحديث السابق.

(٢) ط : تكون.

(٣) ط : ثم .

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) زيادة يقتضيها السياق .

القصد المجمل عن تجريد ذكر الحجة، قال شيخنا (رحمه الله): "فصارت الأمور الثلاثة معتبرة كل واحدة من وجه"، يعنى أن الذكر والحال معتبران فى حصول كونه خيراً أصلاً، والقصد المجمل المقتضى على بصيرة منزلة الأدب، معتبراً فى الاستقامة عليه، فأفهم ذلك راشداً.

فإن قيل: فإن أخذ الدنيا الحلال لشهوة، فهل يكون ذلك معصية، وهل يلزم عليه عذاب، وهل الأخذ بالعذر فرض أصلاً أم لا؟، فاعلم أن ذلك فضيلة، ونسميه خيراً وحسنة، والأمر به تأديب، والأخذ بالشهوة شر وسيئة، والنهى عنه زجر وليس ذلك بمعصية، ولا يكون عليه عذاب، وإنما عليه الحبس والحساب، واللوم والتعبير.

فإن قلت: فما هذا الحبس والحساب الذى يلزم العبد؟، فاعلم أن الحساب أن تُسأل يوم القيامة عن ماذا اكتسبت، وفيم أنفقت، وماذا[١] أردت بذلك، والحبس حبس عن الجنة مدة الحساب، "فى عرصات القيامة، بين أهوالها ومخاوفها عرياناً عطشاناً، وكفى بذلك بليّة، فإن قيل: فإن الله سبحانه قد أحل لنا هذا الحلال، فاللوم والتعبير فى أخذه لماذا؟، فاعلم أن اللوم والتعبير لترك الأدب، كمن جلس على مائدة الملك، فترك الأدب، فإنه يعيّر بذلك ويلام، وإن كان الطعام مباحاً، والأصل فى ذلك أن الله تعالى خلق العبد لعبادته، وهو عبد الله من كل وجه"[٢]، فحق على العبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه، ويجعل أفعاله كلها عبادة من أى

---

(١) + ط: لهذا.

(٢) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: فى عرصات القيامة، بين أهوالها ومخاوفها عرياناً عطشاناً... إلى قوله: وهو عبد الله من كل وجه. مقروءة بصعوبة فى ط .

وجه أمكنه، وإن لم يفعل ذلك، واثر شهوة نفسه، واشتغل بذلك عن عبادة ربه، مع تمكنه من ذلك من غير تعذر، والدار دار خدمة، وعبادة، لا دار تنعيم وشهوة، استحق بذلك اللوم والتعيير من سيده، فتأمل هذا الأصل راشداً، **ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم**.

فهذه الجملة التى [أردنا][1] بيانها فى إصلاح النفس وإلجامها بلجام التقوى، فارعها حقها، واحتفظ بها تَفُزْ بالعصمة العظيمة الطويلة فإنها أعظم العقبات فتنة، وأكثرها مؤنة، وأكبرها آفة وفتنة، فإن هلك من الخلق كلهم، إنما انقطعوا عن الحق إما بسبب الدنيا أو خلق، أو شيطان، أو نفس، ولقد ذكرنا فى كتبنا المصنفة، فى كتاب الإحياء، والأسرار والقربة ما يبعث على الاهتمام بذلك.

ومقصود هذا الكتاب: أنى سألت الله تعالى أن يطلعنى على سر معالجة النفس، وأن يصلحنى، ويصلح بى، فاقتصرت فى هذا الكتاب الشريف، على نكت وجيزة اللفظ، عزيزة المعنى، يقنع من تأملها، وتضعه على واضحة من الطريق، إن شاء الله تعالى.

أما الدنيا: فحق لها أن تحذرها وتزهد فيها، لأن الأمر لا يخلو من ثلاثة أوجه، إما أنك من ذوى البصائر والفطن، فحسبك أن الدنيا عدوة الله سبحانه، وهو حبيبك ووليُّك، وأن الدنيا نقيصه عقلك، والعقل قيمتك، وأما أنك من ذوى الهمم فى عبادة الله تعالى، والاجتهاد، [فحسبك][2] أن الدنيا بلغ شؤمها، ما يمنعك إرادتها، وتشغلك الفكرة فيها، عن العبادة

---

(١) ط : أردناها.

(٢) ط : فحبك.

والخير، فكيف نفسها؟، وإما أنك من ذوى الغفلة، لا بصيرة لك تبصر الحقائق، ولا همة لك تبعث على المكارة، فحسبك أن الدنيا لا تبقى، إما أن تفارقها، وإما أن تفارقك، كما قال الحسن: "إذا بقيت لك الدنيا لم تبق لها، فأى فائدة إذن فى طلبها، إنفاق العمر العزيز عليها؟، ولقد أحسن القائل:

هَبِ الدُّنْيا تَصِيْرُ إليْكَ عفواً ... أَلَيْسَ مَصِيْرُ ذَاكَ إلى الزَّوالِ

ومَا دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ ظِلّ ... أَظَلَّكَ ثُمَّ آذَنَ بارْتحالِ[1]

فلا ينبغى لعاقل أن ينخدع بها، ولقد صدق القائل:

أَضْغَاثُ نومٍ أو كَظلٍ زائلٍ ... إن اللبيْبَ بمثْلِهَا لا يُخْدَعُ[2]

وأما الشيطان فحسبك فيه ما قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: "**وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون**"[3]، فهذا خير العاملين، وأعلمهم وأعقلهم وأفضلهم عند الله تعالى، يحتاج مع ذلك أن يستعيذ بالله من شر الشيطان، فكيف بك مع جهلك ونقصك وغفلتك؟!

وأما الخلق فحسبك أنك إن خالطتهم، ووافقتهم فى أهوائهم أثمت، وأفسدت أمر آخرتك، وإن خالفتهم [نلت ذَمهم][4] وجفواتهم، وكدرت عليك أمر دنياك، ثم لا تأمن أن يُلْجِئوك إلى معاداتهم، ومساواتهم، فتقع

---

(١) البيتان من بحر الوافر (مفاعلتن – مفاعلتن – مفولعن).

(٢) البيت من بحر الكامل (مستفعلن – متفاعلن – مستفعلن).

(٣) سورة المؤمنون، آيات ٩٧-٩٨.

(٤) غير واضحة فى ط ، وتبدو هكذا كما أوردتها.

فى شرهم، وأنهم إن مدحوك وعظموك، أخاف عليك الفتنة والعجب، وإن ذمّوك وحقروك، أخاف عليك الحزن تارة، والغضب لغير الله تعالى أخرى، وكلا الأمرين آفة مهلكة؟، ثم اذكر حالك معهم بعد ما صرت إلى القبر بثلاثة أيام، كيف يتركونك، ويجحِدونك وينسونك، كأنك لم ترهم يوماً، ولم يروك، فلا يبقى هنالك إلا الله سبحانه وتعالى، أو لا يكون من الغبن العظيم، أن تضيع أيامك مع هؤلاء الخلق، مع قلة الوفاء، وقلة البقاء معهم، وتترك خدمة الله تعالى، الذى ترجع إليه آخر الأمر وحدك، ولا يبقى لك إلا هو وحده أبد الآبدين؟، الحاجات كلها إليه، والتكلان كله عليه، والاعتصام كله به فى كل حال، وعند كل شدة وهول به وحده لا شريك له، فتأمل يا مسكين لعلك ترشد إن شاء الله تعالى، والله ولى الهداية بفضله.

وأما النفس: فحسبك ما تشاهد من حالاتها، ورداءة إرادتها، وسوء اختيارها، فهى فى حال الشهوة بهيمة، وفى الغضب سَبْع، وفى حال المصيبة تراها طفلاً، وفى حال النعمة تراها فرعون، وفى حال الجوع تراها مجنوناً، وفى حال الشبع تراها محتالاً، إن أشبعتها بطرت وفرحت، وإن جوعتها صاحت وجزعت، فهى كما قال [الأولون][1] كحمار السوء إن أشبعته <تمرد على>[2] الناس، وإن جاع نهقً، ولقد صدق بعض العارفين حين قال: "إن رداءة هذه النفس وجهلها، بحيث إذا همت بمعصية، وانبعثت لشهوة، لو تشفعت إليها بالله تعالى ثم برسوله، وبجميع

---

(١) ط: الأول.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

أنبيائه، وبكتابه، وبجميع السلف الصالح من عباده، وتعرض عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار، لا تعطى القياد، ولا تترك الشهوة، ثم إن استقبلتها برغيف، تسكت وتترك شهوتها، لتعلم خستها وجهلها، فإياك – أيها الرجل – أن تغفل عنها، فإنها كما قال خالقها العالم بها جل جلاله: "**إن النفس لأمارة بالسوء**"[1]، فكفى بهذا تنبيهاً.

ولقد بلغنا عن بعض الصالحين، أنه قال: "نازعتنى نفسى بالخروج إلى الغزو، فقلت سبحان الله، إن الله تعالى يقول: "**إن النفس لأمارة بالسوء**"، وهذه تأمرنى بالخير، لا يكون هذا أبداً، ولكنها استوحشت، فتريد لقاء الناس، فتستريح إليهم، ويتسامع الناس بها، فيستقبلونها بالإكرام والبر والتعظيم، فقلت لها: لا أنزلك العمران أبداً، ولا أنزل على معرفة، فأجابت، فأسأت الظن بها، وقلت: الله تعالى أصدق، فقلت لها: أقاتل العدو حاسراً، فتكونين أول قتيل، فأجابت، وعدّ الأشياء مما أرادها فأجابت إلى كل ذلك، قال: فقلت: اللهم نبهنى لها فإنى متهم لها، مصدق لها، فكوشفت كأنها تقول: يا أحمد أنت تقتلنى كل يوم بمنعك إياى شهواتى مرات، وبمخالفتك، ولا يشعر بى أحد، فإن قاتلت، قُتلت مرة واحدة، فنجوت منك[2] ويتسامع الناس، فيقال: استُشْهِد أحمد، ويكون لى شرفاً وذكراً، قال: فقعدت ولم أخرج إلى الغزو فى ذلك العام".

فانظر إلى خداع هذه النفس وغرورها، ترائى الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد فتنبه – رحمك الله – إلى هذه الخداعة الأمارة بالسوء،

---

(١) سورة يوسف، آية ٥٣.

(٢) +ط : منك.

ووطن نفسك على مخالفتها بكل حال تصب وتسلم إن شاء الله تعالى، ثم عليك بإلجامها بلجام التقوى، فلا حيلة لنا سواه.

واعلم أن هاهنا أصلاً أصيلاً، وهو أن للعبادة شطران، شطر الاكتساب، وشطر الاجتناب، فالاكتساب فعل الطاعات، والاجتناب حال أسلم وأصلح وأفضل وأشرف للعبد من الاكتساب، ولذلك يشغل المبتدئون فى أهل العبادة، الذين هم فى أول درجة. بشطر الاكتساب، كل همتهم أن يصوموا نهارهم، ويقوموا ليلهم، ونحو ذلك، ويشتغل المنتهون، أول البصائر من أهل العبادة، بشطر الاجتناب، إنما همتهم أن يحفظوا قلوبهم عن الميل إلى غير الله، وبطونهم عن الفضول، وألسنتهم عن اللغو، وأعينهم عن النظر إلى ما لا يعنيهم، ولهذا المعنى قال العابد الثانى من العباد السبعة **ليونس**[1] (عليه السلام) : "يا يونس من الناس من حبب إليهم الصلاة، فلا يؤثرون عليها شيئاً، وهى عمود العدة بالنيات لله تعالى، والصدق والتضرع والابتهال، ومنهم من حبب [إليهم] [2] الصوم، فلا يؤثرون عليه شيئاً، ومنهم من حبب إليه الصدقة، فلا يؤثرون عليها شيئاً، يا يونس وأنا مفسر لك هذه الخصال، اجعل صومك الصمت عن كل سوء، واجعل صدقتك كفى الأذى، فإنك لا تتصدق بشئ أفضل منه، ولا تصوم بشئ أزكى منه"، فإذا علمت أن جانب الاجتناب أولى بالرعاية، والاجتهاد فيه، فإن حصل لك الشطران جميعاً، الاكتساب والاجتناب، فقد

---

(١) يونس: هو نبى الله ، يونس بن متى ، عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وتسليمه .

(٢) ط : إليه .

استكمل أمرك، وحصل مرادك، ولقد سلمت وغنمت، فإن لم تبلغ إلا إلى أحدهما فليكن ذلك جانب الاجتناب، فتسلم إن لم تغنم، وإلا خسرت الشطرين جميعاً، وما ينفعك قيام [ليل][1] وتعبه، ثم تحبط بإرادة واحدة، وما يغنيك صيام نهار طويل، ويفسد بكلمة واحدة.

ولقد روينا عن ابن عباس أنه قيل له: "ما تقول في رجلين، أحدهما كثير الشر كثير الخير، والآخر قليل الشر قليل الخير؟، فقال: لا أعدل بالسلامة شيئاً"، ومثال ما قلناه حال المريض، ذلك أن معالجة المريض نصفان، نصف هو الدواء، ونصف هو الاحتماء، فإن احتمى فكأنك بالمريض قد برئ وصحّ، وإلا فالاحتماء به أولى له، فإنه لا ينفع دواء مع ترك الاحتماء، ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أصل الدواء الحمية**"[2]، والمعنى بها والله أعلم أنها <تشفي>[3] من كل داء، ولذلك يقال إن أهل الهند جُلّ معالجتهم الحمية، فيمنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدة أيام، فيبرأ ويصح بهذا لا غيره. فتبين لك بهذه الجملة أن التقوى ملاك الأمر وجوهره، وأهلها هم الطبقة العالية العليا من العباد، فعليك بذل المجهود بذلك، وصرف جُلّ العناية إليه، **والله سبحانه وليّ التوفيق.**

---

(١) ط : ليلة.

(٢) انظر تخريج هذا الحديث فيما سبق .

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

ثم راع هذه الأعضاء الأربعة التى هى الأصول: **الأول: العـــين**، وحسبك فيها أن مدار أمر الدين والدنيا على القلب، وأن خطـــر القلـــب وشغله وفساده فى الأكثر من العين، ولذلك قال عليه الـــصلاة والـــسلام: "**من لم يملك عينيه، فليس للقلب عنده قيمة**"[١].

و<**الثانى**>[٢]: **اللسان**، وحسبك فيه ربحك وقيمتك، وثمرة تعبك واجتهادك كله، العبادة والطاعة، فإن خطر العبادة، واحتياطها وفـــسادها، فى الأكثر من قِبل اللسان، والتصنع والتزين والغيبة ونحوها، يفسد عليك بلحظة واحدة ما بقيت سنة، بل خمساً وعشراً، ولذلك قيل: "**ما شئ أحق بطول حبس من اللسان**"، وفيما روى أن أحد العباد السبعة قال ليـــونس عليه السلام: "يا يونس إن العباد إذا اجتهدوا فى العبادة، لم يتقـــوا علـــى عبادتهم بشئ أفضل من الصبر عن الكلام"، فى فصل طويل، ثم عاد إلى ذلك وقال: "ولا يكونن عندك شئ آثر عندك من حفظ لسانك، ولا تكونن بشئ أعنى منه سلامة من صدرك"، فهذه هذه.

[مثال الاستغفار][٣] الذى تكلمت فيه بفضول، ما كان يضرك لـــو قلت: "**استغفر الله**"، فربما توافق ساعة عزيزة، فيغفر الله تعـــالى لـــك، وتريح رأسك، فَيُكَفِّر الله لك القبيح، أو تقول: "**لا إله إلا الله**"، فيكون لـــك من الأجر والزخر ما لا يحيط به وهمك، أو تقول: "**أسأل الله العافيـــة**"،

---

(١) هذا معنى حديث أورده الغزالى بصيغة نفى الشرط وجوابه من حديث: "ما من مـــسلم ينظر إلى امرأة أول رمقة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله تعالى له عبادة يجد حلاوتها فـــى قلبه" (الألبانى، ضعيف الجامع ٤/٥٢٢١).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) غير واضحة فى ط، وتبدو كما أوردتها.

فربما يتفق حسن النظر، فيستجيب الله لك دعوتك، [فتنجو] [١] من بلية الدنيا والآخرة، أن لا يكون [من][٢] الخسران العظيم، والغيبة القطيع، أن تفوّت على نفسك كل هذه العوايد الكريمة، وتجعل نفسك ووقتك فى أقل فضول ما يلزم فيه اللوم والحساب يوم القيامة، ولقد أحسن القائل:

وإذا ما هممَت بالنطق فى الباطِلِ فاجْعَلْ مكَانَه تَسبْيْحاً

واغْتَنم رْكْعَتيْن فى ظلمةِ الليلِ إذا كُنْتَ خَالياً مستريحاً[٣].

والثالث: البطن، وحسبك أن مقصودك العبادة، وأن الطعام والشراب بذر العمل، وماؤه، منه يبدأ وينبت، وإذا خبث البذر، لا يطيب الزرع، بل فيه خطر أن يفسد عليك أرضك، فلا تفلح أبداً، ومن ذلك ما بلغنى عن **معروف الكرخى**[٤] أنه قال: "إذا صمت فانظر على أى شئ

---

(١) ط : فنجوت .

(٢) ط : منه.

(٣) البيتان من بحر الخفيف (فاعلاتن – مستفعلن – فاعلاتن). وقد مرّ ذكرهما مع عكس المواضع، فالأول مكان الثانى، والثانى مكان الأول.

(٤) معروف الكرخى، هو: هو: معروف الكرخي علم الزهاد ، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي ، واسم أبيه فيروز ، وقيل : فيرزان ، ت ٢٠٠ هـ :كان أبواه نصرانيين ، فأسلماه إلي مؤدب كان يقول له قل : ثالث ثلاثة ، فيقول معروف : بل هو الواحد ، فيضربه ، فيهرب ، فكان والداه يقولان ليته رجع ، ثم إن أبويه أسلما . وروى عنه :الربيع بن صبيح ، وبكر بن خنيس ، وابن السماك قليلاً ، ويحيي بن أبي طالب .. وغيرهم. وقد ذكر معروف عند الإمام أحمد ، فقيل : قصير العلم ، فقال: أمسك، وهل يراد العلم إلا ما وصل إليه معروف . وقيل فيه : مازال أهل بغداد بخير ما بقي فيهم . ومن أقوال معروف: إذا أراد الله بعبد شراً ، أغلق عنه باب العمل ، وفتح عليه باب الجدال . وقال : ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين . وأتي رجل بعشرة دنانير إلي معروف ، فمر سائل ، فناوله إياها ، وكان يبكي ، ثم يقول يا نفس كم تبكين ؟أخلصي تخلصي . وسئل=

تفطر، وعند من تفطر، وطعام من تأكل، فكم مم يأكل أكله فينقلب قلبه عما كان عليه لا يعود، إلى حاله أبداً، وكم من [أكلة][1] حرّمت عليه قيام ليلة، ومن نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل الأكلة فيحرم بها قيام سنة"، فعليك أيها الرجل - بالنظر الدقيق، والاحتياط البالغ الشديد فى قوتك، إن كان لك عناية بقلبك، وهمة بعبادة ربك، هذا فى أصل القوت، حتى يكون فى وجهه.

= كيف تصوم ؟ فغالط السائل ، وقال: صوم نبينا-ﷺ- كان كذا وكذا ، وصوم داود كان كذا وكذا ، فألح عليه ، فقال :أصبح دهرى صائماً ، فمن دعاني ، أكلت ولم أقل إني صائم . وقص إنسان شارب معروف ، فلم يفتر من الذكر ، فقال :كيف أقص ؟ فقال : أنت تعمل وأنا أعمل . ذات مرة : اغتاب رجل عند معروف ، فقال :اذكر القطن إذا وضع علي عينيك .وعنه قال :من كابر الله ، صرعه ، ومن نازعه ، قصمه ، ومن ماكره، خدعه ، ومن توكل عليه ، منعه ، ومن تواضع له ، رفعه ، كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله وأنشد مرة في السحر قائلاً :

ما تضر الذنوب لو أعتقتني رحمةً لي فقد علاني المشيب

وقعد أحدهم إلي معروف ، فسمعه يقول : واغوثاه يا لله ، عشرة آلاف مرة ، وتلا: (إذ تستغيثون ربكم يستجب لكم) وقال محمد بن منصور الطوسي : كنت عند معروف ، ثم جئت ، وفي وجهه أثر، فسئل عنه ، فقال للسائل : سل عما يعنيك عافاك الله ، فأقسم عليه ، فتغير وجهه ، ثم قال : صليت البارحة ، ومضيت ، فطفت بالبيت ، وجئت لأشرب من زمزم ، فزلقت ، فأصاب وجهي هذا . وذكر يعقوب ابن أخي معروف ، أن معروفاً استسقي لهم في يوم حار ، فما استتموا رفع ثيابهم حتى مطروا . وقد استجيب دعاءه في غير قضية، وأفرد الإمام أبو الفرج بن الجوزي مناقب معروف في أربع كراريس . وتوفي معروف- رحمه الله- سنة مائتين (راجع ، الذهبي ،سير أعلام النبلاء ٨ / ٢٢٢- ٢٢٤) .

(١) ط: أكل.

ثم عليك بالأدب فيه، وإلاّ كنت حمالاً للطعام، مطيعاً للأيام، إذ قد علمنا يقينا، بل رأينا عياناً أن العبادة لا يجئ منها بشئ إذا امتلأ البطن، وإن كرهت النفس على ذلك، وجاهدت بضروب الحيل، فلا يكون لتلك العبادة لذّة، ولا حلاوة، ولذلك قيل: "لا تطمع بحلاوة فى العبادة مع كثرة الأكل"، وأى نور فى نفس بلا عبادة، وفى عبادة بلا لذة، ولا حلاوة، ولهذا المعنى قال **إبراهيم بن أدهم**[1]: "صحبت أكثر رجال الله فى جبل لبنان فكانوا يوصوننى: إذا رجعت لأبناء الدنيا فعظهم بأربع: قل لهم من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن ينم كثيراً لا يجد فى عمره بركة، ومن طلب رضا الناس، فلا ينتظر رضا الله تعالى، ومن يكثر الكلام بفضول وغيبة، فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام"، قال: "جميع الحكمة فى هذه الخصال الأربع، وبها صارت الإبدال إبدالاً: فخماص البطون، والصمت ، والعزلة عن الخلق، وسهر الليل". وقال بعض العارفين: "الجوع رأس مالنا"، ومعناه أن ما يحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم نافع، بسبب الجوع والصبر عليه لله سبحانه وتعالى.

وأما **القلب:** فحسبك أنه أصل الكل، إن أفسدته فسد الكل، وإن أصلحته صلح الكل، إذ هو الشجرة، وسائر الأعضاء أغصان، ومن الشجرة تنتشر أغصان الشجرة وتصلح وتفسد، وسائر الأعضاء تبع وأركان، فإذا صلح الملك صلحت الرعية، وإذا فسد فسدت، فإذن صلاح العين واللسان والبطن وغيره، دليل على صلاح القلب، وعمرانه، وإذا

---

(١) إبراهيم بن أدهم : تابعى جليل ، وقد مرّت ترجمته .

رأيت فيهم خللاً وفساداً، فاعلم أن ذلك خلل فى القلب وفساد وقع، بل فساد فيه أكثر، فاصرف عنايتك إليه فأصلحه يصلح الكل بمرة، تسترح.
ثم إن أمره دقيق عسير، إذ هو مبنى على الخواطر، وهى ليست تحت يدك، والامتناع فى اتباعها مجهود طاقتك، ففيه أقصى المشقة، فلذلك كان إصلاحه أشد على أهل الاجتهاد، والاهتمام به أشد عند ذوى البصائر، وعن **أبى يزيد**[1] (رحمه الله) أنه قال: "عالجت قلبى عشراً، ونفسى عشراً، ولسانى عشراً، فكان قلبى أصعب الثلاث"، فهذه هذه.
ثم عليك بالاهتمام بالخصال [الأربع][2] التى ذكرناها، من الأمل، والعجلة فى الأمور، والحسد، والكبر، وإنما خصصنا هذه الأربع من بين سائر الخصال فى هذا الموضع، وخصصنا على الاحتراز منها، أنها على القرّاء خاصة، إذ هى تعتر فى سائر الناس عموماً، والقّراء خصوصاً، فتكون أقبح وأشنع، ترى الرجل القارئ يطوّل الأمل، ويعده نية خير فيوقعه فى الكسل، والتوانى عن العمل، وتراه يستعجل فى تحصيل منازل الخير، فينقطع عنها، أو فى إجابة دعاء صالح فيحرم ذلك، أو فى الدعاء على أحدٍ بسوء، فيندم على ذلك، كما ذكر عن **نوح**[3] (عليه السلام)، وتراه يحسد نُظَرَاءه على ما آتاهم الله من فضله، حتى بما يبلغ ذلك منه مبلغاً يحمله على قبائح وفضائح، لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر، ولهذا المعنى قال سفيان الثورى (رحمه الله): "ما أخاف على ذمى إلا القراء

---

(١) هو، أبو يزيد البسطامى، وقد مرّت ترجمته.
(٢) ط : الأربعة.
(٣) هو بنى الله نوح بن لامك ، عليه وعلى جميع الأنبياء والرسل صلوات الله وتسليمه .

والعلماء"، فاستكبروا ذلك منه، فقال: "ما أنا قلتــه، بــل قالــه **إبــراهيم النخعى**"[1]، وعن عطاء أنه قال: قال الثورى: "احذروا القراء، وأحذرونى معهم، فلو خالقت أجدهم [فى][2] رمانة فقلت أنهــا حلــوة، وقــال أنهــا حامضة، ما أمنته أن يسعى بدمى عند سلطان جائر". وعن مالــك بــن دينار أنه قال: "إنى أقبل شهادة كل القراء على جميع الخلــق، ولا أقبــل شهادة بعضهم على بعض، لأنى وجدتهم حسودا".

وعن **الفضيل**[3] أنه قال لابنه: "اشتر لى داراً بعيدة عن القــراء، مالى ولقوم إذا ظهرت منى ذلة هتكــونى، وإن ظهــرت علــىّ نعمــة حسدونى"، ولذا كنت تراه يتكبر على الناس، مصعراً خدّه، معيباً وجهه،

---

(١) إبراهيم النخعى، هو : إبراهيم النخعى الإمام ، الحافظ ،فقيه العراق ، أبو عمــران ، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعه بن ذهل بن مالك بــن (النخــع) النخعى ، اليماني ثم الكوفى (ت ٩٦ هــ)أحد الأعلام ، وهو ابن مليكه أخت الأســود بــن يزيد، وقد دخل على أم المؤمنين عائشة وهو صبى ، ولم يثبت له منها سماع ، علــى أن روايته عنها في كتب أبى داود والنسائي والقزوينى ، فأهل الصنعة يعدون ذلك غير متصل مع عدهم كلهم لإبراهيم في التابعين ، ولكنه ليس من كبار هم ، وكان بصيراً بعلــم ابــن مسعود ، واسع الرواية ، فقيه النفس ، كبير الشأن ، كثير المحاســن ، رحمــه الله تعــالى .وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما ، وكان رجلاً صالحاً ، فقيهاً ، متوقيًــا ، قليل التكلف وهو مختفٍ من الحجاج . وروي جرير عن إسماعيل بن أبى خالد ، قال : كان الشعبي وإبراهيم وأبو الضحى يجتمعون في المسجد يتذاكرون الحديث ، فإذا جاءهم شيء ليس فيه عندهم رواية ، رموا إبراهيم بأبصارهم . قال مغيرة : كنا نهــاب إبــراهيم هيبة الأمير . وقال سعيد بن جبير : أتستفتونى وفيكم إبراهيم ؟ . (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٥/٤١٦ - ٤١٧) .

(٢) ط : فيه.

(٣) الفضيل، هو: الفضيل بن عياض ، وقد مرّت ترجمته .

كأنه يمن على الناس، فما يصلى زيادة ركعتين، أو كأنما جاءه من الله مبشراً بالجنة، وبالبراءة من النار، أو متيقنا من السعادة لنفسه، والشقاوة لسائر الناس، ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين، من صوف وغيره، وهذا لا يليق بالترفع والتكبر، ولا [يلاءمة] [١]، بل يناقضه، ولكن الأعمى لا يبصر.

وذكر أن فرقد السرخسيّ دخل على الحسن البصرى، وعليه كساء وعلى الحسن حُلة، فجعل يلمسها، فقال الحسن: مالك تنظر إلى ثيابى، ثيابى ثياب أهل الجنة، وثيابك ثياب أهل النار، بلغنى أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية، ثم قال الحسن: جعلوا الزهد فى ثيابهم، والكبر فى قلوبهم، والذى يخلف به لأحدهم بكسائه، أعظم كبراً من صاحب المطرف بمطرفه"، وإلى هذا المعنى أشار ذو النون رحمه الله:

تَصَوفَّ فازْدَهي بالصُّوْفِ جَهْلاً ... وبَعْضُ النَّاسِ يَلْبَسه مَجَانَهْ
يُرِيْكَ مَهَابةً ويُرِيْكَ كِبْراً... ... ولَيْسَ الكِبْرُ مِنْ شَأْنِ المَهانهْ
تَصَوَّفَ كى يُقَالَ له أمِيْنٌ ... وَمَا معنى تَصَوُّفِه الأَمَانهْ
ولَم يُرِدْ الإلَهُ بِهِ ولَكِنْ ... أَرَادَ بِهِ الطَّرِيْقُ إلى الخِيَانَهْ[٢]

فلتحذر – أيها الرجل – من هذه الآفات الأكبر، لاسيما الكبر، فإن هذه الثلاثة الأولى مداحض، لو زللت فيها لوقعت فى العصيان، والكبر مدحض لو وقعت فيه لوقعت فى الكفر والطغيان، ولا تنسى حديث إبليس وفتنته، إنه [أبى][٣] واستكبر وكان من الكافرين، والرجوع إلى الله أن يعصمنا جميعاً

---

(١) ط : يلاومه .

(٢) الأبيات من بحر الوافر (مفاعلتن – مفاعلتن – فعولن).

(٣) ط : أبا.

بحسن نظره، إنه الجواد الكريم.

فصل

وجملة الأمر أنك إذا نظرت بعقلك – أيها الرجـــل – فعلمـــت أن الدنيا لابقاء لها، وأن نفعها لا يفى بضرها، وتباعتها من كدّ البدن، وشغل القلب فى الدنيا، والعذاب الأليم، والحساب الطويل فى الآخرة، زهدت فى فضولها، فلا تأخذ منها إلا ما لابُد لك منه فى عبادة ربك، وتدع التـــنعم والتلذذ إلى الجنة، دار النعيم المقيم، فى جـــوار رب العـــالمين، الملـــك القادر، الغنى الكريم، وعلمت <أن>[١] الخلق لا بقاء لهم، وأن مـــؤنتهم أكثر من معاونتهم فيما يعنيك، تركت مخالطتهم، إلا فيما لابد لك منـــه، تنتفع بخيرهم، وتجتنب ضرهم، وتجعل صحبتك لمـــن لا تخـــسر مـــن صحبته، ولا تندم على خدمته، [ويمسك لسانك عـــن][٢] ملامتـــك إيـــاه، فيكون ذلك بكل حال، وترى منه كل جميل وإفضال، عند كل نائبة فـــى الدنيا وفى الآخرة. واعلم الشيطان حيث قد تجرد لمعاداتـــك، فاســـتعذت بربك القادر القاهر، من هذا الكلـــب اللعـــين، ولا تغفـــل عـــن مكائـــده ومصائده، فتطرده بذكر الله تعالى، ولا تعبأنّ بذلك، فإنه يسير إذا ظهرت عزيمة الرجل كما قال تعالى: "**إنه ليس له سلطان على الـــذين آمنـــوا وعلى ربهم يتوكلون**"[٣]، ولقد صدق أحد الصالحين حين قال: ما الدنيا، وما إبليس؟، أما الدنيا: فما مضى فحكم، وما بقى فأمانٍ، وأمّا الـــشيطان

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) غير واضحة فى ط، وتبدو كما أوردتها.

(٣) سورة النحل ، آية ٩٩.

فوالله لقد أُطيع فما نفع، وعصى فما ضر".

وعلمت جهالة هذه النفس، وحجاجها إلى ما يــضرها ويهلكهــا، نظرت لها رحمة نظرة العلماء الذين ينظرون إلى العواقــب، لا نظــرة الصبيان والجهال، الذين ينظرون فى الحال، ولا ينظرون نفايــة الأذى، ويفرون من مرارة الدواء، وألجمتها بلجام التقوى، بأن تمنعها عن ما لا يُحتاج إليه فى الحقيقة، من فضول كلام ونظر، وتلبس بخصلة فاسدة، من طول أمل ، أو عجل، أو حسد مسلم، أو تكبر فى غير موضع، أو أكــل لمحض شهوة، وشره، وتعطيها ما ليس لها منه بُــد، ولا تخــاف منــه ضرراً، إذ لا ضرورة إلى الفضول، وقد وسّع الله تعالى الأمــر علـــى عباده، وأغناهم عن جميع ما يضرهم فى أمر دينهم، فأى حاجــة إلـــى ذلك؟، فإن الأمر كما قال بعض الصالحين: "إن التقوى أهون شــئ، إن رابنى شئ تركته، فإن النفس ستلين، تتعود ما عودتها". وقال آخر: "هى النفس، ما حَّملتها تتحمّل"، وقال آخر: "وما النفس إلا حيث يجعلها، فــإن أُطعمت تاقت، ولا تُسلب.

فإذا علمت ما وصفناه كنت من الزاهدين الراغبين فى الآخــرة، المنقطعين إلى الله سبحانه، الذين هم أهل الأنس، خــدم رب العــالمين، فتكون كما القائل:

تشاغل قوم بدنياهم، وقوم تخلــوا[1] لمــولاهم، فــألزمهم بــاب مرضاته، وعن سائر الخلق أغناهم، وكنت من المجتهد إلى الله، الخواص من عباد الله، الذين قال فيهم سبحانه: "**إن عبــادى لــيس لــك علــيهم**

(١) + ط : خلوا.

سـلطان"[1]، وكنت من المتقين الذين لهم سعادة الدارين، فصرّت حينئذ أفضل من كثير من الملائكة المقربين، إذ ليست لهم شهوة تدعوهم إلى قبح، أو نفس خبيثة، وكنت قد خلّفت [هذه][2] العقبة الشديدة الطويلة، وسبقت العوائق كلها إلى مقصودك، مع الاستعانة بالله، والاعتصام به، وهو خير مسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه، وعونه وتيسيره، فإنه الكافى لكلامهم، والاستعانة به فى كل معضل، فبيده الخلق والأمر، وهو على كل شئ قدير.

وهذا ما أردنا ذكره فى هذا الباب، **ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والحمد لله وحده.**

---

(١) سورة الحجر ، آية ٤٢ .

(٢) ط: هذا.

العقبة الرابعة وهى عقبة "العوارض"

ثم عليك يا طالب العبادة – وفقك الله – بكفاية العوارض الشاغلة عن عبادة الله تعالى، وسد سبيلها عليك لئلا تشغلك عن مقصودك، وقد ذكرنا أنها أربعة: **إحداها: الرزق، ومطالبة النفس بذلك**، وإنما كفايته بالتوكل على الله سبحانه فى موضع الرزق، والحاجة بكل حال، وذلك لأمرين، أحدهما: التفرغ للعبادة، ويتمشى لك من الخير حقه، فإن لم تكن متوكلاً، فلابد من الاشتغال عن عبادة الله، بسبب الحاجة والرزق والمصلحة، إما بطلب وكسب بالبدن كعامة الراغبين، وإما بذكر وإرادة ووسوسة بالقلب، كالمجتهدين المعلين والعبادة تحتاج إلى فراغ القلب والبدن، ليحصل حقها، والفراغة لا تكون إلا للمتوكلين، بل أقول إن كل من هو ضعيف القلب، لا يطمئن قلبه إلا بشئ معلوم، ولا يكاد يتم له أمر خطير من دنيا وآخره، وكثيراً ما سمعت من شيخى (رحمه الله): "إنما الأمور تمشى فى العالم لرجلين، متوكل ومتهور"، قلت: وهذا كلام جامع فى معناه، فإن المتهور يطلب الأمور على قوة وجرأة قلب ومادة، لا يلتفت إلى صارف يصرفه، أو خاطر يضعفه، فتجرى له الأمور، والمتوكل يقصد الأمور على قوة وبصيرة، وكمال يقين بوعد الله سبحانه، وكمال ثقته بضمانه، ولا يلتفت إلى إنسان يخونه، أو شيطان يوسوسه، فيفوز بمقاصده، ويظفر بمطالبه. وأما المعلق الضعيف [فيكون][1] بين تردد وقصور، كالحمار فى معلف، والدجاج فى ثقبه، يرمق ما يتعود من صاحبه، لا يكاد ينفك، من ذلك، تقاعدت نفسه عن معالى الأمور،

---

(١) ط : يكون.

وانقطعت همته، فلا يكاد يقصد أمراً شريفاً، وإن قصده فلا يكاد يظفر به، ولا يتم له ذلك. أما ترى أصحاب الهَمِمِ من أبناء الدنيا، لم ينالوا مرتبة كبيرة، ومنزلة خطيرة، إلا بانقطاع قلوبهم عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم، أما الملوك فيبا شرون الحروب، ويكافحون الأعداء، إما هلكاً وإما ملكاً، حتى تحصل لهم مرتبة الملك، وعقدة الولاية، وقيل إن **معاوية**(١) رضى

(١) معاوية، هو: معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى . وهو معاوية بن أبى سفيان ، وأمه هند بنت عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، يجتمع أبوه وأمه فى : عبد شمس . وكنيته أبو عبد الرحمن . أسلم هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند ، فى الفتح . وكان معاوية يقول : إنه اسلم عام القضية ، وإنه لقى رسول الله ﷺ مسلماً وكتم إسلامه من أبيه وأمه . وشهد مع رسول الله ﷺ حُنينا ، وأعطاه من غنائم هوازن مائة بعير وأربعين أوقية ، وكان هو وأبوه من المؤلفة قلوبهم ، وحسن إسلامهما ، وكتب لرسول الله ﷺ . ولما سير أبو بكر رضى الله عنه الجيوش إلى الشام سار معاوية مع أخيه يزيد بن أبى سفيان ، فلما مات يزيد استخلفه على عمله بالشام ، وهو دمشق . فلما بلغ خبر وفاة يزيد إلى عمر ، قال لأبى سفيان : أحسن الله عزاءك فى يزيد ، رحمه الله ! فقال له أبو سفيان : من وليت مكانه ! قال : أخاه معاوية قال : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين . وروى أن النبى ﷺ قال لمعاوية : "اللهم ، اجعله هادياً مهدياً ، واهد به " . وقال ابن عباس : معاوية فقيه . وقال ابن عمر : ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية ، فقيل له : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ؟ فقال : كانوا – والله– خيراً من معاوية وأفضل ، ومعاوية أسود . أى : أسخى وأعطى للمال . وقيل : أحلم منه . والسيد يطلق على الرب والمالك ، والشريف ، والفاضل ، والكريم ، والحليم ، ومتحمل أذى قومه ، والزوج ، والرئيس . ولما دخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام ، ورأى معاوية ، قال : هذا كسرى العرب . وعن ابن عباس قال : كنت ألعب مع الصبيان ، فجاء رسول الله ﷺ فتواريت خلف باب ، قال : فجاء فحطأنى حطأة (أى : دفعه بكفه بين كتفيه) ، وقال : اذهب فادع لى معاوية . قال : فجئت فقلت : هو يأكل . ثم قال : اذهب ، فادع لى معاوية . وقال : فجئت فقلتُ : هو يأكل ، فقال : لا أشبع الله بطنه . أخرج مسلم هذا الحديث بعينه

لمعاوية ، وأتبعه بقول رسول الله ﷺ : إني اشترطت على ربي فقلت : إنما أنا بشر ، = = أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يُقربه بها يوم القيامة . ولم يزل والياً على ما كان أخوه يتولاه بالشام خلافة عمر ، فلما استُخلف عثمان جمع له الشام جميعه . ولم يزل كذلك إلى أن قتل عثمان ، فانفرد بالشام ، ولم يبايع علياً ، وأظهر الطلب بدم عثمان ، فكان وقعة صفين بينه وبين على ، وهي مشهورة . ثم لما قتل على واستخلف الحسن بن على ، سار معاوية إلى العراق ، وسار إليه الحسن بن على ، فلما رأى الحسن الفتنة وأن الأمر عظيم تُراق فيه الدماء ، ورأى اختلاف أهل العراق ، سلم الأمر إلى معاوية ، وعاد إلى المدينة ، وتسلم معاوية العراق ، وأتى الكوفة فبايعه الناس ، واجتمعوا عليه ، فسمى عام الجماعة . فبقى خليفة عشرين سنة ، وأميراً عشرين سنة ، لأنه ولى دمشق أربع سنين من خلافة عمر ، واثنتى عشرة سنة خلافة عثمان مع ما أضاف إليه من باقى الشام ، وأربع سنين تقريباً أيام خلافة على ، وستة أشهر خلافة الحسن. وسلم إليه الحسن الخلافة سنة إحدى وأربعين ، وقيل : سنة أربعين ، والأول أصح . وتوفى معاوية فى النصف من رجب سنة ستين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وقيل : ابن ست وثمانين سنة . وقيل : توفى يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة تسع وخمسين ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة . والأصح فى وفاته سنة ستين . ولما مرض كان ابنه يزيد غائباً ، ولما حضره الموت أوصى أن يكفن فى قميص كان رسول الله ﷺ قد كساه إياه ، وأن يجعل مما يلى جسده. وكان عنده قُلامة (ما قطع من الظفر) أظفار رسول الله ﷺ ، فأوصى أن تسحق وتجعل فى عينيه وفمه ، وقال : افعلوا ذلك ، وخلوا بينى وبين أرحم الراحمين . ولما نزل به الموت قال : "ليتنى كنت رجلاً من قريش بذى طُوّى (واد بمكة) وأنى لم أل من هذا الأمر شيئاً". ولما مات أخذ الضحاك بن قيس أكفانه ، وصعد المنبر وخطب الناس وقال : إن أمير المؤمنين معاوية كان حد العرب ، وعود (حكيم) العرب ، قطع الله به الفتنة ، وملكه على العباد ، وسير جنوده فى البر والبحر ، وكان عبداً من عبيد الله ، دعاه فأجابه ، وقد قضى نحبه ، وهذه أكفانه فنحن مدرجوه ومدخلوه قبره ، ومخلوه وعمله فيما بينه وبين ربه ، إن شاء رحمه ، وإن شاء عذبه. وصلى عليه الضحاك، وكان يزيد غائباً بحوارين (من قرى حلب) ، فلما ثقل معاوية أرسل إليه الضحاك ، فقدم وقد مات معاوية ، فقال :

الله عنه لما نظر إلى العسكر يوم صفين، قال: "من أراد خطيراً، خَـاطَرَ بعظمته".

وأما التجار، فيركبون المهالك براً وبحراً، ويطرحـون أمـوالهم وأنفسهم فى المقاطع، شرقاً وغرباً، ويوطنون أنفسهم على أحد أمـرين، إما فوت الأرواح، وإما حصول الأرباح، حتى يحصل لهم بذلك كل ربح، عظم ومال، ورقّ عزمه، "لا يكاد يقلع القلب عن علاقته من نفسه وماله، فهو من بيته إلى دكانه طول عمره، لا يصل إلى مرتبة عظيمة كالملوك، ولا إلى ربح عظيم كالتجار المخاطرين، فإن [نال][1] فى سوقه ربحاً على بضاعته درهماً، فذلك له كثير، وذلك لتعلق قلبه بشئ معلوم.

جاء البريـد بقرطـاس يحـث بـه ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعـا

قلنا : لك الويل ! ماذا فى صحيفتكم؟ ... قالوا : الخليفة أمسى مثبتا وجعـا

= وهى أكثر من هذا .

وكان معاوية أبيض جميلاً، إذا ضحك انقلبت شفته العليا ، وكان يخضب ، روى عنه جماعة من الصحابة : ابن عباس ، والخدرى ، وأبو الدرداء ، وجرير ، والنعمان ابن بشير ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وغيرهم من التابعين : ابو سلمة وحميد ، ابنـا عبـد الرحمن ، وعروة ، وسالم ، وعلقمة بن وقاص ، وابن سيرين ، والقاسـم بـن محمـد ، وغيرهم . روى عنه أنه قال : مازلت أطمع فى الخلافة مُذ قال لـى رسـول الله ﷺ: " إن وليت فأحسن" وروى عبد الرحمن بن أبزى ، عن عمر أنه قال : هذا الأمر فى أهل بدر ما بقى منهم أحد ، ثم فى أهل أحد ما بقى منهم أحد ، ثم فى كذا وكذا ، وليس فيها لطليق ، ولا لولد طليق ، ولا لمسلمة الفتح شئ". أخرجه الثلاثة (راجع ، ابن الأثير ، أسـد الغابـة ٤١٦/٤-٤٢٠ بتصرف) .

(١) ط: قال.

هذا فى الدنيا وأبنائها، وأما أبناء الآخرة، تراهم"[١] رأس مالهم هذه الخصلة التى هى التوكل، وقطع القلب عن العلائق، لما أحكموها، وحصلوها حقها، وتفرغوا لعبادة الله عز وجل، وتمكنوا من التفرد عن الخلق، والسياحة فى الأرض، واقتحام الفيافى[٢]، واستيطان الجبال والشعاب، فصاروا أقوياء العباد، فرجال الدين، وأحرار الناس، وملوك الأرض، بالحقيقة يسيرون حيث يشاءون، لا عائق لهم، ولا حاجز دونهم، وكل الأماكن لهم واحد، وكل الأزمان عندهم واحد، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: "**من سرّه أن يكون أقوى الناس، فليتق الله، ومن سرّه أن يكون أغنى الناس، فليكن بما فى يدى الله، أوثق منه بما فى يده**"[٣]. وعن **سليمان الخواص**[٤]: "لو أن رجلاً توكل على الله سبحانه

---

(١) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: لا يكاد يقع القلب عن علاقته من نفسه وماله، فهو من بيته إلى دكانه طول عمره، لا يصل إلى مرتبة عظيمة" إلى قوله: هذا فى الدنيا وأبنائها، وأما أبناء الآخرة، تراهم. مقروءة بصعوبة بالغة فى النص.

(٢) الفيافى ، هى : الصحارى .

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يدى الله أوثق مما ففى يديه" "(أبو الفضل، محمد بن طاهر بن على بن القيرانى، ذخيرة الحفاظ المخرج على الحروف والألفاظ، تحقيق د. عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى، ط الأولى، دار السلف الرياض، دار الدعوة الهند ١٤١٦ هـ، جـ ٤، ص ٥٣٤٦).

(٤) سليمان الخواص، هو: من العابدين الكبار بالشام. قال محمد بن يوسف الفريابى : كنت في مجلس فيه الأوزاعي ، وسعيد بن عبد العزيز ، وسليمان الخواص ، فذكر الأوزعى الزهاد ، فقال : ما نريد أن نزيد مثل هؤلاء. فقال سعيد: ما رأيت أزهد من سليمان الخواص ، وما شعر أنه في المجلس ، فقنع سليمان رأسه ، وقام ، فأقبل الأوزاعي على سعيد ، وقال : ويحك لا تعقل ما يخرج من رأسك اتؤذى جليسنا تزكيه في وجهه . وقيل

سبحانه بصدق النية، لاحتاج إليه الأُمراء، ومن دونهم"، وكيف يحتاج ومولاه الغنى الحميد، وعن إبراهيم الخواص: "لقد لقيت غلاماً فى البرية، كأنه سبيكة فضة، قلت: إلى أين يا غلام؟، قال: إلى مكة، قلت: بلا زاد ولا راحلة؟ قـــال: يا ضعيف اليقين، الذى يقدر على حفظ السموات والأرض، يقـــدر علـــى أن يوصلنى إلى مكة، بلا زاد ولا راحلة، فلما دخلت إلى مكة، فـــإذا هـــو فـــى الطواف يقول: "يا نفس سيحى أبداً، ولا تحسبّى أحداً، إلا الجليل الصمدا، يـــا نفس موتى كمدا، فلما رآنى قال لى: يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعف مـــن اليقين"، وقال أبو مطيع **لحاتم الأصمّ**[1]: "بلغنى أنك تقطع المفـــاوز بالتوكـــل، بغير زاد ولا راحلة، قال حاتم: إنى لا أجوزها إلا بزاد، قـــال: ومـــا زادك؟، قال: أربعة أشياء، قلت وما هى؟، قال: أرى الدنيا والآخرة مملكـــة الله عـــز وجل، وأرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله، وأرى الأسباب والأرزاق كلها بيـــد الله، وأرى قضاء الله نافذاً فى جميع أرض الله، ولقد أحسن من قال:

أرى الزهادَ فى روحٍ وراحةْ   قلوبـــهمُ عن الدّنْيـــا مُزَاحَـــة
إذَا أبْصَرْتَهمُ أبْصَرْتَ قَوْمَـــاً   مُلُوكَ الأرْضِ تَصْحَبُهمُ سَمَاحَةَ[2]

وأما الأمر **الثانى** الذى اقتضى التوكل على الله تعالى فـــى هـــذا

لسليمان قد أشكوك أنك تمر ، ولا تسلم ، قال : والله ، ما ذاك لفضل أراه عنـــدي ، ولكنـــي شـــبه الحشة إذا ثورته ، ثار ، وإذا جلست مع الناس ، جاء منى ما أريد وما لا أريد .ويقال : أن ســـعيد بن عبد العزيز زار الخواص ليلة في بيته ببيروت ، فرآه في الظلمة ، فقال : ظلمة القبـــر أشـــد ، فأعطاه دراهم ، وقال : أكره أن أعوّد نفسي مثل دراهمك ، فمن لي= = بمثلها إذا احتجت ، فبلغ ذلك الأوزاعى فقال : دعوه . فلو كان في السلف لكان علامة (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٤٤٦) .

(١) حاتم الأصم، مرّت ترجمته فيما سبق .

(٢) البيتان من بحر الوافر (مفاعلتن – مفاعلتن – فعولن).

الشأن، ما فى تركه من الخطر العظيم، والأمر الكبير، قلت: أليس الله تعالى قرنِ الرزق بالخلق، فقال: "**خلقكم ثم رزقكم**"[١] فدل أن الرزق من الله لا غير كالخلق، ثم لم يكتف بالأدلة حتى وعد فقال: "**إن الله هو الرزاق**"[٢]، ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال: "**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها**"[٣]، ثم لم يكتف بالضمان حتى أقسم فقال: "**فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون**"[٤]، ثم لم يكتف بضمان ذلك كله، حتى أمرنا بالتوكل، وأنذر وأبلغ فقال: "وتوكل على الحى الذى لا يموت"[٥]، وقال سبحانه: "**وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**"[٦].

فمن لم يعتبر قوله تعالى، ولم يكتف بوعده، ولا يطمئن بضمانه، ولا يقنع بقسمه، ثم لم يبال بأمره ووعده ووعيده، فانظر ما يكون حاله وانتبه أى محنة تجنى من هذا، وهذه والله معصية شديدة، ونحن [منه][٧] فى غفلة عظيمة، ولقد قال الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه لابن عمر: "**كيف أنت إذا بقيت بين قوم يحبون رزق سنتهم لضعف**

(١) سورة الروم ، آية ٤٠ .

(٢) سورة الذاريات، آية ٥٨.

(٣) سورة هود، آية ٦.

(٤) سورة الذاريات، آية ٢٣.

(٥) سورة الفرقان، آية ٥٨.

(٦) سورة المائدة، آية ٢٣.

(٧) ط : منها.

اليقين"[1]، وعن الحسن: "لعن الله قوماً أقسم لهم ربهم، فلم يصدقوه"، وقد قالت الملائكة عند نزول هذه الآية: "**فورب السماء والأرض**"[2] هلكت بنى آدم، أغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم".

وعن **أويس القرنى**[3]: "لو عبدت الله عبادة أهل السموات

---

(1) حديث موضوع، ذكره ابن الجوزى هكذا: "كيف بك يا ابن عمر إذا غربت فى قوم يحبون رزق سنتهم" ابن الجوزى، عبد الرحمن بن على بن محمد القرشى أبى الفرج، الموضوعات، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ط الأولى، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، جـ ٢، ص ٢٨٢.

وذكره السيوطى هكذا: "كيف بك إذا عمرت بين قوم يحبون رزق سنتهم" عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، تحقيق السيد محمد مغشو تعلى، طبعة المطبع العلوى، الهند ١٣٠٣ هـ، جـ ١، ص ٤٣.

وذكره الكنانى هكذا: "كيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يحبون رزق سنتهم" الكنانى، أبو الحسن على بن محمد بن على بن عراق، نزيه الشريعة المرفوعة من الأخبار الشنيعة الموضوعة، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الله محمد الصديق الغمارى، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩، جـ ٢، ص ٢١٢.

(2) سورة الذاريات ، آية ٢٣.

(3) أويس القرنى، هو: القدوة الزاهد ، سيد التابعين في زمانه أبو عمرو ، أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادى اليماني وقرن بطن من مراد ، وفد علي عمر وروي قليلاً عنه وعن على . وروى عنه يسير بن عمرو ، وعبد الرحمن بن أبى ليلي ، وأبو عبد رب الدمشقي وغيرهم ، حكايات كثيرة ، وقد كان من أولياء الله المتقين ومن عبادة المخلصين . وعن أبى النضر عن أسير بن جابر ، قال : لما أقبل أهل اليمن ، جعل عمر – رضي الله عنه – يستقرئ الرفاق فيقول : هل فيكم أحد من قرن ؟ فوقع زمام عمر أو زمام أويس فناوله – أو ناول أحدهما الأخر – فعرفه ، فقال عمر : ما اسمك ؟ قال : أنا أويس . قال : هل لك والدة ؟قال : نعم . قال : فهل كان بك من البياض (البرص) شيء ؟ قال نعم ، فدعوت الله فأذهبه عني إلا موضع الدرهم من سرتى لأذكر به ربى .

والأرض، لم تقبل منك حتى تصدقه، قيل وكيف تصدقه؟، قال: تكون آمناً بما تكفل الله تعالى من أمر رزقك، وترى جسدك فارغاً لعبادته. ولقد قال سرم بن حيان لأويس القرنى: "أين تأمرنى أن أقيم؟، فأومأ بيده إلى الشام، قال: كيف المعيشة بها؟، قال: أف لهذه القلوب، لقد خالطها الشك، فما تنفعها الموعظة. ولقد بلغنا أن نباشاً تاب على يد أبى اليزيد البسطامى (رحمه الله) فسأله أبو يزيد البسطامى عن حاله قال: نبشت

قال عمر : استغفر لي . قال أنت أحق أن تستغفر لي ، أنت صاحب رسول الله -ﷺ- . فقال عمر : إني سمعت رسول الله -ﷺ- يقول :(إن خير التابعين رجل يقال له أويس ، وله والدة وكان به بياض ، فدعا الله ، فأذهبه عنة إلا موضع الدرهم في سرته) فاستغفر له ،ثم دخل في غمار الناس فقدم الكوفة . فقال : فكنا نجتمع في حلقة فنذكر الله ، فيجلس= = معنا . فكان إذا ذكر هو ، وقع في قلوبنا ، لا يقع حديث غيرة ؛ وقد ولد أويس في مهاجر النبي ، وتوفى سنة ٨٥ هـ أنبئت عن أبى المكارم التيمي ، أنبأنا أبو على المقرئ ، أنبأنا أبو النعيم الحافظ قال : فمن الطبقة الأولى من التابعين سيد العباد ، وعلم الأصفياء من الزهاد ، أويس بن عامر القرني ، بشر النبي - ﷺ - به وأوصبي به ، إلى أن قال في الترجمة : ورواه الضحاك بن مزاحم ،عن أبى هريرة بزيادة ألفاظ لم يتابع عليها . وما رواه أحد سوى مخلد بن يزيد ، عن نوفل بن عبد الله عنه ، ومن ألفاظه : فقالوا : يا رسول الله ، وما أويس ؟ قال : (أشهل ، ذو صهوبة ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم شديد الأدمة ، ضارب بذقنه على صدره ، رام ببصره إلى موضع سجوده ، واضع يمينه على شماله ، يتلو القرآن و يبكي على نفسه ، ذو طمرين ، لا يؤبه له ، يتزر بإزار صوف ، ورداء صوف ، مجهول في أهل الأرض معروف في السماء لو أقسم على الله لأبره ، ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد : ادخلوا الجنة ويقال لأويس : قف فاشفع ، فيشفعه الله في مثل عدد ربيعة ومضر : يا عمر ويا على إذا رأيتماه فاطلبا إليه يستغفر لكما يغفر الله لكما) . (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٥ / ٦٢) .

على ألف قبر، فلم أر وجوههم إلى القبلة، إلا رجلين، فقال أبو يزيد: مساكين أولئك تهمة الرزق حولت وجوههم عن القبلة". وذكر لى بعض أصحابنا أنه رأى رجلاً فى المنام من أهل الصلاح، فسأله عن حاله فقال: هل سلمت بإيمانك؟، فقال: إنما يسلم الإيمان للمتوكلين". نسأل الله تعالى أن يصلحنا بفضله، ولا يؤاخذنا بما نحن أهله، أنه أرحم الراحمين، فهذه هذه.

فإن قلت: فأخبرنا بحقيقة التوكل، وحكمه، وما يلزم العبد منه فى أمر الرزق، فاعلم أنما يتبين لك بأربعة فصول بيان لفظة التوكل، وموضعه وحدّه، فأما اللفظة، فإنما هى توكُّل من التفعُّل، من الوكالة، فالتوكل على أحد هو أن يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره، الضامن لإصلاحه الكافى له من غير تكلف واهتمام، فهذه جملته.

وأما الموضع: فاعلم أن التوكل اسم مطلق فى ثلاث مواضع: **أحدها:** فى موضع القسمة وهى الثقة بالله تعالى، بأنه لا يفوتك ما قسم لك، وأن حكمه لا يتبدل، وهذا واجب بالسمع، **والثانى:** فى موضع النصرة، وهو الاعتماد والوثوق بنصر الله عز وجل، إذا نظرت وجاهدت، قال الله عز وجل: "**فإذا عزمت فتوكل على الله**"(١)، وقال: "**إن تنصروا الله ينصركم**"(٢)، وقال: "**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**"(٣)، وهذا واجب فى الوعد. **والثالث:** فى موضع الرزق والحاجة، بأن الله

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٢) سورة محمد، آية ٧.

(٣) سورة الروم، آية ٤٧.

تعالى متكفل بما يقيم به بنيتك لخدمته، وتتمكن به من عبادته، لقوله تعالى: "**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**"[1]، وقال الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه: "**لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**"[2]، وهذا فرض لازم للعبد بدليل العقل والشرع جميعاً، وهذا هو الأشهر الأغلب منه، أعنى التوكل فى موضع الرزق، وهو المقصود من هذا الفصل.

فموضع التوكل إذن هو الرزق فيما قال العلماء بالله، وإنما يتضح هذا ببيان أقسام الرزق، فأعلم أن الرزق أربعة أقسام: مضمون، [ومقسوم][3] ومملوك، وموعود. فالمضمون هو الغذاء، وما به قوام البنية، دون سائر الأسباب، فالضمان من الله تعالى لهذا النوع، والتوكل يجب بإزائه، بدليل العقل والشرع، لأن الله تعالى كلفنا خدمته، وطاعته بأبداننا، فضمن ما يسدّ خلل البنية لنقوم بما كلفنا. وقال بعض مشايخ

---

(١) سورة الطلاق ، آية ٣ .

(٢) أخبرنا أحمد بن على بن المثنى ، قال حدثنا أبو خيثمة، قال حدثنا المقرئ، عن حيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبى تميم الجيشانى، عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لو تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم الله كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً" (صحيح ابن حبان ٢/٥٠٩) وأيضاً:

- سنن ابن ماجه ٢/١٣٩٤.
- سنن الترميذى ٢/٥٧٣.
- مُسند أحمد ١/٣٠.

(٣) ط : ومقصوم.

الكرامية[1] كلاماً حسناً على أصله، أن ضمان أرزاق العباد واجب في

(١) الكرامية : أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، وكان من المرجئة ، وهم عدة فرق ، قيل اثنتى عشرة فرقة : أهمها الحقائقية ، والطرائقية ، والإسحاقية ، والعابدية ، والتونية ، والزرينية ، والواحدية ، والهيصمية ، وأقربها الهيصمية ، ولكل فرقة رأى ، وقد يختلفون ، إلا أنه قد جرى العمل على اعتبارهم فرقة واحدة لأنهم لم يكونوا يكفرون بعضهم بعضاً ، وكانوا جميعاً من الصفاتية وإن كانوا قد انتهوا إلى التجسيم والتشبيه. ولابن كرام كتاب "عذاب القبر" شرح فيه مذهبه، وكان يدعو= =إلى تجسيم معبوده ، وقال إنه جسم له حد ونهاية من تحته والجهة التى منها يلاقى عرشه ، ووصف معبوده بأنه أحدى الذات ، وأحدى الجوهر ، وأنه تعالى مماس لعرشه ، والعرش مكان له ، وهو محل للحوادث وأقواله وإراداته وإدراكاته للمرئيات وللمسموعات أعراض حادثة فيه ، وهو محل لتلك الحوادث الحادثة فيه ، وقوله للشئ "كن" خلقاً للمخلوق وإحداثاً للمحدث ، وقالوا إنه لا يحدث فى العالم جسم ولا عرض إلا بعد حدوث أعراض كثيرة فى ذات معبودهم ، منها إرادته لحدوث ذلك الحادث ، ومنها قوله لذلك الحادث "كن" على الوجه الذى علم حدوثه عليه ، وذلك القول فى نفسه حروف كثيرة ، كل حرف منها عرض حادث فيه ، ولا يعدم من العالم شئ من الأعراض إلا بعد حدوث أعراض كثيرة فى معبودهم ، منها إرادته لعدمه ، ومنها قوله لما يريد عدمه "كن معدوماً" ، أو "افنَ" . ولا يخلو ذات الله فى المستقبل عن حلول الحوادث فيه وإن كان قد خلا منها فى الأزل . ولم يزل الله موصوفاً بأسمائه المشتقة من افعاله مع استحالة وجود الأفعال فى الأزل . ولم يزل خالقاً رازقاً منعماً من غير وجود خلق ورزق ونعمة منه . ولم يزل متكلماً قائلاً بكلام هو قدرته على القول ، ولم يزل قائلاً بقائلية لا بقول ، وقائليته هى قدرته على القول ، وقوله حروف حادثة فيه . وقالوا : إن الله لا يقدر على الحوادث التى تحدث فى ذاته من إرادته وأقواله وإدراكاته ، فأما المخلوقات من أجسام العالم وأعراضها فليس شئ منها مقدوراً لله تعالى . وقالوا : لو خلق الله الخلق وكان فى معلومه أنه لا يؤمن به أحد منهم ، لكان خلقه إياهم عبثاً ، وإنما حسن منه خلق جميعهم بعلمه بإيمان ببعضهم . وقالوا : النبوة والرسالة صفتان حالتان فى النبى والرسول سوى الوحى إليه ، وسوى معجزاته وعصمته عن المعصية . وكل ذنب أسقط العدالة أو أوجب حداً فالأنبياء معصومون منه ، وغير

حكم الله تعالى لثلاثة أشياء، **أحدها:** أنه سيد ونحن العبيد، وعلى السيد كفاية مؤنة العبيد، كما أن على العبيد خدمة السيد. **والثاني:** أنه خلقهم محتاجين إلى الرزق، ولم يجعل لهم سبيلاً إلى طلبه، إذ لا يدرون ما هو رزقهم، وأين هو، ومتى هو، ليطلبوه بعينه من مكانه، وفي وقته، ليصلوا إليه، فوجب أن يكفيهم أمر ذلك، ويوصلهم إليه. **والثالث:** أنه كلفهم الخدمة، وطلب الرزق شاغل عنها، فوجب أن يكفيهم المؤنة ليتفرغوا لخدمته، وهذا قول <من>[1] لم يحط بأسرار الربوبية، والقائل بأن على الله واجباً تائه، وقد أوضحنا في فن الكلام فساده، فلنرجع إلى المقصود من غرضنا.

وأما الرزق المقسوم: فهو ما قسمه الله تعالى، وكتبه في اللوح

معصومين مما دون ذلك . وقالوا : إن النبي إذا ظهرت دعوته فمن سمعها منه أو بلغه خبره ، لزمه تصديقه والإقرار به من غير توقف على معرفة دليله . ومن لم تبلغه دعوة الرسل لزمه أن يعتقد موجبات العقول ، وأن يعتقد أن الله تعالى أرسل رسلاً إلى خلقه . وأجازوا كون إمامين في وقت واحد مع وقوع الجدال وتعاطي القتال ومع الاختلاف في الأحكام . وكان عليّ ومعاوية إمامين في وقت واحد ووجب على أتباع كل واحد منهما طاعة صاحبه. وقالوا : الإيمان إقرار فرد في الابتداء ، وتكريره لا يكون إيماناً إلا من المرتد إذا أقر به بعد ردته . والإيمان هو الإقرار السابق في الذر الأول . والمقر بالشهادتين مؤمن حقاً وإن اعتقد الكفر بالرسالة ، المنافقون كانوا مؤمنين ، وأهل الأهواء= = عذابهم في الآخرة غير مؤبد . وفي الفقه قال ابن كرام في صلاة المسافر يكفيه تكبيرتان من غير ركوع ولا سجود ولا قيام ولا قعود ، ولا تشهد ولا سلام . وقال الصلاة المفروضة والصوم المفروض والحج بلا نية صحيح ، والنية في الإسلام كافية عن نية كل فرض (أنظر عبد المنعم الحفني ، موسوعة الفرق ، مكتبة مدبولي ، ط الثانية ١٩٩٩ ، ص ٥٣١-٥٣٢).

(١) زيادة يقتضيها السياق.

المحفوظ، ما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقّدر، ووقت موقّت، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدم ولا يتأخر، كما كتب بعينه، قال النبى صلى الله عليه وسلم: "**الرزق مقسوم مفروغ، ليس تقوى تقـى بزائـده، ولا فجور فاجر بناقصه**"[1]، وأما المملوك: فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا، على حسب ما قدر الله تعالى، وقسم له أن يملكه، وهو من رزق الله تعالى، قال الله عز وجل: "**انفقوا مما رزقناكم**"[2] أى مما مكناكم، وأما الموعود: فهو ما وعد الله عباده المتقين، بشرط التقوى، حلالا من غير كدّ، قال تعالى: "**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**"[3].

---

(١) حديث ضعيف أورده السخاوى هكذا:

أليس أحد بأكسب من أحد، وقد كتب الله النصيب والأجل، وقسم المعيشة والعمل، والرزق مقسوم وهو أت على ابن آدم على أى سيرة سارها لا تقوى تقى بزائده ولا فجور= = فاجر بناقصه، بينه وبينه ستر وهو فى طلبه. (السخاوى، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩ هـ، جـ ١، ص ٢٣٦.

وأورده الحوت هكذا:

"إن الرزق لا تنقصه المعصية ولا تزيده الحسنة" (الحوت، محمد بن السيد درويش، أسنى المطالب فى أحاديث مختلف المراتب، تحقيق خليل الميس، ط الثانية، دار الكتاب العربى، بيروت ١٤٠٣ هـ، جـ ١، ص ٣١٩).

وأورده الألبانى هكذا:

"إن الرزق لا تنقصه المعصية ولا تزيده الحسنة، وترك الدعاء معصية" (الألبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة ١/١٨١).

(٢) سورة المنافقون ، آية ١٠.

(٣) سورة الطلاق ، الآيتان ٢ ، ٣.

فهذه أقسام الرزق، والتوكل إنما يجب بأنه المضمون منها، فاعلم ذلك، وأما حدّ التوكل، فلقد قال بعض شيوخنا إنه إذا كان القلب على الله، والانقطاع إليه، ولا يأسف عما دونه. وقال بعضهم: حفظ القلب إلى الله تعالى، بموضع المصلحة، <و>[١] بترك تعليقه كل شئ دونه، وقال آخر: "التوكل ترك التعليق، والتعليق ذكر قوام بنيتك عن شئ دون الله تعالى"، قال شيخى الإمام: "والتعليق ذكر ان، فالتوكل هو ذكر قوام بنيتك من قِبَل الله تعالى، والتعليق ذكر قوامها عما دون الله تعالى، والأقاويل عنده ترجع إلى أصل واحد، وهو أن توطن قلبك على أن قوام بنيتك، وسدّ خلتك، وكفايتك، إنما هو من عند الله عز وجل، وليس بأحد دون الله، ولا بحطام من الدنيا، ولا بسبب من الأسباب، ثم الله سبحانه إذا شاء، سبب له مخلوقاً أو حطاماً، وإن شاء كفاه بقدرته، دون الأسباب والوسائط.

فإذا ذكرت ذلك بقلبك، وتوطنت عليه، فانقطع القلب بالمرة عن المخلوقين والأسباب، إلى الله تعالى وحده، فقد حصل كل التوكل حقه، فهذا [حده][٢].

وأما حصن التوكل الباعث، فهو ضمان الله تعالى، وحصن[٣] ذكر جلال الله تعالى، وكما له فى علمه وقدرته، ونزاهته عن الخلق والسهو والعجز والنقص، فإذا واظب العبد هذه الأذكار، بعثته على التوكل على الله تعالى فى أمر الرزق.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) ط : حدت.

(٣) + ط: وحصن.

فإن قيل: فهل يلزم العبد طلب الرزق بحال: فاعلم أن الرزق المضمون، الذى هو الغذاء والقوام، فلا يمكن طلبه، إذ هو شئ من فعل الله تعالى بالعبد[1]، كالموت والحياة، لا يقدر العبد على تحصيله، ولا دفعه.

وأما المقصود من الأسباب: فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة للعبد إلى ذلك، إنما حاجته إلى المضمون، وهو من ضمان الله تعالى، وفى ضمان الله تعالى، وأما قوله تعالى: "**وابتغوا من فضله**"[2] فالمراد به العلم والثواب، وقيل بل هو رخصة، إذ هو أمر وارد بعد لحظة، فيكون بمعنى الإباحة، ولا بمعنى الإيجاب والإلزام، فإن قيل: وهل يلزم طلب؟، لكن [لهذا] [3] الرزق المضمون أسباب، هل يلزمنا طلب الأسباب، قيل له ، لا يلزمك ذلك، إذ لا حاجة بالعبد إليه، إن الله سبحانه يفعل بالسبب، وبغير سبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب؟، ثم إن الله تعالى ضمن لك ضماناً مطلقاً، من غير شرط الطلب والكسب، قال تعالى: "**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها**"[4]، ثم كيف يصح أن يأمر للعبد بطلب ما لا يعرف مكانه، فيطلبه إذ لا يعرف أى سبب منها رزقه الذى يتناوله لا غير، والذى يصير سبب غذائه وتربيته لا غير، فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه من أين يحصل له، فلا يصلح له تكليفه، فأفهم ذلك راشداً، ثم حسبك أن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه والأولياء

---

(١) + ط : فلا يمكن طلبه، إذ هو شئ من فعل الله تعالى بالعبد.

(٢) سورة الجمعة، آية ١٠.

(٣) ط : هذا .

(٤) سورة هود، آية ٦.

المتوكلون، لم يطلبوا رزقهم على الأكثر الأعم، وتجردوا للعبادة، وبإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله عز وجل، ولا عاصين له فى ذلك، فتبين <أن>[١] طلب الرزق وأسبابه، ليس بأمر لازم للعبد.

فإن قيل: هل يزيد الرزق بالطلب، وينقص بترك الطلب؟، فكلا، فإنه مكتوب فى اللوح المحفوظ مقداراً موفياً، ولا تبديل لحكم الله، ولا تغيير لقسمته، وكتابته، وهذا هو الصحيح عند علمائنا رضى الله عنهم، خلاف ما ذهب إليه أصحاب حاتم وشقيق، قالوا إن الرزق يزيد، ولا ينقص بفعل العبد، لكن المن يزيد وينقص، وهذا فاسد، لأن الدليل فى الموضعين واحد، وهو الكتابة والقسمة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: "**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**"[٢]، ولو كان الطلب يزيد، والترك ينقص، لكان للأسى موضع، وللفرح موضع، إذ هو قصرّ وتوان حتى فاته، وجدّ وشمرّ حتى حصّله، وقال صلى الله عليه وسلم للسائل: "**هاك، لو لم تأتها لأتتك**"[٣].

فإن قيل: فالثواب والعقاب مكتوب أيضاً فى اللوح المحفوظ، ثم

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سورة الحديد، آية ٢٣.

(٣) لم أجد لفظ هذا الحديث فى معظم الكتب التى عولّت عليها فى التحقيق، وما وجدته قريب فى المعنى ما يلى:

أخبرنا عبد الله بن محمد بن سلم، حدثنا حرملة بن يحيى، حدثنا بن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تستبطئوا الرزق فإنه لن يموت العبد حتى يبلغه آخر رزق هو له فأجملوا فى طلب أخذ الحلال وترك الحرام" (صحيح ابن حبان ٨/٣٢).

يلزمنا طلبه، ويزيد بالطلب، وينقص بتركه، فأعلم أن طلب الثواب إنما وجب، لأن الله أمر به أمراً حتماً، وأوعد على تركه، ولم يضمن الثواب، على غير فعل منا، وزيادة الثواب والعقاب بفعل العبد، فالفرق بينهما فى نكتة، وهو ما قاله بعض علمائنا: "إن المكتوب فى اللوح قسمان، قسم هو مكتوب مطلقاً من غير شرط وتعليق، بفعل العبد، وهو الأرزاق والآجال، أما ترى كيف ذكرهم الله عز وجل مطلقاً، من غير شرط، قال تعالى: "**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** "[1]، وقال تعالى: "**إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**"[2]، وقال صاحب الشرع عليه السلام: "**أربعة فرغ منهم: الخَلق، والخُلق، والرزق، والأجل**"[3]، وقسم مكتوب بشرط معلق، مشروط بفعل العبد، قال تعالى: "**ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم**"[4]، فهذا بيّن فاعلمه.

فإن قيل: فنحن نجد الطالبين يجدون الأرزاق والأموال والتاركين له يعدمون ويفتقرون، قيل: كأنك لا تجد مع ذلك طالباً محروماً فقيراً، وفارغاً مرزوقاً غنياً، بل إن هذا هو الأكثر، لتعلم أن ذلك تقدير العزيز العليم، وتدبير الملك الحكيم. وأنشدنى أبو بكر محمد بن سابق الصقلّى (رحمة الله عليه) بالشام:

---

(١) سورة هود، آية ٦.

(٢) سورة يونس، آية ٤٩.

(٣) قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "جف القلم بالشقى والسعيد، وفرغ من أربع: الخلق والخلق والأجل والرزق"، (العجلونى، كشف الخفاء ١/١٠٧١).

(٤) سورة المائدة، آية ٦٣.

وكم قوىٍ قوىٍ فـــى تقلُبـــهِ   موفقُ الـــرأىِ عنـــه الـــرزقُ منحـــرفُ
وهذا دليلٌ على أن الأله لـــه   فى الخلق سَـــرٌ خفىٌّ ليس ينكـــشـــفُ
وكم ضعيفٍ ضعيفٍ فى تقلبه   كأنه مـــن خـــليـــجِ البحـــرِ يَغْتَـــرِفُ[1]

فإن قيل: هل تدخل البادية بلا زاد؟، فاعلم أنه إن كان لـــك قـــوة القلب بالله تعالى والثقة البالغة بوعد الله تعالى، فادخل، وإلا فكن كالعوام بعلائقهم، ولقد سمعت الإمام **أبا المعالى**[2] يقول: "إن من جرى مـــع الله

---

(١) الأبيات من بحر البسيط (مستفعلن – فاعلن – مستفعلن – فعلن).

(٢) أبو المعالى، هو : أبو المعالي عبد الملك ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن محمد بن حيوية ، الجوينى ، الفقيه ، الشافعي الملقب بضياء الدين ، المعروف= = بإمام الحرمين ، اعلم المتأخرين من أصحاب الأمام الشافعي على الإطـــلاق ، المجمـــع على إمامته المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول و الفروع والأدب وغير ذلك ، رزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان يذكر دروساً يقع كل واحد منها في عدة أوراق ولا يتلعثم في كلمة منها ، وتفقه في صباه على والده أبى محمد ، وكان يعجب بطبعه و تحصيلة وجودة قريحته وما يظهر عليه من مخايل الإقبال ، فـــأتي علـــى جميع مصنفات والده وتصرف فيها ، حتى زاد عليه في التحقيق والتدقيق . ولما توفى والده قعد مكانه للتدريس ، وإذا فرغ منه مضى إلى الأستاذ أبى القاسم الإسـكافي الاسـفراينى بمدرسة البيهقي حتى حصل عليه علم الأصول ، ثم سافر إلى بغداد و لقي بها جماعة مـــن العلماء ، ثم خرج إلى الحجاز ، وجاور بمكة أربع سنين ، وبالمدينة ، يدرس ويفتى ويجمع طرق المذهب ، فلهذا قيل له إمام الحرمين ، ثم عاد إلى نيسابور في أوائل ولاية الـــسلطان ألب أر سيلان السلجوقى ، والوزير يومئذ نظام الملك ، فبنى له المدرسة النظامية بمدينـــة نيسابور ، وتولى الخطاب بها، وكان يجلس للوعظ والمناظرة ، وظهرت تصانيفة ، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة وانتهت إليه ريأسة الأصحاب ، وفوض إليه أمر الأوقاف ، وبقى على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع مسلم له المحراب والمنبر والخطابـــة

والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة. وصنف إمام الحرمين في كل فن : منهـا كتـاب " نهاية المطلب في دراية المذهب" الذي ما صنف في الإسلام مثلة ، قال أبو جعفر الحافظ : سمعت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي يقول لإمام الحرمين : يا مفيد أهل المشرق و المغرب ، أنت اليوم أمام الأئمة . وسمع الحديث من جماعة كبيرة من علمائه وله إجازة من الحـافظ أبى نعيم الأصفهانى صاحب "حلية الأولياء" ومن تصانيفه "الشامل" في أصول الـدين ، و "البرهان" في أصول الفقه ، و "تلخيص التقريب" و " الإرشـاد " و "العقيـدة النظاميـة" و "مدارك العقول" لم يتمه، وكتاب "تلخيص نهاية المطلب" لم يتمه و "غياث الأمم في الامامه" و "مغيث الخلق في اختيار الأحق" و "وغنية المسترشدين" في الخلاف وغير ذلك من الكتب . ولم يزل على طريقة حميدة مرضية من أول عمره إلى آخره . وكان والـده أول أمـره ينسخ بالأجرة فاجتمع له من كسب يده شئ اشترى به جارية موصوفة بالخير والـصلاح ، ولم يزل يطعمها من كسب يده أيضاً إلي أن حملت بإمام الحرمين ، وهو مـستمر علـي تربيتها بكسب الحلال ، فلما وضعته أوصها أن لا تمكن أحد من إرضاعه ، فاتفق أنه دخل عليها يومًا وهي متألمة ، والصغير يبكي وقد أخذته إمراة من جيرانهم وشـاغلته بثـديها= = فرضع منه قليل فلما رآه شق علية وأخذه إليه ، ونكس رأسها ومسح علي بطنها وأدخل إصبعه في فيه ولم يزال يفعل بها ذلك حتى قاء جميع ما شربة ، وهو يقول : يسهل علـيَ أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه . ويحكي عن إمام الحرمين أنه كان تلحقـه ببعض الأحيان فترة في مجلس المناظرة فيقول : هذا من بقايا تلك الرضعة ولمـا مـرض الإمام حمل إلي قريه من أعمال نيسابور ، يقال لها بشتنقان موصوفة باعتدال الهواء وخفة الماء ، فمات بها ليلة الأربعاء وقت العشاء الآخرة الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، ونقل إلي نيسابور تلك الليلة ، ودفن من الغد في داره ، ثـم نقل بعد سنين إلي مقبرة الحسين فدفن بجانب أبيه وصلي علية ولده أبو القاسم ، فأغلقـت الأسواق يوم موته وكسر منبره في الجامع ، وقعد الناس لعزائه ، وأكثروا فيـه المراثـي ومما رثي به :

قلوب العالمين علـي المقـالي	وأيام الـورى شـبه الليـالي
أيثمر غصن أهل العـام يومـاً	وقد مات الإمام أبو المعـالي

على عادة الناس، جرى الله معه على عادة الناس فى كفاية المؤنة"، وهذا كلام حسن جداً، وفيه فوائد جمة لمن تأملها.

فإن قلت: أليس الله تعالى يقول: "**وتـزودوا فـإن خيـر الـزاد التقوى**"[1]، فاعلم أن فيه قولين: **أحدهما:** أنه زاد الآخرة، ولـذلك قـال "خير الزاد التقوى"، ولم يقل حطام الدنيا وأسبابها، **والثانى:** أنه كان قوم لا يأخذون زاداً فى طريق الحج لأنفسهم، اتكالاً على الناس، [ويَسألون][2] ويلحّون، ويؤذون الناس، فأمروا بالزاد، على أن أخذ الزاد من مالك خير من أخذ مال الناس، والاتكال عليهم، وكذلك نقول.

فإن قلت: المتوكل هل يحمل الزاد معه فى الأسفار، فـاعلم أنـه ربما يحمل، ولا يعلق القلب به، فإنه لا محالة رزقه، وفيه قوامه، إنمـا يعلو القلب بالله تعالى، وبتوكله عليه، ويقول إن الرزق مقسوم، مفـروغ منه، والله تعالى إن شاء أقام بنيتى، بهذا أو بغيره، وربما يحمـل بنيتـه أخرى، بأن يعين مسلماً، ونحو ذلك، وليس الشأن فى أخذ الزاد وتركـه، إنما الشأن فى القلب، لا تعلو قلبك إلا بوعد الله، وحسن كفايته وضمانه، فكم من حامل[3] للزاد، وقلبه مع الله تعالى دون الزاد، وكم من تـارك، وقلبه مع الزاد، دون الله تعالى، فالشأن إذن فـى القلـب، فـافهم هـذه الأصول، تكف المئونة إن شاء الله تعالى.

وكانت تلامذته يومئذ قريب من أربعمائة واحد ، فكسروا محابرهم وأقلامهم وأقاموا علـي ذلك عاماً كاملاً . (ابن خلكان ، وفيات الاعيان وأبناء أنباء الزمان ٣ /١٤١ –١٤٤).

(١) سورة البقرة، آية ١٩٧.

(٢) ط : وتسألون.

(٣) + ط : حامل.

فإن قيل: فالنبى ﷺ كان يحمل معه الزاد مع الله تعالى دون الزاد، وكذلك أصحابه السلف، الصالح، يقال له: فلا حرج، إن ذلك مباح غير حرام، وإنما الحرام تعليق القلب بالزاد، وترك التوكل على الله سبحانه، فافهم ذلك، ثم ما ظنك برسول الله، وقد قال الله تعالى: "**وتوكل على الحى الذى لا يموت**"(١)، أَعَصَى فى ذلك؟، وعلق قلبه بشراب أو طعام، أو درهم أو دينار، كلا وحاشا أن يكون ذلك، بل كان قلبه مع الله تبارك وتعالى، وتوكله على الله تعالى، فإنه الذى لم يلتفت إلى الدنيا كلها، ولم يمد يده إلى مفاتيح [خزائن](٢) الأرض كلها، وإنما كان أخذ الزاد منه، ومن السلف الصالح، لنيات الخير، لا [تميل](٣) قلوبهم عن الله تعالى إلى الزاد، والمعتمد والقصد على ما علمناك، فانتبه من رقدتك.

فإن قلت: فأيهما أفضل أخذ الزاد، أم تركه، فاعلم أن هذا يختلف، باختلاف الحال، إن كان مقتدى به، يريد أن يبين أن أخذ الزاد مباح، أو ينوى به عون مسلم، أو إغاثة ملهوف، ونحو ذلك فالأخذ أفضل، وإن كان منفرداً، قوىَّ بالله تعالى، لا يشغله الزاد عن عبادة الله تعالى، فالترك أولى، فتفهم هذه الجملة واحتفظ بها راشداً، وبالله التوفيق، **ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.**

العارض الثانى: الأخطار، وإرادتها وقعودها، وإنما كفايتها فى التفويض، فعليك بالتفويض [بتفويض](٤) الأمر كله إلى الله سبحانه، وذلك

---

(١) سورة الفرقان ، آية ٥٨.

(٢) ط : حزالى.

(٣) ط : يميل.

(٤) ط: بالتفويض.

لأمرين، **أحدهما:** لطمأنينة القلب فى الحال، فإن الأمور إذا كانت خطرة مبهمة، لا تدرى صلاحها، من فسادها، فتكون مضطرباً، قائم النفس، لا تدرى أتقع فى صلاح أو فساد، فإذا فوضت الأمر كله إلى الله تعالى، علمت أنك لا تقع إلا فى صلاح، وخير، فتكون آمناً من الخطر، مطمئن القلب فى الحال والمآل[١] هذا، والطمأنينة والأمن والراحة فى الوقت عظيمة. وكان شيخنا (رحمه الله) يقول فى مجالسه كثيراً: "دع التدبير على من خلقك تسترح".

والثانى من الأمرين: حصول الصلاح والخير فى الاستقبال، وذلك لأن الأمور بالعواقب مبهمة، فكم من شر فى صورة خير، وكم من خير، فى حلية تقع، ومن سُمٍّ فى هيئة ثريد، وأنت الجاهل بالعواقب والأسرار، فإذا أردت الأمور قطعاً، وأخذت فيها باختيارك متحكماً، فما أسرع ما تقع فى هلاك، ولا تشعره. ولقد حكى أن بعض الصالحين كان يسأل الله تعالى أن يريه إبليس، فقيل له: سل الله العافية، فقال: إلا ذلك، فأظهره الله تعالى له، فلما رآه العابد قصده بالضرب، فقال له إبليس، لولا أنك تعيش مائة عام لأهلكتك <و>[٢] عاقبتك، فاغتر بقوله العابد، وقال: إن عمرى مائة عام فافعل ما أريد، ثم أتوب، فوقع فى الفسق، وترك العبادة فهلك"، ففى هذه ما ينبهك على ترك الحكم فى أرائك، والحجاج فى مطلوبك، ويحذرك طول الأمل أيضاً، فإنه آفة مهلكة، ولقد صدق القائل:

---

(١) + ط: و.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وإياكَ المطامعَ والأمانى فكم أمنيةٍ جلبتْ مَنِيَّهْ[1]

وأما إذا فوضت الأمر إلى الله سبحانه، وسألته أن يختار لك ما هو صلاحك، لم تلق إلا الخير والسداد، ولا تقع إلا على الصلاح، قال تعالى حكاية عن العبد الصالح: "**وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب**"[2]. ألم تر كيف أعقب تفويضه الوقاية من الأسوأ، والنصر على الأعداء، وبلوغ المراد، فتأمل موفقاً.

فإن قلت: بيّن لنا معنى التفويض وحكمه، فاعلم أن هاهنا فصلين يتضح بهما الكلام، **أحدهما:** موضع التفويض، **والثانى:** معناه وحده وضده. أما موضعه، فاعلم أن المرادات ثلاثة، مراد يُعلم يقيناً أنه فساد، وشر لاشك فيه البتة، كالنار والعذاب، وفى الفعال كالكذب والبدعة والمعصية، فلا سبيل إلى إرادة تلك. **والثانى:** مراد تعلم قطعاً أنه صلاح كالجنة والإيمان والسنة ونحو ذلك، منك إرادتها بالحكم، لا موضع للتفويض فيه، إذ لا خطر فيه، ولا شك أنه خير وصلاح. **والثالث:** مراد لا يعرف يقينا أن لك فيه صلاح أو فساد، وذلك نحو النوافل والمناجاة، فهذا موضع التفويض، فليس لك أن تريدها قطعاً، بل الاستثناء، فهو تفويض، وإذا أردت دون الاستثناء فهو طمع مذموم، منهى عنه، فموضع التفويض كل مراد فيه الخطر، وهو ألا تستيقن صلاحك فيه.

وأما معنى التفويض، فقال بعض شيوخنا: "هو ترك اختيار ما فيه

---

(١) البيت من بحر الوافر (مفاعلتن – مفاعلتن – مفعولن).

(٢) سورة غافر، آية ٤٤– ٤٥ .

مخاطرة، إلى المختار، المدبر العالم بمصلحة الخلق"، و"هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار ليختار لك ما هو خير لك". "هو ترك الطمع"، والطمع إرادة للشئ المخاطر بالحكم، فهذه عبارة المشايخ.

والذى نقوله إن التفويض إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك، فيما لا تأمن فيه الخطر، وضد التفويض الطمع فى الجملة، والطمع يجرى على وجهين، **أحدهما:** فى معنى الرجاء، يزيد شيئاً لا خطر فيه، أو مخاطرة بالاستثناء، وذلك ممدوح غير مذموم، كما قال تعالى: "**والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين**"[1]، "**إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا**"[2]، وهذا القسم ليس ما نحن فيه بسبيل هاهنا .

والثانى: مذموم، قال النبى ﷺ : "**إياكم والطمع، فإنه فقر حاضر**"[3]، وقيل: "هلاك الدين وفساده الطمع، وملاكه الورع"، قال شيخنا (رحمه الله): الطمع المذموم شيئان: "سكوت القلب إلى مصلحة مشكوكة، والثانى إرادة الشئ المخاطر بالحكم"، وهذه إرادة تقابل التفويض لا غير، فاعلم ذلك.

وأما حسن التفويض: فذكر خطر الأمور، وإمكان الهلاك، والفساد

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٨٢ .

(٢) سورة الشعراء ، آية ٥١ .

(٣) عن جابر قال: قال: رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إياكم والطمع فإنه الفقر، وإياكم وما يعتذر منه" رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن أبى حميد وهو مجمع على ضعفه (الهيثمى على بن ابى بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث دار الكتاب العربى، القاهرة، بيروت ١٤٠٧ هـ، جـ ١٠، ص ٢٤٨) .

فيها، وحصن حصنه ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطـر، والامتناع عن الوقوع فيها، لجهلك وغفلتك وضعفك، والمواظبـة علـى هذين الذكرين تحملك على تفويض الأمور كلها إلـى الله عـز وجـل، والتحفظ عن الحكم فيها، والامتناع عن إرادتها لشرط الخير والـصلاح، فهذه هذه **وبالله التوفيق.**

فإن قيل: فما هذا الخطر الذى توجبون التفـويض لأجلـه فـى الأمور؟، فاعلم أن الخطر فى الجملة خطران، **خطر الـشك** بأنه يكون أو لا يكون، وأنك تصل إليه أو لا تصل، وهذا يحتاج فيه إلـى الاسـتثناء، ويقع فى باب [النية][1] والعمل. والثاني: **خطر الفساد،** بألا تستيقن فيـه لنفسك الصلاح[2]، وهذا الذى يحتاج فيه إلى التفويض، ثم اختلفت عبارة الأئمة عن الخطر، فعن بعضهم أن الخطر فى الفعل أن يكون دونه نجاة، فيمكن أن يجامعه ذنب، فالإيمان والسنة والاستقامة، لا خطر فيها، إذ لا يمكن دون الإيمان نجاة، والاستقامة لا يجامعها ذنب، فإذن تـصح إرادة الإيمان والاستقامة بالحكم. وقال الأستاذ[3] (رحمه الله تعالى): الخطر فى الفعل ما يمكن أن يعترض فيه ما يكون الاشتغال بـالعوارض ولا مـن الإدمان على ذلك الفعل، وذلك يقع فى المباحات والسنة والفـرائض، ألا ترى أن من يضيق عليه وقت الصلاة، أو قصد أدائها، فَقصده حريق أو غريق يمكنه إنقاذه، والاشتغال بإنقاذه أولى من الإقبال على[4] صـلاته،

---

(١) ط : الألنية.

(٢) + ط : لنفسك .

(٣) يقصد أبا اسحق الاسفرائينى ، وقد مرّت ترجمته .

(٤) + ط : على.

فلا تصح إرادة المباحات والنوافل وكثير من الفرائض بالحكم.

فإن قيل: كيف يصح أن يفترض الله تعالى على عبده شيئاً، ويوعده على تركه، ثم لا يكون له صلاح فى فعله؟، فاعلم أن شيخنا (رحمه الله) قال: إن الله لا يأمر العبد إلا وفيه صلاحه، إذا تجرد عن العوارض، ولا يضيق عليه فعلاً فرضاً، بحيث لا يعتدل عن ذلك إلا وله فيه صلاح، وإنما يسبب الله تعالى له عذراً، لأجله يكون العدول عن أحد المأمورَيْن، أو فى من الاشتغال بالآخر كما ذكرنا، فيكون العبد فى ذلك معذوراً، بل مأجوراً، بترك هذا الفرض، بل بفعل الفرض الذى هو أولى. ولقد سمعت الإمام رحمة الله عليه فى هذه المسألة يقول: إن ما افترض الله تعالى على عباده كالصوم والصلاة والحج ونحوه، ففيها صلاح للعبد لا محالة، وصحت إرادتها بالحكم، فالتفقد رأينا على ذلك، [فبقت][1] المباحات والنوافل إذن من هذا الحكم، فاعلم ذلك، فإنه من غوامض هذا الباب، **وبالله التوفيق.**

فإن قيل: هل يأمن المفوض الهلاك والفساد، <و>[2] الدار دار محنة؟، فاعلم أن فى الأغلب ما يفعل المفوض إلى الصلاح، وقد يفعل به فى النادر غير الصلاح، ولذلك ربما يخذله فيقع عند منزلة التفويض، ولا صلاح للعبد فى الخذلان، والوقوع عند منزلة التفويض، وقيل: لا يفعل بالمفوض إلا ما فيه صلاحه، فيما فرض الله، والخذلان والقصور عن منزلة التفويض، مما لا يقع فيه التفويض، إذ لا يشك فى فساد ذلك،

(١) ط : فبقى.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

والتفويض إنما يقع فيما شك فى فساده وصلاحه، وهذا أولى القولين عند شيخنا رحمه الله، إذ لولا ذلك لما قويت الباعثة على التفويض.

فإن قيل: فهل يجب أن يفعل بالمفوض ما هو الأفضل؟، فاعلم أن الإيجاب مستحيل فى حق الله تعالى، ولا يجب لعباده عليه شئ، وقد يفعل بعبده الأصلح دون الأفضل، حكمة من فعله، ألا ترى أنه قدّر للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن ناموا طول الليل إلى طلوع الشمس فى بعض الأسفار، حتى فاتتهم صلاة الليل، وصلاة الفجر، والصلاة خير من النوم، وربما يقصد للعبد الغنى والنعمة فى الدنيا، وإن كان الفقر أفضل، فإنه بعباده خبير بصير، وهذا كما أن الطبيب الحاذق الناصح، يختار للمريض ماء الشعير، وإن كان ماء السكر أفضل وأنفس، لما علم أن صلاح علته فى ماء الشعير، والمقصود للعبد النجاة من الهلاك، لا التشرف والفضل مع الفساد والهلاك.

فإن قيل: هل يكون المفوض مختاراً؟، فالصحيح عند علمائنا أن يكون المفوض مختاراً، ولا يقدح فى تفويضه، وذلك أن المعنى فيه إذا كان له صلاح فى المفضول والأفضل، فهو يريد من الله تعالى أن يسبب له الأفضل، كما يقول المريض للطبيب: اجعل دوائى فى ماء السكر، دون ماء الشعير، إذا كان صلاح فى كليهما، ليحصل لى الصلاح والفضل جميعاً، فكذلك العبد إذ سأل الله أن يجعل صلاحه فيما هو الأفضل، ويسبب له ذلك ليجعل له الصلاح والأفضل جميعاً، ولكن بشرط: أنه إذا اختار الله تعالى الصلاح فى غير الأفضل، أن يكون راجياً بذلك.

فإن قيل: فلماذا كان للعبد أن يختار الأفضل، وليس له أن يختار الأصلح؟، فاعلم أن الفرق بينهما أن العبد يعرف الأفضل من المفضول، ولا يعرف الصلاح من الفاسد، ليريده بالحكم، ثم معنى اختياره للأفضل أنه يريد من الله عز وجل أن يجعل صلاحه فيما هو الأفضل، ويختار له ذلك ويقدره، لأن العبد يحكم فى شئ من ذلك، فأعلمه.

فهذه جملة من دقيق هذا العلم وأسراره، ولو <لم>(١) [تكن] (٢) الحاجة مست إليه، لما تعرضنا لإيراده، مع أنى اقتصرت على النكت المقنعة فى هذا الكتاب، وقصدت الإيضاح لينتفع به فحول العلماء والمبتدئون، والله سبحانه ولى التوفيق.

العارض الثالث: القضاء، وورد أنواعه، وإنما كفايته بالرضا به، فعليك أن ترضى [بقضاء](٣) الله عز وجل، وذلك لأمرين، أحدهما: التفرغ للعبادة، لأنك إذا لم ترض بالقضاء فتكون مهموماً مشغول القلب أبداً بأنه لو كان كذا، ولماذا لا يكون كذا، فإذا اشتغل القلب بهذه الهموم، كيف يتفرغ للعبادة؟، إذ ليس لك إلا قلب واحد، وقد ملأته بالهموم، وما كان وما يكون من أمر الدنيا، فأى موضع فيه لذكر العبادة، وفكر الآخرة؟، ولقد قال **شقيق البلخى**(٤) (رحمه الله): "إن حسرة الأمور

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) ط : كان .

(٣) ط : بالقضاء.

(٤) شقيق البلخى ، هو : شقيق الإمام الزاهد شيخ خراسان ، أبو على شقيق بن إبراهيم الأزدى البلخى [ت ١٩٤ هـ] صحب إبراهيم بن أدهم . وروى عن : كثير بن عبد الله الأيلى ، وغسارئيل بن يونس ، وعباد بن كثير . حدث عنه : عبد الصمد بن يزيد مردوية

، ومحمد بن أبان المستملى ، وحاتم الأصم ، والحسين بن داود البلخى وغيرهم . روى عن علي بن محمد بن شقيق قال : كانت لجدى ثلاثمائة قرية ، ثم مات بلا كفن ، قال : وسفيه إلى اليوم يتباركون به ، وقد خرج إلى بلاد الترك تاجراً ، فدخل على عبدة الأصنام ، فرأى شيخهم قد حلق لحيته ، فقال : هذا باطل ، ولكم خالق وصانع قادر على كل شئ . قال لـه ليس يوافق قولك فعلك . قال : وكيف ؟ قال : زعمت أنه قادر على كل شئ ، وقد تعنيت إلى ها هنا تطلب الرزق ، ورازِقُك ثَمَّ . فكان هذا سبب زهدى . وعن شقيق قال : كنت شاعراً ، فرزقنى الله التوبة ، وخرجت من ثلاثمائة ألف درهم ، ولبست الصوف عشرين سنة ، ولا أدرى أنى مراء حتى لقيت عبد العزيز بن أبى روَّاد ، فقال : ليس الشأن فى أكل الشعير ولبس الصوف ، الشأن أن تعرف الله بقلبك ، ولا تشرك به شيئاً ، وأن ترضى عن الله ، وأن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى أيدى الناس . وعنه : لو أن رجلاً عاش مائتى سنة لا يعرف هذه الربعة ، لم ينج : معرفة الله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة أمر الله ونهيه ، ومعرفة عدو الله وعدو النفس . وقد جاء عن شقيق مع عبادته وزهده أنه كان من رءوس الغزاة . وروى محمد بن عمران ، عن حاتم الأصم قال : كنا مع شقيق ونحن مصافو العدو الترك ، فى يوم لا أرى إلا رؤسا تندر وسيوفاً تقطع ، ورماحاً تقصف ، فقال لى : كيف ترى نفسك ، هى مثل ليلة عُرسك ؟ قلت : لا والله ، قال : لكننى أرى نفسى كذلك ، ثم نام بين الصفين حتى غط ، فأخذنى تُركى ، فأضجعنى للذبح ، فبينما هو يطلب السكين من خفه ، إذ جاءه سهم غائر ذبحه. وعن شقيق قال : مثل المؤمنين مثل غرس نخلة يخاف أن تحمل شوكاً ومثل المنافق مثل من زرع شوكاً يطمع أن يحمل تمراً ، هيهات . وعنه : ليس شئ أحب إلىَّ من الضيف لأن رزقه على الله ، وأجره لى . وعن شقيق قال : أخذت لباس الدون عن سفيان ، وأخذت الخشوع من إسرائيل وأخذت العبادة = = من عباد بن كثير ، والفقه من زُفَر . وعنه : علامة التوبة البكاء على ما سلف ، والخوف من الوقوع فى الذنب ، وهجران إخوان السوء ، ومرزمة الأخيار . وعنه : من شكى مصيبة إلى غير الله ، لم يجد حلاوة الطاعة . وقال الحاكم : قدم شقيق نيسابور فى ثلاثمائة من الزهاد ، فطلب المأمون أن يجتمع به ، فامتنع . أخبرنا أحمد بن محمد بن سعد ، أخبرنا الإربلى ، أخبرنا يحيى بن ثابت ، أخبرنا على بن الخل ، أخبرنا أحمد بن المحاملى ، أخبرنا أبو بكر الشافعى ، حدثنا الحسين بن داود ، حدثنا شقيق ، حدثنا أبو

الماضية،وتدبير الآتية، قد ذهبت ببركة ساعتك هذه".

والثانى من الأمرين: خطر ما فى السخط من غضب الله جل ذكره، ولقد روينا عن كعب الأحبار أن نبياً من الأنبياء شكى بعض ما ناله من المكروه إلى الله سبحانه، فأوحى الله تعالى إليه: "**تشكونى ولستُ بأهل ذمّ ولا شكوى، هكذا بدء شأنك فى علم الغيب، فلم تسخط قضائى عليك، أتريد أن أعيد دار الدنيا لأجلك، أو أبدل اللوح المحفوظ بسببك، فاقض ما تريد دون ما أريد، ويكون ما تحب دون ما أحب، فبعزتى خلقت لأن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى، لأسلبنكِ ثوب النبوة، ولأوردنك النار، ولا أبالى**"(١).

قلت: فليسمع العاقل هذه السياسة العظيمة، والوعيد الهائل مع أصفيائه وأنبيائه، فكيف مع غيرهم؟، ثم استمع ما يقول: "لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى"، فهذا حديث النفس، وتردد القلب، فكيف بمن يصرخ ويستغيث ويشكو، أو ينادى بالويل والصراخ من ربه على رءوس الملأ، ويتخذ له أعواناً وأصحاباً، وهذا [لمن] (٢) سخط مرة،

هاشم الأبلى ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " يا بن آدم ، لا تزول قدماك يوم القيامة حتى تُسأل عن أربع : عمرك فيما أفنيته ، وجسدك فيما ابليته ، ومالك من ايـن اكتسبته وأين أنفقته " . وقتل شقيق فى غزاة كولان سنة أربع وتسعين ومائة (الذهب ، سير أعلام النبلاء ٨/٢٠٦-٢٠٩) .

(١) لم أجد لفظ هذا الحديث فى كل كتب الأحاديث التى عوّلت عليها فى التحقيق .

(٢) ط : المن .

فكيف بمن هو فى السخط على ربه تعالى جميع عمره"[١]، وهـذا بمـن شكى إليه، فكيف بمن شكى إلى غيره؟، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونسأله أن يعفو عنا، ويغفر لنا سوء آدابنـا، ويـصلحنا بحسن نظره، إنه أرحم الراحمين.

فإن قيل: [ما الرضا] [٢] بالقضاء: وحقيقة ذلك وحكمه؟، فاعلم أن علمائنا قالوا الرضا بترك السخط، والسخط ذكر غير ما قضى الله تعالى، بأنه أولى به، وأصلح له، فيما لا يستيقن صلاحه وفساده، وهذا شرط فيه فاعلم ذلك. قلت: أليس الشرور والمعاصى بقضاء الله وقـدره، فكيـف يرضى العبد [بالشر][٣] ويأمن ذلك؟، فاعلم أن الرضا إنما يلزم بالقضاء، وقضاء الشر ليس بشر، وإنما الشر هو المقضى، فلا يكون رضا بالشر. وقال شيوخنا (رحمهم الله): المقضيات أربعة: نعمة وشدة وخير وشـر، فالنعمة يجب الرضا فيها بالقاضى والقضاء والمقـضى، ويجـب عليـه الصبر من حيث إنه شدة، والخير يجب عليه الرضا بالقاضى والقـضاء والمقضى، وعليه ذكر المنة من حيث إنه خير، وفقه الله له، والشر يجب عليه فيه الرضا بالقاضى والقضاء والمقضى، من حيث إنه مقـضى، لا من حيث إنه شر، وكونه مقضياً يرجع إلى القضاء، والقاضى بالحقيقة.

وهذا كما ترضى مذهب المخالف أن يكون معلومـاً لـك، لا أن

---

(١) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: العاقل هذه السياسة العظيمة، والوعيد الهائـل مع اصفيائه وأنبيائه، فكيف مع غيرهم: إلى قوله: فكيف بمن هو فى السخط على ربه تعالى جميع عمره. مقروءة بصعوبة فى ط .

(٢) مطموسة فى ط ، وتبدو هكذا .

(٣) ط : الشر.

يكون مذهباً لك، ثم كونه معلوماً، يرجع إلى العلم، فالرضى والمحبة إنما يكون بالحقيقة، للعلم بمذهب المخالف، لا بمذهبه، فكذلك هذا.

فإن قيل: فالراضى يكون مستزيداً، قيل له نعم، بشرط الخير والصلاح دون الحكم، فلا يخرجه ذلك عن الرضا، وذلك أولى، لأن من أعجبه شئ، ورضى بذلك، استزاد منه، وكان ﷺ [1]، إذا حضر اللبن يقول: "**اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه**"، وفى غيره يقول: "**وزدنا خيراً منه**"[2]. وفى موضع من الموضعين لم يدل على أنه غير راض بما قدره

---

(1) ط : عليه السلام.

(2) حديث صحيح ورد فى ابن ماجه، والترمذى، وأحمد، وأبى دواء كما يلى:

- حدثنا هشام بن عمار، ثنا إسماعيل بن عياش، ثنا بن جريج، عن بن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، عن بن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه ، ومن وسقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فأنى لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن" (سنن ابن ماجه ٢/١١٠).
- حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا على بن زيد، عن عمر وهو بن حرملة، عن ابن عباس قال: دخلت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنا وخالد بن الوليد على ميمونة فجاءتنا بإناء فيه لبن فشرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنا على يمينه وخالد على شماله فقال لى: "الشربة لك فإن شئت أثرت بها خالداً" فقلت ما كنت أوثر على سئورك أحداً، ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "من أطعمه الله الطعام فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليس شئ يجزى مكانه الطعام والشراب غير اللبن" . وقال هذا حديث حسن وروى بعضهم هذا الحديث عن على بن زيد فقال عن عمر بن حرملة، وقال بعضهم عمرو بن حرملة ولا يصح (سنن الترمذى ٥/٥٠٦).

له الله عز وجل من ذلك. فإن قلت: فلم يذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم الاستثناء، وشرط الخير والصلاح، فاعلم أن هذه الأمور بالقلب، وإنما يقال باللسان عبارة عن ذلك، فلا معتبر بترك عبادة، مع [حصولها][(١)] بالقلب، فاعلم ذلك.

العارض الرابع: المصائب والشدائد، وإنما كفايتها بالصبر فى المواطن كلها، وإنما ذلك لأمرين، **أحدهما:** الوصول إلى العبادة، وحصول المقصود منها، فإن مبنى أمر العبادة كلها على الصبر،

- حدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا إسماعيل، أنا على بن زيد قال: حدثنى عمر عن ابن أبى حرملة، بن عباس قال: دخلت أنا وخالد بن الوليد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ميمونة بنت الحرث فقالت ألا نطعمكم من هدية أهدتها لنا أم غفيق، قال فجئ بضبين مشويين فتبرق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنا على يمينه وخالد على شماله فقال لى: "الشربة لك وإن شئت آثرت بها خالداً" فقلت ما كنت لأوثر بسؤرك على أحدٍ فقال: "من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا فإنه ليس شئ يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن" (مسند أحمد ٢٢٥/١).
- حدثنا مسدد، ثنا حماد يعنى بن زيد ح، وثنا موسى إسماعيل، ثنا حماد يعنى ابن سلمة، عن على بن زيد، عن عمر بن حرملة ، عن ابن عباس قال: كنت فى بيت ميمونة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه خالد بن الوليد فجاؤوا بضبين مشويين على ثمامتين فتبرق رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال خالد أخالك تقذره يا رسول الله، قال أجل، ثم أُتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فشرب فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، وإذا سُقى لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شئ يجزى من الطعام والشراب إلا اللبن" قال أبو داود هذا لفظ مسدد (سنن أبى داود ٣٣٩/٣).

(١) ط : حصوله.

واحتمال المشقات، فمن لم يكن صبوراً لم يصل إلى شئ منها بالحقيقة، وذلك أن من قصد عبادة الله تعالى، وتجرد لها، استقبلته شدائد ومحن ومصائب، ووجوه، أحدها أنه لا عبادة إلا وفى نفسها مشقة، ولذلك كل هذا الترغيب فيه، ووعد الثواب عليه، إذ لا يتأتى فعل العبادة إلا بقمع النفس، إذ هى زاجرة عن الخير، ومخالفة النفس وقهر النفس من أشد الأمور على الإنسان.

وثانيها: أن العبد إذا فعل الخير مع المشقة، لزمه الاحتياط حتى لا يفسد، والإبقاء على العمل أشد من العمل.

وثالثها: أن الدار دار محنة، فمن كان فيها فلابد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها، وذلك أقسام، المصيبة فى الأصل والقربات، والإخوان، والأصحاب بالموت والخطر والفراق، وفى النفس بأنواع الأمراض والأوجاع، وفى العرض، يقال الناس إياه، والطمع فيه، والازدراء به، والغيبة والكذب عليه، وفى المال بالذهاب والزوال، ولكل واحدة من هذه المصائب لذعة وحرقة، من نوع آخر، فيحتاج إلى الصبر عليها كلها، وإلا فيمنعه الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة.

ورابعها: أن طالب الآخرة أشد بلاء وانبلاء، وأكثر محنة أبداً، ومن كان إلى الله تعالى أقرب، فالمصائب له فى الدنيا أكثر، والبلاء عليه أشد، أما تسمع قوله (صلى الله عليه وسلم)(١): "**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الشهداء، ثم الأمثل فالأمثل**"(٢)، فإذن من قصد الخير، وتجرد لطريق

---

(١) ط : عليه السلام.

(٢) أنظر التحقق من هذا الحديث فى الفصل القادم فيما سيأتى .

الآخرة، استقبلته هذه المحن، فإن لم يصبر عليها، ويكون بحيث لا يلتفت إليها، انقطع عن الطريق، واشتغل عن العبادة، فلا يصل إلى شئ من ذلك.

ولقد أعلمنا الله سبحانه باتقاء المحن والمصائب، وابتلائنا بها، وحقق ذلك وأكّده، فقال: "**لتبلونَّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعُنَّ من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً**"[1]، ثم قال تعالى: "**وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**"[2]، فكأنه يقول: وطنوا أنفسكم على أنه لابدّ لكم من أنواع البلايا، فإن تصبروا، فأنتم الرجال، وعزائمكم عزائم الرجال، فإن من عَزَمَ على عبادة الله، يجب **أولاً** أن يقدم على الصبر الطويل، ويوطن نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية إلى الموت، وإلا فقد قصد الأمر بغير آلته، فأتاه من غير وجهه. ولقد ذكر عن الفضيل (رحمه الله) أنه قال: "من عزم على قطع طريق الآخرة، فليجعل فى نفسه أربعة ألوان من الموت، الأبيض والأسود والأحمر والأخضر، فالموت الأبيض الجوع، والأسود من النفس، والأحمر مخالفة الشيطان، والأخضر، الوقائع بعضها على بعض".

والأمر **الثانى** من الأمرين: ما فى الصبر من خير الدنيا والآخرة، من ذلك النجاة والنجاح لقوله تعالى: "**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**"[3]، معناه: ومن يتق الله، وقال: بالصبر يجعل له مخرجاً من الشدائد، ومنها الظفر على الأعداء، قال تعالى:

---

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٨٦.

(٢) سورة آل عمران، من الآية ١٨٦.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان ٢ ، ٣ .

"**فاصبر إن العاقبة للمتقين**"[١]، ومنها الظفر بالمراد، قال تعالى: "**وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا**"[٢]، وقيل: كتب يوسف فى جواب يعقوب (عليهما السلام): "**إن أباءك صبروا فظفروا، فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا**".

ومنها التقدم على الناس والإمامة، قوله تعالى: "**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**"[٣]، ومنها الثناء من الله تعالى، قال تعالى: "**إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب**"[٤]، ومنها البشارة والصلاة والرحمة، قال تعالى: "**وبشر الصابرين**" إلى قوله تعالى: "**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**"[٥] الآية، ومنها المحبة من الله تعالى، "**إن الله مع الصابرين**"[٦]، ومنها الدرجات العليا فى الجنة، قال تعالى: "**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا**"[٧]، ومنها الكرامة العظيمة، قال تعالى: "**سلام عليكم بما صبرتم**"[٨]، ومنها ثواب غاية، ولا نهاية، خارج عن [أوهام][٩] الخلق وأعدادهم، قوله تعالى: "**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**"[١٠].

---

(١) سورة هود، آية ٤٩.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٣٧.

(٣) سورة السجدة، آية ٢٤.

(٤) سورة ص، آية ٤٤.

(٥) سورة البقرة، آية ١٥٧.

(٦) سورة البقرة ، آية ١٥٣ .

(٧) سورة الفرقان، آية ٧٥.

(٨) سورة الرعد، آية ٢٤ .

(٩) ط : الأوهام.

(١٠) سورة الزمر ، آية ١٠ .

فسبحانه من سيد ماجد، ما أكرمه، كل هذه الكرامات في الدنيا والآخرة، ليعطى عبده على صبر ساعة، فبان لك أن خير الدنيا والآخرة في الصبر، قال صلى الله عليه وسلم: "**ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**"(١)، وعن عمر رضى الله عنه: "**جميع صبر المؤمنين في صبر ساعة واحدة**".

فعليك باغتنام هذه الخصلة الشريفة، وبذل المجهود فيها، تكن من الفائزين، **والله تعالى ولى التوفيق.**

فإن قلت: فما حقيقة الصبر وحكمه؟، فاعلم أن لفظة الصبر من طريق اللغة "الحبس"، قال تعالى: "**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى**"(٢)، أى احبس نفسك، وإنما يوصف الله تعالى بالصبور، على معنى حبيسه العذاب عن المجرمين، فلا نعجلهم به، ثم المعنى الذى هو من مساعى القلب يسمى صبراً، لأنه حبس النفس عن الجزع، والجزع كما قاله العلماء، ذكر اضطرابك في الشدّة، وقيل بل إرادة الخروج عن الشدة. بالحكم، والصبر تركه، وحسن الصبر ذكر مقدار الشدة ووقتها، وإنما لا تزيد ولا تنقص ولا تتقدم ولا تتأخر، ولا فائدة في

---

(١) لما خلق الله العقل قال له: أقبل ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقعد فقعد. ثم قال له: أنطق فنطق، ثم قال له: أصمت فصمت، فقال: ما خلقت خلقاً أحب إلى منك بك أعُرف وبك أحُمد وبك أطُاع وبك آخذ وبك أعُطى وإياك أعاتب ولك الثواب وعليك العقاب وما أكرمتك بشئ أفضل من الصبر (الغزى، محمد بن محمد بن محمد، إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن، تحقيق خليل محمد العربى، ط الأولى، القاهرة ١٤١٥ هـ، جـ ٢، ص١٤٦٦).

(٢) سورة الكهف، آية ٢٨.

الجزع، بل فيه الضرر، والخطر، وحصن هذا الحـــصن، ذكـــر حـــسن عوض الله سبحانه عليه، وكريم الآخر فى ذلك لديه، فهذه هــذه، **وبـــالله التوفيق.**

فصل

فعليك بقطع هذه(1)، العقبة الشديدة المنيعة، بدفع هذه العـوارض الأربعة، وإزاحة علتها، وإلا فلا تدعك تذكر مقصودك من العبـادة، ولا تتفكر فيها، فضلاً عن أن تدركها، وتحصلها، وإن لكل واحد منها شـغلاً شاغلاً، عاجلاً وآجلاً.

ثم إن أعظمها وأعضلها أمر هذا الرزق وتـدبيره، فـإن البليـة الكبرى لعامة الخلق، أتعبت نفوسهم، وشغلت قلوبهم، وأكثرت همـومهم، وضيعت أعمارهم، وأعظمت تبعتهم وأوزارهم، وعدلت بهم عن باب الله سبحانه وخدمته، إلى خدمة الدنيا، وخدمة المخلوقين، [فعاشـوا](2) فـي الدنيا غفلة وظلمة، وتعب ونصب، ومهانة وذل، وقدِمُوا للآخرة مفاليس، بين أيديهم الحساب والعذاب، إن لم [يرحمهم] (3) الله تعالى بفضله.

وأنظر كم آية أنزل الله تعالى فى ذلك، وكم ذكـر مـن وعـده وضمانه، وقسمه على ذلك، ولم يزل الأنبياء والعلماء يعظـون النـاس، ويبينون لهم الطريق، ويصنفون لهم الكتب، ويضربون لهـم الأمثـال، ويخوفونهم بالله تعالى، وهم مع ذلك لا يهتدون سبيلاً، ولا يتقـون، ولا يطمئنون، بل هم فى غمرة من ذلك، لا يزالون يخافون أن يفوتهم غـداء أو عشاء، وأصل ذلك كله قلة التدبير لآيات الله تعالى، فقلت التفكّر فـى صنائع الله، وترك التأمل فى كلام رسول الله (صلى الله عليـه وسـلم)

---

(1) + ط : العبادة.

(2) ط : فعاصوا.

(3) ط : يرحم .

وترك التأمل لأقول الصالحين، <مع>[١] الاسترسال لوسواس الشيطان، والإصغاء إلى كلام الجاهلين، والاغترار بعادات الغافلين، حتى تمكن الشيطان منهم، ورسخت العادات في قلوبهم، فتأدى بهم ذلك إلى ضعف القلب، ورقة اليقين.

وأما الأخيار الذين هم أولوا الأبصار، وأرباب الجد والاجتهاد، نظروا إلى طريق السماء، فلم يعبأوا بأسباب الأرض، واعتصموا بحبل الله تعالى، فلم يكترثوا بعلائق الخلق، ويتقنوا بآيات الله، وأبصروا طريقه، فلم يلتفتوا إلى وسواس الشيطان، أو نفس أو إنسان [أو شيئ][٢]، قاموا بالمشاقة والمدافعة والمخالفة، حتى ولّى الخلق عنهم، وانعزل الشيطان عنهم، وانقادت لهم النفس، واستقام لهم الطريق المستقيم، على ما ذكر عن **إبراهيم بن أدهم**[٣] (رحمه الله) أنه لما أراد أن يدخل البادية، أتاه الشيطان، فخوفه أن هذه بادية مهلكة، ولا زاد معك، ولا سبب، فعزم على نفسه رحمه الله أن يقطع البادية على تجرده ذلك، وأن لا يقطعها حتى يصلي تحت كل ميل من أميالها ألف ركعة، وقام بما عزم عليه، وبقي في البادية اثنى عشر سنة، حتى أن الرشيد حج في بعض تلك السنين، فرآه تحت ميل يصلي، فقيل له: هذا إبراهيم بن أدهم، فأتاه فقال: كيف تجدك؟، فأنشد إبراهيم يقول:

نرقعُ دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نُرقعُ

فطوبى لعبدٍ آثرَ الله ربَّه ... وجادَ بُدنياه لما يَتَوقَعُ[٤]

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ط : بشئ .

(٣) إبراهيم بن أدهم، تابعي جليل وقد مرّت ترجمته.

(١) البيتان من بحر الطويل (فعولن – مفاعلين– فعولن– مفاعلن).

وعن بعض الصالحين أنه كان فى بعض البوادى، فوسوس إليه الشيطان، بأنك متجرد، وهذه بادية ملهكة لا عمران فيها ولا ناس، فعزم على نفسه بأن يمضى على تجرده، وأن يترك الطريق حتى لا يقع بأحد من الناس، ولا يأكل شيئاً حتى يجعل فى فيه العسل والسمن، ثم عدل عن الشارع ومرّ على وجهه، قال رحمه الله: فسِّرت إلى ما شاء الله فإذا بقافلة قد ضلت الطريق، وهم يسيرون، فلما أبصرتهم رميت بنفسى إلى الأرض، لعلهم لا يبصروننى، فسيرهم الله حتى وقفوا علىّ، فغمضت عينى، فدنوا منى، وقالوا: هذا منقطع قد غُشِيَ عليه من الجوع والعطش، فهاتوا سمناً وعسلاً نجعله فى فيه لعله يفيق، فأتوا بسمن وعسل فشددت فمى ولسانى، فأتوا بسكين، فعالجوا فمى حتى فتحوه، فضحكت ففتحت فمى، فلما رأوا ذلك قالوا أنت مجنون، قلت لا والحمد لله تعالى، فأخبرتهم ببعض ما جرى لى مع الشيطان.

وعن بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى، قال نزلت فى بعض أسفارى أيام التعليم مسجداً، وكنت متجرداً على عادة أوليائنا، فوسوس إلىّ الشيطان بأن هذا مسجد بعيد عن الناس، لو صرت إلى مسجد بين الناس، لرأك أهله، وقاموا بكفايتك، قلت: لا أبيت إلا هنا، وعلى عهد الله تعالى ألا أكل شيئاً إلا الحلوى، ولا آكله حتى يوضع [فى](1) فمى لقمة لقمة، وصليت العتمة، وأغلقت الباب، فلما مضى صدر من الليل، فإذا عجوز قد دخلت، فوضعت بين يدىّ طبقاً من الخبيص، وقالت: هذا ولدى، صنعت له هذا الخبيص، وجرى منى كلام، فحلف ألا يأكل حتى

---

(٢) ط: فيه.

يأكل معه رجل غريب، أو قالت: هذا الغريب الذى فى المسجد، فكل رحمك الله، وأخذت تضع فى فمى لقمة، وفى فم ولدها لقمة.

فهذه وأمثالها من مجاهدات الصالحين، ومناقضتهم للشيطان، فبان لك فى ذلك فوائد ثلاث، **أحدها:** أن تعلم الرزق لا يفوتك منه قدرك بحال، **والثانية:** أن أمر الرزق والتوكل لمهم جداً، وأن للشيطان فيه غوائل ووساوس عظيمة، حتى أن مثل أولئك الأئمة الزهاد لم يتخلصوا من ذلك، ولم ييأس عنهم الشيطان، بعد طول تلك الرياضة، وكثرة المجاهدات التى سبقت لهم، حتى يحتاجوا إلى دفعه بهذه المناقضات، ولعمرى إن من جاهد النفس والشيطان سبعين سنة، لا يأمن أن يوسوس له، كما يوسوس للمبتدئ فى العبادة، بل لغافل لم يجتهد ساعة فى الرياضات، ولو ظفرا[1] به لمنضحاه، وأهلكاه" هلاك الغافلين المفترين، وفى ذلك عبرة لأولى الأبصار.

والثالثة: أن يعرف أن الأمر لا يتم إلا بالجد المحض والمجاهدة البالغة، فإنهم كانوا لحماً ودماً وبدناً وروحاً مثلك، بل كانوا [أنحف][2] أبداناً، وأضعف أركاناً، وأرق عظاماً منك، ولكن كانت لهم قوة العلم، ونور اليقين، وهمة أمر الدين، حتى قووا على مثل تلك المجاهدة، والقيام بحق تلك المقامات، فانظر إلى نفسك رحمك الله وإيانا، وداوها من هذا الداء المعضل، لعلك تفلح إن شاء الله تعالى.

---

(١) يقصد النفس والشيطان.

(٢) ط : أنسف.

فصل

ثم اعلم بعد هذه الجملة [أن] [1] مجرد ذلك نكتاً وحديثا، وجـدتها بحيث تمكث فى القلب، إذا تذكرتها، وتكفيك مؤنة هذا البـاب، وتـدعك على واضحة من الحق إن تأملتها، وعملت بها، والله الموفق، لا إلـه إلا هو.

الأولى: أن تعلم أن الله تعالى ضمن رزقك فى كتابه، وتكفل لـك به، وما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا، أنه يضيفك الليلة ويعشيك، وأنت حسن الظن به أنه صادق، ولا يكذب، ولا يخلف الوعد، بـل لـو وعدك بذلك سوقى، أو يهودى، أو نـصرانى، أو مجوسـى، مـستوراً بظاهره عندك، عفيفاً فى معاملته، ألست تثق فى وعده؟، وتطمئن لقوله، ولا تهتم لعشائك تلك الليلة، اتكالا عليه، فمالك وقد وعدك الله، وضـمن لك رزقك، وتكفل به، بل أقسم عليه[2] فى غير موضع، وأنت لا تطمئن بوعده، ولا تسكن إلى قوله وضمانه، ولا تنظر إلى قسمه، بل يضطرب قلبك وتهتم، فيالها من فضيحة لو رُأيت، ويالها من مصيبة لـو عُلمـت، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه:

أتطلبُ رزقَ اللهِ من عندِ غيـرِه   وتصبحُ من خوفِ العواقبِ آمنا

وترضى بصرَّافٍ ولو كان مشركا   ضميناً ولا ترضى بربك ضامنا[3]

ولهذا المعنى ينجزّ هذا الأمر إلى الشك والشبهة، ويخاف علـى

---

(1) ط : أنى .

(2) + ط : عليه.

(3) البيتان من بحر الطويل [فعولن –مفاعلين– فعولن– مفاعلين].

صاحبه والعياذ بالله تعالى سلب المعرفة والدين، ولهذا قال سبحانه: **"وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين"**[١]، **"وعلى الله فليتوكل المؤمنون"**[٢]، فحسب المؤمن المهتم لأمر دينه هذه النكتة الواحدة، **ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.**

والثانية: أن تعلم أن الرزق مقسوم، صح ذلك من كتاب الله تعالى، وإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعلم أن قسمته لا تتغير ولا تتبدل، فإن أنكرت القسمة، أو جوزت نقصها، فهذا باب الكفر تقرعه، نقول بالله وإن علمت أنه حق لا يتغير، فأى فائدة فى الاهتمام والطلب إلا الذل والهوان فى الدنيا، والشدة والخذلان فى الآخرة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **"مكتوب على الحبوب والنوى: رزق فلان بن فلان"**[٣]،

---

(١) سورة المائدة، آية ٢٣.

(٢) سورة إبراهيم، آية ١١.

(٣) حديث موضوع، وربما يكون قول لابن عمر، أورده الكنانى، وابن الجوزى، والسيوطى هكذا:

- ما من زرع على الأرض ولا ثمرة على الأشجار إلا عليها بسم الله هذا رزق فلان ابن فلان. وذلك قوله تعالى وما تسقط من ورقة إلا يعلمها"، الكنانى، على بن محمد بن على بن عراق، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق الغمارى، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩ هـ، ص ٢٦٤.
- ما من زرع على الأرض ولا ثمار من الأشجار إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان بن فلان، وذلك قوله تعالى فى محكم كتابه وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين" ابن الجوزى، عبد الرحمن بن على بن محمد القرشى أبى الفرج، العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية، جـ ١، ص ٢٣٠.

فلا يزداد الحريص إلا جهلاً، وفى ذلك يقول شيخنا (رحمه الله): "إن ما قدر أن يمضغا، فلا يمضغه غيرك"، فكل – ويحك – رزقك بـالعز، ولا تأكله بالذل، وهذه نكتة [مقنعة][1] للرجال.

والثالثة: ما سمعت شيخى الإمام يحكى عن الأستاذ (رحمـه الله) أنه كان يقول: "فما ينفعنى فى أمر طلب الرزق، أنى قلت لنفسى، هـذا الرزق للحياة والعيش، والميت ما يصنع بالرزق، فإذا [كانـت] [2] حيـاة العبد فى خزانة الله وبيده، إن شاء يعطينى، وإن شاء يمنعنى، وهو غيب عنى، موكل إلى الله تعالى، يدبره كيف يشاء، وأنا ساكت النفس بـذلك. وهذه نكتة لطيفة مقنعة لأهل التحقيق.

والنكتة الرابعة: مما ذكرنا أن الله تعالى ضمن رزق العبد، ولـم يضمن إلا الرزق المضمون، الذى هو الغذاء والتربيـة، وفيـه القـوام والعدّة، أما الأسباب من الطعام والشراب، فالعبد إذا تجـرد لعبـادة الله، وتوكل عليه فربما تحتبس عنه الأسباب، فلا يعبأ بذلك ولا يضجر، لمـا علم من حقيقة الأمر، أن الضمان لقوام البنية، والتوكل على الله، إنما هو فى هذا المعنى لا غير، والمنتظر من الله تعالى هذا المعنـى، فـإن الله تعالى يمده بالقوة، ليقوم بحقّ العبادة والخدمة، ما دام له أجـل وتكليـف

= عن ابن عمر: "ما من زرع على الأرض إلا ثمـر علـى الأشـجار ولا عليهـا مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا رزق فلان بن فلان وذلك قوله تعالى وما= = تسقط من ورقة إلا يعلمها" السيوطى، عبد الرحمن، ذيل اللالـئ المـصنوعة، تحقيق السيد محمد معشوقعلى، ط المطبع العلوى، الهند ١٣٠٣ هـ، جـ ١، ص ١٤٠.

(١) ط : مصنعة.

(٢) ط : كان .

بالعبادة، وهذا هو المقصود، والله تعالى قادر على ما يشاء، إن شاء يقيم بنية عبده بطعام أو شراب، أو بطين أو تراب، أو تسبيح وتهليل كالملائكة، وإن شاء بدون هذا كله، فليس مطلوب العبد إلا القوام والقوة للعبادة، <أما>[1] للأكل والشرب وشدة الشهوة، وجل اللّذة، فلا أعتبر بالأسباب إذن.

ولهذا المعنى يستقوى العُباد والزهاد[2]على الأسفار، وطى الليل، والأيام، فمنهم من لم يأكل عشرة أيام، ومنهم من لم يأكل شهراً وشهرين، وهو على قوته ومنهم من كان يستف الرمل، فيجعله الله له غذاء، نحو ما ذكر عن **الثورى**[3] (رحمه الله): أنه نفدت نفقته بمكة، فبقى خمسة عشر يوماً يسف الرمل. وقال أبو معاوية الأسود: "رأيت إبراهيم بن ادهم يأكل الطين عشرين يوماً"، و[عن][4] الأعمى قال؛ قال **إبراهيم التيمى**[5]: ما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) + ط : العباد .

(٣) الثورى، هو التابعى الجليل سفيان الثورى ، وقد مرّت ترجمته.

(٤) ط : عند.

(٥) إبراهيم بن يزيد التيمي، هو: تيم الرباب ، الإمام القدوة الفقيه عابد الكوفة ، أبو أسماء حدث عنه : أبيه يزيد بن شريك التيمي، وكان أبوه يزيد من أئمة الكوفة أيضاً . يروي عن عمر ، وأبى ذر ، والكبار ، أخذ عنه أيضاً الحكم، وإبراهيم عن الحارث بن سو يد ، وأنس بن مالك ، وعمرو بن ميمونة الأودي ، وجماعة ، وكان شاباً صالحاً قانتاً لله عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً. روى الثوري : قال إبراهيم التيمي : كم بينكم وبين القوم (يقصد النبي وأصحابه) ! أقبلت عليهم الدنيا فهربوا ، وأدبرت عنكم ، فاتبعتموها . وروى أبو حيان عن إبراهيم قال : ما عرضت قولي علي عملي إلا خفت أن أكون مكذباً. قال العوام بن حوشب : ما رأيت إبراهيم التيمي رافعاً بصرة إلى السماء قط. وعن إبراهيم قال إن

أكلت منذ شهر، قال منذ شهر؟ قال: ولا شهرين، إلا إنساناً ناشدنى على عنقود من عنب، فأكلته، فإنى اشتكى بطنى".

قلت: فلا تعجبن من ذلك، فإن لله القدرة على ما يشاء، وهذا المريض، تراه لا يأكل شهراً وهو حي يعيش، والمريض على كل حال أضعف نفساً، وأرق طبعاً من القوى، وأما الذى يموت جوعاً فهذا أجل حضره، كالذى يموت شبعاً وتخمة، ولقد بلغنى عن أبى **سعيد الخراز**[1]

الرجل ليظلمني فأرحمه . وروي عنه منصور قال : إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منة .قال ابن سعد في طبقاته : أخبرنا على بن محمد قال : طلب= = الحجاج إبراهيم ، ولم يستحل أن يدله على النخعى ، فأمر بحبسة ، ولم يكن لهم ظل من الشمس ، ولاكن من البرد ، كل اثنين في سلسلة ، فتغير إبراهيم ، فعادته أمه ، فلم تعرفه ، حتى كلمها فمات فرأى الحجاج في نومة قائلا يقول : مات في البلد الليلة رجل من أهل الحنة ، فسأل ، فقالوا :مات في السجن إبراهيم التيمي ، فقال : حلم نزغه الشيطان ، وأمربه فألقى على الكناسة ويقال إنه الحجاج قتل إبراهيم التيمي ، وقيل : بل مات في حبسة سنة اثنتين وتسعين ، وقيل : سنة أربع وتسعين ، ولم يبلغ أربعين سنة (الذهبي و سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٢٩ – ٥٠).

(١) أبو سعيد الخراز، هو: هو أحمد بن علي الدمشقي الخراز ، بالراء ثم الزاى ، أبو بكر المرى شيخ الصوفية ، القدوة ، أبو سعيد ،أحمد بن عيسى البغدادي الخراز (ت ٢٧٧أو ٢٨٦هـ) . أخذ عن إبراهيم بن بشار الخرساني ، ومحمد بن منصور الطوسي . وروي عنه :علي بن محمد الواعظ المصري ،وأبو محمد الجر يري ، وعلي بن حفص ، الرازى ، ومحمد بن علي الكتاني ، وآخرون . وقد صحب سريا السقطي ، وذا النون المصري . ويقال أنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء ، فأي سكتة فاتته ، قصد خيراً ، فولد أمرا كبيراً ، تشبث كل اتحادي ضال به ، قال :أبو القاسم عثمان بن مردان النهاوندي : أول ما لقيت أبا سعيد الخراز سنة اثنتين وسبعين فصحبته أربع عشرة سنة .قال : توفي سنة ست وثمانين ومائتين . وقال غيره بل توفي سنة سبع وسبعين ومائتين وقال السلمي : هو إمام القوم في كل فن من علومهم، له في مبادئ أمره عجائب وكرامات ، وهو أحسن القوم

(رحمه الله) أنه قال: "كان حالى مع الله تعالى أن يطعمنى فى كل ثلاثة أيام، فدخلت البادية، فمضت على ثلاثة ما طعمت، فلما كان اليوم الرابع وجدت ضعفاً، فجلست مكانى، فإذا بهاتف يقول لى: يا أبا سعيد أيهما أحب إليك، سبب أو قوى؟، قلت: لا، إلا القوى، فقمت من وقتى وقد استقللت، وأقمت اثنى عشراً يوماً، ما طعمت ولا وجدت الماء".

لذلك فإذا رأى العبد احتباس الأسباب عنه، وعلم من نفسه التوكل على الله، فليستيقن أن يمده الله تعالى بالقوة، فلا يضجرن لذلك، بل حقه أن يشكر الله تعالى على ذلك شكراً كثيراً، فإن له المنة والصنع اللطيف، إذ رفع عنه المؤنة، وأعطاه المعونة، وحصل له الأصل المقصود، ودفع عنه الثقل والواسطة، وخرق له علائق العبادة، وأعطاه طريق القدرة،

كلاما ، خلا الجنيد ، فإنه الإمام وقال القشيرى : صحب ذا النون ، والسري ، والنباجي ، وبشراً الحافي ، قال : ومن كلامه : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل . وقال ابن = = الطرسوسي : أبو سعيد الخراز قمر الصوفية. وعنه قال : أوائل الأمر التوبة ، ثم ينتقل إلي مقام الخوف ، ثم إلي مقام الرجاء ، ثم منه إلى مقام الصالحين ، ثم مقام المشتاقين ، ثم منه إلي مقام الأولياء ثم منه إلي مقام المقربين . قال السلمي :أنكر أهل مصر علي أبي سعيد ، وكفروه بألفاظ ، فإنه قال في كتاب "السر" : فإذا قيل لأحدهم : ما تقول ؟ قال الله . وإذا تكلم قال الله ، وإذا نظر قال : الله ، فلو تكلمت جوارحه ، قالت : الله . وأعضاؤه مملوءة من الله . فأنكروا عليه هذه الألفاظ ، وأخرجوه من مصر . قال ثم رد بعد عزيزاً . ويروي عن الجنيد ، قال : لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا ، فقيل لإبراهيم بن شيبان : ما كان حاله ؟ قال :أقام سنين ما فاته الحق بين الخرزتين . وعن المرتعش قال :الخلق عيال علي أبي سعيد الخراز إذا تكلم في الحقائق. وقال الكتاني : سمعت أبا سعيد يقول :من ظن انه يصل بغير بذل المجهود فهو متمني ، ومن ظن أنه يصل ببذل المجهود فهو متعني (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٠ / ٧٠٤ – ٧٠٥) .

وإن شبه حاله بحال الملائكة، فرفعه عن حال البهائم، والعامة فى تلك الكرامة، فتأمل هذا الأصل الأصيل، تغنم الربح العظيم، إن شاء **الله تعالى**.

ولعلك أن تقول: ألك ضبط فى هذا الأصل بخلاف شرط الكتاب، فأقول: لعمر الله إنه لقليل فى جنب ما يحتاج إليه فى هذا المعنى، إذ هو أهم شأن فى العبادة، بل عليه مدار أمر الدين والدنيا والعبودية، فمن له همة فى هذا الشأن، فليتمسك بذلك، وليراعِ حقه، وإلا فهو عن المقصود بمعزل، والذى يدلك على بصيرة، علماء الآخرة العارفين لله، إنهم بنوا أمرهم على التوكل على الله تعالى، والتفرغ لعبادته، وقطع العلائق كلها، لكم صنفوا من كتاب، وكم أوصوا بوصية، وقيض الله لهم من العباد وأصحاباً، يتمشى لهم بالخير المحض، ما لم يتمشى لطائفة من طوائف الأمة، إلا زهاد الكرامية على أصول مستقيمة، وما زلنا أعزة ما دمنا على منهاج أئمتنا، يخرج من مدارسنا ومعابدنا كل حين إمام فى العلم، كالأستاذ **أبى اسحق**(١)،وشيخنا الإمام، وغيرهم من السادة، وإما صدّيق فى العبادة، وغيرهم فمن ذاق الأئمة علما وزهدا، حتى ضعفت القلوب من بعضنا، وتلطخت بشئ من العلائق، التى ضُرُّها أحسن من نفعها، فتراجعت الأمور، وتعاقدت الهمم، وطارت البركات، ونزلت اللذات و[الحلاوات](٢)، فلا تكاد تصفو لأحد غاية، أو يحصل له علم وحقيقة،

---

(١) الأستاذ أبو إسحق، هو: الاسفرائينى، وقد مرّت ترجمته.

(٢) ط : العلامات.

فإن اللمعة التى تظهر منا، ليست إلا ممن بقى علـــى منهـــاج أســـلافنا وشيوخنا المتقدمين، وغيرهم من أئمة الدين رضى الله عنهم.

وكنا فى الصدر الأول ملوكاً، فصرنا سوقة، وكنا فرساناً فصرنا رجّالة[١]، وليتنا لا نقطع عن الطريـــق بمـــرة، والله المـــستعان علـــى المصائب، والمسئول أن لا يسلبنا هذا الرمق، إنه جـــواد كـــريم، منـــان رحيم، **ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.**

وأما التفويض: فتأمل فيه أصلين، أحدهما: أنك تعلم أن الاختيـــار لا يكون إلا لمن كان عالماً من الأمور بجميع جِهاتها، ظاهرها وباطنها، حالها وعاقبتها، وإلا فلا يأمن أن يختار الفساد والهلاك، على مـــا فيـــه الخير والصلاح، ألا ترى أنك لو قلت لبدوى، أو [قـــروى] غيـــر عـــالم بالنقد، انتقد لى هذه الدراهم، وميزلى بين جيدها ورديئها، فإنه لا يهتدى لذك، ولو قلت لسوقى غير صَيّرَفى فربما تفشل أيضاً، فلا تأمن إلا بـــأن تعرضها على الصَيّرَفى الخبير بالذهب والفضة، وما فيهما من الخواص والأسرار، وهذا العلم المحيط بالأمور من جميع الوجوه، لا يصلح إلا لله رب العالمين، فلا يستحق أحدٌ إذن أن يكون له الاختيار والتدبير إلا آلـــه وحده لا شريك له، ولذلك قال تعالى "**وربك يخلق ما يشاء ويختـــار مـــا كان لهم الخيرة**"[٢]، ثم قال: "**وربك يعلم ما تكـــن صـــدورهم**"[٣] الآيـــة،

---

(١) رجّالة، بمعنى يمشون على الأرجل، كما فى قوله تعالى: "وإذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا".

(٢) سورة القصص ، آية ٦٨ .

(٣) سورة القصص ، آية ٦٨.

وحكى عن بعض الصالحين، قيل له عن الله عز وجل: سل تعط، وكان موافقاً فقال: "إن عالماً بجميع الوجوه يقول لجاهل من جميع الوجوه سل تعط، إيش إيش أعلم ما يصلح لى فأسأله، ولكن أختر لى أنت"، فهذه هذه.

والأصل الثانى: ما تقول لو <أن>[١] رجلاً قال لك: إنى أقوم بجميع أمورك، وأدير ما تحتاج إليه من مصالحك، فوض الأمر كله إلىّ، واشتغل أنت شأنك الذى يعنيك، وهو عندك أعدل أهل زمانك وأحكمهم، وأقواهم وأرحمهم وأتقاهم وأصدقهم وأوفاهم ألست تغتنم ذلك، وتعّده أعظم نعمة، وتمنّ له أفضل منة، وتوفر له أكبر شكر، وأجمل ثناء، ثم اختار لك شيئاً لا تعرف وجه الصلاح فيه، فلا تضجر لذلك، بل تثق وتطمئن إلى تدبيره، وتعلم أنه لا يختار لك [إلا][٢] ما هو خير، وما ينظر لك إلا الصلاح كيفما كان الأمر، بعد ما وكلت الأمر إليه، وضمن ذلك، فما لك إذا لم تفوض الأمر لله رب العالمين، فسبحانه وهو الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، أعلم كل عالم، وأقدر كل قارد، وأرحم كل راحم، وأغنى كل غنى، ليختار لك بلطفه وعلمه وحسن تدبيره، ولا يبلغه علمك، ولا يدركه فهمك، وتشتغل أنت شأنك الذى هو بعينك فى عاقبتك، وإذا اختار لك ربك أمر لا تعلم وجه سرّه، فرضيت بذلك واطمأننت كيفما كان فهو الصبر والخير، فتأمل راشداً إن شاء الله تعالى، **وبالله التوفيق.**

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ط : لا.

وأما الرضا بالقضاء، فتأمل فيه أصلين مقنعين، لا مزيد عليهما، **أحدهما:** ما فى الرضا من الفائدة فى الحال والمآل، أما الفائدة الحالية ففراغ القلب، وقلة الهمّ، من غير فائدة، ولذلك قال بعض الزهاد (رحمه الله): "إذا كان القدر حقاً، فالهم فضلة، وأصله الخبر المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم: "أنه قال لابن مسعود: **ليقلّ همُك، ما قدر يكون، وما لم يرزق، لم يأتك**"(١)، هذا هو الكلام النبوى الجامع، البالغ فى قلة اللفظ، وكثرة المعنى، وأما الفائدة فى المآل، فثواب الله ورضوانه، قول الله تعالى: "**رضى الله عنهم ورضوا عنه**"(٢)، وفى السخط من الهم والضجر فى الحال، والوزر والعقوبة فى الآخرة بلا فائدة، إذ القضاء نافذ، فلا ينصرف بمهملتك وسخطك.

والعاقل لا يختار الهم بلا فائدة، مع الوزر والعقوبة، على راحة القلب، وثواب الجنة.

و**الأصل الثانى:** ما فى السخط من عظيم الخطر والضرر، والكفر والنفاق، إلا أن بتداركه الله تعالى، وتأمل قوله تعالى: "**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**"(٣)، نفى الإيمان وأقسم عز من سخط قضاء رسول الله

---

(١) هذا القول ليس بحديث، ولكنه تضمين ومعنى لقوله (صلى الله عليه وسلم) لزيد بن ثابت فى القدر: "لو أن الله عَذَّبَ أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو كان لك جبل أحدٌ أو مثل جبل أحدٌ ذهباً أنفقته فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وإنك إن مِت على غير هذا دخلت النار (ابن ماجه ٢٩/١، ومجمع الزوائد ١٩٧/٧ – ١٩٨).

(٢) سورة المائدة ، آية١١٩ .

(٣) سورة النساء، آية ٦٥.

صلى الله عليه وسلم، فكيف حال من سخط قضاء الله تعالى، روينا أن الله عز وجل يقول: "**من لم يرض بقضائى، ولم يصبر على بلائى، ولم يشكر نعمائى، فليتخذ إلها سواى**"(١)، قيل كأنه يقول: لا يرضانا ربّاً حين سخط، فليأخذ رباً آخر يرضاه، وهذا غاية الوعيد، والتهديد لمن عقل.

ولقد صدق بعض السلف، وقد سئل ما العبودية والربوبية؟، فقال: "الرب يقضى والعبد يرضى، فإذا قضى الرب، ولم يرض العبد، فما هنالك عبودية، ولا ربوبية". فتأمل هذا الأصل، وانظر لنفسك لعلك تسلم **بعون الله وتوفيقه.**

وأما الصبر فإنه دواء، [وشربته](٢) كريهة مُباركة، تجلب كل منفعة، وتدفع كل مضرّة، وإن كان الدواء بهذه الصفة، فالإنسان العاقل يُكرِه النفس على شربه <و>(٣)تجرعه، ويغض ويصبر على مرارته وحدّته، ويقول: مرارته ساعة، وراحته سنة.

وأما المنافع التى يجلبها، فاعلم أن الصبر أربعة، صبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وصبر [على](٤) فضول الدنيا، وصبر على المحن والمصائب، فإذا احتمل مرارة الصبر، فَصيَّر فى هذه

---

(١) الحديث (ضعيف) ورد فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الضعيفة والموضوعة ص ٢٥٢ ، هكذا : "إنى أنا الله لا إله إلا أنا: من لم يصبرْ على بلائى ، ولم يرض بقضائى ولم يشكلا نعمائى فليتخذ رباً سوائى" (انظر ، أبو عبد الرحمن عصام الدين الضبابطى ، جامع الأحاديث القدسية، طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة (د.ت) ، المجلد ٣ ، ص ٨٦).

(٢) ط : وشربه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ط : عن .

المواطن الأربعة، تحصل له الطاعة ومنازلها من الاستقامة، وثوابها الجزيل فى العاقبة، ثم لا يقع فى المعاصى وبغياتها وتبعاتها فى الآخرة، ثم لا يتبلى بطلب الدنيا، وما لها من الشغل فى الحال، والتبعة فى المآل، ثم لا يحيط أجره ما ابتلى به[1]، وذهب فحصل إذا بسبب الصبر والطاعة، ومنازلها الشريفة وثوابها، والتقوى والزهد والعوض والثواب الجزيل عن الله تعالى، وتفصيل ذلك أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وأما المضارّ، فيريحه أولاً من مؤنة الجزع، ومقاساته فى الدنيا، ثم وزره وعقوبته فى العقبى، وأما إن هو ضعف عن الصبر، وسلك طريق [الجزع][2] فاتته كل منفعة، ولحقته كل مضرّة، إذ لا يصبر على مشقة الطاعة، فلا يفعل الطاعة، ولا يصبر على حفظها فيحبطها أو لا يصبر على المواظبة عليها، فلا يصل إلى مرتبة شريفة فيها من درجات الاستقامة، ولا يصبر على معصية فيقع فيها، أو فضول فيشتغل به، أو لا يصبر على معصية، فيحرم ثوابها لقلة الصبر، وربما يكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك، فتكون مصيبتان: فوت الصبر، وفوت الأجر والعوض، وحلول المكروه، وحرمان الصبر.

ولقد قيل: "**حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة**"، وأى شئ يذهب بالحاصل الموجود، ولا يرد عليك الزاهب المفقود، فإذا فاتك أحدهما فلا يفوتك الآخر، ومن الكلمات الجامعة: أن علياً (رضى الله عنه)[3]

---

(١) + ط : ثم لا يحيط أجره على ما ابتلى به.

(٢) ط: الجذع.

(٣) ط : عليه السلام.

عزى رجلاً فقال: "**إن صبرت جرت عليك المقادير، وأنت مأجور، وإن جزعت، جرت عليك المقادير وأنت موزور**".

ثم أقول: إن جملة الأمر أن قطع القلب عن العلائق المألوفة، وقلع النفس عن العادات الراسخة، بالتوكل المحض على الله تعالى، وترك التدبير فى الأمور، وتفويضها إلى الله عز وجل، من غير علم بما هو السرّ فيها، وكبح النفس عن السخط والجزع، مع تسارع النفس[1] إليه، وإكراهها على إلجام الرضى، وتجرع شربة الصبر مع نفرتها عن ذلك الأمر، وهو مرّ، وعلاج شديد، وحمل ثقيل، ولكنه تدبير سديد، وطريق مستقيم، وله عاقبة محمودة، وأحوال سديدة مسعودة، وما تقول فى الوالد المشفق الغنى، إذا منع ولده العزيز عنده رطبة، أو تفاحة يأكلها، وهو أرمد، ويسلمه إلى المعلم الغليظ السايس، ويحبسه طول النهار عنده، ويضجره، ويجرد إليه الحجام ليحجمه[2]، "فيوجعه ويقلقه، أترى مع ذلك من بخل فيه، كيف وهو يعطى الأجانب ويوسع عليهم، أو هوانٍ بذالك الولد، كيف وهو يكتب له جميع ما فى يده؟، أو قصد بذلك إتعابه أو إيذاءه، لبغض له؟، كيف وهو قرّة عينه وثمرة فؤاده، لو هبت عليه ريح

---

(١) + ط : عن.

(٢) الحجامة Cupping : طريقة للمداوة معروفة فى الطب العربى ، يقال حجم حجماً الحَجَّامَ. والمحجم : هو عبارة عن إناء يشبه الكأس خالى من الهواء ، يوضع على الجلد ، فيحدث به تهيجاً ، فينجذب الدم الفاسد إلى الخارج. وفى الحديث قال النبى ﷺ "احتجم واعطى الحَجَّام أجره واستعط (صحيح البخارى ٤/١٠) والسعوط هو صب الدواء فى الأنف (انظر ، خالد حربى فى تحقيقه لكتاب بُرء ساعة للرازى الطبيب ، الطبعة الأولى ، ملتقى الفكر ، الإسكندرية ١٩٩٩ ، ص ٤٤).

لعز عليه، ولكن لما علم أن صلاحه فى ذلك"[١] وأنه بهذا التعب[٢] القليل يصل إلى خير أكبر، ونفع عظيم.

وما تقول فى الطبيب الحاذق الناصح المحب، إذا منع المريض شربة ماء وهو ظمآن يتلظى كبده، وسقاه شربة **إهليج**[٣] كريهة، تجزع عن ذلك نفسه وطبعه، أترى أن ذلك منه معاداة وإيذاء؟، كلا بل نصح وإحسان؛ لما علم يقيناً فى إعطائه شهوة ساعة هلاكه، وعطبه رأساً، وفى منع ذلك شفاؤه وبقاؤه، فتأمل أيها الرجل إذا حبس الله عنك رغيفاً أو درهماً، فتعلم يقينا أنه يملك ما تريد، ويقدر على إيصاله إليك، وله الجود والفضل، ويعلم ذلك، فلا يخفى عليه شئ، ولا عدم، ولا عجز، ولا خفى، تعالى عن ذلك وتقدس، فإنه أغنى الأغنياء، وأقدر القادرين، وأعلم العلماء، وأجود الأجودين، فتعلم إذن بالحقيقة أنه لم يمنعك إلا لصلاح واختبار، كيف وهو الذى يقول: "**خلق لكم ما فى الأرض جميعاً**"[٤]، كيف وهو الذى جاد عليك بمعرفته، وهى التى تتلاشى فى جنبها الدنيا بأسرها، وإذا ابتلاك بشدة، فاعلم يقينا أنه غنى عن ابتلائك وامتحانك، عالم بحالك، بصير بضعفك، وهو بك رءوف رحيم، ألا تسمع قوله صلى الله

---

(١) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: فيوجعه ويقلقه، أترى مع ذلك من بخل فيه.. إلى قوله: ولكن لما علم أن صلاحه فى ذلك. مقروءة بصعوبة فى ط .

(٢) ط : مطموسة وتبدو هكذا.

(٣) إهليج: نوع من الشعير الأصفر، والأسود منه يسمى الشعير الهندى (أنظر، خالد حربى فى تحقيقه ودراسته وتقديمه لكتاب جراب المجربات وخزانة الأطباء للرازى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ٢٠٠٢، ص ٩٣.

(٤) سورة البقرة ، آية ٢٩.

عليه وسلم: "**الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها**"[1]، فإذا علمت أنه لم ينزل بك هذا المكروه إلا لصلاح لك، جهلته وهو عالم به، ولهذا المعنى تراه يكثر ابتلاء أنبيائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده، حتى يقول صلى الله عليه وسلم: "**إذا أحب الله قوماً ابتلاهم**"[2]، ويقول: "**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الشهداء، ثم الأمثل فالأمثل**"[3]، وإذا رأيت الله عز وجل يحبس عنك الدنيا، ويكثر عليك الشدائد، فاعلم أنك عنده عزيز، وأنت عنده بمكان، وإنه يسلك بك طريق أوليائه، فإنه يراك ولا يحتاج

---

(١) عن أنس قال: مر النبى (صلى الله عليه وسلم) ونفر من أصحابه وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول ابنى ابنى وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى أبنها فى النار، قال: فخفضهم النبى صلى الله عليه وسلم وقال: "ولا الله يلقى حبيبه فى النار" رواه أحمد والبزار ورجالهما = = رجال الصحيح. وعن عبد الله بن أبى أوفى قال خرج رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ذات يوم فإذا هو بصبى يبكى فقال: يا عمر ضم الصبى فإنه ضال. فجاءت أمه فأخذت أبنها فجعلت تضمه إليها وترشفه وتبكى فقال: "النبى صلى الله عليه وسلم": "أترون هذه رحيمة بولدها" فقالوا نعم. فقال: "والله لله أرحم بالمسلمين من هذه بولدها" رواه الطبرانى (مجمع الزوائد ١٠/٢١٣).

(٢) حديث ضعيف، أورده الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة ٥/٢٢٠٢، وأورده الحوت (محمد السيد درويش) فى أسنى المطالب فى أحاديث مختلف المراتب ١/١٠١.

(٣) حدثنا عبد الله حدثنى، أبى، ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن حصين، عن أبى عبيدة بن حذيفة، عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوده فى نساء فإذا سقاء معلق نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حر الحمى، قلنا: يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" (مُسند أحمد ٦/٣٦٩).

إلى ذلك، أما تسمع قوله تعالى: "**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**"[1]، بـل أعرف منّته عليك فيما يحفظ عليك من صلاحك، ويكثـر مـن أجـرك وثوابك، وينزلك منازل الأبرار والأعزة عنده، فكم ترى مـن عواقـب حميدة، ومواهب كريمة، **والله ولى التوفيق**.

---

(١) سورة الطور ، آية ٤٨ .

فصل

وبالجملة إذا علمت أن الله تعالى الملى بضمان رزقك الذى لابد لك منه فى بقائك، وقيامك بعبادته، وأنه القادر على ما يشاء كيف يشاء، وهو البصير بحاجتك حالاً فحالاً، ساعة فساعة، اتكلت على ضمانه الحقّ، ووعده الصدق، وسكن قلبك بذلك، وأصبرت عن ذكر العلائق والأسباب، وتعليق قلبك بهذا، إذ العلائق لا تغنيك، ولا تكفيك دون الله تعالى، فإنه تعالى ييسر أكلها وشربها، ثم < هو الذى>[1] الذى يمدّ بها، ويهيئها، ثم هو الذى يلحقك قوتها ونفعها، ويرفع عنك ثقلها وضّرها، وهو عز وجل يغنيك ويكفيك دونها إذا شاء، فالأمر كله إليه وحده لا شريك له، فتوكل عليه لا غير، وكذلك فاترك القدير فى جميع أمورك على من [يدبر][2] الأمر من السماء إلى الأرض، وتريح نفسك من شئ لا يبلغه علمك ونظرك من أمر، يكون هذا ولا يكون بأنه كيف يكون، وتكف عن "لعل" "ولو"، إذ ليس فيه إلا شغل القلب، وتضييع الوقت، ولعله يكون أمر لم يخطر ببالك، فيكون من فكرك وتدبيرك، وتضييع الوقت العزيز لغواً بلا فائدة، خسراناً تندم عليه، وتغبت فيه، لمكان شغل القلب، وتضييع العمر فى ذلك، وفى هذا المعنى قال بعض الزهاد (رضى الله عنهم).

سَهِرَتْ أعْيُنٌ وَنَامَتْ عُيونٌ   فى أُمورٍ تَكونُ أوْ لا تَكونُ
إنَّ رباًّ كَفَاكَ ما كَانَ بالأمْسِ   سَيَكْفيكَ فى غَدٍ مَا يكُونُ[3]

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ط : يديد.

(٣) البيتان من بحر الخفيف (فاعلاتن – مستفعلن – فاعلاتن).

وقال آخر:

سَبَقَتْ مقادِيْر الإلهِ وحُكْمُـهُ ... فَأَرِحْ فُؤادُكَ مِـنْ لعـلّ يَكُـونُ
سَيكُونُ ما هُوَ كائنٌ فى وَقْتِهِ ... وأخو الجَهَالَةِ مَتَعجِّبٌ مَحْـزُونُ
فلعلَّ ما تَخْشَاهُ ليسَ بكـائنٍ ... ولعلَّ ما تَرجُوه سَـوْفَ يَـكُونُ[١]

تقول فى الجملة فى نفسك: يا نفس لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وهو حسبنا، ونعم الوكيل، إذ هو قادر لا نهاية لقدرته، حكيم لا نهاية لحكمته، رحيم لا نهاية لرحمته، ومن كان بهذه الصفة، لحقيق أنه تكل عليه، ويفوض الأمر كله إليه، فعليك بالتفويض، وكذلك تـوطن قلبك على ما يعضى الله لك، فهو الأصوب [والأصلح][٢] وإن ذلك لا يبلغ علمنا كيفيته وسره، وتقول يا نفس المقدور كائن لا محالة، فلا فائدة فـى السخط، والخَيْرة فيما يصنع الله عز وجل، فلا وجه للسخط، ألست تقولين رضيت بالله رباً، فكيف لا ترضين بقضائه، والقضاء من شأن الربوبيـة وحقها، فعليك بالرضى.

وكذلك إن أصابتك مصيبة، وحل بك مكروه، فتراعى نفسك عند ذلك، قلبك حتى لا تجزع، ولا تظهر منك شكاية ولا قلق، لاسيّما عنـد [الصدمة][٣] الأولى، فإن الشأن هناك، والنفس مـسارعة إلـى عـادات الجزع، وتقول يا نفس هذه قد وقعت، فلا حيلة لدفعها، وقد دفع الله ما هو

---

(١) الأبيات من بحر الكامل (متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن).

(٢) ط : والأصلخ.

(٣) ط : الصوفية.

أكبر منها، فإن أنواع البلاء فى خزائنه كثيرة، وإن هذه ستنقضى فلا تبقى، وأنها سحابة ستنقشع عن قريب، فتجلّدى يا نفس قليلاً تجزين لذلك سروراً كبيراً، طويلاً، وثواباً جزيلاً بعد، إذ لا دفع لك للنازل، ولا فائدة فى الجزع، ولا مصيبة فى الحقيقة مع العزاء والصبر، فيشتغل لسانك بالاسترجاع، وقلبك بذكر ما يحصل لك عند الله من الأجر، وتتذكر صبر أولى العزم من الأنبياء(١) على المصائب العظام، والأولياء، والأعزة على الله تعالى، وإذا حبب عنك الدنيا فى وقت، فتقول: يا نفس هو أعلم بالحال، وأرحم بك وأكرم، فإنه هو الذى يطعم الكلب فى خسته، ويطعم الكافر فى عداوته، وأنا عنده العارف الموحد، أساوى عنده رغيفاً أيضاً، فاعلمى أنه بالحقيقة لم يحبس ذلك عنك إلا لنفع عظيم، وسيجعل الله بعد عسر يسراً، فأصبرى قليلاً ترى العجب فى لطف [منعه](٢) أما سمعت قول القائل:

تَوَقَّعْ صُنْعَ ربِّكَ سَوْفَ يَأْتِى ... ربَما تَهْوَاهُ مِنْ فَرَجٍ قَرِيبِ

ولا تَيأَسْ إذَا ما نَابَ خَطْبٌ ... وكَمْ فى الغَيْبِ من عَجَبٍ عَجِيبِ(٣)

والآخر:

إذا اشْتَدتْ بِكَ العُسْرَىَ ... فَفكِّرْ فى أَلَمْ نَشْرَحْ وكَمْ فى

فَعُسرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ ... إذَا ذَكَرْتَهُ تُفْرَجْ(٤)

---

(١) + ط : والأنبياء.

(٢) ط : منعته.

(٣) البيتان من بحر الوافر التام (مفاعلتن – مفاعلتن – فعولن).

(٤) البيتان من بحر الوافر المجزوء (مفاعلتن – مفاعلتن).

فإذا أخذت هذه الأفكار ونحوها، وواظبت عليها بالتكرير والتمرين، فإن ذلك سيهون عليك، إذا كانت لك همّة، واجتهاد زمان غير طويل.

ولقد دفعت <هذه>[1] العوارض الأربعة عن نفسك، وكفيت مؤنتها، وصرت عند الله من المتوكلين المفوضين الراضين بقضائه الصابرين على بلائه، وحصلت لنفسك راحة القلب والبدن فى الدنيا، وعظيم الثواب والزخر فى العقبى، وجليل القدر والمحبة عند رب العالمين، فيجمع لك خير الدارين، ويستقيم لك طريق العبادة، إذ لا عائق، ولا شاغل، وكنت حينئذ قد قطعت هذه العقبة العسيرة، والله سبحانه الموفق المسئول أن يمدك وإيانا بحسن توفيقه، **فإن الأمر كله بيده، وهو أرحم الراحمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.**

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

العقبة الخامسة: وهى عقبة البواعث

ثم عليك يا أخى بالسير إذا استقام لك الطريق، وسهلت السبيل، وارتفعت العوائق، وزالت [العوارض][1]، ولا يستقيم لك السير، إلا باستشعار الخوف والرجاء، والتزام حقهما على حدهما.

أما الخوف، فإنه يجب عليك التزام لأمرين، أحدهما: للزجر عن المعاصى، فإن هذه النفس أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، طماحة، فى طبعها حدّة، يهمها الوفاء، ويمنعها الحياء عن الجفاء، إنما هى كما قال القائل: "العبد يُقرع بالعصى، والحر تكفيه الملامة"، والتدبير فى أمرها أن يقرعها دائماً بسوط التخويف قولاً وفعلاً وفكراً، نحو ما ذكر عن بعض الصالحين، أن نفسه دعته إلى معصية، فانطلق ونزع ثيابه، وجعل يتمرغ فى الرمضاء، ويقول لنفسه: ذوقى، فنار جنهم أشد [حراً][2] من هذه، أجيفه بالليل، بطالة النهار.

والثانى: لئلا يعجب بالطاعة، فيهلك، بل يقمعها بالذم والنقص والعيب من الأسوأ والأوزار، التى فيها ضروب الأخطار، وذلك نحو ما ذكر عن الحسن أنه كان يقول: "ما يدرى أحدنا ان يكون قد أصاب ذنبا، فطبق باب المغفرة دونه، فهل يعمل فى غير معتمد"، وعن **ابن السماك**[3] [فيما][4] يعاقب نفسه: تقولين قول الزاهدين، وتعملين على المنافقين، وفى

---

(١) ط: القوارض.

(٢) ط: حداً.

(٣) ابن السماك: وقد مرّت ترجمته .

(٤) ط : فيها.

الجنة تطمعين، هيهات هيهات، إن للجنة قوماً آخرين، يعملون غير ما تعملين.

فهذه وأمثالها، ما يلزم العبد تذكير للنفس بها ، وتكرارها[(١)] عليها، لئلا تعجب بطاعة أو تقع فى معصية، وبالله التوفيق.

وأما الرجاء: فإنه يلزم استشعاره لأمرين، أحدهما: البحث على الطاعات، وذلك الخير ثقيل، والشيطان عنه زاجر، والهوى إلى ضده[(٢)] داع، وحال أهل الغفلة من عامة الخلق، فى النفس منطبع شاهد، والثواب الذى [يطالب] [(٣)] به عن العين غائب، وأمر الوصول إليه – فيما تحسبه – بعيد.

وإذا كان الحال على هذه الحالة، فلا تنبعث النفس للخير، ولا ترغب فيه، ولا تهتز له، إلا بأمر يقابل هذه الموانع، ويساويها، بل يزيد عليها، وذلك الأمر هو الرجاء القوىّ فى رحمة الله عز وجل، والترهيب البالغ فى حسن ثوابه، وكريم أجره. ولقد قال شيخنا رحمه الله: "الحزن يمنع عن الطعام، والخوف يمنع عن الذنوب، والرجاء يقوى على الطاعات، وذكر الموت يزهد فى الفضول".

والثانى: ليهون عليك الشدائد والمشقات، وأعلم أن من عرف ما يطلب، هان عليه ما يبذل، ومن طاب له شئ ورغب فيه حق رغبته، احتمل شرته، ولم يبال بما يلقى من مؤنته، ومن أحب أحداً حق محبته،

---

(١) ط : وتكريرها .

(٢) + ط : و .

(٣) ط : يطلب .

أحب أيضا احتمال محبته، حتى أنه ليجد بتلك المحبة ضروباً من اللّــذّة، ألا ترى [مشتهى](١) العسل لا يفكر بلسع النحل، لما يتذكر مــن حــلاوة العسل، والأجير لا يعبأ بارتفاع السلم الطويل، مع الحمل الثقيل، طــول النهار الصائف المرير، لما يتذكر فى أخذ الدرهمين بالعشى، وأن الفلاح لا يفكر أوان الغلة <فى>(٢) الحر والبرد، ومباشرة الشقاء والكدّ، طــول السنة لما يتذكر من الجرن أوان الغلة، وكذلك - يا أخى - العباد، الذين هم أهل الاجتهاد(٣)، وإذا ذكروا الجنة فى طيب رائحتها، وأنواع نعيمها، من قصورها وحورها، وطعامها وشرابها وحليها وحللها، وسائر ما أعدّه الله تعالى لأهلها، هان عليهم ما احتملوه من تعب فى العبادة، أو فاتهم فى الدنيا من لذة ونعمة، أو نالهم من ضرورة ومشقة.

ولقد حكى أن البعض من أصحاب سفيان الثــورى (رحمــه الله) كلموه فيما كانوا يرون من خوفه واجتهاده، ورثّة حاله، فقالوا: يا أستاذ، لو نقصت من هذا الجهد، نلت مرادك، إن شاء الله تعالى، فقال ســفيان: كيف لا اجتهد، وقد بلغنى أن أهل الجنة يكونون فى منازلهم، فيتجلــى لهم نور تضئ له الجنات الثمانية، فيظنون أن ذلك نور من جهة الــرب سبحانه، فيخرون ساجدين، فنودى أن ارفعوا رءوســكم، فلــيس الــذى تظنون، إنما هو نور جارية تبسمت فى وجه زوجها"، ثم انشد يقول:

---

(١) ط : مشتا.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، و+ط : وكذلك العباد الذين لمقاساة الحر والبرد.

(٣) + ط : و.

ما ضرَّ من كان فى الفردَوْسِ مسْكنُهُ ... مَاذَا تَحمَّلَ من بــؤْسٍ وإقْتَــارِ

تَرَاهُ يَمْشى كَئيباً خائِفـــاً وَجِـــلاً ... إلى المساجدِ يَخْطو بَيْنَ أَطْمــارِ

يا نَفْسُ مالَكِ من صبرٍ علــى النَّــارِ ... قَدْ آن أنْ تُقْبلِي من بَعْدِ إدْبارِ[1].

قلت أنا: فإذا كان أمر العبودية قائم على الأمرين: القيام بالطاعة، والانتهاء عن المعصية، وذلك لا يتم مع هذه النفس الأمارة بالـــسوء، إلا بترغيب وترهيب، وترجية وتخويف، فإن الدابة الحرون، تحتاج إلى قائد يقودها، وإلى سائق يسوقها، وإذا وقعت فى مهواة، فربما ضربت بالسوط من جانب، ويلوّح لها بالشعير من جانب آخر، حتى تنهض، وتخلص مما وقعت فيه، وإن الصبى لا يمرّ إلى الكتّاب، إلا بتوجيـــه مـــن الوالـــدين وتخويف، فالخوف سائقها وسوطها، والرجاء شعيرها وقائـــدها، وأمـــا الصبىّ العزم، <الذى>[2] يحمل كتاب ، فذكر النار والعقاب[3] تخويفـــه، وذكر الجنة وثوابها ترضيته وترغيبه، فكذا يلزم العبد الطالـــب للعبـــادة والرياضة أن [يشبع][4] النفس بالأمرين، اللذين هما الخوف والرجـــاء، وإلا فلا تساعده النفس الجموح على ذلك، وبهذا المعنى أتى الذكر الحكيم بمجموع الأمرين، الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد، وأبلغ فى كليهما، فذكر من الثواب الكريم ما لا صبر عنه، وذكر من العقاب الأليم، مـــا لا

---

(١) الأبيات من بحر البسيط (مستفعلن – فاعلن – مستفعلن – فعلن).

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) + ط : و .

(٤) ط : يشع .

صبر عليه، [فعليك][1] إذن بالتزام هذين المعنيين، يحصل لك مرادك، ويسهل عليك احتمال المشقة، والله ولى التوفيق بفضله.

فإن قلت: فما حقيقة الرجاء والخوف، وحكمهما؟، فاعلم أن الخوف والرجاء عند علمائنا، يرجعان إلى قبيل الخواطر، وإنما المقدور للعبد مقدماتهما، قالوا: والخوف [يحدث][2] فى القلب ، فلا مكروه يناله، والخشية نحوه، ولكن الخشية تقتضى ضرباً من الاستعظام والمهابة، وضد الخوف الجرأة، ولكن قد يقابل الأمرين: خائف وآمن، وخوف وأمن، لأن الأمر هو الذى يجرى على الله سبحانه، والحقيقة أن الجرأة تضاد.

ومقدمات الخوف أربعة: <**الأولى**>[3] ذكر الذنوب الكثيرة التى سبقت، وكثرة الخصوم الذين مضوا إلى المظالم، وأنت مرتهن، لم يتبين لك الخلاص بعد. **والثانية:** ذكر شدة عقوبة الله تعالى التى لا طاقة لك بها. **والثالثة:** ذكر ضعف نفسك عن احتمالها. **والرابعة:** ذكر قدرة الله تعالى عليك.

وأما الرجاء: فهو ابتهاج القلب لمعرفة فضل الله تعالى، واستروا حه إلى سعة رحمة الله، وهذا من جملة الخواطر غير مقدورة للعبد، والذى هو مقدور، وهو تذكر فضل الله وسعته ورحمته، وقد سمى أيضاً إرادة المخاطرة بالإنشاء رجاء، والمراد من هذا الباب هو الأول،

---

(١) ط : فعليه.

(٢) ط : تحدث .

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وهو التذكر على حسن الابتهاج والاسترواح، وضدّه اليأس، وهو تـذكر فوْت رحمة الله تعالى وفضله، وقطع القلب عن ذلـك، وهـو معـصية محضة.

وهذا الرجاء فرض، إذا لم يكن للعبد سبيل إلا الامتنـاع عـن اليأس إلا به، وإلا فهو نَفْل بعد اعتقاد الجملة فـي فـضل الله، وسـعة رحمته، ومقدمات الرجاء أربعة:

[الأولى][1]: ذكر سوابق فضله إليك، من غيـر قـدم أو شـفيع. **الثانية:** ما وعد من جزيل الثواب، وعظيم كرامته، حسب فضلة وكرمه، دون استحقاقك إيّاه بالفعل، إذ لو كان على فعل، لكان أقل شئ، وأصغر أمر. **والثالثة:** ذكره كثرة نعمه عليك، فى أمر دينك ودنياك، فى الحـال من أنواع الأمداد والألطاف، [من] [2] غير استحقاق أو سؤال. **والرابعة:** ذكر سعة رحمة الله تعالى، وسبقها غضبه، وأنه الرحمن الرحيم، الغنـى الكريم، الرفيق بعباده المؤمنين، فإذا [واظبت][3] على هذين النوعين من الأذكار، أفضينا بك إلى استشعار الخوف والرجـاء، بكـل حـال، والله سبحانه ولى التوفيق بمنه وفضله.

---

(١) ط : الأول.

(٢) ط : ممن .

(٣) ط : واضبت.

فصل

فعليك – أيها الرجل – بقطع هذه العقبة في تمام الاحتياط والتحذّر، وحد الرعاية، فإنها عقبة دقيقة المسلك، خطرة الطريق، وذلك أن طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين، أحدهما: طريق الأمن، والثانى: طريق اليأس، وطريق الرجاء والخوف [هى] [1] الطريق العدل بين الطريقين الجائرين، فإذا غلب الرجاء عليك، حتى فقدت الأمن البتة، وقعت فى طريق الأمن، "**ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**"[2] وإن غلب الخوف، حتى فقدت الرجاء البتة، وقعت فى طريق اليأس، "**إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون**"[3]، فإن كنت بين الرجاء والخوف، واعتصمت بهما جميعاً فهو طريق العدل المستقيم، وهى سبيل أولياء الله تعالى، وطريق أصفيائه الذين وصفهم الله تعالى بقوله: "**إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين**"[4].

فإذن قد ظهرت لك هذه العقبة طرقاً [ثلاث] [5]، طريق الأمن والجرأة، وطريق اليأس والقنوط، وطريق الخوف والرجاء ممتد [بينها] [6]،

---

(١) ط : هو ، والصواب كما أوردته "هى" لأن الطريق فى اللغة مؤنثة ، نحو قوله تعالى : " قل هذه سبيلى (طريقى) أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن ابتعن ..." .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٩٩.

(٣) سورة يوسف ، آية ٨٧.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٩٠.

(٥) ط : ثلاثة .

(٦) ط : بينهما .

فإذا ملت عنه بقدم يمينك أو يسارك، وقعت فى المهلكين، وهلكت مع الهالكين، ثم الشأن أن الطريقين الجائرين المهلكين أوسع مجالاً، وأكثر داعياً، وأسهل من الطريق العدل، لأنك إذا نظرت من جانب الأمن، رأيت من سعة رحمة الله، وكثرة فضله، وغاية جوده، ما لا يبقى معه خوف، فتتكل على ذلك بمرّة أو تأنس، وإذا نظرت من جانب الخوف رأيت عظيم سياسة الله تعالى، وكثرة هيبته، ودقة أمره، وغاية مناقشته، مع أوليائه وأصفيائه، ما لا يكاد يبقى معه رجاء، فتيأس بمرة وتقنط، فتحتاج إذن ألا تنظر إلى سعة الرحمة فقط، حتى تشكل وتأمن، ولا إلى عظيم الهيبة والمناقشة فقط، حتى تيأس وتقنط، بل تنظر إلى هذا وإلى هذا جميعاً، وتأخذ من هذا بعضاً، ومن هذا بعضاً، فتركب بينهما طريقاً دقيقاً، فتسلك ذلك لتسلم، فإن طريق الرجاء المحض سهل واسع عريض، وعاقبته [تُذهب بك][1] إلى الضلال، والطريق العدل بينهما طريق الخوف والرجاء، وإن كان دقيقاً عسيراً، فإنه سبيل سالم، ومنهج مستقيم بَيِّن، يهدى إلى الغفران والإحسان، ثم إلى الرضوان والجنان، ولقاء الملك الرحمن سبحانه، أو ما تسمع قوله تعالى فى أبناء هذا السبيل: "**يدعون ربهم خوفاً وطمعاً**"[2]، ثم قال عز من قائل: "**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**"[3]، فتأمل هذه الجملة جداً، وتشمّر وتنبهّ للأمر فإنه لا يُجنى بالهوينى، والله تعالى الموفق.

---

(١) ط : توديك.

(٢) سورة السجدة، آية ١٦.

(٣) سورة السجدة، آية ١٧.

ثم عليك أنه لا يتأتى لك سلوك هذه الطريق، وحمل هذه النفس الجموح الكسلانة على الخير، باجتناب المحبوب عندها، واكتساب الطاعات الثقيلة عليها، إلا بالتحفظ لثلاثة أصول، والتذكر لها على سبيل الدوام، من غير فترة ولا غفلة، أبعدها ما ذكر قوله تعالى، ثم فى زمانه بلعام بن باعوراء، كان بحيث لو نظر يرى العرش، وهو المعنى بقوله تعالى: "**واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**"(١)، ولم يقل آية واحدة، مال إلى الدنيا ميلة واحدة، وترك المولّى من أوليائه حرمة واحدة، سلبه معرفته، وجعله مثل الكلب المطرود، فقال جلّ وعلا: "**فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**"(٢)، وأوقعه فى بحر الضلال والهلاك، حتى سمعت بعض العلماء يقول: إنه كان فى أول أمره، بحيث يكون فى مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه، صار بحيث كان أول ما صنف كتاباً أن ليس للعالم صانع، نعوذ بالله تعالى، ثم نعوذ به عز وجل من سخطه وعذابه الأليم، وفظيع خذلانه الذى لا طاقة لنا به.

فانظر حب(٣) الدنيا وشؤمها، ما تجلب للعلماء خاصة، فتنبّه فإن الأمر خطير، والعمر قصير، وفى العمل تقصير، والناقد بصير، فإن ختم بالخير أعمالنا، وأقال عثراتنا، فما ذلك عليه بعسير.

ثم إن **داود** عليه السلام، خليفته فى الأرض، أذنب ذنباً واحداً،

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٧٥.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٧٦.

(٣) ط : حسب.

فبكى على ذلك، حتى نبت العشب من دموعه فى الأرض، وقال: "**إلهى ما ترحم بكائى وتضرعى**"، فأُجيب: "**يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك**"، ولم يقبل توبته أربعين يوماً، وقبل أربعين سنة، ثم **يونس** عليه السلام، غضب غضبة واحدة فى غير موضعها، فسجنه فى بطن الحوت، تحت قعر البحار أربعين يوماً، وهو ينادى: "**لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**"(١)، وسمعت الملائكة عليهم السلام صوته فقالوا: إلهُنا وسيدنا، صوت معروف، وفى موضع مجهول، فقال تعالى: "**ذلك عبدى يونس**"، فشفعت الملائكة فيه، ومع ذلك غير اسمه فقال: "**وذا النون إذ ذهب مغاضباً**"(٢)، فنسبه إلى سجنه، ثم قال: "**فالتَقَمه الحوت وهو مُليمٌ فلولا أنه كان من المسبحين للبِثَ فى بطنه إلى يوم يبعثون**"(٣)، ثم ذكر نعمته ومنته، فقال: "**لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم**"(٤)، فانظر إلى هذه السياسة – أيها – المسكين –، وكذلك هلم جراً إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم أجمعين، أكرم خلقه عليه، يقول: "**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير**"(٥)، حتى قال صلى الله عليه وسلم: "**شيبتنى هود وأخواتها**"(٦)، قيل عن هذه

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٨٧.

(٢) سورة الأنبياء، آية ٨٧.

(٣) سورة الصافات، آيات ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤.

(٤) سورة القلم، آية ٤٩.

(٥) سورة هود، آية ١١٢.

(٦) حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان، عن أبى إسحاق عن عكرمة، عن بن عباس قال، قال: أبو بكر رضى الله عنه: يا رسول الله قد شبت، قال: "شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"، قال أبو عيسى هذا حديث حسن

الآية وأشكالها فى القرآن الكريم.

وقال تعالى: "**واستغفر لذنبك**"(١)، إلى أن منّ الله عليه بـــالغفران فقال: "**وضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك**"(٢)، وقال: "**ليغفر لـــك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**"(٣)، وكان بعد ذلك صـــلى الله عليـــه وســـلم يصلى حتى تورمت قدماه، فيقولون: تفعل ذلك يا رســـول الله ، وقـــد

غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، وروى على بن صالح هذا الحديث عن أبى إسحاق، عن أبى حجيفة نحو هذا، وروى عن أبى إسحاق عن أبى ميسرة شئ من هذا مرسلا، وروى أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن عكرمة عن النبى صلى الله عليه وسلم نحو حديث شيبان عن أبى إسحاق ولم يذكر فيه عن ابن عباس، حدثنا بذلك هاشم بن الوليد الهروى، حدثنا أبو بكر بن عياش (سنن الترمذى ٥/٤٠٢). =

= وعن أبى بكر قال: قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب، قال: "شيبتنى الواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت" رواه الطبرنى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح ويأتى فى سورة الواقعة، ورواه أبو يعلى إلا أن عكرمة لم يدرك أبا بكر وزاد سورة هود. وعن عقبة بن عامر أن رجلاً قال: يا رسول الله قد شبت، قال: "شيبتنى هود وأخواتها" رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وعن عبد الله يعنى ابن مسعود أن أبا بكر سأل النبـــى صـــلى الله عليه وسلم ما شيبك يا رسول الله؟ قال: "شيبتنى هود والواقعة" رواه الطبرانى وفيه عمـــرو بن ثابت وهو متروك. وعن سهل بن سعد قال: قال: رسول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم: "شيبتنى هود وأخواتها الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت" رواه الطبرانى وفيه سعيد بـــن سلام العطار وهو كذاب فى قوله تعالى: "ويتلوه شاهد منه" عن محمد بن أبى طالب قـــال: قلت لعلى بن أبى طالب أن الناس يزعمون فى قول الله جل ذكره "ويتلوه شاهد منه" أنـــك أنت التالى، فقال: وددت أنى أنا هو ولكنه لسان محمد صلى الله عليه وسلم. رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه خليد بن دعلج وهو متروك، (مجمع الزوائد، ٣٧١٧).

(١) سورة غافر ، آية ٥٥.

(٢) سورة الشرح، الآيات ٢، ٣.

(٣) سورة الفتح، آية ٢.

غـفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول: "**أفلا أكون عبداً شكوراً**"(١)،

(١) حدثنا أبو نعيم، قال: حدثنا مسعر، عن زياد قال: سمعت المغيرة رضى الله عنه يقول: كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقوم ليصلى حتى ترم قدماه أو ساقاه، فيقال له، فيقول: "أفلا أكون عبدا شكوراً"، (صحيح البخارى ٣٨٠/١). =

- وحدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا أبو عوانة، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، أن النبى "صلى الله عليه وسلم" صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً"، وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وابن نمير قالا: حدثنا سفيان، عن زياد بن علاقة سمع المغيرة بن شعبة يقول قام النبى صلى الله عليه وسلم حتى ورمت قدماه، قالوا: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً" (صحيح مسلم ٢١٧/٤).
- وأخبرنا الفضل بن الحباب، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان، حدثنا زياد بن علاقة قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا تورمت قدماه فقيل له: يا رسول الله أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم وما تأخر قال: أفلا أكون عبداً شكوراً" (صحيح ابن حبان ٩/٢).
- وحدثنا هشام بن عمار، ثنا سفيان بن عيينة، عن زياد بن علاقة سمع المغيرة يقول: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه فقيل: يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً"، وحدثنا أبو هشام الرفاعى محمد بن يزيد، ثنا يحيى بن يمان، ثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له: إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: "أفلا أكون عبداً شكوراً، (سنن ابن ماجه ٤٥٦/١).

وأنظر الحديث أيضاً بنفس اللفظ فى:

- مُسند أحمد ٢٥٥/٤.
- سنن الترمذى ٢٦٨/٢.
- سنن النسائى ٢١٩/٣.

وكان عليه السلام يصلى الليل ويبكى، ويقول: **أعوذ بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، وبك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**"(١).

=

- مجمع الزوائد ٢٧١/٢.
- الترغيب والترهيب ٢٤٠/١.

(١) حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أبو أسامة، حدثنى عبيد الله بن عمر عن محمد بن يحيى بن حبان، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن عائشة قال: فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما = منصوبتان وهو يقول: "اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (صحيح مسلم ٣٥٢/١).

- وحدثنى مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى، أن عائشة أم المؤمنين قالت: كنت نائمة إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففقدته من الليل فلمسته بيدى فوضعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول: "أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (موطأ مالك ٢١٤/١).
- وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، ثنا أبو أسامة، ثنا عبيد الله بن عمر، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن الأعرج عن أبى هريرة عن عائشة قالت: فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من فراشه فلتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهما منصوبتان وهو يقول: "اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (سنن ابن ماجه ١٢٦٢/٢).
- وحدثنا الأنصارى، حدثنا معن، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم التيمى أن عائشة قالت: كنت نائمة إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففقدته من الليل فلمسته فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد وهو يقول: "أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" .

ثم الصحابة رضوان الله عليهم، خير قَرْنٍ، من خير امة أخرجت للناس، كان يبدو منهم شئ من المزاح، فنزل قوله تعالى: **"ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق"**[١].

ثم وضع فى الأمة – مع كونها مرحومة – الحدود، والسياسات العظيمة والآداب، حتى كان يونس بن عبيد يقول: "لا تأمن من قطع فى خمسة دراهم – خير عضوٍ منك، أن يكون عذابه هكذا"، نسأل الله الكريم الرحيم أن لا يعاملنا إلا بمحض كرمه، أنه أرحم الراحمين.

وأما جانب الرجاء، [فحدث][٢] عن رحمة الله الواسعة، ولا حرج، ومن الذى يعرف غايتها، أو يحسن وصفها، فإنه الذى يهب كفر سبعين

قال هذا حديث حسن قد روى من غير وجه عن عائشة. حدثنا ، قتيبة حدثنا الليث ، عن يحيى بن سسعيد بهذا الأسناد نحوه وزاد فيه: وأعوذ بك منك لا احصى ثناء عليك. وأخبرنا محمد بن عبد الله بن المبارك ونصير بن الفرج واللفظ له قالا: حدثنا أبو أسامة، عن عبيد الله بن عمر، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن عائشة رضى الله عنها قالت فقدت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعلت أطلبه بيدى فوقعت يدى على قدميه وهما منصوبتان وهو ساجد يقول:= = أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء (سنن النسائى ١/١٠٢).

وأنظر الحديث أيضاً:

- ابن حبان ٥/٢٥٨ – ٢٥٩.
- الدار قطنى ١/١٤٤.
- الترغيب والترهيب ٢/٧٤.
- سنن أبى داود ١/٢٣٢.

(١) سورة الحديد، آية ١٦.

(٢) ط : فحدس.

سنة، بإيمان ساعة واحدة، قال تعالى: "**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**"[1]، أما ترى فى أمر سحرة فرعون، الذين جاءوا لحربه، وحلفوا بعِزّتِه، كيف قبلهم؟، فما أن قالوا آمنا عن صدق القلوب، كيف قبلهم، ووهب لهم جميع ما سلف من ذنوبهم، ثم كيف جعلهم رءوس الشهداء فى الجنة أبد الآبدين، فهذا مع من عرفه، ووحده ساعة، بعد كل ذلك الكفر والضلال والفساد، فكيف حال من أفنى فى توحيده عمره، لا يرى لذلك أهلاً فى الدارين غيره.

أما ترى أصحاب الكهف ، وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم، إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض، التجأوا إليه ، كيف قبلهم، ثم أعزهم وأكرمهم فقال : "**ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد**"[2] ، وكيف أعظم الحرمة ، وأكسبهم المهابة والحشمة ، حتى يقول لأكرم الخلق عليه : "**لو أطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً**"[3] ، وكيف أكرم كلبهم تبعهم ، حتى ذكره فى كتابه العزيز مرات ، ثم جعله معهم فى الدنيا محجوباً ، ويدخله الجنة فى الآخرة مكرماً ، فهذا حاله مع كلب خطى خطوات مع قوم عرفوه ، ووحّده أياماً معدودة ، من غير عبادة أو خدمة ، فكيف حاله مع عبده المؤمن ، الذى خدمه ، ووحده ،

---

(١) سورة الأنفال، آية ٣٨.

(٢) سورة الكهف ، آية ١٨ .

(٣) سورة الكهف، آية ١٨.

وعبده سبعين <عاماً>(١)، [ولو](٢) عاش سبعين ألف سنة كــان قاصــداً للعبودية. أما سمعت كيف عاتب **إبراهيم** عليــه الســلام ، فــي دعائــه على المجرمين بالهلاك ، وكيف عاتب **يونس** عليه السلام في شاذ قومه ، بأنك تحزن على شجرة يقطن ، أنبتّها في ساعة ، وأبيتها فــي ســاعة ، ولا تحــزن على مائة ألــف أو يزيـــدون ، ثــم كيـــف جعلهــم، وصرف عذابه العظيم عنهم، بعد ما أوصلهم، ثــم كيــف عاتــب ســيد المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه، فيما روى أنه دخل من باب بنــي شيبة، فرأى قوماً يضحكون، فقــال لهــم "**لِــمَ تــضحكون؟، ألا إنكــم تضحكون... حتى إذا كان عند الحِجر، رجع إليهم القهقــرى، فقــال: جاءنى جبريل عليه السلام، فقال لى: يا محمد، إن الله تعالى يقول لك لا تقنط عبادى من رحمتى، نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم**"(٣)، وهــذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**الله أرحم من العبد مــن الوالــدة الشفيقة بولدها**"(٤)، وإذ قد أعطاك من هذه الرحمة كــل هــذه العطايــا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ط : فلو.

(٣) الحديث: حدثنا موسى قال : حدثنا الربيع بن مسلم قال : حدثنا محمد بن زياد ، عــن أبى هريرة قال : خرج النبى ﷺ على رهَطٍ من أصحابه يــضحكون ويتحــدثون فقــال : " والذى نفسى بيدِهِ لو تعلمون ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ثم انــصرف وأبكــى القوم ، وأوحى الله عز وجل إليه : يا محمد لِمَ تُقَنِّطُ عبادى ؟ فرجع النبى ﷺ فقال : أبشروا وسددوا وقاربو" حديث صحيح أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ص ٢٥٤/٩٨. (أنظر ، جامع الأحاديث القدسية ، ٤٧٨/١-٤٧٩) .

(٤) حديث: الله أرحم من العبد من الوالدة الشفيقة بولدها، حديث صحيح، مرّ تحقيقه فيما سبق.

الكريمة العزيزة، من معرفته سبحانه، والكون من هذه الأمة المرحومة، ثم معرفة السنة والجماعة، إلى سائر ما لديك من النعم الظاهرة والباطنة، فنرجو من رحمته، وفضله العظيم أن يتم ذلك، فإنه من بدأ بالأحسان، فعليه الاتمام، ويجعل من تسع وتسعين رحمة لك الحظ الأوفر، نسأل الله تعالى ألا يخيّب آمالنا [فى][١] فضله العظيم، إنه السيد الكريم الجواد الرحيم.

وأما **الأصل الثالث** فى ذكر ما وعد وأوعد فى المعاد، فلنذكر فى ذلك الأحوال الأربعة، الموت، والقبر، والقيامة، والجنة والنار، وما <فى>[٢] كل مقام منها من الخطر للمطيعين والعاصين، والمقصّرين والمجتهدين.

أما **الموت** فأذكر فيه حال رجلين، أحدهما ما ذكر عن **ابن شبرمة**[٣]، أنه قال: دخلت مع الشعبى على رجل نعوده، وهو كما به،

---

(١) ط : من.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ابن شرمة : عبد الله بن شبرمة بن طفيل ، بن حسان الضبي الإمام العلامة ، فقيه العراق ، أبو شبرمة . قاضي الكوفة ، حدث عن : أنس بن مالك ، وأبي الطفيل عامر بن واثلة ، وأبي وائل شقيق ، وعامر الشعبي ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتيبة ، وإبراهيم التيمي وإبراهيم النخعى وسالم بن عبد الله ، والحسن البصري ، ونافع ، وسالم بن أبي الجعد ، وعبد الله بن شداد، وأبي زرعة ، وطائفة . وحدث عنه الثوري ، والحسن بن صالح ، وابن المبارك ، وسفيان بن عيينة ، وشعيب بن صفوان ، وخلق سواهم . وثقة أحمد بن حنبل ، وأبو حاتم الرازي ، وغيرهما . وكان من أئمة الفروع ، وأما الحديث ، فما هو بالمكثر منه ،له نحو من ستين أو سبعين حديثاً . وكان ابن شبرمة عفيفاً ،صارماً، عاقلاً، خيراً ، يشبه النساك . وكان شاعراً ، كريماً ، جواداً .

وعنده رجل يلقنه "**لا إله إلا الله**"، فقال الشعبى: أوقف به، فتكلم المريض، وقال: إن تلقنى أولا تلقنى، لا أدعها، ثم قرأ: "**وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها**"(١)، فقال: الحمد لله نجا [صاحبنا](٢).

وأما الرجل الآخر: ما حكى أن تلميذ الفضيل بن عياض حضرته الوفاة، فدخل الفضيل عليه، وجلس عند رأسه، وقرأ سورة "يّس"، فقال: يا أستاذ لا تقرأ هذه، فسكت، ثم لقنه فقال: قل "**لا إله الا الله**"، فقال: أقولها لأنى منها برئ، ومات على ذلك، فدخل الفضيل بيته، وجعل يبكى منها أربعين يوماً، لم يخرج من البيت، ثم رآه فى المنام، وهو يسحب إلى جهنم، فقال: بأى شئ نزع الله المعرفة من قلبك، وكنت أعلم [أصحابك](٣)، فقال: لثلاثة أشياء، أولها: النميمة، فإنى قلت لأصحابى بخلاف ما قلت لك، والثانى: الحسد، حسدت أصحابى، والثالث: كان بى علة، فجئت إلى طبيب، وسألته عنها فقال تشرب فى كل سنة قدحاً من

وقال فضيل بن غزوان : كنا نجلس أنا وابن شبرمة ، والحارث بن يزيد العكلي ، والمغيرة ، والقعقاع بن يزيد بالليل نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتى نسمع النداء بالفجر . قال عبد الوارث : ما رأيت أحداً أسرع جواباً من ابن شبرمة . وقال معمر :رأيت ابن شبرمة إذا قال له الرجل : جعلت فداك ، يغضب ، ويقول: قل : غفر الله لك . ومن أقواله أيضاً : من بالغ في الخصومة أثم ، ومن قصر فيها خصم . ولا يطيق الحق من بالي علي دار الأمر . وقال : عجبت للناس يحتمون من الطعام مخافة الدواء ولا يحتمون من الذنوب مخافة النار . وتوفي ابن شبرمة سنة أربع وأربعين ومائة (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٦ / ٥٣٠) .

(١) سورة الفتح ، آية ٢٦.

(٢) ط : ماحبنا.

(٣) ط : مطموسة وتبدو هكذا ، والله أعلم .

خمر، إن لم تفعل تبقى بك علتك، فكنت أشربه. نعوذ بالله من سخطه، فإنه لا طاقة لنا به.

ثم أذكر حال رجلين، أحدهما ما حكى عن **عبد الله بن المبارك**(١)، انه لما احتضر نظر إلى السماء، فضحك وقال: "**لمثل هذا فليعمل العاملون**"(٢)، وسمعت **إمام الحرمين**(٣) (رحمه الله) يحكى عن الإمام أبى بكر (رحمه الله تعالى) أنه قال: كان لى صاحب أيام التعليم، وكان مبتدئا كثير الجهد فى التعليم، تقياً متعبداً، وكان لا يحصل له مع الاجتهاد إلا القليل، وكنا نتعجب من حاله، فمرض ولزم مكانه بين الأولياء فى الرباط، ولم يدخل إلى بيت المرضى، وكان يجتهد مع ما به، فاشتد به الحال، وأنا بجانبه، فبينما هو إذ شخص ببصره إلى السماء، ثم قال لى: يا بن [فورك](٤)، لمثل هذا فليعمل العاملون، وتوفى عند ذلك، رحمة الله عليه.

وأما الآخر: فما روى عن **مالك بن دينار**(٥)، دخل على جار له احتضر، فقال يا مالك، جبلان من نار بين يدى، أكلف الصعود [عليهما](٦)، قال: فسألت أهله، فقالوا كان له مكيالان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فدعوت بهما، فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما، ثم

---

(١) عبد الله بن المبارك، تابعى جليل ، مرّت ترجمته .

(٢) سورة الصافات، آية ٦١.

(٣) إمام الحرمين، هو أبو المعالى الجوينى: وقد مرّت ترجمته .

(٤) ط : نورك.

(٥) مالك بن دينار، تابعى جليل، مرّت ترجمته.

(٦) ط : مطموسة.

سألت الرجل، فقال: ما يزداد الأمر علىّ إلا عِظما.

وأما القبر والحال بعد الموت، فأذكر فيه حال رجلين، أحدهما ما ذكر عن بعض الصالحين، قال: رأيت **سفيان الثورى**[1] فى المنام بعد موته، فقلت: كيف حالك يا أبا عبد الله، فأعرض فقال: ليس هذا زمان الكُنَى، فقلت: كيف حالك يا سفيان؟ فأنشد يقول (رحمه الله):

نَظَرتُ إلى رَبِّي كفَاحاً فَقَالَ لِى ... هَنِيئَا رِضَائى عنك يا ابن سعِيْدَ

لقد كُنْتَ قَوامَاً إذَا الليْل قدْ دَجَى ... بَعيدةِ مشتاقٍ وقلْبِ عميدِ

فدُونَكَ فاختَرْ أىَّ قصرٍ تريدُهُ ... وزُرنى فإنِّي منكَ غيرَ بعيْدِ[2]

والرجل الثانى، ما ذكر عن أحدهم <أنه>[3]رؤى فى المنام شاحب اللون، معلق يديه إلى عنقه، فقيل له ما فعل الله بك؟، فأنشأ يقول:

تَولَّى زمانٌ لَعِبْنَا بِهِ ... وهَذَا زَمانٌ ربنَا يَلْعَبُ[4]

وحال آخرين، أحدهما ما روى عن بعض الصالحين، قال: كان لى ابن استشهد فلم أره فى المنام، إلا ليلة [وفاة][5] **عمر بن العزيز** (رضى الله عنه)، إذ تراءى لى تلك الليلة، فقلت يا بنى ألم تك ميتاً، فقال لا، ولكنى استشهدت، وأنا حى عند الله تعالى أُرزق، فقلت: ما جاء بك، فقال: نودى فى السماء: لا يبقى فى أهل السماء نبى ولا صديق ولا شهيد، إلا حضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز، فجئت لكى أشهد

---

(١) سفيان الثورى، تابعى جليل، مرّت ترجمته.

(٢) الأبيات من بحر الطويل (فعولن – مفاعيلن – فعولن – مفاعلن).

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) البيت من بحر المتقارب (فعولن – فعولن – فعولن – فعولن).

(٥) ط : توفى.

الصلاة، ثم جئتكم، لأسلم عليكم.

وأما الآخر، ما روى عن هشام بن حسان أنه قال: مات ابن لـي حدث، فرأيته فى النوم، فإذا هو أشيب، [فقلت][1] يا بنى ما هذا الشيب، فقال: قدم علينا فلان، زفرت جهنم لقدومه، لم يبق أحد منا إلا شاب. نعوذ بالله من عذابه الأليم.

وأما **القيامة**، فتأمل قول الله تعالى: "**يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا**"[2]، فواحد يخرج من قبره، فإذا البراق على رأس القبر، والتاج والحلل، فيلبس ويركب، إلى جنات النعيم، لا [يجعل][3] من عزه أن [يمشى][4] إلى الجنة برجله، وآخر يخرج من قبره، فإذا الزبانية والأنكال، لا [يجعلون][5] الشقى أن يمشى إلى النار برجله، بل يسحب إلى سواء الجحيم، على وجهه. نعوذ بالله من سخطه.

ولقد سمعت بعض العلماء يرون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**إذا كان يوم القيامة، يخرج قوم من قبورهم، لهم نُجُبٌ يركبونها، لها أجنحة خضر، فتطير بهم فى عرصات القيامة، حتى أتوا على حيطان الجنة، فإذا رأتهم الملائكة قال بعضهم لبعض: من هؤلاء؟، فيقولون: لا ندرى، لعلهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فتقول**

---

(١) ط : فقال.

(٢) سورة مريم، الآيتان ٨٥- ٨٦.

(٣) ط : يخلى .

(٤) ط : عيش .

(٥) ط : يخلون .

الملائكة: هل حوسبتم؟، فيقولون: لا، فيقولون: هل وزنتم؟، فيقولـــون: لا، فيقولون: هل قرأتم كتبكم؟، فيقولون: لا، فتقول الملائكة: ارجعـــوا فكل ذلك وراؤكم، فيقولون: هل أعطيتمونا شيئاً فتحاسبوننا عليه؟، وفى خبر آخر: ما ملكنا فنعدل أو نجور، ولكنا عبـــدنا ربنـــا حتـــى دعانـــا فأجبناه، فينادى منادى: لقد صدق عبادى، ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم"[1]، أما تسمع قول جل من قائل: **"أفمن يلقى فى النـــار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة"**[2].

فأعظم رجل يشاهد تلك الأهوال والزلازل والوقائع، وهو آمن لا يدخل قلبه فزع، ولا يكون على قلبه ثقل، نسأل الله أن يجعنا وإياكم من أولئك السعداء، وما ذلك على الله بعزيز.

وأما **الجنة والنار**، فتأمل فيهما آيتين من كتاب الله تعالى، إحداهما قوله تعالى: **"وسقاهم ربهم شراباً طهوراً إن هذا كان لكم جزاء وكـــان**

---

(١) لم أجد لفظ هذا الحديث فى معظم الكتب الصحيحة، وما وجدته قريب من المعنى ما يلى:

إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبـــورهم إلـــى الجنان، يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟= = فيقولون: ما رأينا حساباً. فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينـــا صـــراطا. فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئا. فتقول لهم الملائكة: من أمة من أنـــتم؟ فيقولون: من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمـــالكم فى الدنيا؟ فيقولون خصلتان كانت فينا فبلغنا هذه المترلة بفضل رحمة الله. فيقولون: ومـــا هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه، ونرضى باليسير مـــا قـــسم لنـــا، فتقـــول الملائكة: يحق لكم هذا (الألبانى، سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢/٥٠٧).

(٢) سورة فصلت ، آية ٤٠.

سعيكم مشكوراً"[١]، وقال تعالى حكاية عن آخرين: "**ربنا اخرجنا منهـا فإن عدنا فإن ظالمون قال أخسأوا فيها ولا تكلمـون**"[٢]، وروى أنهـم يصيرون يتعاوون بعد ذلك كلاباً فى النار. نعوذ بالله الرءوف الرحيم من عقابه الأليم، فإن الأمر كما قال يحيى بن معاذ: "لا تدرى أى المصيبتين أعظم، فوت الجنان، أو دخول النيرن"، أما الجنة فلا صبر عنها، وأمـا النار فلا صبر عليها، وعلى كل حال فوت النعيم من مقاسات الجحيم.

ثم الطامة الكبرى، والمصيبة العظمى، [فى][٣] الخلود البـاقى، إذ لو كان الأمر على حال منقطعاً لكان الأمر هيناً، ولكن الشأن فى أبد بلا آخر، فأى قلب يحتمل ذلك؟، وأى نفس تصبر على ذلك؟، ولـذلك قـال **عيسى بن مريم** صلوات الله على نبينا وعليه وسلامه: ذكـر الخالـدين بقطع قلوب الخائفين"، وذكر عن **الحسن**[٤] أن آخر رجل يخـرج مـن النار، رجل يقال له هناد، وعذب ألف عام، ينادى يا حنان يا منان، فبكى الحسن، وقال: ليتنى هناد، فتعجبوا منه، فقـال: ويحكـم، ألـيس يومـاً يخرج؟.

قلت: فرجع الأمر كله إذن إلى أصل، وهى تلك النكتة التى تقصم الظهور، وتصفر الوجوه، وتقطع وتذيب الأكباد، وتـرى العيـون مـن العباد، وهى خوف نزع المعرفة، فهذه النهاية التى ينتهى إليهـا خـوف

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان ١٠٧، ١٠٨.

(٣) ط : من.

(٤) الحسن، هو: الحسن البصرى إمام التابعين، وقد مرّت ترجمته.

الخائفين، وتبكى عليها أعين الباكين، ولقد قال بعضهم: إن الغموم ثلاثة: غم الطاعة ألا تُقبل، وغم المعصية ألا تُغفر، وغم المعرفة أن تُسلب، وقال المخلصون بل الغم كله هو الواحد بالحقيقة، وهو غم العرفة، وكل غم دونه جلل، إذ له إنقضاء، ولقد بلغنا عن يوسف بن أسباط (رحمه الله)، أنه قال: "دخلت على **سفيان**[١] فبكى ليله أجمع، فقلت: بكاؤك هذا على الذنوب؟، فحمل تبناً فقال: الذنوب أهون على الله من هذا، أخشى أن يسلبنى الله الإسلام". نسأل الله المنان سبحانه ألاّ يبتلينا بمصيبة، وأن[٢] يتم علينا بفضله كريم نعمته، وأن يتوفنا على ملة الإسلام، إنه أرحم الراحمين.

وقد ذكرنا سبب شؤم الخاتمة، ومعناها فى كتاب: "إحياء علوم الدين"، فتأمله هناك فإن الخوض فيه هنا خروج عن الكتاب، فتأمل هذه الجملة، فإن التفضيل أكثر من أن يأتى عليه الوهم والذكر، لعلك تفلح بتوفيق الله، وحسن عونه.

فإن قلت: فأى الطريق أسلك ، طريق الخوف أو طريق الرجاء ؟، يقال له : المركّب بينهما ، فلقد قيل : من غلب عليه الرجاء ، صار **مرجئاً**[٣] ، ومن غلب عليه الخوف ، صار

---

(١) سفيان، هو سفيان الثورى، تابعى جليل، وقد مرّت ترجمته.

(٢) + ط : أن.

(٣) نسبة إلى فرقة المرجئة، وهى: عدة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة الجبرية ، ومرجئة القدرية ، والمرجئة الخالصة . والإرجاء يأتى على معنيين : الأول هو التأخير ، تقول أرجأت كذا وتريد أخرته . وفى القرآن "أرجه وأخاه" (الأعراف ١١١) أرادوا أخره وأمله . والمعنى الثانى للإرجاء إعطاء الرجاء ، تقول أرجيت فلاناً ، تريد أنك أعطيته

الرجاء . ويجوز أن تكون تسمية هذه الفرق بالمرجئة مأخوذة من المعنى الأول ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية وعقد القلب ، ويجوز أن تكون مأخوذة من المعنى الثانى ، لأنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، فقد كانوا يعطون المؤمن العاصى الرجاء فى ثواب الله . وقد يكون الإرجاء تأخير حُكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه فى الدنيا بحكم ما . وعلى هذا التفسير تكون المرجئة فرقة مقابلة للوعيدية . وقد يكون الإرجاء تأخير على بن أبى طالب عن الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة ، وعلى هذا تكون المرجئة فرقة مقابلة للشيعة . ويبدو أن أول ما أستخدم الإرجاء كان بعد مقتل علىّ ، من أصحاب معاوية وأصحاب الجمل وغيرهم ، فسموا جميعاً وقالوا : أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان ، ورجوا لهم جميعاً المغفرة . وقيل : أول من قال بالإرجاء هو : الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب : المشهور بابن الحنفية ، وكان يكتب فيه الكتب إلى الأمصار ، إلا أنه ما أخر العمل عن الإيمان ، ولكنه حكم بأن صاحب الكبيرة لا يكفر ، إذ الطاعات وترك المعاصى ليسا من أصل الإيمان حتى يزول الإيمان بزوالهما . وقيل : أول من وضع الإرجاء هو أبو سلت السمان المتوفى سنة ١٥٢ هـ. ويُروى عن الرسول ﷺ أنه قال:"لعنت المرجئة على= = لسان سبعين نبياً " قيل : من المرجئة ؟ قال : "الذين يقولون الإيمان كلام" يعنى الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار وحده دون غيره . وعن البخارى ومسلم وابن حبان ، عن الأعمش وزبيد بن الحارث وسليمان بن حرب : سألت أبا وائل عن المرجئة فقال : حدثنى عبد الله أن النبى ﷺ قال : "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" وقوله المرجئة أى عن مقالة المرجئة . ولأبى داود الطيالسى ، عن شعبة ، عن زبيد قال : لما ظهرت المرجئة أتيت أبا وائل فذكرت ذلك له" فظهر من هذا أن سؤاله كان عن معتقدهم ، وأن ذلك كان حين ظهورهم ، وكانت وفاة أبى وائل سنة تسع وتسعين ، وقيل سنة اثنتين وثمانين ، ففى ذلك دليل على أن بدعة الإرجاء قديمة . ومما يروى فى علاقة الإرجاء بالتشيع ما نقله عنه الأصفهانى فى كتابه الأغانى من الشعر ، عن شاعر المرجئة ثابت بن قطنة يقول :

يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لـم نـشرك بــه أحـداً
نرجو الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جـاء أو عَنَـدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنـا ... سفك الدماء طريـق واحـد جـددا
من يتق الله من أمر فليس لـه ... رد وما يقض من شئ يكـن رشـدا
كل الخوارج مَخَط فى مقالتـه ... ولـو تعبـد فيمـا قـال واجتهـدا
أما علـى وعثمـان فإنهمـا ... شقا العصا وبعـين الله مـا شـهدا
يُجزَى على وعثمان بـسعيهما ... ولـسـت أدرى بحـق أيـه وردا

وكل المرجئة يقولون إنه ليس فى أحد من الكفار إيمان . وأكثرهم لا يكفرون أحداً من المتأولين ، ولا يكفرون إلا من أجمعت الأمة على إكفاره ، وأجمعوا على أن الدار دار إيمان ، وحكم أهلها الإيمان ، وقالوا فى الأمر والنهى إنهما على الخصوص حتـى تـأتى دلالة على العموم ، أو أنهما على العموم حتى تأتى الدلالة على الخصوص ، وقـالوا فـى الصغائر والكبائر إن كل معصية فهى كبيرة ، وبعضهم فرق بـين الكبـائر والـصغائر . وقالت المرجئة فى التوحيد بقول المعتزلة ، إلا من تحدث منهم فى التشبية ، وبعضهم قال بالوقف من خلق القرآن ، وذكروا أنه كلام الله سبحانه : لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق . والمرجئة ثلاثة أصناف : صنف قالوا بالإرجاء فى القدر فهم على مذاهب غيلان الدمشقى ، وأبى شعر ، ومحمد بن شبيب البصرى ، وهؤلاء هم مرجئة القدرية ، وصـنف قـالوا بالإرجاء فى الإيمان ، وقالوا كالجهمية : إن العبد لا فعل له ، والفاعل الحقيقى هـو الله ، وهؤلاء هم مرجئة الجبرية: صنف أخير هم المرجئة الخالصة ، وهم عدة فرق : اليونسية= =أصحاب يونس النمير ؛ والغسانية أصحاب غسان بن أبان الكوفى ؛ والثوبانية أصـحاب أبى ثوبان المرجى ؛ والتومنية أصحاب أبى معاذ التومنى ؛ والمريسية أصحاب بشر بـن غياث المريسى ؛ والصالحية أصحاب صالح بن عمرو الصالحى .

مرجئة البدعة : هؤلاء هم الذين يقولون لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهؤلاء هم الذين اختصوا باسم الإرجاء عند الأكثـرين ، وهـم الـذين يستحقون مقالة السوء من الجميع .

مرجئة الخوارج : هم الشبيبية أصحاب شبيب بن يزيد الشيبانى ، وذلك أن شـبيباً وقف فى صالح بن مسرح الخارجى ، وفى الراجعة ، قالوا : لا ندرى أحق ما حكـم بـه

صالح أم جور ، فبرئت الخوارج منهم وسموهم مرجئة الخوارج . وكان شبيب أصاب أموالاً فقسمها وبقيت دابة وعمامة ومنطقة ، فقال لرجل من أصحابه اركب هذه الدابة حتى نقسمها ، وقال لآخر : إلبس هذه العمامة والمنطقة حتى نقسمها ، فبلغ ذلك أصحابه ، فخرج إليه سالم بن أبى الجعد وابن دجاجة الحنفى ، فقالا: يا معشر المسلمين ، استقسم هذا الرجل بالأزلام : فقال شبيب : إنما كانت دابة فأحببت أن يركبها صاحبها يوماً أو يمين حتى نقسها . فقالوا لم أعطيت هذا منطقة وعمامة ؟ فلو استشهد وأخذ متاعه؟ تب مما صنعت ! فكره أن يخنع ، فقال : ما أرى موضع توبة ! فبرئوا منه فليس يتولاه خارجى ، وهم يرجئون أمره ولا يكفرونه ، ولا يثبتون له الإيمان .

مرجئة السنة : هم أبو حنيفة وأصحابه ، قال بعض أهل الحديث فى حقهم : إنهم "مرجئة السنة" . كما أن كثيراً من أصحاب المقالات عدوا أبا حنيفة من جملة المرجئة . ولعل السبب فيه أنه لما كان يقول : الإيمان هو التصديق بالقلب ، وهو لا يزيد ولا ينقص ، ظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان . وربما السبب أيضاً أن أبا حنيفة كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا الصدر الأول . والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم فى القدر مرجئاً . وكذلك الوعيدية من الخوارج ، فلا يبعد أن القلب إنما لزمه من فريقى المعتزلة والخوارج . والغالب أن مردهم الإرجاء بمعناه اللغوى الذى هو التأخير ، ومعنى أن أبا حنيفة مرجئ من هذا الوجه أنه يجعل مرتبة العمل متأخرة عن عقد القلب وإذعانه وجزمه . وإذا كان هذا المعنى هو المقصود فلا شئ فيه فإن الكثير من آيات الكتاب وأحاديث الرسول تعطف الأعمال على الإيمان ، نحو قوله تعالى "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات" . ولا شك أن المعطوف غير المعطوف عليه ، فتكون الأعمال غير الإيمان . وأيضاً فإن= = الرسول جعل القلب محل الإيمان فى نحو قوله "اللهم ثبت قلبى على دينك " . وفعل القلب ليس شيئاً غير التصديق . والمرجئة فى عرف الكلام على أربعة أصناف : مرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، ومرجئة الخوارج ، والمرجئة الخالصة ، وقد اشتهر عن أبى حنيفة فى تعريف الإيمان أنه : التصديق بما علم مجئ النبى ﷺ به ضرورة ، تفصيلاً فيما علم تفصيلاً ، وإجمالاً فيما علم إجمالاً ، وأن الإقرار باللسان ليس جزءاً من حقيقة الإيمان ، والأعمال الصالحة ليست جزءاً من حقيقة الإيمان ، ويبنى على ذلك أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأن الجزم الذى ينعقد القلب عليه نقص صار جهلاً ، أو شكاً أو وهماً ، فلا يكون

حروريا[1]، والمراد أن لا ينفرد بأحدهما دون الآخر، فإن

إيماناً . وينبنى على هذا التفسير -أن الإيمان بالتصديق- أن أبا حنيفة لا يقطع فى الدنيا بأن صاحب الكبيرة يعذب فى الآخرة ، بل يفوض أمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له ، كما فى الآية على لسان عيسى "إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ". وهذا المعنى عند أبى حنيفة هو الذى سماه الوعيدية إرجاء ، لأنهم قالوا : إنا نحكم بأن الله يعذب عصاة المؤمنين ، وعلى ذلك سموا أبا حنيفة مرجئاً ، وأرادوا أنه يرجئ حكم عصاة المؤمنين إلى اليوم الآخر فيحكم الله تعالى فيهم بما يشاء .

والخلاصة : أن إطلاق القول بالإرجاء على الأمام أبى حنيفة لم يكن على المعنى المعرفى المصطلح عليه عند أهل الكلام ، ولم يكن أبو حنيفة بناءً على ذلك مرجئاً من أحد الأصناف الأربعة السابقة . والذين أطلقوا الإرجاء عليه إنما أرادوا إذن المعنى اللغوى وهو التأخير – دون المعنى المعرفى ، وهم أحد ثلاثة : أولهم بعض المحدثين لأنه خالفهم فى تحديد معنى الإيمان ، فبينما يجعلون الإيمان مؤلفاً من ثلاثة أركان : هى التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالخوارج ، فإن أبا حنيفة قد قصره على الركن الأول وهو التصديق ، فيسمونه مرجئاً بمعنى أنه يؤخر العمل فى المرتبة . والفريق الثانى الوعيدية وهم جمهور المعتزلة ، ومنشأ إطلاقهم الإرجاء عليه أن أبا حنيفة عندهم كان يخالفهم فى حكم مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، فبينما يحكمون على مرتكب الكبيرة بأنه يعاقب جزماً بدخول النار ، وأنه يخلد فيها ، فإن أبا حنيفة لا يحكم عليه بشئ ، بل يقول إن أمره مفوض ، فيسمونه لذلك مرجئاً على معنى أنه يؤخر الحكم ولا يجزم به . وأما الفريق الثالث فإن النوبختى الشيعى يدرج أبا حنيفة ضمن المرجئة ، ويجعله من مرجئة أهل الشام ، والجهمية مرجئة أهل خراسان ويعرفهم بأنهم الذين والوا المؤمنين بعد وقعة الجمل ، وقالوا فى علىّ وشيعته ومعرضيه إنهم جميعاً من أهل القبلة ومؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان ونرجو= = لهم جميعاً المغفرة ، ونؤخر الحكم فيهم إلى يوم القيامة ، فكان معنى الإرجاء عند أبى حنيفة كما يفهمه الشيعة هو أيضاً المعنى اللغوى وهو التأخير دون المعنى الاصطلاحى (د. عبدالمنعم الحفنى ، موسوعة الفرق ، ص ٥٧٧- ٥٨٢).

(١) نسبة إلى فرقة الحرورية، وهى: جماعة من الخوارج أعلنوا العصيان على على بن ابى طالب وخلعوا طاعته ، وسموا كذلك تمييزاً لهم عن بقية الخوارج ، ونسبة إلى حرورا

، وهى قرية بظاهر الكوفة ، وقيل موضع على ميلين منها نزلوا بها ، وقيل حروراء كورة ، وبها كان أو تحكيمهم واجتماع لهم حين خالفوا علياً. وقد وقع حديث لعائشة مـع معـاذة بنت عبد الله البدوية أنها سألتها أتقضى إحدانا الصلاة أيام محيضها ؟ فقالت لها عائـشة : أحرورية أنت ؟ قد كانت إحدانا تحيض على عهد رسول الله ﷺ ثم لا تؤمر بقضاء الصلاة" . وذكر شراح مسلم أن الحرورية يوجبون على الحائض إذا طهرت قضاء الصلاة . وربما سموا فرقة من الخوارج بعينها حرورية للآية "إنما جزاء الـذين يحـاربون الله ورسـوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا ، أو تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف أو ينفـوا مـن الأرض". (المائدة ٣٣) . قال مصعب بن سعد عن أبيه : نزلت هذه الآية فى الحروريـة . وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك : أن نفراً من عكل – ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم ، فشكوا إلى رسـول الله ﷺ ذلك فقال : "ألا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها " فقالوا : بلى . فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا ، فقتلوا الراعى وطردوا الأبل ، فبلـغ ذلـك رسول الله ﷺ ، فبعث فى أثارهم ، فادركوا وجئ بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسملت أعينهم ، ثم نبذوا فى الشمش حتى ماتوا . أو كما قال مسلم وهو الأرجح : فجـئ بهم فألقوا فى الحرة ، فجعلوا يستسقون فلا يسقون . فمن الحرة سموا الحرورية ، وسـموا المحاربة أيضاً ، لأنهم حاربوا الله ورسوله فى الأرض فساداً . وقيل إن الاية "قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً" (الكهف ١٠٣) هم الحرورية ، لأنهم نقضوا عهد الله بعد ميثاقه ، أو أن هكذا فسر على بن ابى طالب الآية، وأطلق عليهم سعد بن أبى وقاص اسم الفاسقين . والآية عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيهـا وأن عملـه مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود. ومن الحروربة أبو فديك الحرورى ، وكان فى مبتدئه= = من الأزارقة ثم آل إليه أمر الحروية فى مدة ابن الزبير ، وثار فى البحرين وما والاها، وهزم أمية بن عبد الله القسرى ، فبعث إليه عبد الله بن مروان بعشرة آلاف جندى ، فقاتهلم وصمد لهم إلى أن قتلوه ، وقتلوا من أصحابه نحو ستة آلاف ، واسروا ثمانمائة ، فإلى هذا الحد بلغ خطر الحرورية(عبد المنعم الحفنى ، موسوعة الفرق ، ص ٢٦٨-٢٦٩).

(١) ط : الحقيقة

الحقيقى لا ينفك عن الرجاء، ولذلك قيل: "الرجاء كله لأهل الخوف، إلا الأمن، والخوف كله لأهل الرجاء، إلا اليأس".

فإن قلت: فهل يكون أرجح أحدهما، وأكثر ذكراً للحال؟، فأعلم أن العبد إذا كان صحيحاً قوياً، فالخوف أولى به، وإذا مرض وضعف، ولاسيما إذا أشرف على الآخرة، فالرجاء أولى، كذا سمعت العلماء يقولون، قلت: وذلك ما روى عن الله عز وجل: "**أنا عند المنكسرة قلوبهم من مخافتى**"[1]، فيصير رجاؤه أقوى فى ذلك الوقت، لانكسار قلبه، وخوفه المقدم زمان الصحة والقوة والإمكان، ولذلك يقال لهم: لا تخافوا، ولا تحزنوا.

فإن قلت: أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة فى حسن الظن بالله عز وجل، والترغيب فى ذلك؟، فاعلم أن حسن الظن بالله تعالى الحذر من معصيته، والخوف من عقابه، والاجتهاد فى خدمته، واعلم أن هاهنا أصلاً أصيلاً، "ونكته عزيزة، يغلط فيها الكثير من الناس، وهو أن الفرق بين الرجاء والأمنية، أن الرجاء يكون على اصل، والتمنى لا يكون على

---

(١) الحديث (ضعيف) وهو للغزَّال – لم يذكر راويه من الصحابة : قال الله تعالى : أنا عند المنكسرة قلوبُهم" (كما فى الاتحاف /١٦٥) قلت : لم أجده فى الجامع الصغير ولا فى كنز العمال ولا فى غيرهما ولعله فى جمع الجوامع ولا أظنه إلا ضعيفا وهو أشبه بكلام الصوفية . "والغزَّال" هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن سهل الحافظ المقرئ صاحب التصانيف فى القراءات والوقف والابتداء ، وفى الحديث روى عنه أو نعيم الحافظ وقال :"هو أحد من يرجع إلى حفظه معرفته وله مصنفات ، ومات فى آخر ربيع سنة تسع وستين وثلاث مائة" كما فى تذكرة الحفاظ ٩٦٤/٣ (أنظر ، جامع الأحاديث القُدسية ١٣٩/٣ – ١٤٠) .

أصل، مثاله من زرع واجتهد، وجمع بيدراً، ثم يقول: أرجو أن يجتمع لى منه مائة قفيز، فذلك منه رجاء، والآخر لا يزرع زرعاً، ولا يعمل، فذهب ونام سنة، فإذا جاء وقت البيادر يقول: أرجو أن يحصل مائتين، فيقال له: من أين لك هذا الرجاء"[١]؟، وإنما ذلك منه أمنية بلا أصل، وكذلك العبد إذا اجتهد فى عبادة الله تعالى، [وانتهى][٢] عن معصية الله تعالى، يقول: أرجو أن يتقبل الله السير، ويتم هذا التقصير، ويعظم الثواب، ويعفو عن الزلل، ويحسن الظن، فهذا منه رجاء، وأما إذا غفل وترك الطاعة، وارتكب المعاصى، ولم يبالِ بسخط الله تعالى، ولا رضاه، من وعده ووعيده، ثم أخذ يقول: أرجو من الله الجنة، والنجاة من النار، فذلك منه أمنية، لا أصل تحتها، سماها رجاء وحسن ظن، وذلك خطأ وضلال.

قلت: وفى هذا يقول الحسن البصرى (رحمه الله): "إن قوماً ألهتهم أمانىّ المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا، وما لهم حسنة، يقول إنى حسن الظن بربى، ولو أحسن الظن لأحسن العمل، ثم تلا قوله تعالى: "**فمن كان يرجو لقاء ربه..**" الآية[٣]، "**وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم**

---

(١) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: ونكتة عزيزة، يغلط فيها الكثير من الناس، وهو أن الفرق بين الرجاء والأمنية، أن الرجاء يكون على أصل، والتمنى لا يكون على أصل. إلى قوله: أرجو أن يحصل مائتين، فيقال: من أين لك هذا الرجاء" مقروءة بصعوبة شديدة فى ط .

(٢) ط : الانتهاء.

(٣) فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً. سورة الكهف، آية ١١٠.

أرداكم فأصبحتم من الخاسرين"[١]. وعن جعفر الضبعى قال: رأيت أبـا ميسرة العابد، وقد بدت أضلاعه من كثرة الاجتهاد، فقلت رحمك الله، إن رحمة الله واسعة، فغضب فقال: هل رأيت ما يدلّ على القنوط، إن رحمة الله قريب من المحسنين، قال جعفر: فأبكانى قوله.

فإذا كان الرسل والأبدال والأولياء، مع كل هـذا الاجتهـاد فـى الطاعة، والحذر عن المعصية، فأيش تقول؟، أما كان لهم حسن ظن بالله تعالى؟، [بلى][٢] وإن كانوا أعلم بسعة رحمة الله، وأحسن ظنـاً بجـوده منك،ولكن علموا أن ذلك دون الاجتهاد أمنية وغـرور، فـاعتبر بهـذه النكتة، وتأمل حالهم، وانتبه من رقدتك، والله ولى التوفيق.

---

(١) سورة فصلت ، آية ٢٣.

(٢) ط : بل.

فصل

وجملة الأمر أنك إذا تذكرت سعة رحمة الله التى سبقت غـضبه، ووسعت كل شئ، ثم كنت من هذه الأمة المرحومة، الكريمة على الله عز وجل، ثم غاية فضله العظيم، وكمال جوده القديم، وجعل عنـوان كتابـه بسم الله الرحمن الرحيم، ثم كثرة أياديه إليك، ونعمـه عليـك، ظـاهرة وباطنة، من غير شفيع، وقدم سابقة لك، وتذكر من جانب آخـر كمـال جلاله وعظمته وعظيم سلطانه وهيبته، ثم شدة غضبه وسخطه، الذى لا تقوم له السموات والأرض، ثم غاية غفلتك، وكثرة ذنوبك وجفوتك، مـع دقة أمره، وخطر معاملته، فى إحاطة علمه وبصره بالغيوب والعيوب، ثم حسن وعده ثوابه، الذى لا تبلغ كنهه الإفهام، وشدة وعيده، وأليم عقابه، الذى لا تحمل ذكره القلوب، تارة تنظر إلى رحمته ورأفتـه[1]، وطـوراً تنظر إلى نفسك فى حقارتها وجناياتها، نادى بك جميع ذلك إلى الخـوف والرجاء. وإن كنت قد سلكت السبيل الفارغ القصد، وعدلت عن الجانبين المهلكين، الأمن واليأس، ولا تتيه فيهما مع التـائهين، ولا تهلـك مـع الهالكين، وشربت الشراب الممزوج بالعدل، فلا تهلك ببـرودة الرجـاء الصرف، <و>[2]لا بحرارة الخوف الصرف، وكأنى بك قد وصلت إلى المقصود غانماً، وشفيت من العلتين سالماً، ووجدت النفس وقـد اتبعـت الخدمة، ودامت فى الطاعة، ودامت فى الخدمة ليلاً ونهاراً، مـن غيـر فترة ولا غفلة، واجتنبت المعاصى والمخازى، وهجرتها بمرة، كما قيل:

---

(١) + ط : و.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

"إنما يوفى إن توفى"، إذا ذكرت الجنة طال [شوقك][1] وإذا ذكـر النـار طار [نومك][2] وصرت من الأصفياء الخواص العابدين، الذين وصـفهم الله بقوله: "**إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبـاً ورهبـاً وكانوا لنا خاشعين**"[3]، وكنت قد خلفت هذه العقبة الخطيـرة بـإذن الله تعالى، وحسن توفيقه، وكم لك من حلاوة وصفوة فى الدنيا، وكم لك من ذكر كريم وأجر عظيم فى العقبى، والله المسئول أن يمدّك وإيانا بحسن توفيقه، وتسديده، إنه ارحم الأرحمين، وأجود الأجودين، ولا حـول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) ط : شوقه.

(٢) ط : نومه.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

العقبة السادسة: وهى عقبة القوادح

ثم عليك يا أخى أمدنا الله وإياكم بحسن توفيقه، بعد ما استبان لك السبيل، واستقام لك المسير، بتمييز سعيك، وصيانته عن ما يفسده، ويضيعه عليك، وإنما ذلك بإقامة الإخلاص، وذكر المنة، لما فى فعله من الفائدة وحسن القبول من الله تعالى، ووفور الثواب عليه، وإلا فيكون مردوداً، إذا ذهب كلاً أو بعضاً، على ماروى فى الحديث المشهور عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى يقول: "**أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً فأشرك فيه غيرى، تركته وشِرْكَه، فإنى لا أقبل إلا ما كان لى خالصاً**"(١).

قلت: من خطر الرياء فضيحتان، ومصيبتان، أما **الفضيحتان**، فإحدهما: فضيحة الصريرة، والثانية: فضيحة العلانية، وهى يوم القيامة على رءوس الخلق، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**إن المرائى ينادىَ يوم القيامة بأربعة أسماء، يا كافر يا فاجر يا غادر يا**

---

(١) أخبرنا على بن الحسين بن سليمان بالفسطاط، قال: حدثنا محمد بن هشام بن أبى خيرة، قال: حدثنا عبد الرحمن بن عثمان، قال: حدثنا شعبة، قال: حدثنا العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى أنا خير الشركاء من عمل عملاً فأشرك فيه غيرى فأنا منه برئ هو للذى أشرك به (صحيح ابن حبان ٢/١٢٠).

وحدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا روح، ثنا شعبة، ثنا الرحمن بن يعقوبب، سمعت أبى يحدث عن أبى هريرة، قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل أنا خير الشركاء من عمل لى عملاً فأشرك فيه غيرى فأنا برئ وهو للذى أشرك" (مُسند أحمد ٣٠١/٢).

خاسر، ضل سعيك، وبطل أجرك، فلاَ خلاقَ لك، التمس الأجر ممكن كنت تعمل عنده يا مخادع"[1]، وروى أنه ينادى مناد يوم القيامة، يسمع

---

(١) هذا تضمين لمعنى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى الرياء:

حدثنا يحيى بن حبيب الحارثى، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا بن جريج، حدثنى يونس بن يوسف عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبى هريرة، فقال له قائل من أهل الشام: أيها الشيخ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فآتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار (صحيح مسلم ١٥١٣/٣).

أخبرنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا خالد قال: حدثنا بن جريج قال: حدثنا يونس بن يوسف، عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبى هريرة، فقال له قائل من أهل الشام أيها الشيخ حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة، رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت ولكنك قاتلت ليقال فلان جرئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فاتى به فعرفه نعمه فعرفها، فقال ما عملت فيها قال: ما تركت من سبيل تحب -قال أبو عبد الرحمن ولم أفهم تحب- كما أردت

الخلائق: "أين الذين كانوا يعبدون الله رياءً، قوموا أحضروا أجوركم ممن عملتم له، فإني لا أقبل عملاً خالطه شئ.

وأما **المصيبتان**، فأحدهما فوت الجنة، ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: "**إن الجنة تكلمت، وقالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائى**"(١).

والخبر يحتمل معنيين، أحدهما: أن هذا البخل، هو أقبح بخل، وهو قول "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وهذا المرائى من يرائى بأقبح رياء، وهو المنافق الذى يرائى بإيمانه وتوحيده، وفى هذا القول ترجيه.

والثانى: أنه لم يتثبت رأساً عن البخل والرياء، ولم يراع نفسه، ففيه خطر أن يلحق شؤم ذلك، فيقع فى الكفر، فتفوته الجنة رأساً، والعياذ بالله.

والمصيبة الثانية: دخول النار، ذلك لما روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم: **إن أول من يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن للقارئ، ورجل قاتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله**

أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكن ليقال إنه جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار (سنن النسائى ٦/٢٣، الترغيب والترهيب ١/٢٨ - ٢٩) .

(١) هذا تضمين للحديث الآتى:

عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "ألا إن كل جواد فى الجنة حتم على الله وأنا به كفيل ألا وإن كل بخيل فى النار حتم على الله وأنا به كفيل قالوا يا رسول الله من الجواد ومن البخيل قال الجواد من جاد بحقوق الله عز وجل فى ماله والبخيل من منع حقوق الله وبخل على ربه، وليس الجواد من أخذ حراماً وأنفق إسرافاً". رواه الأصبهانى وهو غريب (الترغيب والترهيب ٣/٢٥٩).

تعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى، فيقول بلى يا رب، فيقول فماذا عملت فيما علمت، فيقول: يارب قمت به آناء الليل والنهار، فيقول الله تعالى كذبت، وتقول الملائكة كذبت، فيقول الله تعالى: بل قرأت ليقال القارئ، فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال، فيقال: ألم أوسع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد، فيقول: بلى يارب، فيقول فماذا عملت فيما آتيتك، قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، قال: كذبت، وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: "فلان جواد"، فقد قيل، ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله، فيقول: ماذا فعلت؟، فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقتلت حتى قتلت، فيقول الله تعالى كذبت، وتقول الملائكة كذبت، بل أردت أن يقال: فلان جرئ، فقد قيل ذلك. قال ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتى، وقال لى: يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله تُسَعّرُ بهم جهنم"(١)، وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن النار وأهلها يعجّون من عذاب أهل الرياء، قيل: يا رسول الله، وكيف تعج النار؟، قال: من حر النار التى يعذبون بها"(٢)، وفى هذه

---

(١) أنظر الهامش قبل السابق .

(٢) لم أجد لفظ هذا الحديث فى معظم الكتب الصحيحة، ولكن معناه ورد فيما يلى:

عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن، فقيل : يا رسول الله وما جب الحزن أو وادى الحزن، قال: واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله للقراء المرائين". رواه البيهقى بإسناد حسن وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال: واد فى جهنم

الفضائح بلاغ لأولى الأبصار، والله سبحانه ولى الهداية تفضله.

فإن قلت: فأخبرنى عن حقيقة هذا الأخلاص والرياء، وحكمهما، وتأثيرهما فى العمل، فاعلم أن الأخلاص فى العمل عند علمائنا، **إخلاصان:** إخلاص العمل لله، وإخلاص طلب الأجر، فأما إخلاص العمل، فهو إداة التقرب إلى الله عز وجل، وتعظيم أمره، وإجابة دعوته، والباعث عليه الاعتقاد الصحيح، وضد هذا الإخلاص هو النفاق، وهو التقرب إلى من دون الله تعالى، وقال شيخنا (رحمه الله تعالى): "النفاق هو الاعتقاد الفاسد، الذى هو للمنافق فى الله تعالى"، وليس هو من قبيل الإرادات .

وأما الإخلاص فى طلب الأجر، فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير، لم يرد ردّاً لتعذر خيره، بحيث ترجى تلك المنفعة، وقد شرحنا هذه الشرائط. وقال **الحواريون** لعيسى بن مريم عليه السلام: ما الخالص من أعمالنا؟، قال: "**الذى يعمل لله، لا يحب أن يحمده أحد عليه**"، وهذا تعرض لترك الرياء، وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة

تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة. قيل يا رسول الله من يدخله؟ قال: أعد للقراء المرائين بأعمالهم وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء الجورة". رواه ابن ماجه واللفظ له والترمذى وقال حديث غريب رواه الطبرانى من حديث ابن عباس عن =
= النبى صلى الله عليه وسلم قال: "إن فى جهنم لواديا تستعيذ جهنم من ذلك الوداى كل يوم أربعمائة مرة أعد للمرائين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم" (الترغيب والترهيب ٣/٢٥٣ - ٢٥٤).

للإخلاص. وقال **الجنيد**[1]: "الإخلاص تصفية الأعمال مـــن الكــدرات"،

(١) الجنيد، هو : أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري ،الزاهد المشهور ،أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه العراق ، وكان شيخ وقته ، وفريد عصره ، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون ، وتفقه علي أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وقيل بل كان فقيهـاً علي مذهب سفيان الثوري . وصحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي ، وغيرهم من جلة المشايخ ، وصحبه أبو العباس ابن سراج الفقيه الشافعي ، وكان إذا تكلم فـي = = الأصول والفروع بكلام أعجب الحاضرين فيقول لهم :أتدرون من أين لي هذا ؟ هذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد ، وقال الجنيد : قال لي خالي سري السقطي : تكلم علـي الناس ، وكان في قلبي حشمة من الكلام علي الناس ، فإني كنت أتهم نفسي في اسـتحقاقي ذلك، فرأيت ليلة في المنام رسول الله-ﷺ- وكانت ليلة جمعة ، فقال لي : تكلم علي الناس ، فانتبهت ، وأتيت باب السرى قبل أن أصبح ، فدققت الباب فقال لي : لم تصدقنا حتى قيل لك ، فقعدت في غد للناس بالجامع ، وانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلم علي النـاس ، فوقف علي غلام نصراني متنكراً وقال:أيها الشيخ ، ما معني قول رسول الله-ﷺ- : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " فأطرقت ثم رفعت رأسي ، وقلت : أسلم فقد حان وقت إسلامك فأسلم الغلام . وقال الشيخ الجنيد : ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها ، قيـل له : وما هي ؟ قال : مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار فأنصت لها ، فسمعتها تقول :

إذا قلت أهدي الهجر لي حلل البلى	تقولين لولا الهجر لم يطب الحــب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الهــوي	تقولي بنيران الهوي شرف القلــب
وإن قلت ما أذنبت قلــت مجيبــة	حياتك ذنب لا يقــاس بــه ذنــب

فصعقت وصحت ، فبينما أنا كذلك إذا بصاحب الدار قد خرج فقال : ما هذا يــا ســيدي ؟ فقلت له : مما سمعت، فقال أشهدك أنها هبة مني لك ، فقلت : قد قبلتها وهي حرة لوجــه الله تعالي ، فزوجتها لبعض أصحاب لنا في الرباط فولدت له ولداً نبيلاً ونشأ أحسن نشأة ، وحج علي قدميه ثلاثين حجة . وقال الجنيد عن نفسه : كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي يا غلام ، ما الــشكر ؟ قلت أن لا نعصي الله بنعمة ، فقال لي :أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد:

وقال **الفضيل**[١]: الإخلاص دوام المراقبة، ونسيان الحظوظ كلها، وهذا هو [البيان][٢] الكامل، والكلام فى هذا كثير، ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة.

وقد [كان] [٣] سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص: قال: "**تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت**"[٤]، أى لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيم فى

فلا أزال أبكي علي هذه الكلمة التي قالها السري لي . ويبين الجنيد تمسكه بالكتاب والسنة قائلاً : الطريق إلي الله مسدود علي خلق الله عز وجل إلا علي المقتفين آثار رسول والتابعين لسنته ، كما قال جل وعلي :" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " (راجع ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق يوسف علي طويل ، ومريم قاسم علي طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، ج١ ، ص ٣٤٦- ٣٤٧ . وابن الجوزي صفة الصفو ةج٢ ، ص ١٣٥- ١٣٦) .

(١) الفضيل، هو الفضيل بن عياض، وقد مرّت ترجمته.

(٢) ط : لبيان.

(٣) ط : قال .

(٤) حدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا وكيع وأبو معاوية قالا: حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، عن سفيان، عن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسال عنه أحداً غيرك، قال أبو معاوية بعدك قال قل: "امنت بالله ثم استقم". حدثنا عبد الله، حدثنى أبى، ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة عن يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان، عن أبيه قال يا رسول الله أخبرنى أمرا فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: "قل آمنت بالله ثم استقم" قال يا رسول الله فأى شئ أتقى قال فأشار بيده إلى لسانه (مُسند أحمد ٤١٣/٣، ابن ماجه ٤/٢٠، والترمذى ٦٠٧/٤).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على فأخذ بلسان نفسه ثم قال هذا رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح، وابن

عبادتك كما أمرت، فهذه إشارة إلى قطع كل ما سوى الله عـن مجـرى النظر، وهو الإخلاص حقاً، وضد الإخلاص الرياء، وهو إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة.

ثم الرياء ضربان، رياء محض، ورياء تخليط، فالمحض أن يريد به نفع الدنيا لا غير، والتخليط أن يريدهما جميعاً، نفع فى الدنيا والآخرة.

هذا حّدهما، أما تأثيرهما: فإن إخلاص العمل يجعل الفعل قربـة، وإخلاص طلب الأجر ان تجعله مقبولاً وافر الأجر والتعظـيم، والنفـاق يحبط العمل، ويخرجه عن كونه قربة، مستحق عليه الثواب بالوعد مـن الله سبحانه، فالرياء المحض[1] لا يكون من العارف عند بعض العلمـاء، وإن كان أبطل بنصف الثواب، وعند آخرين من العلمـاء، وقـد يكـون الرياء المحض من العارف، وإنما يذهب بنصف الأضـعاف، والتخلـيط يذهب بربع الأضعاف، والصحيح عند شـيخنا (رحمـه الله) أن الريـاء المحض، لا يكون من العارف مع تذكر الآخرة، [ويكون][2] مع الـسهو، والصحيح أن من تأثير الرياء رفع القبول، والنقصان فى الأجر، ولا يقدر له بنصف ولا ربع، وشرح هذه المسائل يطول، وقد شرحناها فى كتـاب "الأحياء" شرحاً مستفيضاً، وأشبعنا القول فى "أسرار معاملات الدين".

فإن قلت: فما موضع الإخلاص، وفى أى طاعة يقـع ويجـب؟، فأعلم أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة، قسم يقـع فيـه الإخلاصـان

ماجه، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال صحيح الإسناد (الترغيـب والترهيب ٣/٣٣٨).

(١) + ط: المحض.

(٢) ط: وتكون.

جميعاً، فهو العبادات الظاهرة الأصلية، وقسم لا يقع فيه شئ منهما، وهو الأعمال الباطنة الأصلية، وقسم يقع فيه إخلاص طلب الأجر، دون إخلاص العمل، وهو المباحات المأخوذة للعادة، قال شيخنا (رحمه الله): إن كل عمل يحتمل الصرف إلى غير الله من العبادات الأصلية، ويقع فيه إخلاص العمل بالعبادات الباطنة، أكثرها يقع فيه إخلاص العمل، وأما إخلاص طلب الأجر، قال مشايخنا الكرامية:" لا يقع فى العبادات الباطنة، إذ لا يطلّع عليها أحد، إلا الله عز وجل، فامتنع منها دواعى الرياء، فلم يحتج إلى إخلاص طلب الأجر". قال شيخنا (رحمه الله): "إذا أراد من العبادة الباطنة نفع الدنيا، فهو أيضاً رياء". قلت أنا: فلا يبعد إذن أن يقع فى كثير من العبادات القلبية الإخلاصان، وكذلك النوافل، [يقع] (١) فيها الإخلاصان جميعاً عند الشروع. وأما المباحات المأخوذة للعادة، [فيقع] (٢) فيها إخلاص طلب الأجر، دون إخلاص العمل، إذ لا يصلح أن تكون بنفسها قربة، بل هى عادة على القربة.

فإن قلت: هذا موضعها، فبين لنا وقتها من العمل، فاعلم أن إخلاص العمل مع الفعل، يقاربه لا محالة، ولا يتأخر عنه، وأما إخلاص طلب الأجر، فبما يتأخر عنه، وعن بعض العلماء، يعتبر فيه وقت الفراغ من العمل، فإن فرغ على إخلاص أو رياء، فقد انقضى الأمر، ولا يمكنه [استدراكه](٣) بعد. وعن عبدان من مشايخ الكرامية: "ما لم ينل المنفعة

---

(١) ط : يققع .

(٢) ط : يقع .

(٣) ط : استدركه.

المطلوبة بالرياء، يمكنه إقامة الإخلاص فى ذلك العمل، فإذا نال المطلوب فقد فات". وقال بعض العلماء: إن الفريضة يمكن إقامة الإخلاص فيها إلى الموت، وأما النوافل، فلا سبيل إلى ذلك، قال والفرق بينهما أن الله تعالى أدخل العبد فى الفريضة، فمأمول منه التفضل، والتيسير فيها، وأما النفل: فالعبد الذى أدخل نفسه فيه وتكلّفه، فطولب بحق ما تكلف.

قلت: وفى هذه المسألة فائدة، وهى أن من سبق [منه][(١)] الرياء، وترك الإخلاص فى عمل، فيمكنه استدراك ذلك وتلافيه، على أحد الوجوه التى ذكرنا، والمقصود من نقل مذاهب الناس فى هذه الدقائق، علمنا الآن بقلة العاملين، وقلة الرغبة فى سلوك هذا الطريق، والتقريب على المبتدئ فى العبادة، وإن لم يجد لعلته دواء فى هذا القول، وجده فى الآخر، لاختلاف الأغراض، وعلل الأعمال وآفاتها، فافهم راشداً إن شاء الله تعالى عز وجل.

فإن قلت: أكل عمل يحتاج إلى إخلاص مفرد؟، فاعلم أنه قد اختُلِف فى ذلك، فقيل أنه يجب لكل عمل إخلاص مفرد، وقيل يجوز تناول إخلاص الجملة من العبادات، فالعمل ذو الأركان كالصلاة، والوضوء يكفيهما إخلاص واحد، لأن بعضها متعلق ببعض، صلاحاً وفساداً، [فصار[(٢)]] كشئ واحد. فإن قلت: فإذا أراد بعمله الخير من الله تعالى، ولا يريد من الناس شيئاً. من مدحة، أو سمعة، أو منفعة، أيكون

---

(١) ط : من.

(٢) ط : فصارت.

ذك رياء؟، فاعلم أن ذلك محض الريـــاء، قـــال علماؤنـــا رحمهـــم الله: "الاعتبار فى الرياء بالمراد، لا بالذى تريد منه، فإن كان مرادك من عمل الدنيا نفعاً دنيوياً، فإنه رياء، سواء أردته من الله تعالى، أو من النـــاس، قال تعالى: "**من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب**"[1]، وليس الاعتبـــار بلفظة الرياء، واستقامتها مع معنى الرؤية، وإنمـــا ســـميت هـــذه الإرادة الفاسدة بهذا الاسم، لأنها أكثر ما تقع تكون من قِبل النـــاس ورؤيـــتهم، فأفهم.

فإن قلت: إذا كان القصد من الدنيا التى يريدها مـــن الله تعـــالى التغنّى عن الناس، والعدة على عبادة الله تعالى، أيكون ذلك رياء؟، فاعلم أن التعفف ليس فى كثرة [المال][2] والجاه، وإنما هو فى القناعة، والثقـــة بكفاية الله تعالى، وأما العدة على عبادة الله تعالى، فإذا كان مـــراده فـــى ذلك، فلا يكون رياء، وكذلك ما يتصل بأمر الآخرة وأسبابها وأشـــباهها، ويصير لفظاً لذلك، فإن أريد بعمل الخير ذلك النوع، لا تكون تلك الإرداة [رياء][3] لأن هذه الأمور تصير بتلك النية خيراً، وتصير فى حكم أعمال الآخرة، ولا تكون إرادة الخير رياء، وكذلك إرادة أن يكون لك تعظـــيم عند الناس، ومحبة عند المشايخ الأئمة، يكون قصدك من ذلك التمكن من مذهب الحق، أو الردّ على أهل البدع والشر، أو للعلم، أو حض النـــاس

---

(١) سورة الشورى ، آية ٢٠.

(٢) ط : الملل.

(٣) ط : ربا.

على العبادة، ونحو ذلك، دون أن يقصد بهذا شرف نفسك من حيث هى، أو دنيا تنالها، فإن هذه كلها إرادة سديدة، ونية محمودة، لا يدخل شئ منها فى باب الرياء، إذ المقصود منها أمر الآخرة بالحقيقة.

واعلم أنى سألت بعض مشايخنا عن ما يعتاده أولياؤنا <من>[1] قراءة سورة الواقعة فى أيام العسرة، فقال: ليس المراد بذلك أن يدفع الله هذه الشدة عنهم، ويوسع عليهم بشئ من الدنيا، على ما جرت به العادة، فكيف يصح إرادة متاع الدنيا بعمل الآخرة؟، فقال فى كلامه رحمه الله: كلا، معناه أن المراد منهم أن يرزقهم الله تعالى قناعة وقوة، ليكون لهم عزة على عبادة الله، وقوة على درس العلم، وهذه من إرادة الخير دون الدنيا، واعلم أن هذه السيرة، أعنى قراءة هذه السورة عند الشدة فى أمر الرزق، والخاصة إنما هو شئ وردت به الآثار المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة رضوان الله عليهم، حتى إن **ابن مسعود**[2] حين عوتب فى أمر ولده، أنه لم يترك له شيئاً من الدنيا، فقال: "تركت لهم سورة الواقعة".

ومن هذا الأصل فى السنة جرت هذه الخصلة فى سائر علمائنا رحمهم الله تعالى، وإلا فلا مبالاة بحمد الله من شدة من أمر الدنيا أوسعة، وهم الذين يغتنمون ضيق الدنيا وعسرها، ويتفاءلون من ذلك فيما بينهم، ويعدونه من الله تعالى منة عظيمة، ويخافون إذا بدا لهم سعة من الدنيا، التى لا يعدها أكثر الناس إلا إحساناً، والنعمة أن يكون ذلك استدراجاً من

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ابن مسعود، هو الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، وقد مرّت ترجمته .

الله تعالى ومصيبة، كيف وبطانتهم الأسفار، والظن فى عموم الأحـــوال، ومقدموهم يقولون: "الجوع رأس مالنا"، فهذا وضع أهل القصوى، وهـــو مذهبى، ومذهب أشيافى، وبذلك سيرة ســـلفنا، وأمـــا تفـــصيل بعـــض المتأخرين، فلا معتبر، وإنما ذكرنا هذا الفصل لئلاّ يغمر فيـــه مخـــالف، جهلاً منه بمقاصد القوم فى أمو رهم، أو يغلط فيهم مبتدئ سلم الـــصدر، لم يأخذ من العلم حقه.

فإن قيل: فكيف يليق هذا بأهل الزهد والتجرد، وأرباب الـــصبر والرياضة، ولم يعلم أن هذا مأخوذ من السنة ؟، المقصود حصول القناعة والعدّة، لاتباع الشره والشهوة والضعف عن احتمال العسر والشدة، وأكثر ما نرى فى عقب ذلك، قناعة فى القلب، وفقد كلـــب الجـــوع وضـــعفه، وسلوّه عن الطعام وهمته، علم ذلك من امتحن، فاعلم هذه الجملة موفقـــاً إن شاء الله تعالى.

القادح الثانى: العجب: وإنما يلزمك إجتنابه لأمرين، **أحدهما:** أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى، فإن المعجب محـــدود، فـــإذا انقطع عن العبد التوفيق والتأييد، فما أسرع ما يهلك، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "**ثلاث مهلكات : شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المـــرء بنفسه**"(١).

---

(١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثـــلاث مهلكـــات، وثـــلاث منجيات وثلاث كفارات وثلاث درجات فأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبـــع وإعجـــاب المرء بنفسه وأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضا والقصد فى الفقر والغنى وخشية الله فى السر والعلانية وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة وإسباغ الوضـــوء" (مجمـــع الزوائد ١/٩٠).

والثانى: أنه يفسد العمل الصالح، ولذلك قال المسيح عليه السلام: **"يا معشر الحواريين، كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عابد أفسده العجب".**

وإذا كان المقصود والفائدة العبادة، فهذه الخصلة تحرم العبد، حتى لا يصل له خير، فإن حصل، فقليل من ذلك يفسده، حتى لا يبقى بيده شئ، فحقيق أن يحذر من ذلك ويتحفظ، والله تعالى ولى التوفيق برحمته وعظمته، [إنه][1] أرحم الراحمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فإن قيل: فما حقيقة العجب ومعناه، وما تأثيره وحكمه، فبيّن لنا ذلك؟، فاعلم أن حقيقة استعظام العمل الصالح، وتفصيله عند علمائنا رحمهم الله، ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشئ دون الله تعالى، أو الناس أو الشئ، وقد يكون العجب مثلثاً، بأن يذكر هذه الثلاثة جميعاً، النفس والخلق والشئ، ومثنى بأن يذكر من اثنين، موحداً بأن يذكر واحداً.

وضد العجب ذكر المنة، وهو أن[2] يذكر بأنه بتوفيق من الله تعالى، وأنه الذى شرفه، وعظم قدره، وهذا الذكر فرض عند دواعى العجب، نفل فى سائر الأوقات. وأما تأثير العجب فى العمل، قال بعض

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات وثلاث منجيات وثلاث كفارات وثلاث درجات فأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط (الترغيب والترهيب ٢٥٨/٣).

(١) ط : إن.

(٢) + ط: أنه.

العلماء، ينتظر الاحباط، فإن تاب قبل موته سلم، وإلا حبط، وإليه ذهب محمد بن صابر من شيوخ الكرامية، وإحباط العمل عنده أن يذهب عن العمل جميع الأسماء الحسنة، حتى لا يستحق بذلك ثواباً، ولا مدحه البتة، وفى قول غيره، هو ذهاب الأضعاف لا غير.

فإن قلت: كيف يلتبس على العبد العارف أن الله تعالى هو [الموفق] [1] العمل الصالح، وعظم قدره، وأكثر ثوابه بفضله ومنته، فأعلم أن هاهنا نكتة لطيفة، وذخيرة شريفة، وهى أن الناس فى العجب ثلاثة أصناف، صنف منهم المعجبون فى كل حال، وهم **المعتزلة**[2]،

---

(١) ط : وفق .

(٢) المعتزلة : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية ، وبالعدلية ، وأصول مذهبهم هى: التوحيد ، والعدل والوعد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلين ، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، فمن خالفهم فى التوحيد سموه مشركاً ، ومن خالفهم فى الصفات سموه مشبهاً ، ومن خالفهم فى الوعيد سموه مرجئاً ، ومن اكتملت له وتحققت فيه هذه الأصول الخمسة فهو المعتزلى حقاً . فالتوحيد : لأنهم نفوا الصفات ، فإثبات صفات= = أزلية قديمة لله زائدة على ذاته يجعل الصفة تشارك الذات فى القِدم الذى هو أخص أوصاف الذات ، والاشترك فى الأخص يوجب الاشترك فى الأعم ، وهذا يعنى المماثلة ، أى أنها تصير آلهة إلى جانب الذات الإلهية وذلك شرك . ويقول أبو الحسين الخياط المعتزلى فى كتابه "الانتصار" : إن الله تعالى لو كان عالماً بعلم فإما أن يكون ذلك العلم قديماً أو يكون محدثاً ، ولا يمكن أن يكون قديماً ، لأن هذا يوجب وجود اثنين قديمين ، وهو تعدد ، وهو قول فاسد ، ولا يمكن أن يكون علماً محدثاً ، لأنه لو كان كذلك يكون قد أحدثه الله ، إما فى نغسه ، أو فى غيره ، أو لا فى محل ، فإن كان أحدثه الله ، إما فى نفسه ، أو فى غيره ، أو لا فى محل ، فإن كان أحدثه فى نفسه اصبح محلاً للحوادث ، وما كان محلاً للحوادث فهو حادث . وهذا محال . وإذا أحدثه فى غيره ، كان ذلك الغير

عالماً بما يجعل منه دونه . ولا يعقل أن يكون أحدثه لا فى محل ، لأن العلم عرض لا يقوم إلا فى جسم . فلا يبقى إلا حال واحد ، وهو أن الله عالم بذاته .

والعدل : لأنهم قالوا إن البارى تعالى حكيم عادل لا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يريد ، ويحكم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه ، فالعبد هو الفاعل للخير والشر ، والإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وهو المجازى على فعله ، والرب تعالى أقدره على ذلك كله ، فهم لذلك القدرية ، وإذا كان الله تعالى خالقاً لأفعال العباد ، وكان العباد لا فعل لهم ، بطل التكليف الشرعى ، لأن التكليف طلب ، والطلب لابد أن تسبقه القدرة والحرية والاختيار . وإذا لم يكن العبد مستقلاً بإيجاد فعله بطل العقاب والثواب الوارد بهما الوعد والوعيد . وإذا لم يكن للإنسان حرية واختيار فلا فائدة من بعثة الأنبياء . إذ البعثة دعوة ، والدعوة لابد أن تسبقها الحرية والاختيار . وقالوا فى الوعد والوعيد : إن الله صادق فيهما ، ولا يمكن أن يغفر الكبائر إلا بعد التوبة. فإذا مات العبد على الطاعة والتوبة استحق= = الثواب ، وإلا فهو يعذب عذاب الكفار ، وذلك هو عدل الله ، ومن ثم أنكروا الشفاعة ، وتمسكوا بالايات التى تنفى الشفاعة ، لأن الشفاعة تتعارض مع الوعد والوعيد ، وتنفى العدل عن الله ، لأنه إذا كان العبد ينجو بالشفاعة وليس بعمله فلا معنى لوعد أو وعيد ، وليس ثمة مضمون للعدل . ومفهوم العدل هو الذى جعل المعتزلة يقولون بالمنزلة بين المنزلتين ، فالخوارج قالوا إن مرتكب الكبيرة المسلم الذى لا يعلن توبته ويموت من غير توبة هو كافر مخلد فى النار ، ولذا استحلوا قتل مخالفيهم ونسائهم وأطفالهم . والمرجئة على العكس جعلوا الإيمان قلبياً ، وقالوا لا تضر معه المعصية ، ومرتكب الكبيرة المسلم هو مؤمن وامتنعوا عن تعيين عقوبته ، وقالوا نرجئ حكمه إلى الله . وأما أهل السنة فقالوا الكبيرة دون الشرك ، ومرتكبها مؤمن فاسق ، وكبيرته لا تخرجه من الإيمان لبقاء تصديقه ، ولا تدخله فى الكفر فلا يكون مخلداً فى النار ، بل يجازى على قدر كبيرته . وأما المعتزلة فقد جعلوا الفسق بين الكفر والإيمان ، ومرتكب الكبيرة إذن فى منزلة بين منزلتين ، فلا هو الكافر المطلق ، ولا هو المؤمن المطلق ، وكبيرته تخرجه من الإيمان ولا تدخله فى الكفر ، ولكنه يكون مخلداً فى النار ، إلا أن عذابه يخفف عن الكافر . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هما تطبيق عملى لمبادئ العدالة والحرية ، وليست العدالة عند المعتزلة هى تجنيب الظلم والأذى ، بل هى عمل الفرد والجماعة فى سبيل المجتمع

الأفضل ، ويقول الأشعرى : إن المعتزلة أجمعت – إلا الأصم- على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع الإمكان والقدرة باللسان ، وباليد والسيف . غير أن المعتزلة غلوا فى التوحيد فعطلوا الصفات فسموا المعطلة ، وأسرفوا فى الاستدلال العقلى حتى أن الجاحظ قال : ما الحكم القاطع إلا للعقل ، والاستنباط هو الذى يفضى إلى اليقين والثقة ، فابتعدوا عن مناهج غيرهم وخاصة أهل الحديث النقليين ، فصاروا يرمونهم بالجهالة ومن ثم لجأوا إلى الاضطهاد الدينى وتأليب السلطة على الفقهاء كما فعلوا مع الإمام أحمد بن حنبل ، الأمر الذى أدى إلى خلق معارضة قوية لهم ، وإلى اتهامهم اتهامات تنكر عليهم ، فروى عن الشافعى قوله : حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، وأن يطاف بهم فى الشعائر والقبائل ، وأن يقال هذا جزاء من ترك كتاب الله وسنة نبيه واشتغل بالكلام" . وروى عن الإمام أحمد : علماء الكلام زنادقة . وربما لهذا كان اسم المعتزلة ، للتدليل على أنهم انفصلوا عن أهل السنة ، وقد يكون سبب ذلك ما قيل عن واصل بن عطاء أنه اعتزل ، أى انفرد برأى ليس هو رأى الجماعة . وقيل إنهم معتزلة= = لأنهم قالوا بالمنزلة بين المنزلتين ، أى ابتعدوا عن الخصومات وركنوا إلى الحياد ، فحكموا مثلاً على أصحاب الجمل وأصحاب صفين أن أحدهما مخطئ ولم يحددوا أيهما المخطئ ، وقالوا أحدهما مخطئ لا بعينه . وهناك شواهد تثبت هذا المعنى للاعتزال ، بمعنى أنه الحياد ، فلما بايع الحسن بن على ومن معه معاوية ، قالوا بايع الحسن بن على ومن معه معاوية ، قالوا نلزم منازلنا ومساجدنا ونشتغل بالعبادة والعلم . فسموا بذلك معتزلة (الملطى : الرد والتنبيه) . والمعتزلة قسمان : المعتزلة البغدادية ، والمعتزلة البصرية ، ويضم القسمان ما يزيد على العشرين فرقة . وأشهر المعتزلة البصرية: واصل بن عطاء، وابو عثمان عمرو بن عبيد ، وابو الهذيل محمد بن الهذيل ، وابو إسحق إبراهيم بن سيار النظام ، وابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ومحمد بن عبد الوهاب الجبائى ، وهشام الفوطى ، وعباد بن سليمان ، وأبو يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام . وأشهر المعتزلة البغدادية : جعفر بن مبشر ، وابو موسى المردار ، وأبو الحسين الخياط ، وابو الحسن أحمد بن الراوندى ، ومحمد بن عبد الله الإسكافى ، والجعفران – ابن حرب وابن مبشر ، وأبو القاسم عبد الله الكعبى ، ومبشر بن المعتمر . ويكفر البصريون البغداديين والبغداديون يكفرون البصريين ، فمثلاً قال جعفر بن حرب – وهو بغدادى – إن الله عز

وجل لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم ، ولا يقدر أن يعمى بصيراً ، أو يفقر غنياً ، إذا علم أن البصر والغنى أصلح لهما ، وكذلك لا يقدر أن يُغنى فقيراً أو يصح زمناً علم أن المرض والزمانة والفقر أصلح لهما . وأكفرته البصرية فى هذا القول ، وقالوا إن القادر على العدل يجب أن يكون قادراً على الظلم ، والقادر على الصدق يجب أن يكون قادراً على الكذب ، وإن لم يفعل الظلم والكذب لقبحهما ، ولغناه عنهما ، ولعلمه بغناه عنهما ، لأن القدرة على الشئ يجب أن تكون قدرة على ضده . وكان عباد بن سليمان - وهو بصرى ، إذا قيل له : أتقول إن الله عالم ، قادر ، حى ، سميع ، بصير ، عزيز ، عظيم ، جليل ، فى حقيقة القياس ، أنكر ذلك ولم يقله ، وكان لا يقول إن له سمعاً ، ولا يقول إنه ذو سمع قديم ، ولا إنه ذو سمع محدث ، ولا يقول معنى سميع بصير معنى عالم بالمسموعات والمبصرات كما يقول ذلك البغداديون . والبغداديون يقولون : إن البارى لم يزل عالماً كبيراً ، قادراً ، حياً ، سمعياً ، بصيراً ، إلهاً قديماً، عزيزاً ، عظيماً ، غنياً ، جليلاً ، واحداً ، أحداً ، فرداً ، سيداً ، مالكاً ، رباً قاهراً ، رفيقاً ، عالياً ، كائناً موجوداً أولاً ، باقياً ، رائياً ، مدركاً ، سامعاً ، مبصراً بنفسه ، لا بعلم ، وحياة ، وقدوة ، وسمع ،= = وبصر ، وإلهية ، وقدم ، وعزة ، وعظم ، ... وكذلك سائر صفات الذات ، وهم ينفون صفات الذات أجمع ، ويقولون البارى شئ كالأشياء . وكان الجبائى البصرى يقول : إن العقل إذ دل على أن البارئ عالم ، فواجب أن نسميه عالماً وإن لم يسم نفسه بذلك ، إذ دل العقل على المعنى ، وكذلك فى سائر الأسماء . وخالفه البغداديون فقالوا : لا يجوز أن نسمى الله عز وجل باسم قد دل العقل على صحة معناه إلا أن يسمى نفسه بذلك . وقالوا : إن معنى عالم معنى عارف ، ولكن نسميه عالماً لأنه سمى نفسه به ولا نسميه عارفاً . وقال : البغداديون : لا يوصف الله بالقدرة على فعل عباده ، ولا على شئ من جنس ما أقدرهم عليه ، ولا يوصف بالقدرة على أن يخالف إيماناً لعباده يكونون به كافرين ، وعصياناً لهم يكونون به عاصين ، وكسباً يكونون به مكتسبين . وقال الجبائى وكثير من معتزلة البصرة : إن البارى سبحانه قادراً على ما هو من جنس ما أقدر عليه عباده من الحركات والكون وسائر ما أقدر عليه العباد ، وأنه قادر على أن يضرهم إلى ما هو من جنس ما اقدرهم عليه ، وإلى المعرفة به سبحانه ، وكان لا يصف ربه بالقدرة على أن يخلق إيماناً يكونون به مؤمنين ، وكفراً يكونون به كافرين ، وكلاماً يكونون به متكلمين ،

لأن معنى متكلم أنه فعل الكلام عنده ، وكذلك القول فى سائر ماذكرناه من العدل والجــور عنده ، وكذلك يحيل ذلك فى كل شئ يوصف به الإنسان ، ومعنى ذلك أنه فاعل مما اشتق له الاسم منه. وقيل جميع كلام المعتزلة البغداديين فـــى النبـــوة والإمامـــة يخـــالف كـــلام البصريين ، وبعض شيوخهم يميل إلى الــروافض ، وبعــضهم يميــل إلـــى الخـــوارج . والبغداديون أو البصريون ، كل على حدة ، قد يختلفون مع بعضهم البعض ، والأولـــون مثلاً اختلفوا مع بعضهم فى القول إن الله كريم – هل هو من صفات الذات ، أو من صفات الفعل ؟ وأكفر أبو موسى المردار استاذه بشر بن المعتمر فى القول بتوليــد الإدراكــات ، وكفرت المعتزلة البصرية بشراً فى أمور ، وكفر الجبائى النظّام ، وكفر الكثيرون النظام ، ومنهم الأسوارى ، وابن خابط ، وفضل الحدثى ، والجاحظ إلخ .. وكل المعتزلة البغداديـــة والبصرية – جميعهم قد يختلفون ، فمما اختلفوا فيه : هل يقال عن البارى عز وجل أنه لم يزل عالماً بالأجسام ؟ وهل المعلومات معلومات قبل كونها ؟ وهل الأشياء لم تزل أن تكون ؟ وهل يجوز أن يريد الله الكفر مخالفاً للإيمان ؟ واختلفوا فى الخواطر والإرادة والإنسان ، والمقتول والميت ، والمتولد ، والأضداد ، والمبتدأ والمعاد ، والبقـــاء والفنـــاء ، وحركـــة الأجسام ، والجواهر ، والعجز ، والممنوع ، وأصل الشر ، ولعن الكفار ، والـــصلاح ، = = والأجل ، والاستطاعة ، والهدى ، والولاية ، والعداوة ، وعلة الخلق ، ودلالة الأعراض ، وأفعال العباد ، واللفظ بالقرآن وقراءته ، ومُحكم القرآن ومتشابهه ، وأن الله بمكان أو لا فى مكان ، والعرش ، ومعنى الحركة بالنسبة لله تعالى ، وأن الله ليس بذى علم محـــدث ، ومعنى أنه خالق ، وأنه مريد إلخ. وأيضاً فإنهم كانوا يتفقون جميعاً فى أمور بخـــلاف مـــا ذكرنا عن اصولهم الخمسة التى بها يكون المعتزلى معتزلياً . ومما اتفقوا عليـــه جميعـــاً: قولهم باستحالة رؤية الله بالبصر ، وحدوث كلامه وأمره ونهيه وخبره ، وأن كل مـــا لـــم يأمر به أو ينهى به من أعمال العباد فإنه لم يشأ منه شيئاً ، وأنه تعالى لا يجـــوز أن يـــؤلم الأطفال فى الآخرة ، ولا أن يعذبهم ، وأنه تعالى خلق عباده ليـــنفعهم لا ليـــضرهم ، وأن معاصى الأنبياء لا تكون إلا صغاراً ، وأن قول النبى لا يجوز إلا بحجة وبرهان ، وأنه لا يجوز أن يبعث الله نبياً بكفر ، أو نبياً يرتكب كبيرة ، أو كان كافراً فاسقاً ، وأنه من الجائز أن يبعث نبياً لقوم دون قوم إلخ . وأيضاً فإن المعتزلة قد صنفهم الـــبعض إلـــى طبقـــات تاريخية ، فجعلولهم أثنتى عشرة طبقة ، وأدرجوا معهم آل البيـــت والخلفاء الراشديـــــن :

الطبقة الأولى : جعلوا فيها الخلفاء الأربعة: عليّ ، وأبو بكر، وعمر ، وعثمان ، على الترتيب ، ثم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وعُبادة بن الصامت وغيرهم ، والمقصود من إدراج هؤلاء ضمن المعتزلة هو إظهار هذه الفرقة على أنها أبر الفرق وأتقاها . **الطبقة الثانية :** الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، وسعيد بن المسيب ، وطاووس اليمانى ، وأبو الأسود الدؤلى وغيرهم . **الطبقة الثالثة :** الحسن بن الحسن ، وابنه عبد الله بن الحسن وأولاده ، وأبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، ومحمد بن على بن عبدالله بن عباس ، وزيد بن على ، ثم محمد بن سيرين ، والحسن البصرى سيد التابعين . **الطبقة الرابعة:** غيلان الدمشقى ، وواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، ومكحول بن عبدالله ، وقتادة بن دعامة ، وصالح الدمشقى ، وبشير الرحال وغيرهم . **الطبقة الخامسة :** عثمان الطويل ، وحفص بن سالم ، والقاسم السعدى ، وعمرو بن حوشب ، وقيس بن عاصم ، وعبد الرحمن بن مرة ، والحسن بن زكوان ، وأصحاب عمرو بن عبيد وهم : خالد بن صفوان ، وحفص بن القوام ، وصالح بن عمرو ، والحسن بن حفص ، وبكر بن عبد الأعلى ، وابن السماك ، وإبراهيم بن يحى المدنى وغيرهم . **الطبقة السادسة :** أبو الهذيل ، وإبراهيم بن سيار النظام ، وبشر بن المعتمر ، ومعمر بن عبّاد السلمى، وعبد الرحمن بن كيسان الأصم ، وأبو شمر الحنفى ، وإسماعيل= = بن إبراهيم أبو عثمان الأدمى ، وأبو مسعود عبد الرحمن العسكرى ، وموسى الأسوارى ، وهشام الفوطى وغيرهم . والطبقة السادسة هى أوج الاعتزال ، ورجالهم من اشهر رجالات الاعتزال. **الطبقة السابعة :** ثمامة بن الأشرس ، وعمرو الجاحظ ، وأبو موسى الدردار ، وأحمد بن أبى دؤاد ، وابن إسحق الشحام ، وعلى الأسوارى ، وأبو الحسين الصالحى ، وصالح قبة ، وجعفر بن حرب ، وجعفر بن مبشر ، وابن الرقاشى ، وعباد بن سليمان ، والإسكافى ، والدباغ ، ويحى بن بشر ، وزرقان وغيرهم . **الطبقة الثامنة :** أبو على الجبائى ، وأحمد البغدادى ، والخياط ، والكعبى ، وابن الراوندى وغيرهم . **الطبقة التاسعة :** أبو هاشم الجبائى ، وأبو الحسن الاسفنديانى ، وأبو الحسن بن فرزوية ، وابو على البلخى ، وأبو بكر الرازى ، وأبو عثمان العسال ، والنوبختى من الشيعة . **الطبقة العاشرة :** أبو عبد الله الحسين البصرى ، وابن عياش ، وأبو الحسين الأزرق ، وأحمد بن أبى هاشم ، وأبو حفص المصرى ، والواسطى ، وابن سهلويه وغيرهم . **الطبقة**

و**القدريّة**[1]، الذين لا يرون لله عليهم منة أفعـــالهم، وينكــــرون العـــون

الحادية عشرة : أبو الحسن عبد الجبار ، والداعى محمد بن الحسن بـــن القاسـم ، وأبـــو العباس الحسنى ، والإمام المؤيد بالله ، والصاحب الكافى ، والجوهرى اللغــوى مـصنف الصحاح وغيرهم . **الطبقة الثانية عشرة :** أبو رشيد النيسابورى ، وأبو محمــد اللبــاد ، والشريف المرتضى ، وأبو محمد الخوارزمى ، وأبو الفتح الأصبهانى ، وأبو حاتم الرازى ، والدينورى ، وأبو الحسن الكرمانى ، وأبو عاصم المروزى ، ومحمد بن على ، وعلـــى الطالقانى وغيرهم . وفرق المعتزلة كثيرة بعدد أعلامهم ، ولعل أبرزها الواصلية : أتبـــاع واصل بن عطاء ؛ والهذيلية : أتباع أبى الهذيل العّلاف ؛ والنظامية : أتباع إبـــراهيم بـــن سيار النظام ؛ والخابطية : أتباع أحمد بن خابط ؛ والبشرية : أتباع بـــشر بـــن المعتمـــر ؛ والمعمرية : أتباع معمر بن عباد السلمى ؛ والمردارية : أتباع عيسى بن صبيح المردار ؛ والهشامية : أتباع هشام بن عمرو الفوطى ؛ والجاحظية : أتباع عمرو بن بحر الجـــاحظ ؛ والخياطية : أتباع أبى الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط ؛ والجبائية : اتبـــاع أبى على محمد بن عبد الوهاب الجبائى ؛ والبهشمية : أتباع أبى هاشم عبد السلام بن أبـــى على الجبائى ؛ والعمروية : أتباع عمر بن عبيد ؛ والكعبية : أتباع أبى القاســم الكعبـــى ؛ والأسوارية : أتباع على الأسوارى ؛ والجعفرية : أتباع جعفر بن مبشر إلخ (د. عبدالمنعم الحفنى ، موسوعة الفرق .. ص ٥٨٩-٥٩٧).

(١) القدرية : هم الذين نسبوا التقدير إلى أنفسهم لا إلى الصانع . وكانت المعتزلة قدرية ، وقالوا إن الله ليس له قدرة ولا إرادة ، وأفعال العباد مخلوقة لهم ، وليس الله خالقاً لأفعالهم ، وكان أبو الهذيل العلاف شيخهم الأكبر يقول بتناهي مقدورات الله حتى إذا انتهت لم يعـــد قادراً على شئ . وفسر قدرة الله بأنها علمه . واختلفت المرجئة ، فمنهم من مال إلى قـــول المعتزلة ، ومنهم من أثبت القول بالقدر كأبى شمر ، ومحمد بن شبيب ، ومنهم من لا يقول بالجبر ولا بالقدر كاليونسية والغسانية . والقدر والجبر متضادان ، وكان المعتزلة قدرية ، ونقيضهم الجبرية ، ومنهم جهم بن صفوان الذى قال إن الإنسان لا يقدر على شـــئ ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيـــار ، وإنما يخلق الله الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات وتنسب إليـــه الأفعـــال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات . وكان ظهور القدرية فى الإسلام منذ أيام الرسول ، فقـــد

وردت آيات فى سورة آل عمران عن طائفة من المنافقين صرحوا بالقدر بما لا يدع مجالاً للشك . فقالوا "هل لنا من الأمر شئ" (آل عمران ١٥٤) . و"لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا ههنا" (آل عمران ١٥٤) ، و "لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا" (آل عمران ١٥٦). ووجد نفر من المسلمين كانوا يخوضون فى القدر والاستطاعة ، كمعبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، ويونس الأسوارى ، وجعد بن درهم . وقيل معبد أول من تكلم فى القدر ، فأراد أن يرد عليه فأخطأ الطريق وضل ، ونبذه الصحابة والتابعون ، وانتهى به الأمر إلى القتل بعد سنة ثمانين . وقد أنكر عليه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن أبى أوفى ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة . ووردت فى ذم القدرية أخبار كثيرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : "لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً" – قال وهب بن منبه : أنزل الله تعالى على رسله كتباً كثيرة – أكثر من نيف وتسعين كتاباً – فقرأت منها ثمانين كتاباً ، فوجدت فيها جميعاً أن كل من جعل إلى نفسه أمراً أو شيئاً من المشيئة فهو كافر بالله تعالى . وروى أن النبى ﷺ قال : "القدرية مجوس هذه الأمة" – شبههم بالمجوس لأن المجوس ينسبون بعض التقدير إلى إلهين عندهم – يزدان وأهرمن- فأثبتوا تقديراً فى مقابلة تقدير الله ، وقالوا بجاوز حصول أحد التقديرين دون الآخر ، فكذلك القدرية أثبتوا تقديرين : أحدها لله ، والآخر للعبد . وجعلوا أحد التقديرين فى مقابلة الآخر ، وجوّزوا حصول أحدهما دون الآخر ، وزعموا أن تقدير الرب يصير ممنوعاً منه تقدير العبد ، ثم زادوا = = على المجوس ، لأن المجوس جعلوا فى مقابلة تقدير الرب تقديراً واحداً ، وهم جعلوا فى مقابلة تقديره تقدير كل فرد من بنى الإنسان أو الحيوان ، حتى الحشرات ، فقالوا تقدير الدودة يحصل ، والدودة تمنع الله بتقدير نفسها عن تقديره . وقيل إن القرآن قد ورد به الرد على ذلك فى سورة القمر الآية ٤٩ : "إنا كل شئ خلقناه بقدر". وقيل إن ابن عباس لما قيل له إن قوماً يتكلمون فى القدر ، فقال : نزل فيهم : "ذوقوا مس سقر إنا كل شئ خلقناه بقدر " . وقال : هؤلاء إن مرضوا لاتعودهم ، وإن ماتوا لا تصلوا على جنائزهم – وقيل للرسول ففيم العمل ؟ قال : أعملوا فكل ميسر لما خلق له . وفى خبر جبريل بيّن الرسول أصل الكلام فى القدر، فقال فى جواب جبرئيل : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر – خيره وشره ، وحلوه ومره – من الله ، فبين أن القدر كله من الله ، وأنه لا قدر للعبد من شئ من الأشياء .وذكر المفسرون أن المعاندين لما خاصموا النبى ﷺ فى

القدر نزلت الآية : "إن المجرمين فى ضلال وسُعُر" (القمر ٤٦) إلى آخر السورة ، وقيل أن وفداً من بنى نجران وردوا إليه فقالوا : أما الآجال والأرزاق فبتقدير الله – فأنزل الله : "إن المجرمين فى ضلال وسعُر" إلى آخر السورة . وروى أيضاً عن النبى ﷺ : " إن المجرمين فى ضلال وسُعُر" إلى آخر السورة، إنما نزل هذا فى ناس يكونون فى آخر أمتى يكذبون بالقدر " . وروى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : "الإيمان بالقدر يُذهب الغم " . وقال ابن عباس : لما كثرت القدرية بالبصرة خربت البصرة . وروى عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : إن الله قدر التقادير ، ودبر التدابير قبل أن خلق آدم عليه السلام بألفى عام – يقصد أن تقدير الله سابق . وروى عنه أيضاً أن سائلاً سأله عن القدر فقال : طريق دقيق لا يمشى فيه! فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ؟ فقال : بحر عميق لا تخض فيه ! فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ؟ فقال : سر خفى لا تفشه ! فقال أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ؟ فقال يا سائل ! إن الله تعالى خلقك كما تشاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء ، فقال : يا سائل! لك مشيئة مع الله أو وق مشيئة الله أو دون مشيئته ؟ فإن قلت مع مشيئته ، ادعيت الشركة مع الله ، وإن قلت دون مشيئته ، استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته ، كانت مشيئتك غالبة على مشيئته ! ثم قال : ألست تسأل الله العافية ؟ فقال نعم . فقال :فلماذا تسأل الله العافية – أمن بلاء هو ابتلاك به ، أو من بلاء غيره ابتلاك به ؟ قال من بلاء ابتلانى به ؟ فقال : ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؟ قال بلى : قال : تعرف تفسيرها ؟ فقال لا يا أمير المؤمنين ! علمنى مما علمك الله ؟ فقال= = تفسيرها أن العبد لا قدرة له على طاعة الله ، ولا على معصيته إلا بالله عز وجل ! يا سائل ! إن الله يسقم ويداوى . منه الداء ومنه الدواء . إعقل عن الله ! فقال السائل : عقلت . فقال له : الآن صرت مسلماً ! ثم استدار إلى سامعيه فقال : قوموا إلى أخيكم المسلم خذوا بيده . ومن أقواله رضى الله عنه : لو وجدت رجلاً من أهل القدر لأخذت بعنقه ، ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه ، فإنهم يهود هذه الأمة . هذا المعنى السابق نفسه أشار إليه الشافعى حيث قال :

والتوفيق الخاص بالاخلاص واللطف، وذلك لشبهة استولت عليهم، وضدهم الذاكرون المنة بكل حال، وهم المستقيمون، لا يعجبون بشئ من الأعمال، وذلك لبصيرة أُكرموا بها، وتأييد خُصُّوا به، **والثالث:** المخلطون وهم عامتنا أهل السنة، تارة ينتبهون فيذكرون منة الله عز وجل وتارة يغفلون ويعجبون، وذلك لمكانة الغفلة العارضة، والفترة فى الاجتهاد، والنقص فى التبصرة.

فإن قلت: كيف حال القدرية والمعتزلة فى أفعالهم؟، فاعلم أن فى ذلك اختلافاً، فقيل أنه محبطٍ لمكان اعتقادهم، وقيل لا يحبط عمل باعتقاد الجملة من فرق الإسلام، حتى يخصّ كل عمل بإعجاب، كما أن اعتقاد

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمتَ ... ففى العلم يجرى الفتى والمُسن
على ذا مننت ، وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم يُعن
فهذا سعيد وهذا شقى ... وهذا قبيح وهذا حَسَن

والقدرى إذن فى المنظور الإسلامى هو من يجعل لنفسه شيئاً من القدر وينفيه عن ربه ، وأما من يُثبت القدر لله وينفيه عن نفسه فإنه ليس بقدرى ، فإذا قال بالتسليم الكلى وفوض الأمر لله فإنه من أهل السنة والجماعة . فمن اعتقد أن شيئاً من أفعال الله لا يقع ظلماً ولا باطلاً ، وأنه لا اعتراض عليه فى شئ مما يأتيه أو يذره ، وبنى عقائده على قول الله "لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون " ، لم يكن قدرياً ، وكان من أهل السنة ، وهؤلاء عقيدتهم أن كل ما يجرى على العبد من المعاصى فهو خلق من الله تعالى ، وهو عدل منه سبحانه ، ومعصية من العبد . وكل ما يجرى من العبد من الطاعات فهو خلق من الله تعالى ، وهو من الله فضل، بمعنى أنه من العبد طاعة ومعصية، ومن الرب فضل وعدل. ومن الفرق التى خاضت فى القدر بخلاف المعتزلة : الخابطية ، والحدثية ، والحمارية(عبد المنعم الحفنى ، موسوعة الفرق .. ص ٥١٦ –٥٢٠) .

أهل السنة لا يمنع العجب فى كل عمل، حتى يخص بذكر منه، فإن قيل: فهل يسوّى بين العجب والرياء من قادح فى العمل، قيل له أجل، إن فيه لقوادح سواهما، لكن خصصناهما بالذكر لأنهما الأصل الذى يدور عليهما معظم الباب، وقد قال بعض المشايخ. إن حق العبد أن يتحفظ فى العمل من عشرة أشياء: النفاق والرياء والتخليط والمن والأذى والندامة والعجب والحسرة والتهاون وخوف ملامة الناس، <و>[1] ذكر شيخنا "رحمه الله " ضد كل خصلة منها وأضرارها بالعمل، فضد النفاق إخلاص العمل، وضد التخليط التفريد، وضد المن تسليم العمل لله تعالى، وضد الأذى تحصين العمل، وضد الندامة تثبت النفس، وضد العجب ذكر المنة، وضد الحسرة اغتنام الخير، وضد التهاون تعظيم التوفيق، وضد الخوف الملامة الحثيثة.

واعلم أن النفاق يحبط العمل، والرياء يوجب ردّه، والمن والأذى يحبطان الصدقة أصلاً فى الوقت، وعند بعض المشايخ يبطلان إضعافها، فأما الندامة فإنها تحبط العمل فى قولهم جميعاً، والعجب يحبط إضعاف العمل، [فتذهب][2] وزانته، قلت: فالقبول والرد عند التحصيل، يرجعان إلى ضروب من التعظيم والاستخفاف والإحباط إبطال منافع تكون بالفعل وبسببه، ثم تركته، تارة يكون إبطال الثواب، وأخرى إبطال التضعيف، والثواب منفعة، يقتضيها الفعل بعينه وقرائنه وأحواله، والتضعيف زيادة على هذا، والرزانة زيادة تحصيل بعض قرائن وأحوال أُخر، كالأحسان

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ط : فتذهبت.

إلى أحد من أهل الخير، ثم إلى الوالدين، ثم إلى نبى من الأنبياء، ففـــى السر يكون وزانة، ولا يكون تضعيفاً، فهذا تهذيب ما تحقــق فـــى هــذا المعنى، فافهم وبالله التوفيق.

فصل

فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة، ذات المقاطع والمتالف، فى غاية التحرز، فإن صاحب بضاعة الطاعات، قد قطع تلك العقبات، وتحمل تلك المشقات، حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة وشريفة، وأنه لا يخاف على بضاعته تلك إلا فى هذه العقبة، فإن فيها مقاطع تحذر أن تسلب فيها بضاعته، ومتالف يحذر أن تبدو له فيها آفات، تفسد عليه طاعته، ثم أعظمها خطراً، وأعمها وقوعاً، هذان المقطعان، اللذان هما الرياء والعجب، فلتذكر فى كل واحدة [منهما](١) أصولاً مقنعة تجرى هنالك، لعلك تكفى مؤنتها بإذن الله تعالى.

أما الرياء، فاذكر أولاً قول الله تعالى: "**الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير**"(٢)، كأن الله تعالى يقول إنى خلقت السموات والأرض، وما بينهما، [و] (٣) كل هذه الصنائع والبدائع، واكتفيت بنظرك، لتعلم أنى قادر عالم، وأنت تصلى ركعتين على ما فيهما من المعايب والتقصير، فلا تكتفى بنظرى إليك، وبعلمى وثنائى عليك، وشكرى لك، حتى تحب أن تُعلم الخلق ليمدحوك بذلك، أيكون ذلك عقلاً ترضاه، ويحك أفلا تعقل.

والأمر الثانى: أن من كان له جوهر نفيس، يمكنه أن يأخذ فى ثمنه ألف ألف دينار، ثم باعه بفلس، أليس ذلك خسراناً عظيماً، وغبناً

---

(١) ط : منهم.

(٢) سورة الطلاق، آية ١٢.

(٣) ط : فى .

فظيعاً، ودليلاً بيناً على خسة الهمة، وقصور العلم، وضعف الرأى، ودقة العقل، فما يناله العبد بعمله من الخلق من مدحه لأقل من فلس فى جنب ألف ألف دينار، بل فى جنب الدنيا وما فيها، وأكثر وأكثر، ألا يكون من الخسران المبين أن تفوت نفسك تلك الكرامات الشريفة العزيزة، بهذه الأمور الحقيرة الدنيئة، ثم إن كان ولابدّ لك من هذه الخسيسة، فاقصد أنت الآخرة، تتبعك الدنيا، بل اطلب الرب وحده، يعطِك الدارين، إذ هو مالكهما جميعاً، وذلك قوله تعالى: "**من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة**"[١]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "**إن الله يعطى الدنيا بعمل الآخرة، ولا يعطى الآخرة بعمل الدنيا**"[٢]، فإذا أنت أخلصت النية، وجردت الهمة للآخرة، حصلت لك الاخرة والدنيا جميعاً، وإذا أنت أردت الدنيا، ذهبت عنك الآخرة فى الوقت، وربما لا تنال الدنيا كما تريد، وإن نلتها فلا تبقى لك، فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة، فتأمل أيها العاقل.

[والأمر][٣] الثالث: أن المخلوق الذى له تعمل، ورضاه تطلب، لو علم أنك لأجله تعمل، لا يفضلك، واستحط عنك، [واستهان][٤] بك، واستخف بك، فكيف يعمل لأجل من لو علم به انه يطلب رضاه لسخط عليه وأهانه، فاعمل يا مسكين لأجل من إذا عملت لأجله وقصدته بسعيك، وطلبت رضاه بذلك أحبك وأكرمك وأعطاك حتى أرضاك،

---

(١) سورة النساء، آية ١٣٤.

(٢) الحديث: "إن الله يعطى الدنيا على نية الآخرة، وأبى أن يعطى الآخرة على نية الدنيا" حديث ضعيف (الألبانى، ضعيف الجامع ١/١٧٤٤).

(٣) ط : والأصل.

(٤) ط : واستهات.

وأغناك عن الخلق وكفاك، فهذه هذه، فافطن لها إن كنت تعقل.

[والأمر][1] **الرابع**: أن من حصل له سعى، يمكن أن يطلب به رضا أعظم ملك فى الدنيا، فطلبت به رضا كناس خسيس بين الناس، فيكون ذلك دليلاً على السفة، ورداءة الرأى منه، وسوء الحظ، ويقال له ما حاجتك إلى رضا[2] هذا الكناس بعد إمكانك رضا الملك؟، فكيف إذا سخط الكناس عليك بسبب سخط الملك، ففاتك الكل، فهذا حال المرائى، فأى حاجة إلى رضا مخلوق ضعيف حقير مهين، وهو متمكن من تحقيق رضا رب العالمين الكافى عن الكلّ، فإن ضعفت الهمة، وكلّت البصيرة، حتى طلبت رضا مخلوق لا محالة، فسبيلك أن تجرد إرادتك، [وتخلص][3] سعيك لله، فإن القلوب والنواصى بيده، لا رب غيره، فهو يميل القلوب، ويجمع لك النفوس، ويشحن من حبك الصدور، فتنال من ذلك ما لا تناله بجهدك وقصدك، وإن لم تفعل وقصدت رضا المخلوقين دون سبحانه، فإنه يصرف عنك القلوب، وينفر عنك النفوس، ويسخط عليك الخلق، فيحصل لك بهذا الأمر سخط الله تعالى، وسخط الناس جميعاً، فياله من خسران وحرمان.

ولقد ذكر [عن][4] الحسن[5] أنه كان رجلاً يقول: "والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان أول خارج للمسجد، وآخر خارج منه، لا يراه أحد

---

(١) ط : والأصل.

(٢) + ط : نا.

(٣) ط : وتلخص.

(٤) ط : عند.

(٥) الحسن : هو إمام التابعين الحسن البصرى ، وقد مرّت ترجمته .

حين الصلاة إلا قائماً لا يفتر، ويجلس إلى حلق الذكر، فلبث كذا سبعة أشهر، فكان لا يمرّ بقوم إلا قالوا: فعل المرائى بهذا المرء ومنع، فأقبل على نفسه عند النوم، وقال: أرانى فى غير شئ، لا جعلت بعملى كله لله تعالى، ولم يزد على جملة الذى كان يعمله قبل ذلك، إلا إنه تغيرت نيته إلى الخير، فكان بعد ذلك يمر بالناس فيقولون: رحم الله فلاناً، الآن قد أقبل على الخير"، ثم قرأ الحسن: "**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً**"[١]، قال: يحبونهم كحب الله، يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين.

ولقد صدق القائل: يا مبتغى الحمد والثناء فى عمل تبتغى حالاً، قد خيب الله دار الرياء وأبطل السعى والكلالا، من كان[٢] يرجو القارب أخلص من جوفه الفعالا، الخلد والنار فى يديه فرائه يعطك النوالا، الناس لا يملكون شيئاً فكيف رأيتهم ضلالا.

فأما العجب فنذكر فيه أصلين، أحدهما: أن فعل العبد إنما صارت له قيمة، ولما وقع من الله تعالى موقع الرياء والقبول والرضا، وإلا فترى الأجير يعمل طول النهار بدرهمين، والحارس يحرس طول الليل بدانقين، وكذلك أصحاب الصناعات والحرف، كل واحد يعمل فى الليل والنهار، فتكون قيمة ذلك دراهم معدودة، فإذا صرفت الفعل إلى الله يوماً قال: "**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**"[٣]، وفى الخبر: "**أعددت**

---

(١) سورة مريم، آية ٩٦.

(٢) ط : مطموسة.

(٣) سورة الزمر، آية ١٠.

لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[1]، فهذا يومك الذى قيمته درهمان، مع التعب العظيم، صار له هذه القيمة بتأخير غداء إلى عشاء، ولو قمت ليلة لله تعالى، قال الله تعالى: **"فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون"**[2]، فهذا الذى قيمته **دانقان**[3]، أو درهمان، صارت له كل هذه القيمة والقدر،

---

(١) حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا أبو زناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: "أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فاقرؤوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين (صحيح البخارى، ١١٨٥/٣).

حدثنا سعيد بن عمرو الأشعثى وزهير بن حرب، قال زهير: حدثنا وقال سعيد أخبرنا سفيان عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. مصداق ذلك فى كتاب الله فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (صحيح مسلم ٢١٧٤/٤).

وأخبرنا أبو خليفة قال: حدثنا إبراهيم بن بشار قال: حدثنا سفيان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة يبلغ به عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومصداق ذلك فى كتاب الله فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (صحيح ابن حبان ٩١/٢).

(٢) سورة السجدة، آية ١٧.

(٣) دانق: الكلمة فارسية الأصل "دانة" بمعنى الحبة أيا كانت. وقد قال البعض بأنه يزن سدس درهم، والبعض الآخر قال أنه يزن ثمن درهم. وقد رأى عبد الملك بن مروان أن الدراهم بعضها ثمانية دوانق، وبعضها أربعة فجمعها وقسمها درهمين، فصارالدرهم ستة دوانق (أحمد بن يوسف التيفاشى، أزهار الأفكار فى جوهر الأحجار، تحقيق د. محمد يوسف حسن، د. محمود بسيونى حجازى، مطبوعات مركز التراث – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧، ص ٢١٣).

بل لو جعلت ساعة لله تصلى فيها ركعتين خفيفتين، بل نفساً واحداً، قلت لا إله إلا الله، قال تعالى: **"ومن عَمِلَ صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب"**[1]، فهذه من أنفاسك التى لا قيمة لها عند أهل الدنيا، ولا عندك، فكم تضيعها فى لا شئ، وكم تمر عليك بلا فائدة، صار له كل هذا القدر لماذا، وهذا أنه لما وقع مرضياً لله تعالى، فعظم قدره، وكثرت قيمته بفضله، فحق إذن للعاقل أن يرى حقارة عمله، وقلة مقداره، من حيث هو، وأن لا يرى إلا منة الله تعالى عليه، بما شرف من قدر عمله، وأعظم من جزائه، وأن يحذر على فعله[2] من أن يقع على وجه لم يصلح لله تعالى، ولا يقع منه موقع الرضا، فتذهب عنه القيمة التى حصلت له، ويعود إلى ما كان فى الأصل من الثمن الحقير، من دراهم أو دوانيق، وأحقر وأخس من ذلك، ومثاله أن العنقود من العنب، والأضيارة من الريحان، تكون قيمته فى السوق دانقاً، فإن أهداه إلى ملك ذى سماحة، فوقع منه موقع الرضا، فيهب له على ذلك ألف دينار، لما وقع من الملك موقع الرضا، فصار ما قيمته حبة بألف دينار، فإذا لم يقبله الملك ورده عليك، رجع إلى قيمته الخسيسة من هبة أو دانق، وكذلك ما نحن فيه، فتنبه وأبصر منة الله تعالى، وصن فعلك عن ما يشينه عند الله تعالى.

والأصل الثانى: ما يعلم أن الملك فى الدنيا إذا أجرى على أحد

---

(١) سورة غافر ، آية ٤٠.

(٢) ط : مقروءة بصعوبة.

جراية، من طعام أن كسوة أو دراهم، أو [دنانير] [١] معدودة فانية، فإنه يستخدمه بضروب الخدمة آناء الليل والنهار، مع ما فى ذلك من الذلّ والصَغَار، ويقوم على رأسه حتى تخدّر رجلاه، ويبقى بين يديه إذا ركب، وربما يحتاج أن يكون على بابه[٢] طول الليل حارساً، وربما يبدو له عدوّ، فيحتاج إلى أن يقاتل، فيبذل روحه التى لا خَلَفَ عنها لأجله، كل هذه الخدمة والكلفة والخطر والضرر، لأجل تلك المنفعة النكرة الحقيرة، مع أنها بالحقيقة من الله تعالى، وإنما هو بمنزلة سبب فى ذلك، فربك الذى خلقك ولم تك شيئاً، ثم رباك بأحسن التربية، ثم أنعم عليك بالنعم الظاهرة [والباطنة][٣]، فى دينك ودنياك ونفسك، ما لا يبلغ كنهها فهمك ووهمك، قال عز من قائل: "**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**"[٤]، ثم إنك تصلى ركعتين مع ما فيهما من المعايب والآفات، ومع ما وعد عليهما فى المستقبل من حسن الثواب، وضروب الكرامات، حتى تستعظم ذلك وتعجب، فليس هذا من شأن عاقل إذا نظرت، فهذه هذه.

والأصل الثالث: أن الملك الذى من شأنه أن تخدمه الملوك والأمراء، ويقوم على رأسه السادات والعظماء، ويتولى خدمته الأولياء والحكماء، ويطلب [مدحه] [٥] العلماء والعقلاء ويمشى بين يديه الأكابر والرؤساء، إذا أذن لسوقى أو قروىّ، بمقتضى رأفته، أو عناية له فى

---

(١) ط : زنانير .

(٢) + ط : من .

(٣) ط : الناطقة.

(٤) سورة النحل ، آية ١٨.

(٥) ط :مدحته .

بابه، حتى زاحم أولئك الملوك والسادات والأكابر والأفاضل فى خدمتـــه ومدحه، ويجعل له مقاماً، "ولا ينظر لخدمته بعين الرضـــا، وإن كانـــت مشوشة معيبة، أليس يقال له: لقد كثرت على هذا الحقير المنّة من الملك، وعظمت عنايته به، فإن أخذ هذا الحقير يمنّ على الملك بتلـــك الخدمـــة المعيبة، ويستعظم ذلك، ويعجب به، ألا يقال إن ذلـــك لـــسفيه جـــداً، أو مجنون لا يعقل شيئاً، ولما تقدر ذلك"[1]، فإن إلهنا سبحانه هـــو الملـــك العظيم، الذى تسبح له السموات السبع، والأرض، ومن فيهن، وإن مـــن شئ إلا يسبح بحمده، والمعبود الذى يسجد له من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً، فمن الخدم على بابه الأمين جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وحملة العرش، والكروبيون، والروحانيون، وسائر الملائكـــة المقربين، صلوات الله عليهم أجمعين، الذين لا يحصى عددهم إلا الله رب العالمين فى منازلهم الرفيعة، وأنفسهم الطاهرة، وعبادتهم العظيمة، ثـــم من الذين هم خَدَمَةَ على بابه آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد خير العالمين، مع سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعـــين، فى مراتبهم المنيعة، ومناقبهم العزيزة الـــشريفة، ومقامـــاتهم الكريمـــة، وعباداتهم الجليلة الخطيرة، ثم من العلماء الأبرار، والأئمة والزهاد فـــى محابتهم الكثيرة الخالصة المتظاهرة.

وأزل الخدم على بابه، ملوك الدنيا وجبابرتها يخرون لـــه علـــى

---

(١) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: وينظر لخدمته بعـــين الرضـــا، وإن كانـــت مشوشة معيبة.. إلى قوله: أو مجنون لا يعقل شيئاً، ولما تقدر على ذلك" مقروءة بـــصعوبة فى ط .

الأذقان ساجدين، يعفرون الوجوه فـي التـراب خاضـعين، ويرفعـون حوائجهم إليه باكين صاغرين، والنقص أى فى حقهم عانين، ويستأنس به بما من الغيبة وهى القصصد هذه عانين صاغرين، حتى ربما ينظر إليهم نظرة، ويقضى لهم بفضله حاجة، أو يجاوز عنهم بكرمه ذلة، فمع هـذه العظمة والجلال، والملك والكمال، قد أذن لك فى حقارتك وعيوبك، وأنت الذى لو أستأذنت على رأس بلدك بالأرض، فربما لا يـأذن لـك ، وإن كلمت أمير ناصيتك ، فربما لا يكلمك ، وإن سـجدت لـسلطان بلـدك بالإرض ، فربما لا يلتفت [لك][1] ، أذن لك جل جلاله حتى تعبده، وتثنى عليه، وتخاطبه، بل تدل بالمسألة عليه، بل تباسطه فتستقضيه حاجتـك، وتستكفيه مهماتك، ثم إنه يرضى ركعتيك فى معايبهما، بـل يَعِـدُ مـن الثواب عليهما ما لا يخطر على قلب بشر، وأنت مع ذلك تعجـب مـن هاتين الركعتين، وتستكثر ذلك وتستعظمه، ولا ترى منة الله تعالى عليك فى ذلك، فما أسوأك من [عبد][2] وما أسوأك من إنسان، والله المـستعان، وإليه المشتكى من هذه النفس الجاهلة، وعليه التكلان، فهذه هذه.

وعلى كل وجه آخر، الملك العظيم إذن أَذَنَ بإدخال الهدايا إليـه، فيدخل إليه الأمراء والكبراء والرؤساء والنبلاء وأهل الثنـاء والأغنيـاء بأنواع الهدايا، من الجواهر المثمنة، والذخائر النفيسة، والأموال الجليلة، فإن جاء بقّال بتافه بقل، وقروىّ بسلة عنب تساوى دانقاً، أو جبة، فيدخل فى حضرته، ويزاحم أولئك الأكابر والأغنياء بهداياهم الكبيرة الـشريفة،

---

(١) ط : له.

(٢) ط: عند.

وهذا الملك يقبل من هذا الفقير هديته، وينظر إليه بعين القبول والرضا، ويأمر له بأنْفَسِ خِلْعَة وكرامة، ألا يكون ذلك منه غاية الفضل والكـرم، فإن أخذ ذلك الفقير يمن بذلك على الملك، ويعجب منه ويستعظمه، وينسى ذكر منة الملك، ألا يقال إن هذا [مجنون](١) مضطرب العقل، أو سفيه، أو مسئ الأدب، عظيم الجهل.

فالآن إنك إذا قمت ليلة، وصليت ركعات، فإذا فرغت فتفكر فكم قام لله سبحانه فى هذه الليلة من الخدم، فى أقطار الأرض، برها وبحرها وجبالها وبلادها من أصناف المستقيمين والصديقين والخائفين المشتاقين، والمجتهدين المتضرعين، وكم حضرت فى هذه الساعة بباب الله تعالى من عبادة صافية، وخدمة خالصة، عن أنفس خاشعة، وألسن طاهرة، وأعين باكية، وقلوب عامرة، وصدور نقيّة، وأركان تقية، وصلوات إن كنت بذلت المجهود فى تحسينها وإحكامها وإخلاصها، فلا تكاد تصلح لحضرة هذا الملك العظيم، ولا تبين فى جنب تلك(٢) العبادات التى تعرض هناك.

كيف وقد كانت منك على قلب غافل، محبط بأنواع العيوب والفضول، وبدن نجس بأقذار الذنوب، ولسان متلطخ بأنواع المعصية والفضول، فكيف يصلح هذا أن يحمل إلى تلك الحضرة؟، وكيف تستأهل أن تهدى إلى رب العزة؟، قال شيخنا رحمه الله: "أنظر أيها الغافل هل وجهت قط صلاة من صلواتك إلى السماء، كمائدة أرسلتها إلى بيوت

(١) ط: مجبوب.

(٢) + ط: تلك.

الأغنياء؟"، وكان أبو بكر الوراق رحمه الله يقول: "ما فرغت من صلاة، إلا استحيت حين فرغت منها، أشد حياء من حياء امــرأة فرغــت مــن الزنا"، ثم إن الله تعالى بمحض كرمه وفــضله[1]، عظــم قــدر هــاتين الركعتين، ووعد عليهما من جزيل ثوابه ما وعد، فأنت عبده في جرايته، وعملت ما عملت بتوفيقه وتيسيره، ثم مع ذلك تعجب بذلك، وتنسى منــة الله تعالى عليك؟، هذا والله أعجب العجب، لا يكاد يذهب مثلــه إلا عــن جاهل لا فكر له، وغافل لا ذهن له، أو قلب ميت خاوٍ لا خير فيه، فهذه هذه، نسأل الله حسن الكفاية بمنه.

---

(١) + ط: فضل.

فصل

ثم أقول بعد هذه الجملة: تيقظ من قدرتك – أيها الرجل – فى هذه العقبة، وإلا كنت من الخاسرين، فإن هذه العقبة أشدّ وأشقّ، وأضرّ وأمرّ عقبة استقبلتك فى هذه الطريق، إذ بمرة ينتهى إليها كل ما مضى من عقبات، فإن سلمت غنمت وربحت، وإن كانت الأخرى فقد ضاع السعى كله، وخاب الأمل، وبطل العمل، ثم الشأن كله فى أنه قد اجتمع فى هذه العقبة هاهنا ثلاثة أمور: **الأول:** أن الأمر دقيق جداً، و<الثانى أن>[1] الغيب شديد، و< الثالث أن>[2] الخطر عظيم، أما دقة الأمر، فإن مجارى الرياء والعجب فى الأعمال دقيقة خفية، بلى فالغاية غاية بالغة، فلايكاد يتنبه لذلك إلا كل نحرير فى أمر الدين، يصير يقظان متحرن، وأنى يطلّع عليه الجاهل اللعوب، والغافل النئوم، ولقد سمعت بعض علمائنا رحمهم الله يحكى أن **عطاء السلمى**، رحمة الله عليه ورضوانه <كان>[3] ينسج ثوباً فأحكمه وحسنه جداً، ثم حمله إلى السوق، فعرضه، فاستر خصه البزاز، وقال إن فيه عيوباً كَيْتَ وكيْتَ، فأخذه عطاء، وجلس يبكى بكاء شديداً، فندم الرجل على ذلك، وجعل يعتذر إليه ويبذل فى ثمنه ما يريد، فقال عطاء، ليس ذلك ما تظن، إنما أنا عامل فى هذه الصناعة، وقد اجتهدت فى إحكام هذا الثواب، وإصلاحه وتحسينه، حتى <لا>[4]

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

يوجد فيه عيب، فلما عرض على البصير بعيوبه أظهر فيه عيوباً كنت عنها غافلاً، فكيف أعمالنا هذه إذا عرضت غداً على الله تعالى؟، كم يبدو فيها من العيوب والنقصان الذى نحن اليوم عنها غافلون".

وعن بعض الصالحين قال: "كنت ليلة فى وقت السحر، فى غرفة لى شارعة، أقرأ سورة طه، فلما ختمتها غفوت غفوة، فرأيت شخصاً من السماء، ترى بيده صحيفة، فنشرها بين يدى، فإذا فيها سورة طه، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة، إلاّ كلمة واحدة، فإنى رأيت مكانها محواً، ولم أر تحتها شيئاً، فقلت والله لقد قرأت هذه الكلمة، ولا أرى لها ثواباً، ولا أراها مثبتة، فقال الشخص: صدقت، لقد قرأتها وقد كتبناها، إلاّ أنّا سمعنا منادياً ينادى من قِبَل العرش: امحوها وأسقطوا ثوابها، فمحوناها، قال فبكيت فى منامى وقلت: لم فعلتم ذلك؟ قالوا: مرّ رجل فرفعت بها صوتك لأجله، فذهب ثوابها لذلك، فهذه هذه.

وأما شدّة الغبن، فلأن الرياء والعجب آفة عظيمة تقع فى لحظة، فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة، وحكى أن رجلاً أضاف سفيان الثورى وأصحابه، فقال لأهله: هاتوا الطبق، لا الذى أتيت به فى الحجة الأولى، بل الذى أتيت به فى الحجة الثانية، فنظر إليه سفيان وقال: مسكين، قد أفسد عليه حجته.

ووجد آخر فى الغبن، أن أقل طاعة سلمت عن هذا الرياء والعجب، يكون من الله تعالى من القيمة، ما لا نهاية له، وأكثر طاعة، إذا أصابتها هذه الآفة بقيت لا قيمة لها، إلا أن يتداركها الله عز وجل، على ما روى عن على بن أبى طالب: أنه قال: **لا يقل عمل البتة، وكيف يقل**

عمل مقبول"، وسئل **النخعى**[١] رحمه الله عن عمل كذا وكذا ما ثوابــه، وعن **وهب**[٢] قال فيمن كان قبلكم رجل عبد الله سبعين عامــاً صــائماً ، فطلب من الله تعالى حاجة فلم تقض، فأقبل على نفسه وقال: مــن قِبَلــك أُتيت، لو كان عندك خير، قضيت حاجتك، فأنزل الله ملكاً فقال: يا ابــن آدم، ساعتك التى أزريت فيها نفسك خير من عبادتك التى مضت"، قلت: فلينظر العاقل إلى هذا الكلام، أليس من الغبن أن واحداً يكد ويتعبد سبعين سنة، وآخر يتفكر ساعة واحدة، فيكون [فكر] [٣] ساعة، أفضل من سبعين سنة وخير؟، أليس من الغبن العظيم أنك تتفكر[٤] فى ساعة، خيــر مــن سبعين سنة، وتترك ذلك من غير حاجة؟، بلى، والله أنه لأعظم الغــبن، <و>[٥] إن أغفاله أشد خسراناً، وإن الخصلة التــى لهــا هــذه القــصة والخطر، يجب أن تحذر وتجتنب، ولمثل هذا المعنى إنما وقع نظر أولى الألباب من العباد فى مثل هذه القيمة والخطر، ويجب أن تحذر وتجتنب مثل هذه الدقائق، واهتموا لمثل هذه الأسرار بمعرفتها، ثم رعايتها والــتحفظ عنها يقابله اللوم، ولأن الحمد أعم وأكثر، والشكر أخصّ وأقل، قال الله تعالى "**وقليل من عبادى الشكور**"[٦]، فثبت أنهما معنيان مختلفان، ثم الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن، وهذا مقتضى معنى كلام شيخنا (رحمه الله).

---

(١) النخعى، هو: إبراهيم النخعى، تابعى جليل، وقد مرّت ترجمته .

(٢) وهب، هو: وهب بن منبه ، وقد مرّت ترجمته .

(٣) ط : فكرة .

(٤) ط : مطموسة.

(٥) زيادة يقتضيها السياق .

(٦) سورة سبأ ، آية ١٣.

وأما الشكر فتكلموا فى معناه وأكثروا، فعن ابن عباس أنه قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق فى السرّ والعلانية"، وإلى نحوه ذهب بعض مشايخنا فقال: "الشكر أداء الطاعات بالظاهر والباطن"، ثم رجع إلى أنه اجتناب المعاصى ظاهراً وباطناً، وقال غيره: الشكر هو الاحتراز عن اختيار معاصى الله تعالى بحريق قلبك ولسانك وأركانك، حتى لا تعصى الله تعالى [بأى][1] من هذه الثلاثة بوجه من الوجوه، والفرق بين قوله، وقول الشيخ: أنه جعل الاحتراس معنى ممتازا أبداً على الاجتناب عن المعاصى، وأما الاجتناب عن المعصية، فما هو إلا أن لا يفعل المعصية عند داعيها، ولا يكون فى نفسه معنى محصلاً يكون <عن>[2] العندية مشغلاً، وعن الكفر معتصماً.

وقال شيخنا (رحمه الله): إن الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنع عن جفاء المنعم وكفرانه، ولو قلت: تعظيم المنعم على مقابلة إحسانه، لم يصلح أن يكون من الله تعالى عنها ثانياً، ولم تفتهم كثرة الأعمال الظاهرة، قالوا جوهرة واحدة خير من ألف حرزة، وأما الذين قلّ عملهم، وكَلّ فى هذا الباب نظرهم، قد جهلوا المعانى، وأغفلوا ما فى القلوب من العيوب، واشتغلوا باتعاب النفوس فى الركوع والسجود، والإمساك عن الطعام والشراب، ونحوه، فغرهم العقد وأكثرهم، ولم ينظروا ما فيها من الصفوة، ولا <إلى>[3] اللب فيها، وما يعقل هذه

---

(١) ط : تاى.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

الحقائق إلا العالمون بالله، المكاشفون، والله تعالى ولى الهداية بفضله.

وأما عظم الخطر فمن وجوه، أحدها: ملك لا نهاية لجلالته وعظمته، وكثرة أياديه، وله عليك نعم لا تعدّ ولا تحصى، وبدن معيب بعيوب خفية، معروف بآفات كثيرة، وأمر مخوف إن وقع، ذلك مع تسارع النفس إليه، فيحتاج أن يستخرج عملاً صافياً سالماً، من بدن معيب، ونفس ميالة إلى الشر، أمارة بالسوء، على وجه يصلح لرب العالمين فى جلالته وعظمته، وكثرة أياديه [ومنته][1]، وتقع موقع الرضا والقبول، وإلا فيفوتك الربح العظيم، الذى لا تسمح النفس بفوته، بل ربما تصيبك فيه مصيبة لا طاقة لك بها، وهذا والله شأن عظيم.

أما جلال الملك وعظمته، بحيث أن الملائكة المقربين الأبرار قائمون له بالخدمة آناء الليل والنهار، حتى منهم من هو منذ خلقه الله تعالى فى قيام، ومنهم من هو فى ركوع، ومنهم من هو فى سجود، ومنهم من هو فى تسبيح وتهليل، فلا يتم القائم قيامه، ولا الراكع ركوعه، ولا الساجد سجوده، ولا المسبح تسبيحه، ماداً به صوته إلى نفخة الصور، ثم لما فرغوا من هذه الخدمة العظيمة، نادوا بأجمعهم، سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

وهذا سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يقول: "**لا أُحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**"[2]، يقول: لا أقدر أن أثنى عليك، كما

---

(١) ط : منه.

(٢) حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أبو أسامة، حدثنى عبيد الله بن عمر، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن الأعرج، عن أبى هريرة عن عائشة قالت فقدت رسول الله صلى الله

أنت اثنيت على نفسك، يقول: لا أقدر أن أثنى عليك ثناء أنت له أهـل، فضلاً عن أن أعبدك كما أنت له أهل، وهو الذى يقول: "**ليس أحد يدخل**

عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (صحيح مسلم ١/٣٥٢).

وحدثنى عن مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن عائشة أم المؤمنين قالت: كنت نائمة إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففقدته من الليل فلمسته بيدى فوضعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول. أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (موطأ مالك جـ ١، ص ١/٢١٤).

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، ثنا أبو أسامة، ثنا عبيد الله بن عمر، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن عائشة قالت: فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من فراشه فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (سنن ابن ماجه ٢/١٢٦٢).

أخبرنا محمد بن عبد الله بن المبارك ونصير بن الفرج واللفظ له قالا، حدثنا أبو أسامة، عن عبيد الله ببن عمر، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن الأعرج، عن أبى هريرة عن عائشة رضى الله عنها قالت فقدت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعلت أطلبه بيدى فوقعت يدى على قدميه وهما منصوبتان وهو ساجد يقول أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (سنن النسائى ١/١٠٢).

وأيضاً ابن حبان ١/٢٥٨ – ٢٥٩.

الدار قطنى ١/١٤٤.

الترغيب والترهيب ٢/٧٤.

سنن أبى داود ١/٢٣٢.

الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته**".

وأما النعيم والأيادى، فكما قال الله تعالى: "**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**"(١)، وعلى ما روى أنه يحشر الناس على ثلاثة دواوين، ديوان الحسنات، وديوان السيئات، وديوان النعم، فيقابل الحسنات بالنعم، فلا يؤتى بحسنة حتى يؤتى بنعمة، حتى تعم الحسنات، وتبقى السيئات والذنوب، فالله تعالى المشيئة.

وأما عيوب النفس وآفاتها، فقد قدمناها فى بابها، والأمر المخوف أن العبد يكدح ويدأب سبعين سنة، غافلاً عن عيوبه وآفاته، فربما لا يكون واحد منها مقبولاً، وربما يتعب أعواماً، فيفسد فى ساعة واحدة، وأعظم خطراً من هذا كله أنه ربما ينظر الله تعالى إلى العبد وهو يرائى الناس بعبادته وخدمته، جعل ظاهره لله وباطنه وقلبه للخلق، فيطرده طرداً لا مردّ له، والعياذ بالله، ولقد سمعت بعض العلماء يحكى عن الحسن البصرى (رحمه الله) أنه رؤى فى المنام بعد موته، فسئل عن حاله، فقال: أقامنى الله بين يديه وقال يا حسن أتذكر يوماً كنت تصلى فى المسجد، إذ رمقك الناس فزدت حسناً فى صلاتك، فلولا أن صلاتك كانت لى خالصة، لطردتك اليوم عن بابى، ولقطعتك عنى مرة واحدة.

ولما كان الأمر من الدقة والصعوبة إلى حد عظيم، نظر أولوا الأبصار، فخافوا على أنفسهم، حتى إن منهم من لا يلتفت إلى جميع ما

---

(١) سورة النحل، آية ١٨.

يظهر للناس من أعماله، حتى حكى عن **رابعة**[1] (رحمة الله عليها) أنها

---

(١) رابعة، هي العدوية: رابعة العدوية : اختلف المؤخرون في أسمها واسم أبيها ، والغموض يشوب حياتهم الأولى قبل تعبدها وانتمائها للعباد من البصرة . والأرجح كما يري " الجاحظ " أن اسمها هو رابعة القيسية ، وان اسم العدوية قد نسب إليها نسبة إلي= = بطن من بطون بنى عدي ... دخلت طريق العباد والزهاد ، طريق البكاء والخوف والتهجد في الليالي الطوال . وكان لابد أن تذهب لا مرأة مثلها عانت الطريق من قبل ، فاتصلت بـ " حيونة " وكانت عابدة من أكبر عابدات البصرة ، فهي التي دفعتها إلي قيام الليل ، حتى وصلت إلي القرب الإلهي . لكن لم تكن حيونة العابدة الوحيدة في هذا العصر التي نادت بفكرة الحب الإلهي قبل رابعة ، بل كان غيرها الكثيرات مثل " شحوانة الفارسية " التي اعتبرها المؤرخون من السالف الصالح ، أنشدت الحب قبل رابعة المعاصرة لها . كما كان هناك " بردة المصرية "التي أطلقت قبل رابعة نفس العبارات التي أطلقتها رابعة في الحب الإلهي . وعاصرت رابعة أيضاً " عبيدة بنت أبي كلاب " من كبار العابدات في البصرة . كما قامت علي خدمة رابعة ، " عبيدة بنت أبي شوال " وكانت من خيار إماء الله ، ثم " مريم البصرية " وكانت أيضاً خادمة لرابعة ، وكانت إذا سمعت علوم المحبة ، طاشت ، بل أنها حضرت مجلس بعض المذكرين يتكلم في المحبة ، فماتت في المجلس . وهناك " حبيبة العدوية " في نفس عصر رابعة ، كانت تقوم على سطح منزل وتشد عليها درعها ، وخمارها في الليل ، وتقول : إلهي غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وبابك مفتوح ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك . فإذا دخل وقت السحر في الثلث الأخير من الليل ، أخذت تردد : اللهم وهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري هل قبلت مني ليلتي فأهنئ ، أم رددتها علي فأعزي ، فوعزتك لهذا دأبي ، ودأبك أبداً ، ولو انتهرتني ما برحت من بابك ، ولا وقع في قلبي غير وجودك وكرمك . وهناك " أم الحسن الأسدية " واتُهمت مثلها مثل رابعة بحب الدنيا . وذكر سفيان عنها أنها كانت إذا جن الليل عليها ، دخلت محراباً لها ، وأغلقت عليها ونادت : إلهي خلا كل حبيب بمحبوبة ، وأنا خالية بك يا محبوب . وكانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة حتى يسفر الفجر ، وتقول : يا نفس كم تنامين ، وإلي كم تقومين ، يوشك إن تنامي نومةً لا تقومين منها إلا يوم النشور . ومن أخبار رابعة أن

قالت: ما ظهر من أعمالى لا أعده شيئاً، <و>[١]قال آخر: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك"، وآخر يقول: "إن أمكنك أن تجعل لك خبئياً من الخيـــر فافعل"، ولقد حكى أنه قيل لرابعة: بم تر تجين أكثر ما ترتجين؟، فقالت: "بيأس من جل خفى عملى"، وحكى أنه اجتمع **محمد بن واسع**[٢] **ومالـــك**

استأذن عليها ناس ومعهم سفيان الثوري ، فتذاكروا عندها ساعة ، وذكروا شيئاً من الدنيا ، فلما قاموا قالت لخادمتها : إذا جاء هذا الشيخ وأصحابه ، فلا تأذنى لهم ، فــإني رأيــتهم يحبون الدنيا . وأخذت بيدي غلام مرة ، ودعت الله ، فإذا جرة خضراء مملــوءة عــسلا أبيض . فقالت كل ، فهذا والله لم تحوه بطون النحل . وقد حمل الناس عن رابعــة حكمــة كثيرة ، وحكي عنها سفيان وشعبة وغيرهما، وعاشت رابعة ثمانين سنة ، وتوفيت ســنة= = ثمانين ومائة (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٤٨٨ ، وابن الجوزي ، صــفة الصفوة ، تحقيق محمود فخري ، ومحمد رواسي ، طبعــة القــاهرة " د . ت "ج٣ ج٤ ، مواضع مختلفة).

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) محمد بن واسع، هو: محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الإمام الرباني ، القدوة ، أبو بكر ، ويقال أبو عبد الله الأزدى ، البصري . أحد الأعلام .حدث عن : أنس بن مالــك ، وعبيد بن عمير ، ومطرف بن الشخير ، وعبد الله بن الصامت ، وأبي صـــالح الــسمان ، ومحمد بن سيرين وغيرهم . حدث عنه : هشام بن حسان ،وسفيان الثــوري ، ومعمــر، وحماد بن سلمة ، وسلام بن أبي مطيع . قال سليمان التيمي : ما أحد أحب أن ألقــي الله بمثل صحيفته مثل محمد بن واسع . وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني قال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة . قال : وكيف ؟ قال : أزهد في الدنيا. وعنه قــال : طــوبى لمن وجد عشاء ولم يجد غذاء ، ووجد غذاء ولم يجد عشاء ، والله عنه راض . وقال ابــن شو ذب : قسم أمير البصرة علي قرائها ، فبعث إلي مالك بن دينار فأخذ ، فقال لــه ابــن واسع : قبلت جوائزهم ؟ قال : سل جلسائي . قالوا : يا أبا بكر اشتري بها رقيق فأعتقهم . قال : أنشدك الله ، أقلبك الساعة علي ما كان عليه ؟ قال : اللهم لا ، إنما مالك حمــار، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع . وقال ابن واسع : لو كان للذنوب ريح ما جلس إليّ أحد

بن دينار[1] فقال مالك: ما أحوجنى إلى معلم مثلك"، وعن أبى يزيد البسطامى قال: "كابدت العبادة ثلاثين سنة، فرأيت قائلاً يقول لى: يا أبا يزيد، خزائنه مملوءة من العبادة، إن أردت الوصول إليه فعليك بالذلة والافتقار، وسمعت الأستاذ أبا الفضل رحمه الله أنه قال: إنى أعلم أن ما أعمله من الطاعات غير مقبول عند الله تعالى، فقيل له فى ذلك، فأجاب: إنى أعلم ما يحتاج إليه من الفعل حتى يكون مقبولاً، ولا أعلم إنى لست أقوم بذلك، فعلمت أنها غير مقبولة، فقيل له: فلم تفعلها؟، قال عسى أن

.وقال : إني لأغبط رجلاً معه دينه ، وما معه من الدنيا شئ ، وهو راضٍ . وقال : إذا أقبل العبد بقلبه علي الله أقبل الله بقلوب العباد عليه . وقيل له : كيف أصبحت ؟ قال : قريباً أجلي ، بعيداً أملي ، سيئًا عملي . وقيل أشتكي رجل من ولد محمد بن واسع إليه ، فقال لولده : تستطيل علي الناس ، وأمك اشتريتها بأربعمائة درهم ، وأبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله؟ وعن أبي الطيب موسى بن يسار قال: صحبت محمد بن واسع إلي مكة ، فكان يصلي الليل أجمعه ، يصلي في المحمل جالساً ويومئ . وعن ابن واسع : إن الرجل= = ليبكي عشرين سنة ، وامرأته معه لا تعلم . وقيل : دعا مالك بن المنذر الوالي محمد بن واسع ، فقال اجلس علي القضاء ، فأبي . فعاوده وقال : لتجلسن ، أو لأ جلدنك ثلاثمائة ، قال : إن تفعل ،فإنك مسلط ، وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة . قال: ودعاه بعض الأمراء ، فأراده علي بعض الأمر ، فأبي . فقال: إنك أحمق. قال محمد : مازلت يقال لي هذا منذ أنا صغير.وعن محمد بن واسع ، عن مطرف بن عبد الله ، عن عمران بن حصين قال : " تمتعنا مع رسول الله – ﷺ – مرتين ، فقال رجل برأيه ما شاء " . صحيح أخرجه مسلم والنسائي ، والبخاري من طريق أخري . من طريق إسماعيل هذا . وقال ابن واسع وهو في الموت : يا أخوتاه ، تدرون أين يُذهب بي ؟ والله إلي النار ، أو يعفو الله عني . وتوفي محمد بن واسع سنة سبع وعشرين ومائة . (راجع ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٦/ ٣٦٧- ٣٧٠).

(١) مالك بن دينار: تابعى جليل، وقد مرّت ترجمته.

يصلحنى الله تعالى يوماً، فتكون النفس [متعودة][1] على عمل الخير، فلا تحتاج أن أعودها ذلك من الرأس.

فهذه حال هؤلاء الأعلام وذوى المجاهدة والأقدار.

ثم إنى رأيت أن أثبت هاهنا الخبر المأثور عن الصادق المصدق، صلوات الله عليه وسلامه، وقد ذكرناه فى غير كتاب، روى ابن المبارك عن رجل هو خالدين معدان، أنه قال لمعاذ: حدثنى حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حفظته فذكرته كل يوم، من شدته ودقته، قال نعم، ثم بكى طويلاً، وقال: واشوقاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى لقائه، ثم قال: بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ركب وأردفنى، ثم سرنا فرفع بصره إلى السماء وقال: **الحمد لله الذى يقضى فى خلقه ما يشاء، يا معاذ،** قلت: لبيك يا رسول الله، قال **أحدثك بحديث إن أنت حفظته نفعك، وإن ضيعته انقطعت حجتك عند الله عز وجل، يا معاذ: إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات، لكل سماء ملك، وجعل على كل باب من أبواب السموات أبواباً. على قدر الباب وجلالته، فتصعد الحفظة بعمل العبد، وله نور وشعاع كالشمس، حتى إذا بلغ السماء الدنيا، والحفظة تستكثر عمله وتزكيه، فإذا انتهى إلى بابه قال الملك للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة، أمرنى ربى لا أدع عمل من يغتاب الناس يتجاوزنى إلى غيرى، ثم تجئ الحفظة من الغد له عمل صالح تستكثره الحفظة وتزكيه، حتى إذا انتهوا إلى السماء الثانية، قال الملك: قفوا بهذا العمل،**

---

(١) ط : متعوه.

واضربوا به وجه صاحبه، فإنه أراد عرض الدنيا، وأمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى، فتلعنه الملائكة حتى يمسى، وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً، فيه صدقة وصيام وكثير من البرّ، فتستكثره الحفظة، فإذا انتهوا إلى السماء الثالثة، قال الملك البواب: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا الملك صاحب الكبر، أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى، إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم، وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهى كما تزهى النجوم والكواكب الدرّى، له دوى وتسبيح بصوم وصلاة وحج وعمرة، فإذا انتهوا به إلى السماء الرابعة، قال الملك الموكل بها: قفوا بهذا العمل، واضربوا به وجه صاحبه، أنا الملك صاحب الإعجاب، أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى، إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب فيه، وتصعد الحفظة الملائكة بعمل العبد، كما تزفُّ العروس إلى أهلها، حتى إذا انتهوا إلى السماء الخامسة بهذا العمل الحسن، من جهاد وحج له ضوء كضوء الشمس، فيقول الملك: أنا الملك صاحب الحسد، إنه كان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد سخط بما رضى الله العظيم، أمرنى ربى ألا ادع عمله يجاوزنى إلى غيرى، وتصعد الملائكة الحفظة بعمل العبد، بوضوء تام، وصلوات كثيرة، وصيام وحج وعمرة، فجاوزت به على السماء السادسة، فيقول الملك الموكل بالباب: أنا صاحب الرحمة، اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه كان لم يرحم قط إنساناً وإن أصيب عبد شمت به، أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى، وتصعد الحفظة بعمل العبد، بنفقة كثيرة، وصوم وصلاة واجتهاد

وورع، له صوت كصوت الرعد، وضوء البرق، فإذا انتهوا إلى السماء السابعة يقول الملك الموكل بالسماء السابعة: أنا صاحب الذكر، هذا العمل أراد به الذكر فى المجالس، والرفعة عند القراء، والجاه عند الكبراء، أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى، وفى كل عمل لم يكن لله خالصاً، فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرائى، وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وصيام وحج وعمرة، وخلق حسن، وصمت وذكر لله، وتشيعه ملائكة السموات، حتى يقطع الحجب كلها إلى الله تعالى، فيقفون بين يدى الربّ جل جلاله، ويشهدون له بالعمل الصالح الخالص المخلص، فيقول الله تعالى: أنتم الحفظة على عمل عبدى، وأنا الرقيب على ما فى قلبه، إنه لم يردنى بهذا العمل، ولا أخلصه لى ، وأنا اعلم بما أراد بعمله ، عليه لعنتى ، غرّ الآدميين وغرّكم ولم يغّرنى، وأنا علام الغيوب، المطلع على ما فى القلوب، لا تخفى علىّ خافية، ولا تعزب عنى عازبة، علمى بالأولين كعلمى بالآخرين، أعلم السرّ وأخفى، فكيف يغرّنى عبدى بعمله، إنما يغرّ المخلوقين الذين لا يعلمون، وأنا علام الغيوب، عليه لعنتى، وتقول الملائكة السبعة، والثلاثة آلاف، والمشيعون: يا ربنا عليه لعنتك ولعنتنا، فيقول أهل السماء: عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين، ثم بكى معاذ وانتحب انتحاباً شديداً وقال: يا رسول الله كيف النجاة مما ذكرت؟، فقال: يا معاذ، اقتد بنبيك فى اليقين، قلت: أنت رسول الله صلى الله عليك، وأنا معاذ بن جبل، كيف لى النجاة والخلاص، قال نعم يا معاذ، إن كان فى عملك تقصير، فاقطع لسانك عن الوقيعة فى الناس، وعن إخوانك من حملة القرآن خاصة، وليردّك

عن الوقيعة فى الناس ما تعلمه من عيوب نفسك، ولا تزكِّ نفسك بذم إخوانك، ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك، ولا تراءِ بعملك حتى تُعرف فى الناس، ولا تدخل فى الدنيا دخولاً ينسيك أمر الآخرة، ولا تناج رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس، فتنقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة، ولا تفحشن فى مجلسك حتى يحذرك الناس من سوء خلقك، ولا تمزق الناس بلسانك، فتمزقك كلاب جهنم، أتدرى ما قوله تعالى: "والناشطات نشطاً"[(١)]، يقول: تنزع اللحم عن العظم. قلت يا رسول الله: من يطيق هذه الخصال؟ **قال يا معاذ: إن الذى وصفت لك يسير على من يسره الله تعالى عليه، إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، فإذا أنت قد سلمت"[(٢)].**

---

(١) سورة النازعات، آية ٢.

(٢) الحديث موضوع، ذكره صاحب الترغيب والترهيب كما يلى:

روى عن معاذ رضى الله عنه، أن رجلا قال: حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت، ثم سكت ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى معاذ: قلت له لبيك بأبى أنت وأمى قال: إنى محدثك حديثا إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة، يا معاذ إن الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها قد جللها عِظما، فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى أن أمسى له نور كنور الشمس حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا ذكرته فكثرته فيقول الملك للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لا أدع من اغتاب الناس يجاوزنى إلى غيرى، قال ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بالسماء الثانية: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يفتخر على

الناس فى مجالسهم. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فتجاوزوا به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب فى عمله. قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى بعلها فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس ممن يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم، = = أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس مع ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا جوارحه اقفلوا على قلبه إنى أحجب عن ربى كل عمل لم يرد وجه ربى إنه أراد بعمله غير الله إنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصوتا فى المدائن أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائى. قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله قال فيقول الله لهم: "أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى". فتقول الملائكة كلها عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السموات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع ومن فيهن. قال معاذ: قلت يا رسول الله وأنا معاذ قال: اقتد بى وإن كان فى عملك تقصير يا معاذ حافظ على لسانك من

قال خالد بن معدان: وكان معاذ لا يكثر من تلاوة القــرآن كمــا يكثر منة تلاوة هذا الحديث، وذكره فى مجلسه.

فلما سمعت أيها الرجل بهذا الحديث العظيم بناؤه، الكثير خطره، الأليم أثره، <الذى ترق>[١] له القلوب، وتتحير له العقول، وتضيق عــن حمله الصدور، وتجزع من قوله النفوس، فاعتصم بمولاك إله العــالمين، والزم الباب بالتضرع والبكاء والإيتهال أناء الليل، وأطراف النهار، مــع المتضرعين المبتهلين، فإنه لا نجاة من هــذا الأمــر إلا برحمتــه، ولا سلامة من هذا البحر إلا بنظره وعنايته، فتنبه عن رقدة الغافلين، وأعــط الأمر حقه، وجاهد نفسك فى هذه العقبة المخوفة لعلــك لا تهلــك مــع المهالكين، والمستعان بالله تعالى على كل حال، فإنه خير معــين، وهــو تعالى أرحم الراحمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الوقيعة فى إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم، ولا تدخل عمل الدنيا فى عمل الآخرة، ولا تتكبر فى مجلسك لكى يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تناج رجلا وعندك آخر، ولا تتعظم علــى النــاس فينقطع عنك خير الدنيا والآخرة، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة فى النار قال الله تعالى: "والناشطات نشطاً (النازعات) أتدرى ما هن يا معاذ؟ قلت ما هن بأبى أنت وأمى، قال: كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم. قلت بأبى أنت وأمى فمــن يطيــق هــذه الخصال ومن ينجو منها، قال: يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه. قال: فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث (رواه ابن المبارك فى كتاب الزهد عن رجل لم يسمعه عن معاذ، ورواه ابن حبان فى غير صحيح، والحاكم وغيرهما وروى عن على وغيره، وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه فى جميع طرقــه وبجميــع ألفاظــه (أنظر الترغيب والترهيب ٣٨/١ – ٤٠).

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فصل

وجملة الأمر أنك إذا أحسنت النظر، فرأيت قدر طاعته عز وجل، ورأيت ضعف الخلق وعجزهم وجهلهم، فلا تلتفت إليهم بقلبك، فكن زاهداً فى ثنائهم ومدحهم، وتعظيم الذى لا فائدة تحته، فلا ترد بطاعتك شيئاً من ذلك.

ورأيت خسة الدنيا وحقارتها، وسرعة زوالها، فلا تردها بطاعتك من الله تعالى، وتقول يا نفس ثناء رب العالمين وشكره وإعزازه خير، أم ثناء المخلوقين العاجزين الجاهلين، الذين لا يعرفون[1] قدر عملك بالحقيقة، وما تحملت فيها، ولا يبلغون حلقك فيما عملت وتحملت، بل ربما يفضلون عليك من هو أَدْوَنُ منك حالاً بألف درجة، ويضيعونك فى أحوج الأوقات وينسونك، وإن لم يفعلوا ذلك فما عسى أن يكون بأيديهم، وإلى ماذا تبلغ قدرتهم، ثم هم فى قبضة الله، أن يصرفهم كيف يشاء، وإلى ما يشاء، فاعقلى أيتها النفس، فلا تضييعى [طاعتك][2] العزيزة بهم، ولا يفوتك ثناء من ثنائه، ولقد صدق القائل:

سَهَرُ العُيونِ لِغيْر وَصْلِكَ بَاطِلٌ   وَبكَاؤهُنَّ لِغيْرِ وَصْلِكَ ضَائِعُ[3]

وقل: يا نفس، أجنة الخُلد خير، أم لحظة من حرام الدنيا، وحطامها النكد الفانى، وأنت متمكنة أن تصلى بطاعتك هذا النعيم المقيم، فلا تكونى خسيسة الهمة، ردئية الإرادة، دنيئة الأفعال، أما ترين الحمام،

---

(١) + ط : يعرفون.

(٢) ط : طاعته.

(٣) البيت من بحر الكامل (متفاعلن – متفاعلن – متفاعلن).

إذا كان سمانياً كيف تعلو قيمته، ويزداد قدره، فارفعى بهمتك كلها إلى السماء، وجوّدى قلبك لله تعالى الواحد القهار، الذى بيده الأمر كله، ولا تضيعى ما ظفرت به من طاعتك بلا شئ.

وكذلك إذا أحسنت التأمل، فرأيت أيادى الله تعالى ومننه العظام عليك فى هذه الطاعة، بأن أمكنك منها، وأعطاك الآلات أولاً، ثم أزاح العوائق، حتى تفرغت [هذه][1] الطاعة ثانية، ثم خصك بالتوفيق والتأييد، ويسرهما عليك وزينهما فى قلبك، حتى عملتها ثالثاً، ثم مع جلاله وعظمته واستغنائه عنك وعن طاعتك، وكثرة نعمه عليك، أعد لكِ على المنة[2] الكريمة وإنما يلزمك ذلك لأمرين، أحدهما: لدوام النعمة، والثانى: لحصول الزيادة. فأما دوام النعمة، فلأن الشكر قيد النعم، به تدوم وتبقى، وبتركه تزول وتحول، قال تعالى: "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"[3]، وقال: "**فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**"[4]، وقال سبحانه: "**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم**"[5].

وأما حصول الزيادة، فلما كان الشكر هو قيد النعمة، فهو ثمن الزيادة، قال تعالى: "**لإن شكرتم لأزيدنكم**"[6]، وقال: "**والذين اهتدوا**

---

(١) ط : هى.

(٢) + ط : و.

(٣) سورة الرعد، آية ١١.

(٤) سورة النحل، آية ١١٢.

(٥) سورة النساء، آية ١٤٧.

(٦) سورة إبراهيم، آية ٧.

زادهم هدى"[1]، "**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**"[2]، فالسيد الكريم إذا رأى العبد قد قام بحق نعمته، يمن عليه بأخرى، ويراه أهلاً لها، وإلا فينقطع ذلك عنه.

ثم إن النعم قسمين: دنيوية ودينية، فالدنيوية نوعان: نعمة نفع، ونعمة دفع، فنعمة النفع أن أعطاك المصالح والمنافع، وهى ضربان: الخلقة السويّة فى سلامتها وعاقبتها، والملازم الشبهة من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها، ونعمة الدفع أن يدفع عنك المفاسد والمضار، وهى ضربان <الأول>[3] فى النفس بأن يسلمك الله تعالى من زمانها وسائر آفاتها وعللها.

والثانى: دفع ما يلحقك من ضرر من أنواع العوائق، وبقصدك بشر من إنس أو جن أو سباع أو هوام أو نحوها. وأما النعم الدينية فضربان، نعمة التوفيق، ونعمة العصمة، فنعمة التوفيق أن وفقك الله تعالى للإسلام أولاً، ثم للسنة ثم للطاعة، ونعمة المعصية: أن عصمك أولاً من الكفر والشرك، ثم عن البدعة والضلالة، <ثم>[4] عن سائر المعاصى، وتفصيل ذلك لا يحصيه إلا الملك العلام الذى أنعم عليك، كما قال عز وجل: "**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**"[5]، وأن دوام هذه النعمة كلها بعد ما منّ الله عليك بها، والزيادة عليها من كل باب منها ما لا يبلغه

(١) سورة محمد، آية ١٧.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) سورة النحل ، آية ١٨.

وهمك، وكلها متعلق بشئ واحد، وهو الشكر والحمد لله تعالى.

وإن خصلة يكون لها هذه القيمة، ويكون فيها كل هـذه الفوائـد، لحقيق أن يتمسك بها من غير إغفال بحال، فإنه جوهر ثمين، وكيميـاء عزيز، والله ولى التوفيق.

فإن قيل: فما حقيقة الحمد والشكر، وما معناها وحكمها؟، فـأعلم أن العلماء قد فرقوا بين الحمد والشكر عند التحصيل، بأن الحمد والشكر عند التحليل من [أشكال][1] التسبيح والتهليـل، فيكـون عـن المـساعى الظاهرة، فالشكر من أشكال الصبر والتفويض، فيكون مـن المـساعى الباطنة، ولأن الشكر يقابل الكفران، والحمد يقابل اللوم، ولأن الحمد أعم وأكثر، والشكر أخص وأقل، قـال الله تعـالى: "**وقليـل مـن عبـادى الشكور**"[2]، فثبت أنهما معنيان متميزان، ثم الحمد هو الثناء علـى أحـد بالفعل الحسن، وهذا مقتضى معنى كلام شيخنا (رحمه الله).

وأما الشكر فتكلموا فى معناه وأكثروا، فعن **ابن عباس**[3] أنه قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق، فى الـسر والعلانيـة، وإلى نحوه ذهب بعض مشايخنا فقال: "الشكر هو أداء الطاعات بالظاهر والباطن، ثم [رجع][4] إلى أنه اجتناب المعاصى ظاهراً وباطنـاً، وقـال غيره: "الشكر الاحتراس عن اختيار معاصى الله تعالى بحريـق قلبـك

---

(١) ط : الأشكال.

(٢) سورة سبأ، آية ١٣.

(٣) ابن عباس، هو: صحابى جليل ، وقد مرّت ترجمته .

(٤) ط : رجح.

ولسانك وأركانك، حتى لا تعصى الله بشئ من هذه الثلاثة بوجه من الوجوه"، والفرق بين قوله وقول الشيخ أنه جعل الاحتراس معنى مختاراً أبداً على الاجتناب[١] عن المعاصى.

وأما الاجتناب عن المعصية، فما هو إلا ألا يفعل المعصية عند داعيها، ولا يكون فى نفسه معنى تحصيلها، فيكون <عن>[٢] العندية مشغلاً، وعن الكفر معتصماً، وقال شيخنا رحمه الله: "إن الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمه على حد يمنع عن جفاء المنعم وكفرانه، ولو قلت: تعظيم المنعم على مقابلة إحسانه، لم يصلح أن يكون من الله تعالى الشكر للعبد فحسن، وفيه تفاصيل قد شرحناها فى كتاب "إحياء علوم الدين" وغيره، ولكن التحصيل أن الشكر من العبد، تعظيم يمنع من جفاء من أحسن إليه، وذلك بتذكر إحسانه، وحسن حالة الشاكر فى شكره، وقبح حالة الكافر فى كفره.

قلت: إن أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته، أن لا يتوصل بها إلى معصية، وما أقبح من جعل نعمة المنعم سبيلاً [إلى][٣] عصيانه، فعلى العبد إذن من فرض الشكر فى حقيقته، أن يكون له من تعظيم الله تعالى ما يحول بينه، وبين معاصيه، على حسب تذكر نعمته، فإذا أتى بذلك فقد أتى بما هو الأصل فيه، ثم يقابل [ذلك][٤] بجد فى الطاعة، وجهد فى

---

(١) ط : مطموسة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) ط : على .

(٤) ط : ذك.

القيام بالخدمة، إذ هو من حقوق النعمة، فلابد من الاحتراس عن المعصية، وبالله تعالى التوفيق.

فإن قلت: فما مواضع الشكر؟، فاعلم أن موضعه النعم، دينية ودنيوية على أقدارهما، وأما الشدائد فى المصائب فى الدنيا، فى نفس أو أهل أو مال، فتلكموا فى ذلك، هل يلزم العبد الشكر عليها من حيث هى، وإنما يجب عليه فيها الصبر، وأما الشكر فهو على النعمة لا غير، قالوا: ولا شدة إلا فى جنبها نعم الله تعالى، فيلزم على تلك النعم المقترنة بها، دون نفس الشدّة، وتلك النعم ما قاله **ابن عمر**[1] رضى الله عنه: "ما ابتليت ببلية إلا كان من الله تعالى علىّ فيها أربع نعم، إذ لم تكن فى دينى، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ لم أحرم الرضا، وإذ رجوت الثواب عليها"، ولقد قيل أيضا" من تلك النعم، أن تلك الشدة زائلة، غير دائمة، وأنها من الله تعالى، دون غير الله، وإن كانت بسبب مخلوق، فإنها لك عليه، لا له عليك، فإذن يجب على العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدّة، وقال آخرون –وهو الأولى عند شيخنا رحمه الله–: "إن شدائد الدنيا ما يلزم العبد الشكر عليها، لأن تلك الشدائد نعم بالحقيقة، بدليل انها تعرض العبد لمنافع عظيمة"[2]، ومثوبات جزيلة، وأعراض كريمة فى العاقبة، يتلاشى فى جنبها مشقة هذه الشدائد، وأى نعمة تكون أكبر من هذه.

ومثال ذلك من يسقيك دواءً كريهاً مرّاً، لداءٍ شديد، ويقصدك

---

(١) ابن عمر، هو: صحابى جليل ، وقد مرّت ترجمته .

(٢) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: أيضاً من تلك النعم، أن تلك الشدة زائلة، غير دائمة، وأنها من الله تعالى... إلى قوله: بدليل أنها تعرض العبد لمنافع عظيمة. مقروءة بصعوبة فى ط .

ويحجمك لعلة عظيمة، مخوفة الخطر، فيؤدى ذلك إلى صحة النفس، وسلامة البدن، وصفوة العين، فيكون إيلامه إياك مرارة الدواء، وجراحة الفصد والحجامة، نعمة بالغة بالحقيقة، ومنة ظاهرة، وإن كان فى صورته مكروها ينفر عنه الطبع، وتستوحش [منه][١] النفس، وأنت تحمد الذى تولى منك هذا، بل تحسن إليه ما أمكنك، فهكذا حكم هذه الشدائد، أما ترى كيف يقول الله تعالى: "**فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**"[٢]، وسماه خيراً، فهذا أكثر مما يبلغه وهمك، يؤيد هذا القول أن النعمة ليست خيراً عن اللذّة، وما تشتهيه النفس بمقتضى الطبع، وإنما هو يزيد فى رفع الدرجة، ولذلك تسمى نعمة فى معنى الزيادة، وإذا كانت الشدة مما تصير سبباً <فى>[٣] زيادة شرف العبد، ورفعة درجته، فتكون نعماً بالحقيقة، وإن كانت تعدّ فى المحن والشدائد بظاهرها، فاعلم ذلك موفقاً.

فإن قلت: فالشاكر أفضل أم الصابر؟، فاعلم أن الشاكر أفضل، بدليل قوله تعالى: "**وقليل من عبادى الشكور**"[٤]، وجعلهم أخص الخواص وقال فى نوح عليه السلام: "**شاكراً لأنعمه**"[٥]، ولأنه فى منزلة الأنعم

---

(١) ط : منها.

(٢) سورة النساء، آية ١٩.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) سورة سبأ، آية ١٣.

(٥) سورة النحل، آية ١٢١. ونص هذه الآية لم ينزل فى نوح (عليه السلام) كما ذكر الغزالى، ولكنه نزل فى خليل الله ونبيه إبراهيم (عليه السلام) يقول الله جلّ وعلا فى سورة النحل: "إن إبراهيم كان أُمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين (١٢٠) شاكراً لأنعُمه

والعافية. وكذلك قيل: لأن أُنعم فأشكر، خير من ابتلى فأصبر"، وقيل: بل الصابر أفضل، لأنه أعظم مشقة، فيكون أعظم ثواباً، وأرفع منزلة، قال تعالى: "**إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب**"[1]، وقال: "**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**"[2]، وقال تعالى: "**والله يحب الصابرين**"[3].

قلت أنا: بل الشاكر لا يكون إلا صابراً، والصابر بالحقيقة لا يكون إلا شاكراً، لأن الشاكر فى دار المحنة، لا يخلو من محنة يصبر عليها لا محالة، ولا يجزع، فإن الشكر تعظيم المنعم على حدّ يمنع من عصيانه، والجزع عصيان، والصابر لا يخلو من نعمة، كما ذكرنا أن الشدائد نعم بالحقيقة، على المعنى المتقدم، فإنه شُكَر بالحقيقة إذَ صَبَرَ، <صاحبه>[4] لأنه حبس نفسه عن الجزع فيما أصابه، وحمله على الصبر، فقد شكر الله تعالى، فصار شاكراً بالحقيقة، لأن حبس النفس عن الكفران، مع قصد النفس لها، شدة يصبر عليها الشاكر، وتوفيق الصبر والعظمة، نعمة يشكر عليها الصابر، فأحدهما لا ينفك [عن][5] الآخر والبصيرة الباعثة عليها زائدة، وهى بصيرة الاستقامة فى قول بعض علمائنا، فمن هذه الوجوه، قلنا إن أحدهما لا ينفك عن الآخر، فاعرف هذه الجملة، وبالله التوفيق.

اجتباه وهداهُ إلى صراط مستقيم" (١٢١)، ولكن المعنى ينطبق على نوح وإبراهم وجميع الأنبياء والرسل، وسائر البشر الشاكرين لأنعُم الله.

(١) سورة ص، آية ٣٠.

(٢) سورة الزمر، آية ١٠.

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٤٦ .

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ط : عند.

فصل

فعليك أيها الرجل – ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة، الكثيرة الجدوى، العزيزة العنصر، العظيمة القدر، وتأمل أصلين، **أحدهما:** أن النعمة تعطى مَنْ يعرف قدرها، وإنما يعرف قدرها الشاكر، ودليل ما قلناه قوله تعالى فى الحكاية عن الكفار، والرد عليهم: "**أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين**"[1]، ظن أولئك الجهال أن النعمة العظيمة، والمنّة الدائمة، إنما تُعطَى مَنْ يكون أكثرهم مالاً، وأشرفهم حسباً ونسباً، فقالوا: ما بال هؤلاء الفقراء بزعمهم [من][2] العبيد والأحرار، أُعطوا هذه النعمة العظيمة بزعمهم دوننا، فقالوا على سبيل الاستهزاء، ومجرى الاستهزاء: "**أهؤلاء من الله عليهم من بيننا**"، فاجابهم الله تعالى بهذه النكتة الزاهرة، فقال: "**أليس الله بأعلم بالشاكرين**"، تقدير الكلام أن السيد الكريم، إنما يعطى نعمته من يعرف قدرها، وإنما يعرف قدرها من أقبل بنفسه وقلبه، فاختارها على غيرها، لا يعبأ بما تحمل من أعباء المئونة فى تحصيلها، لا يزال قائماً بالباب، يؤدى شكرها، وكان فى علمنا السابق أن هؤلاء الضعفاء يعرفون هذه النعمة، ويقومون بشكرها، وكانوا أَولَى بهذه النعمة منكم، فلا اعتبار بغناكم وقوتكم، ولا جاهكم فى الدنيا وحشمتكم، ولا نسبكم فى الأنساب وحسبكم، إنما يحسبون النعمة كلها الدنيا وحطامها، والحسب والنسب وعلّوه، لا الدين والخلق ومعرفتهم، وإنما يعظمون ذلك ويتفاخرون به،

---

(١) سورة الأنعام، آية ٥٣.

(٢) ط : منه.

أما ترون أنكم لا تكادون تقلبون هذا الدين والعلم والحق ومعرفته، وإنما تعطون ذلك وتتفاخرون به، ألا ترون أنكم لا تكادون تقبلونه إلا بمنةٍ على ما أتاكم به، [وذلك][1] لاستحقاركم ذلك، وقلة مبالاتكم، وأن هؤلاء الضعفاء يقتلون أنفسهم على ذلك، ويبذلون حجتهم فيه، ولا يبالون بما فاتهم، ومن عاداهم مع ذلك، ليعلمون أنهم هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة، ورسخ فى قلوبهم تعظيمها، وهان عليهم فوت كل شئ دونها، وطاب لهم احتمال كل شدة، يستغرقون جميع العمر فى شكرها، فلذلك استأهلوا هذه النعمة الكريمة والضخمة[2] فى سابق علمنا، وخصصانهم بها دونكم، فهذه هذه.

ثم أقول: وكذلك كل فريق من الناس خصهم الله تعالى بنعمة من نعم الدين، علم أو عمل، فإنك تجدهم بالحقيقة أعرف الناس بقدرها، وأشدهم تعظيما لها، وأجدّهم فى تحصيلها، وأعظمهم فى إكرامها، وأقومهم بشكرها، والذين حرمهم ذلك فلقلة إجفالهم وتعظيمهم لحقها بعد القدر السابق، ولو كان تعظيم العلم <و>[3] العبادة فى قلوب السوقة والعامة، مثل ما فى قلوب العلماء والمتقدمين، لما آثروا سوقهم عليه، وهان عليهم تركه، أما ترى أن حقها كمن يتعلم مسألة كانت ملتبسة عليه، كيف يرتاح قلبه، ويعظم سروره، ويحل موقعها فى قلبه، حتى لو وجد ألف ألف دينار ما كان يعدل ذلك، وربما يهمّه أمر مسألة فى باب الدين،

---

(١) ط : وذك.

(٢) ط : مطموسة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

فيتفكر فيها سنة، بل عشراً، بل عشرين وأكثر، لا يستكثر ذلك، ولا يملّ، حتى ربما رزقه الله تعالى فهم ذلك، فيعده أعظم منة، وأكبر نعمة، ويرى نفسه بذلك أغنى وأشرف كل شريف، بل ربما يبين مثل هذه المسألة لسوقى، أو متعلم كسلان، يرى فى نفسه أنه مثله فى الرغبة فى العلم والمحبة له، فلا يستمع[١] إليه حقه، وإن طال عليه الكلام ملّ وسأم، وإن تبين له ذلك كله، فلا يعدّه كثيراً، وكذلك المنتسب إلى الله تعالى.

ثم يجتهدوا ويدأب بالرياضة، وصيانة النفس عن الشهوات واللذات، وإلجام الأركان فى الحركات والسكنات، عسى أن يتم الله سبحانه وتعالى له ركعتين فى أدب وطهارة، وكم يتضرع إلى الله تعالى، عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة، فلئن ظفر بذلك فى شهر، بل فى سنة، بل فى العمر كله مرة، عدّ ذلك أكبر منة، وأعظم نعمة، فكم يسّر، وكم يذكر الله تعالى، ولا يكترث بما قاساه فى المشقات وكابد من الليالى، وهجر من اللذات فيها.

ثم نرى الذى يزعم أنه راغب فى العبادة، يحب أن يحصل منها شيئاً ، <أقول>[٢] لو احتاج أحدهم فى تحصيل مثل هذه العبادة الصافية [إلى][٣] نقصان [أكل][٤] لقمة فى عشائهم، وترك كلمة لا تعنيهم، أو دفع نوم ساعة عن أعينهم، فتضيق أنفسهم بذلك، ولا تطيب قلوبهم -وإذا اتفق

---

(١) + ط : يسمع.

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) ط : إلا.

(٤) ط : أكلة .

أنهم فى النار- وحصول عبادة فى صفوة، فلا يعّدونـــه خطيـــراً، أو لا يقدمون له كثير شكر، إنما بعظم سرورهم، ويكثر بالظاهر جهـــدهم، إذا حصل لهم درهم، واستقامت لهم كسوة، وطاب لهم مرقد، أو طالت لهـــم فى سلامة البدن رقدة، فيقولون عند ذلك: الحمد لله، هذا من فـــضل الله، فأنى يساوى هؤلاء الغافلون العـــاجزون، أولئـــك الـــسعراء المجـــدِّين المجتهدين، وكذلك صار هؤلاء المساكين عن هذا الخيـــر محـــرومين، وأولئك المؤيدين به فائزين، ولذلك قسم الأمر أحكم الحاكمين، وهو أعلم بالعالمين، فهذا تفصيل قوله تعالى: "**ألـــيس الله بـــأعلم بالـــشاكرين**"(١)، فافهم(٢) وأعلم(٣) أنك لم تحرم خيراً قط إلا [من](٤) قبل نفـــسك، فأبـــذل مجهودك لتعرف قدر نعمة الله تعالى، وتعظمهـــا، فتكـــون أهـــلاً لهـــا ولإعطائها، ثم يمّن عليك بإبقائها، كما منّ عليك بابتدائها، على ما نذكره فى الأصل الثانى، إنه هو الرءوف الرحيم.

الأصل الثانى: أن النعمة إنما تسلب ممنّ لم يعرف قدرها، والذى لا يعرف قدرها الكفور الذى كفر بها، ولا يؤدى شكرها، دليل ذلك قوله تعالى: "**واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلـــد إلـــى الأرض..**"(٥) الآية، تقدير الكلام: أنّا أنَعمنا على هذا العبد بالنعم العظـــام، والأيـــادى

---

(١) سورة الأنعام، آية ٥٣.

(٢) مطموسة فى ط ، وتبدو هكذا.

(٣) + ط : داعه هقر.

(٤) ط : فى.

(٥) سورة الأعراف، آية ١٧٥.

الجسام فى باب الدين، ما مكنّاه بذلك من تحصيل الرتبة الكريمة، والمنزلة الرفيعة على بابنا، فيصير رفيعاً عندنا، عظيم القدر، كبير الجاه، ولكنه جهل قدر نعمتنا، فمال إلى الدنيا الخسيسة الحقيرة، وإلى شهوة نفسه الدنية الردئية، ولم يعرف أن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة، فكان فى ذلك بمنزلة الكلب الذى لا يعلم، والإكرام والمهانة والرفعة والشرف من الحقارة، وإنما الكرامة كلها عنده فى كثرة ما يطعم أو عراق مائدة ترى إليه، فهذا العبد السوء، إذا جهل نعمتنا ولم يعرف حق ما آتيناه من كرامتنا، فكلّت بصيرته، وساء فى مقام القربة أدبه، بالالتفات إلى غيرنا، والاشتعال عن نعمتنا بدينا حقيرة -فنظر الله نظرة السياسة- وأحضرناه ميدان العدل، وأمرنا فيه بحكم الجبروت، فسلبناه جميع خلعنا وكرامتنا، ونزعنا من قلبه معرفتنا، فانسلخ عائداً عن جميع ما آتيناه من فضلنا، فصار كلباً طريداً، أو شيطاناً رجيماً. نعوذ بالله تعالى ثم نعوذ بالله تعالى من سخطه وأليم عقابه، إنه بنا رءوف رحيم.

ثم أَقْنَع بمنال ملك يكرم عبداً، فيخلع عليه ثيابه، ويقربه منه، ويجعله فوق سائر حجّابه وخدّامه، وأمره بملا زمة بابه، ثم أمر أن يُبنى له فى موضع آخر القصور، وتوضع له الأسرّة، وتنصب له الموائد، وتزين له الجوارى، ويقام له الغلمان، حتى إذا فرغ من الخدمة، أجلس هناك ملكاً مخدوماً مكرماً، وما بين حال خدمته إلى ملكه وولايته إلا ساعة من نهار أو أقل، فإن أبصر هذا العبد بجانب باب الملك سائساً للدواب يأكل رغيفاً، وكلباً يأكل عظماً، فينشغل عن الملك بنظره إليه، وإقباله عليه، ولا يلتفت إلى ماله من الخلع والكرامة، فيسعى إلى هذا

السائس، ويمدّ يده، ويسأله كسرة من رغيف، أو يزاحم الكلب على عظمة فيقضمها، ويعظّم ما هما فيه، أليس الملك إذا نظر إليه على هذه الحالة يقول: هذا السفيه، لم يعرف حقّ كرامتنا عليه، ولم يقدر حق إعزازنا إياه بخلعنا، والتقريب إلى حضرتنا، مع صرفنا أياد من عبادتنا، وأمرنا له من الذخائر، وضروب الأيادى، ما هذا إلا ساقط، عظيم الجهل، قليل التمييز، اسلبوه الخلع، واطردوه عن بابنا.

فهذا حال العالم إذا مال إلى الدنيا، والعابد إذا اتبع الهوى، بعد ما أكرمه الله بعبادته، ومعرفة آياته وأحكامه وشريعته، ثم لم يعرف قدر ذلك، فيصير إلى أحقر شئ عند الله عز وجل، وهوانه عنده، فيرغب فيه، [ويحرص][1] عليه، ويكون أعظم فى قلبه، وأحب إليه من جميع ما أُعطى من تلك النعم العزيزة من العلم والإجابة والعبادة والحكم والحقائق فكذلك من حضه الله تعالى بأنواع توفيقه وعصمته، فزينه بأنوار خدمته وعبادته، ويديم النظر إليه بالرحمة فى أكثر أوقاته، ويباهى[2] به ملائكته، وأعطاه على بابه العناية والوجاهة، وأحله بعجل الشفاعة، وأنزله منزل الأعزّة، حتى صار بمنزلة لو دعاه أجابه ولبّاه، ولو سأله أعطاه وأغناه، ولو شفع فى عالم لشفعه فيهم وأرضاه، ولو أقسم عليه لأبرّه وأوفاه، ولو خطر بباله شئ لأعطاه قبل أن يسأله بلسانه.

فمن كان هذه حاله ثم لم يعرف قدر هذه النعم، فيعدل إلى شهوة نفس ردئية ، أو لقمة من الدنيا الدنيّة التى لا بقاء لها، ولم ينظر إلى تلك

---

(١) ط : ويحرض.

(٢) ط : مطموسة.

الكرامة والخلع والهداية والمنن والعطايا، ثم أوعد، وأعدّ له فى الآخرة من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، فما أحقرها من نفس، وما أسوأه من عبد ، وما أعظم خطره لو علم ، وما أعجل ضيقه لو فهم ، نسأل الله البارّ الرحيم أن يصلحنا بعظم فضله ، وسعة رحمته إنه غفور رحيم <و>(١) أرحم الراحمين.

فعليك – أيها الرجل – ببذل المجهود حتى تعرف نعمة الله تعالى عليك، وإذا أنعم عليك بنعمة الدين، فإياك أن تلتفت إلى الدنيا وحطامها، فإن ذلك لا يكون منك إلا بضرب من التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين، أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين: "**ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم..**"(٢) الآية، تقديره: أن كل من أوتى منهم القرآن العظيم، حق له أن لا ينظر إلى الدنيا الحقيرة نظرة باستحلاء، فضلاً عن أن يكون له رغبة فيها، وليلزم الشكر على ذلك، فإن الكرامة التى حرص إبراهيم خليله "عليه السلام" أن يَمن بها علانية، فلم يفعل.

وأما حطام الدنيا، فإنه يصيبه كل كافر وفرعون، وملحد وزنديق، وجاهل وفاسق، الذين هم أهون خلقه عليه، ويصرف عن كل نبى وصديق وصفىّ وعالم وعابد، الذين هم أعزّ خلق الله تعالى عليه –حتى لا يكادون يصيبون كسرة وخرقة– ويمن عليهم بأن لا يلطخهم بقذرها، حتى قال تعالى: "**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر**

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سورة الحجر، آية ٨٨.

بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة..."[١] الآية، فانظر الفرق بين الأمرين إن كنت مبصراً، وقل الحمد لله الذى منّ علىّ بما يمنّ به على أوليائه وأصفيائه، وصرف عنى فتنة أعدائه، ولتُخَص بالشكر الأوفر، والحمد الأكبر، والمنة العظمى، التى هى الإسلام فإنها الأولى والأخرى بأن لا ينفد ليلك ونهارك عن شكرها، فإن كنت عاجزاً عن عرفان قدرها فاعلم بالحقيقة أنك لو خلقت من أول الدنيا، وأخذت فى شكر الاسلام[٢] من أول الوقت إلى الأبد، ما كنت تقوم بذلك، ولما قضيت بعض الحق، لما هنالك من الفور العظيم.

قلت: واعلم أن الموضع لا يحتمل ذكر ما يبلغه علمى من قدر هذه النعمة، ولو أمليت فيه ألف ورقة، لكان يبلغ علمى فوق ذلك، مع اعترافى بأن ما أعلمه إلى ما لا أعلمه، كنفثة فى بحار الدنيا بأسرها، أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين: "**ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً**"[٣].. إلى أن قال: "**وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً**"[٤]، وقال للقوم: "**بل الله يمّن عليكم أن هداكم للأيمان إن كنتم صادقين**"[٥]، أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم، وقد سمع رجلاً يقول: الحمد لله على الإسلام"، فقال: "**إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة**"، **ولما جاء البشير إلى يعقوب** عليه السلام، قال: على أى دين تركته؟،

---

(١) سورة الزخرف، آية ٣٣.

(٢) + ط : الإسلام.

(٣) سورة الشورى، آية ٥٢.

(٤) سورة النساء، آية ١١٣.

(٥) سورة الحجرات، آية ١٧.

قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة"، وقال: ما من كلمة أحب إلى الله تعالى، ولا أبلغ عنده فى الشكر، من أن يقول: "**الحمد لله رب العالمين الذى أنعم علينا، وهدانا للإسلام**". وإياك أن تغفل عن الشكر، وتغترّ بما أنت عليه فى الحال من الإسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة، فإنه مع ذلك لا موضع للأمن والغفلة، فإن الأمور بالعواقب، وكان سفيان الثورى (رحمه الله) يقول: "ما أَمِنَ أحد على دينه إلا سلب"، وكان شيخنا (رحمه الله) يقول: "إذا سمعت بحال الكفار، وخلودهم فى النار، فلا تأمن على نفسك، فإن الأمر على الخطر ولا تدرى ماذا تكون من العاقبة، فإذا سبق لك فى علم الغيب، فلا تغتر بصفاوة الأوقات، فإن تحتها غوامض الآفات". وقال بعضهم: "يا معشر المغترّين بالنعم، إن تحتها أنواع النقم، زين الله تعالى إبليس بأنواع عصمته، وهو عنده فى حقائق لعنته، وزين بلعام بأنوار ولايته، وهو عنده فى حقائق عداوته، وعن على (رضى الله عنه): "كم من مستدرَج بالإحسان، وكم من مغرور بحسن القول فيه بالستر"، وقيل لذى النون المصرى (رحمه الله): ما أقصى ما يخزع به العبد؟، قال: بالألطاف والكرامات، لذلك قال سبحانه: "**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**"[١]، يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر، ولقد قال القائل:

أحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأيامِ إذْ حَسُنَتْ ... ولا تَخَفْ سُوْءَ ما يَأْتِي به القَدَرُ
وسَالَمَتكَ اللّيَالى فاغْتَرْرتَ بها ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللّيَالىَ يَحدثُ الكَدَرُ[٢]

---

(١) سورة الأعراف ، آية ١٨٢.

(٢) البيتان من بحر البسيط (مستفعلن – فاعلن – مسستفعلن – فعلن).

وأعلم أن كل ما صرت <إليـــه>[١] أقـــرب، فـــأمرك أخـــوف وأصعب، والمعاملة أشدّ وأدقّ، والخطر عليك أعظم، فإن الشئ كلما كان أبلغ علواً، إذا أنقلب كان أصعب وقوعاً، كما قيل: **ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع**، فإذن لا سبيل إلى الأمـــن، وإغفـــال الـــشكر، وتـــرك الابتهال، والحفظ بحال، وكان إبراهيم بن أدهم (رحمه الله) يقول: "كيف تأمن وإبراهيم الخليل يقول: "**واجنبنى وبنىّ أن نعبِد الأصنام**"[٢]، ويوسف (عليه السلام) يقول: "**توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين**"[٣]، وكان سفيان الثورى (رحمه الله تعالى) لا يزال يقول: الله سلّم سلّم، كأنه فى ســـفينة يخشى الغرق"، وبلغنا عن محمد بن يوسف أنه قـــال: "تأملـــت ســـفيان الثورى ليلة، يبكى الليل أجمع، فقلت: بكاؤك على ذنوبك؟، فتمثـــل تبنـــاً وقال: الذنوب أهون على الله من هذا، إنما أخشى أن يسلبنى الله الإسلام، والعياذ بالله تعالى.

فيتقظ – أيها الرجل – واحتفظ بذكر الشكر جداً جداً، واحمـــد الله تعالى على منته فى الدين، أعلاها الإسلام والمعرفة، وأدناها – مـــثلاً – توفيق تسبيح أو عصمة عن كلمة لا تعنيك، عسى أن تتم نعمة الله عليك، ولا تسلبك بمرارة الزوال، فإن أمرّ الأمور وأصعبها الإهانة بعد الإكرام، والطرد بعد التقريب، والفراق بعد الوصال، والله الماجد الكريم، الرءوف الرحيم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

---

(١) زياد ة يقتضيها السياق.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٣٥.

(٣) سورة يوسف، آية ١٠.

وجملة الأمر، أنك إذا أحسنت النظر فى منن الله تعالى العظام عليك، وأياديه الكرام الجسام إليك، التى لا يحرصها قلبك، ولا يحيط بها وهمك، حتى خلفت هذه العتبات الصعاب، فوجدت العلوم(١) والبصائر، وتطهرت من الأوزار والكبائر، وسبقت العوائق، ودفعت العوارض، وظفرت بالبواعث، وسلمت من القوادح، فكم حصل لك فيها من حاصلة شريفة، ورتبة منيعة، أولها التبصير والتعريف، وآخرها التقريب والتشريف، فتأملت فيها بمقدار عقلك وتوفيقك، وشكرت الله تعالى جل جلاله على قدر طوقك، بأن تشغل لسانك بحمده وثنائه، وتملأ قلبك بعظمته، وتبلغه مبلغاً يحول بينك وبين عصيانه - فيبعثك على الخدمة له ما أمكنك، أو سعة طاقتك- معترفاً بالقصور عن حق إنعامه وإحسانه، وكلما [أغفلت](٢) ذكره، أو فترت، أو زللت، عاودت فاجتهدت وتضرعت إليه وتوسلت، وقلت: يا الله يا مولاى، كما بدأت بإحسان بفضلك من غير استحقاق، فاتممه أيضا بفضلك من غير استحقاق، وتناديه بنداء الأولياء، الذين تُوِّجوا بتاج هدايته، وذاقوا حلاوة معرفته، فخافوا على أنفسهم حرقة الطرد والإهانة، ووحشة البعد والضلالة، ومرارة العزل والأزلة، فتضرعوا بالباب مستغثين، ومدّوا إليه الأكف مبتهلين، ونادوا فى الخلوة مستصرخين: "**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب**"(٣).

---

(١) ط : مطموسة.

(٢) ط : أغلقت.

(٣) سورة آل عمران، آية ٨.

قلت أنا: تقديره والله أعلم، إنّا وجدنا منك نعمة، فطمعنا في الأخرى، لأنك أنت الوهّاب الجواد، وكما وهبتنا مزيّة الإنعام في الابتداء، فهب لنا نعمة الإعمام في الانتهاء. أما سمعت أن أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم من بين خلقه، هذا الدعاء قوله تعالى: "**اهدنا الصراط المستقيم**"(١)، أى ثبتنا عليه، وأدمه لنا، هكذا يتضرع إليه، فإن الخطر عظيم.

وقيل إن الحكماء نظروا، فردّوا مصائب العالم ومحنه إلى خمس: المرض في القربة، والفقر في المشيب، والموت في الشباب، والعمى بعد البصر، والنكرة بعد المعرفة، وأحسن من ذلك قول من قال:

"لِكُلّ شيءٍ إذَا فارَقْتَه عُوِضٌ   ولَيْسَ للهِ إنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

وآخر:

إذا أبقتِ الدُّنْياَ عَلى المَرْء دِيْنَهُ   فَمَاَ فاتَهُ مِنْهاَ فَلَيْسَ بِضَائِرِ(٢)

ولذلك في كل نعمة أنعم بها عليك، وتأييد أيدك في قطع عقبة(٣) من العقبات، ليثبّت عليك ما أعطى، ويزيدك فوق ما تودّ وتتمنى، فإذا فعلت ذلك، كنت خلّفت هذه العقبة الخطيرة، وظفرت بالكنزين الكبيرين العزيزين، الذَيْنِ هما الاستقامة والاستزادة، فتدوم لك النعم الموجودة التي اعطاكها كلها، فلا تخشى زوالها، ويزيدك من النعم المفقودة، التي يعطى

---

(١) سورة الفاتحة، آية ٥.

(٢) البيتان من بحر البسيط (مستفعلن – فاعلن – مستفعلن – فعلن).

(٣) + ط: في.

بعدها ويحسن أن تنالها وتتمناها، فلا تخشى [فواتها][١]، أو كنت حينئذ من العارفين العلماء بالدين، التائبين الطاهرين، المتقين حق التقوى بالقلب والأركان، القاصرين بالآمال، الناصحين الخاشعين المتواضعين المفوضين الراضين الصابرين الخائفين الراجين المخلصين الذاكرين المنة، الشاكرين لأنعم سيدك رب العالميين، ثم تصير بعد ذلك من المكرمين الصديقين، فتأمل هذا الكلام، والله سبحانه ولى التوفيق.

فإن قلت: إذا كان الأمر كذلك ، لقد قل من الناس العابد لهذا المعبود، والواصل لهذا المقصود، ومن الذى يقوى على هذا المؤن، ويحصّل هذه الشروط؟، فاعلم أن الله تعالى لذلك يقول: "**وقليل من عبادى الشكور**"[٢]، "**بل أكثرهم لا يعقلون**"[٣]، ولا يتذكرون، ولا يعلمون، ثم إن ذلك يسير على من يّسر الله عليه، وعلى العبد الاجتهاد، وعلى الله سبحانه وتعالى الهداية، قال تعالى: "**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**"[٤]، وإذا كان العبد الضعيف يقوم عليه، فما ظنك بالربّ الكريم، الغنى القدير .

فإن قلت: فالعمر قصير، وهذه عقبات طويلة شديدة، فكيف يبقى العمر حتى يكمل هذه الشرائط، ويقطع هذه العقبات؟ فلعمرى إن العقبات طويلة، والشرائط فيها شديدة، ولكن إذا أراد الله تعالى أن يجتبى عبده

---

(١) ط: فوتها.

(٢) سورة سبأ، آية ١٣.

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٦٣.

(٤) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

قصر عليه طويلها، وهوّن عليه شديدها، حتى يقول بعد قطعها، ما أقرب هذه الطريق وأقصرها، وما أهون هذا الأمر وأيسره، وفى مثل هذا قلت أنا عند وقوفى على الأمر: وأيسر هذه الغاية علم الحجة، واضح لمريده، وأرى القلوب عن المحجة فى عمى، ولقد عجبت لهالك، ونجاته موجودة، ولقد عجبت[1] حتى إن منهم من يقطع هذه العقبات فــى ســبعين ســنة، ومنهم من تحصل له فى سنة، ومنهم من يقطعها فى شهر، بل فى جمعة، بل فى ساعة، حتى إن منهم من تحصل له فى لحظة، بتوفيــق خــاص، وعناية سابقة، أما تذكر أصحاب الكهف، حيث رأوا التغير فــى وجــه ملكهم "دقيانوس"، فقالوا: "**ربنا رب السموات والأرض**"[2]، حصلت لهــم المعرفة، وأبصروا ما فى [هذه] [3] الطريق من الحقائق، وقطعــوا هــذه الطريق، وصاروا مفوضين متوكلين مستقيمين، إذ قالوا: "**فــأووا إلــى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً**"[4]، وكل ذلك إنما حصل لهم فى مقدار ساعة أو لحظة.

أما تذكر سحرة فرعون ما كان مدتهم، إنها لحظة رأوا معجــزة موسى، على نبينا وعليه الصلاة السلام، "**فقالوا آمنا برب العــالمين**"[5]، فأبصروا الطريق، وقطعوا حقه، فصاروا من ساعة إلى ساعة بل أقل من

---

(١) + ط : نجا.

(٢) سورة الكهف، آية ١٤.

(٣) ط : هذا .

(٤) سورة الكهف، آية ١٦.

(٥) سورة الشعراء، آية ٤٧.

العارفين بالله تعالى، الراضين بقضائه، الصابرين على بلائه[1]، المشتاقين إلى نهاية، فنادوا: "**لا ضير إنّا إلى ربنا منقلبون**"[2]، ولقد حكينا عن إبراهيم بن أدهم، كان على ما كان عليه من أمر الدنيا، فعدل عن ذلك، وقصد هذه الطريق، فلم تكن إلا مقدار سيره، من "بلخ" إلى "مرو"، و"الدوز"، حتى صار بحيث أشار إلى رجل سقط من القنطرة فى الماء الكبير هناك أن قف، فوقف الرجل مكانه فى الهواء فتخلص، وأن رابعة البصرية كانت أمَة كبيرة، يطاف بها فى سوق البصرة، ولا يرغب فيها أحد لكبر سنها، فرحمها أحد التجار، فاشتراها بنحو مائة درهم وأعتقها، فاختارت هذه الطريق، وأقبلت على العبادة، فما تمت لها سنة حتى زارها زهاد البصيرة وقراؤها وعلماؤها، لعظيم منزلتها.

وأما الذى لم يسبق له العناية، ولا يعامل بالفضل، فيوكل إلى نفسه، فربما يبقى فى تعب من عقبة واحدة سبعين سنة، ولا يقطعها وكم يصيح ويصرخ، ما أعظم [هذه] [3] الطريق[4] وأشكله، وأعسر هذا الأمر وأعضله، فإن الشأن كله إلى أصل واحد، وذلك تقدير العزيز العليم العدل الحكيم.

فإن قلت: فلم اختص هذا بالتوفيق الخاص، وحرم هذا، وكلاهما مشتركان فى رق العبودية، عند هذا السؤال يُنادى من سرادق الجلال أن

---

(١) + ط : لا لايه.

(٢) سورة الشعراء، آية ٥٠.

(٣) ط : هذا .

(٤) ط: مطموسة.

الزم الأدب، وأعرف سرّ الربوبية، وحقيقة العبودية، فإنه لا يسئل عمـــا يفعل، وهم يسئلون، قلت أنا: ومثال هذه الطريق فى الدنيا، الصراط فى الآخرة، فى عقباتها ومسافاتها ومقاطعها، واختلاف أحوال الخلائق فيها، فمنهم من يمرّ عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمـــر عليـــه كـــالريح العاصف، وآخر كالفرس الجواد، وآخر كالطائر، وآخر يمشى، وآخـــر يزحف حتى يصير فحمة، وآخر يسمع حسيسها، وآخر يؤخذ بكلابيـــب فيطرح فى جهنم، فكذلك حال هذه الطريق مع سالكيها فى الدنيا، فهمـــا صراطان: صراط الدنيا وصراط الآخرة، فـــصراط الـــدنيا بـــالأنفس، وصراط الآخرة يرى أهوالها أهل الأبصار، وصراط الدنيا للقلوب يرى أحوالها أهل البصائر والألباب، وإنما اختلفت الأحـــوال للـــسالكين فـــى الآخرة، لاختلاف أحوالهم فى الدنيا، فتأمل ذلك حقه، فهذه هذه.

فصل

ثم اعلم ما هو التحقيق فى هذا الباب، <و>[١]هو أنه ليس هذا الطريق فى طوله وقصره، مثل المسافات الكائنة "التى تسلكها الأنفس، فتقطعها بالأقدام، فيقع قطعها على حب قوة الأنفس وضعفها، إنما هو طريق روحانى تسلكه القلوب، فتقطعه الأفكار على حسب العقائد والبصائر، أصله نور سماوى، ونظر إلهى، يقع فى قلب العبد، ينظر به نظرة فيرى به أمر الدارين بالحقيقة"[٢]، ثم هذا النور ربما يطلبه هذا العبد سنة فلا يجده، ولا يرى أثراً منه، وذلك لخطأه فى الطلب، وتقصيره فى الاجتهاد، وجهله بطريق ذلك، وآخر [يجده][٣] فى خمسين، وآخر فى عشر، وآخر فى ساعة، وآخر فى لحظة، بعناية رب العزّة، وهو تعالى ولى الهداية.

ولكن العبد مأمور بالاجتهاد، فعليه الاجتهاد والأمر مقسوم مقدور، والرب حكم عدل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

فإن قلت: فما أعظم هذا وأشدّ هذه الأمور، وما أكثر ما يحتاج إليه هذا العبد الضعيف لكل هذا العمل والجهد، وتحصيل الشرائط لماذا، فأقول: لعمرى إنك صادق فى قولك، إن الأمر شديد، والخطر عظيم، ولذلك قال تعالى: "**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال**

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) عبارات ما بين الأقواس ابتداء من قوله: التى تسلكها الأنفس، فتقطعها بالأقدام، فيقع قطعها.. إلى قوله: ينظر به نظرة فيرى به أمر الدارين بالحقيقة. مقروءة بصعوبة فى.

(٣) ط : يجد.

فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً"[1]، ولذلك قال سيد المرسلين صلوت الله وسلامه عليه: "**لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**"[2]، ولما روى أن المنادى ينادى من

---

(1) سورة الأحزاب، آية ٧٢.

(2) حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: خسفت الشمس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأول، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول، ثم سجد فأطال السجود، ثم فعل فى الركعة الثانية مثل ما فعل فى الأولى، ثم انصرف وقد انجلت الشمس فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا، ثم قال: يا أمة محمد والله ما من أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً (صحيح البخارى ٣٥/١).

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعلى بن حجر واللفظ لأبى بكر، قال ابن حجر أخبرنا، وقال أبو بكر حدثنا على بن مسهر، عن المختار بن فلفل، عن أنس قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: "أيها الناس إنى أمامكم فلا تسبقونى بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالإنصراف فإنى أراكم أمامى ومن خلفى ثم قال والذى نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قالوا: وما رأيت يا رسول الله قال: رأيت الجنة والنار" (صحيح مسلم ٣٢٠/١).

وأنظر الحديث أيضاً فى:

- صحيح ابن حبان ٣١٩/١.
- موطأ مالك ١٨٦/١.
- سنن ابن ماجه ١٤٠٢/٢.
- سنن الترمذى ٥٥٦/٤.
- سنن النسائى ٨٣/٣.
- مُسند أحمد ٣١٢/٢.

السماء: "ليت الخلائق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا عملـوا لمـا خلقـوا". وكذلك يقول السلف رضى الله عنهم، فعن أبى بكر رضى الله عنه أنـه قال: "وددت أنى كنت حصيداً بأكله الدوابّ، مخافة العذاب"، وعن عمـر رضى الله عنه: [وددت][(١)] أنى كبش لأهلى، فيتعرّق لحمـى، ويتحسـىّ مرقى، ولم أخلق". وعن وهب بن منبه قال: "خلق ابن آدم أحمق، ولولا حمقه ما هناه عيش، ومن الفضا أنى لا أغبط ملكاً ولا نبياً مرسـلاً، ولا عبداً صالحاً -أليس هذا يعاينون القيامة- إنما أغبط من لم يُخْلَق". وعـن عطاء السُلمى: "لو أن ناراً أوقدت، فقيل: من ألقى نفسه فيهـا لـصار لا شئ [لحببت][(٢)] أن أموت من الفرح، قبل أن أصل إلى النار".

فالأمر إذن – أيها الرجل – شديد كما تقول، بل أشد وأعظم مما تظن وتتوهم، ولكنه أمر قد سبق فى العلم القديم، وتدبير أجراه العزيـز العليم، فلا حيلة للعبد إلا ببذل المجهود فى العبودية، والاعتصام بحبل الله تعالى، والابتهال دائماً إلى الله عز وجل، عسى أن يرحمه فيساق بفضله، وأما قولك: كل هذا لماذا؟، فهذا يدل منك على غفلة عظيمة، بل الصواب أن تقول: كل هذا فى جنب ما يطلبه العبد[(٣)] الضعيف، ماذا يطلب العبـد الضعيف، أقل ما يطلبه على الجملة شيئان، أحدهما: السلامة فى الدارين، والثانى: الملك فى الدارين.

- مجمع الزوائد ٣/٥٥.
- الترغيب والترهيب ٤/١٣٣.

(١) ط: ودت.

(٢) ط : لحسيت.

(٣) + ط : العبد.

أما السلامة، فإن الدنيا وفتنتها وغوائلها، بحيث لم يسلم منها الملائكة المقربون، وقد سمعت حديث هاروت وماروت، حتى روى أنه إذا عرج بروح العبد إلى السماء، تقول الملائكة متعجبين: **كيف نجاهد من داء فسد فيه خيارنا**، وإن الآخرة فى أهوالها وشدائدها، بحيث تصرخ فيها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: "**نفسى نفسى**"، حتى روي أنه لو كان لرجل عمل سبعين نبياً لظنّ أنه لا ينجو. فمن أراد أن ينجو من فتن هذه، و[من][1] أهوال هذه، فيدخل الجنة بسلام، لا تصيبه نكبة، أيكون ذلك أمراً هيناً؟.

وأما الملك والكرامة، فإن الملك نفاذ التصرف والمشيئة، فإن ذلك بالحقيقة [للأولياء][2] والحجر والمدرّ لهم ذهب وفضة، والجن والأنس والبهائم لهم مسخرون، لا يشاءون شيئاً إلا هو كائن، لأنهم لا يشاءون إلا ما شاء الله تعالى، وما شاء الله كان، ولا يهابون أحداً من الخلق، ويهابهم كل الخلق، ولا يخدمون أحداً إلا الله تعالى، ويخدمهم كل من دون الله تعالى، وأين لملوك الدنيا بعشر معشار هذه الرتبة، بل هم أقلّ وأذل.

وأما ملك الآخرة، فيقول الله تعالى: "**وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً**"[3]، وأَعْظِم بملِك يقول فيه رب العالمين إنه ملك كبير، وأنت تعلم أن الدنيا كلها قليلة، وأن بقاءها قليل، وأن الواحد منا ربما يبذل ماله

---

(١) ط : مد.

(٢) ط : لأولياء.

(٣) سورة الإنسان، آية ٢٠.

وروحه، حتى ربما يظفر بقدر قليل، فإن حصل [له](١) ذلك القليل في بقاء قليل، قد لا يغتبطه، ولا يستكثر ما يبذل فيه من المال والنفس، وكيف حال من يطلب الكثير في دار النعم، فكيف الخالد المقيم، يستكثر ذلك، أو يصلى ركعتين لله تعالى، أو ينفق [درهمين](٢)، أو يسهر ليلتين، كلا.. لو كان له ألف ألف نفس، وألف ألف روح، وألف ألف عمر، مثل عمر الدنيا وأكثر، فبذل ذلك كله في هذا المطلوب العزيز لكان ذلك قليلاً، ولئن ظفر هذا بما طلب، كان ذلك غنماً عظيماً، وفضلاً من الذى أعطاه كثيراً، فتنبه أيها المسكين من رقدة الغافلين.

ثم إني تأملت في عطية الله العبد إذا أعطاه عبادته وخدمته، وسلك في هذا الطريق عمره، فوجدتها على الجملة أربعين كرامة، عشرين منها في الدنيا، وعشرين في العقبى، أما التي في الدنيا،

فالأولى: أن يذكره الله تعالى ويثني عليه، و<ما>(٣) أَكْرِم بعبد يكون رب العالمين في ذكره وثنائه.

الثانية: أن يشكره جل جلاله ويعظمه، ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك وعظمك لشرفت به فكيف بإله الأولين والآخرين؟.

الثالثة: أنه يحبه، ولو أحبك رئيس محلة قوم، أو أمير بلدة، لفخرت بذلك، وارتفعت في مواطن عزيزة، فكيف بمحبة رب العالمين.

الرابعة: أن يكون له وكيلاً يدبّر أموره.

---

(١) ط: لهم.

(٢) ط : درمهين.

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

الخامسة: أن يكون برزقه كفيلاً، يوجهه من حال إلى حال، من تعب أو وبال.

السادسة: أن يكون له نصيراً، يكفيه كل عدو، ويدفع عنه كل سوء.

السابعة: أن يكون له أنيساً لا يستوحش بحال، ولا يخاف التغير والاستبدال.

الثامنة: عز النفس، فلا يلحقه ذلّ خدمة الدنيا وأهلها، بل لا يرضى أن يخدم ملوك الدنيا وجبابرتها.

التاسعة: رفع الهمة، فيرتفع عن التلطخ بمقادير الدنيا وأهلها، ولا يلتفت إلى زخارفها وملاهيها، ترفع الرجال الألبّاء عن ملاعبة الصبيان والنسوان.

العاشرة: غناء القلب، فيكون طيب النفس، فسيح الصدر، لا يقرعه حدب، ولا يهمه عدم.

الحادية عشر: نور القلب، يهتدى بنور القلب إلى علوم وأسرار وحكم، لا يهتدى إلى بعضها غيره، إلا بجهد جهيد، وعمر مديد.

الثانية عشر: شرح الصدر، فلا يضيق ذرعاً بشئ من محن الدنيا ومعانيها، ومؤن الناس ومكائدهم.

الثالثة عشر: المهابة والموقع فى النفوس، يخدمه الأخيار والأشرار، ويهابه كل فرعون وجبار.

الرابعة عشر: المحبة فى القلوب، يجعل **"لهم الرحمن ودا"**[1]،

---

(١) سورة مريم، من الآية ٩٦.

فترى النفوس كلها مجبولة على حبه، والقلوب كلها مطبوعة على تعظيمه وإكرامه.

الخامسة عشر: البركة العامة فى كلا شئ، من كلام أو نفس أو فعل أو تراب أو مكان، حتى يُتبرك بمكان وطئه، وبمكان جلس فيه يوماً، أو بإنسان صحبه أو رآه حنياً.

السادسة عشر: تسخير الأرض من البر والبحر، حتى إن شاء سار فى الهواء، أو مشى على الماء، أو قطع وجه الأرض فى أقل من ساعة.

السابعة عشر: تسخير الحيوانات من السباع والوحوش والهوامّ وغيرها، فتجيئه الوحوش، وتبصبص له الأسود.

الثامنة عشر: ملك مفاتيح الأرض، فحيث يضرب يده فله كنز إن أراد، وبحيث ما يضرب رجله فله حيز إن احتاج، وأينما تولى فله مائدة إن قصد.

التاسعة عشر: القيادة والوجاهة على باب رب العزة، فينتفى الخلق الوسيلة إلى الله تعالى بخدمته، وتستنجح الحاجات من الله تعالى بوجاهته وبركته.

العشرون: إجابة الدعوة من الله تعالى، فلا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولا يشفع لأحد إلا شُفّع، ولو أقسم على الله لأبّره بما شاء، حتى إن منهم من لو أشار إلى جبل زال، فلا يحتاج إلى السؤال باللسان، ولو خطر بباله شئ لحضره، ولا يحتاج إلى إشارة باليد، فهذه كرامات فى الدنيا.

وأما التى فى العقبى: **فالحادية والعشرون:** أن يهوّن عليــه أولاً سكرات الموت، وهى التى وجلت قلوب الأنبياء صــلوات الله وســلامه عليهم أجمعين منها، حتى سألوا الله تعالى أن يهونها عليهم، حتى إن منهم من يكون الموت عنده مثل شربة الماء الزلال للظمآن، قال الله تعالى فى كتابه المجيد: "**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين**"[١].

الثانية والعشرون: التثبيت، "**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**"[٢].

الثالثة والعشرون: إرسال الروح والريحان بالبشرى، وأما الأمان فقوله تعالى: "**ألا تخافوا ولا تحزنــوا وأبــشروا بالجنــة التــى كنــتم توعدون**"[٣]، فلا يخاف مما يقدم عليه فى العقبى، ولا يحزن علــى مــا خلفه فى الدنيا.

والرابعة والعشرون: الخلود فى الجنان، **الخامــسة والعــشرون:** الحياة فى السرّ على <تعظيم>[٤] ملائكة السموات بالإكرام والألطــاف والإنعام، ولبدنه فى العلانية بتعظيم جنازته، والمزاحمة على الــصلاة، والمبادرة إلى تجهيزه، ويرجون بذلك أكثر الثــواب، ويعدونــه أعظــم غنيمة.

السادسة والعشرون: الأمان من فتنــة ســؤال القبــر، وتلقــين الصواب، فيأمن ذلك الروع.

---

(١) سورة النحل، آية ٣٢.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٢٧.

(٣) سورة فصلت، آية ٣٠.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

السابعة والعشرون: توسيع القبر وتنويره، فيكون روضة من رياض الجنة، إلى يوم القيامة، [وراحة][١] روحه وإكرامها، فتجعل فى أجواق طير خضر مع الإخوان الصالحين، فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله.

التاسعة والعشرون: الحشر فى العز والكرامة، من حُلَل وتاج وبراق.

الثلاثون: بياض الوجه ونوره، قال تعالى: **"وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة"**[٢].

الحادية والثلاثون: الأمان من أهوال يوم القيامة، قال تعالى: **"أمن يأتى آمناً يوم القيامة"**[٣].

الثانية والثلاثون: أخذ الكتاب باليمنى، ومن كفى الكتاب رشد.

الثالثة والثلاثون: تيسير الحساب، ومنهم من لا يحاسب أصلاً.

الرابعة والثلاثون: ثقل الميزان <وتخفيفه>[٤] الحساب، ومنهم <من>[٥] [يُثقل][٦] الميزان، ومنهم من لا [يوقف] للميزان أصلاً.

الخامسة والثلاثون: ورود الحوض على النبى صلى الله عليه وسلم، فيشرب شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

---

(١) ط : مطموسة وتبدو هكذا.

(٢) سورة عبس، الآيتان ٣٨ – ٣٩.

(٣) سورة فُصلت ، آية ٤٠.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

(٦) ط : ثقل.

السادسة والثلاثون: جواز الصراط، والنجاة من النار، حتى منهم من لا يسمع حسيسها، وتخمد له النار.

السابعة والثلاثون: الشفاعة فى عرصات القيامة، نحواً من شفاعة الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام.

الثامنة والثلاثون: ملك الأبد فى الجنة.

التاسعة والثلاثون: الرضوان الأكبر.

الأربعون: لقاء رب العالمين، إله الأولين والآخرين، بلا كيف جل جلاله.

ثم نقول: وإنما أعددت ذلك على حسب علمى، ومبلغ فهمى، فى قصوره ونقصه، ومع ذلك فقد أجملت وأوجزت، وذكرت من الأصول والجمل، ولو فعلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب، ألا ترى أنى جعلت ملك الأبد خلعة واحدة، ولو فصلتها لارتفعت [إلى] [1] أربعين خلعة، من الحور والقصور واللباس، ثم كل نوع يشتمل على فواصل لا يحيط بها إلا عالم الغيب والشهادة، الذى هو خالقها ومالكها، وأى مطمع لنا فى معرفة ذلك والله تعالى يقول: "**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم فى قرة أعين**"[2]، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**"[3]، وإن المفسرين يقولون فى

---

(1) ط : على .

(2) سورة السجدة، آية ١٧.

(3) حدثنا بن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى "أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، تصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل "فلا تعلم

قوله تعالى: "**لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً**"(١)، هذه الكلمات التى يقولها الله عز وجل لأهل الجنة فى الجنة، يـا للّطـف والإكرام، ومن تكون حاله هذه، فأنى يبلغ جزءاً من ألف ألف جزءٍ منـه وَهْمُ بَشَرٍ، أو يحيط به علم مخلوق، كلا بل تقاعدت الهمم، وتقاصـرت ويكون ذلك كذلك، وهو عطاء العزيز العليم، علـى مقتـضى الفـضل العظيم، وحسب الجود القديم، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

وليبذل المجهود دون جهدهم لهذا المطلوب العظيم، وليعلمـوا أن هذا كله لأقل قليل فى جنب ما هم إليه محتاجون، وإياه يطلبـون، ولـه يتعرضون، وليعلموا أن العبد لا بد له فى الجملة من أربعة: العلم والعمل والإخلاص والخوف، فليعلم أولاً الطريق، وإلا فهو أعمـى، ثـم يعمـل بالعلم، وإلا فهو محجوب، ثم يخلص العمل، وإلا فهـو مغبـون، ثـم لا يخاف ويحذر [من](٢) الآفات إلى أن يحوز الأمان، وإلا فهـو مغـرور،

نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون. قال هذا حديث حسن صحيح (سنن الترمذى ٥/٣٤٦).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجـل قـال أعـددت لعبـادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (مسند أحمد ٢/٣١٣).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول الله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلـب بـشر اقرؤوا إن شئتم "وظل ممدود" الواقعة، وموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيهـا= = واقرؤوا إن شئتم "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز" آل عمران. رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وروى البخارى ومسلم بعضه (الترغيب والترهيب ٤/٢٨٨).

(١) سورة الكهف ، آية ١٠٩.

(٢) ط: فى.

ولقد صدق ذو النون المصرى حيث يقول: "الخلق كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم ينـامون إلا العـاملين، والعـاملون كلهـم مغتـرون إلا المخلصيين، والمخلصون على خطر عظيم".

قلت أنا والعجب كل العجب من أربعة، **أحدهم:** غافل غير عامل، أما يهتم لمعرفة ما بين يديه، أما يتعرف ما هو مطلع بعد الموت عليـه، بالنظر فى هذه الدلائل والعبر، والاستماع إلى هـذه الآيـات والنـذر، والانزعاج لهذه الهواجس والخواطر التى تقع فى هذه النفس، قال تعالى: "**أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شـئ**"[1]، وقال تعالى: "**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون**"[2].

والثانى: من عالم غير عامل، أما يذكر أم يعلم يقينا بما بين يديه من الأهوال العظام، والعقاب الصعاب، وهذا هو النبأ العظيم الذى أنـتم عنه معرضون.

والثالث: من عامل غير مخلص، ألا يتأمل قوله تعالى: "**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**"[3].

والرابع: من مخلص غير خائف، أما ينظر إلى معاملتـه جـلا جلاله سبحانه وتعالى مع أوليائه وأصفيائه وخدمة، الدالة بينه وبين خلقه، حتى يقول لأكرم الخلق عليه: "**ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن**

---

(1) سورة الأعراف، آية ١٨٥.

(2) سورة المطففين، آية ٢٤.

(3) سورة الكهف، آية ١١٠.

أشركت ليحبطن عملك"[١]، الآيات ونحوها، حتى كان عليه السلام يقول: "**شيبتنى هود وأخواتها**"[٢].

ثم جملة الأمر ما قال رب العالمين فى أربع آيات فى كتابه العزيز: قوله عز وجل: "**أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون**"[٣]، ثم قال جل اسمه: "**ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**"[٤]، ثم قال جل من قائل: "**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**"[٥]، ثم أجمل الكل فقال وهو أصدق القائلين: "**ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين**"[٦].

ونحن نستغفر الله من كل ما زل به القدم، وطغى به القلم، ونستغفره من أقوالنا التى لا توافق أعمالنا، ونستغفر الله من كل ما أوعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنّع أو تزين فى كتاب سطرناه، أو كلام نظمناه، أوعلم أفدناه، ونسأله أن يجعلنا وإياكم معشر الإخوان عاملين، ولوجهه به مريدين، وأن لا يجعله وبالاً علينا، وأن يجعله فى ميزان الصالحات إذا رُدّت أعمالنا إلينا، إنه جواد كريم.

---

(١) سورة الزمر، آية ٦٥.

(٢) أنظر تحقيق الحديث فيما سبق. وقد ورد فى سنن الترمذى ٤٠٢/٥، مجمع الزوائد ٣٧/٧.

(٣) سورة الحشر، آية ١٨.

(٤) سورة المؤمنون ، آية ١١٥ .

(٥) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(٦) سورة العنكبوت، آية ٦.

فهذا ما أردنا أن نذكره فى شرح كيفية سلوك طريق الآخرة، وقد وفينا بالمقصود، وصلى الله على خير مولود دعا إلى أفـــضل معبـــود، محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أولى الكرم والجود، وشـــرّف وكرّم وسلّم تسليماً كثيرا.

تم منهاج العابدين بحمد الله وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا مجمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين. اللهم أغفر لمؤلفه ولكاتبه ولقارئه، ولمن اطلع عليه ووجد فيه خللاً فسدّه، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ليلة الأثنين المبارك الذى هـــو سنة ١٢٦٥ على يد العبد الفقير إلى مولاه القدير، بعد كتابه أخرى منه، عبد الله بن إبراهيم البوهى الحنفى.

فهارس التحقيق



١- فهرست الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقمها	رقم الصفحة بالكتاب
العنكبوت	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا	٦٩	٢٢٩
محمد	والذين اهتدوا زادهم هدى	١٧	٢٢٩
الزمر	الحمد لله الذى صدقنا وعده	٧٤	٢٣٢
يوسف	إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى.	٥٣	٢٣٥
آل عمران	وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور..................................	١٨٦	٢٣٦
آل عمران	وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً.......................................	١٢٠	٢٣٦
النحل	إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.	١٢٨	٢٣٦
الطلاق	ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب	٢-٣	٢٣٦
الأحزاب	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكن أعمالكم	٧٠-٧١	٢٣٦
الأحزاب	ويغفر لكم ذنوبكم	٧١	٢٣٦
آل عمران	فإن الله يحب المتقين	٧٦	٢٣٦
المائدة	إنما يتقبل الله من المتقين.	٢٧	٢٣٦

السورة	الآية	رقمها	رقم الصفحة بالكتاب
السجدة	فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون	١٧	٤١٧
الأعراف	واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.....	١٧٥	٤١٨
الأعراف	فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث	١٧٦	٤١٨
الأنبياء	لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين	٨٧	٤١٩
الصافات	فالتقمه الحوت وهو مُليمٌ فلولا أنه كان من المسبحين للبثَ فى بطنه إلى يوم يبعثون..	١٤٢-١٤٣-١٤٤	٤١٩
القلم	لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم............................	٤٩	٤١٩
هود	فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير...............	١١٢	٤١٩
غافر	واستغفر لذنبك	٥٥	٤٢٠
الشرح	ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك.	٢-٣	٤٢٠
الفتح	ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر..	٢	٤٢٠

السورة	الآية	رقمها	رقم الصفحة بالكتاب
الزمر	إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.	١٠	٤٧٣
السجدة	فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعـــين جزاء بما كانوا يعملون..................	١٧	٤٧٤
غافر	ومن عَمِلَ صالحاً من ذكر أو أنثى وهـــو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب..........................	٤٠	٤٧٥
النحل	وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها	١٨	٤٧٦-٤٨٧
سبأ	وقليل من عبادى الشكور................	١٣	٤٨٣
النازعات	والناشطات نشطا........................	٢	٤٩٤
الرعد	إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيـــروا مـــا بأنفسهم	١١	٤٩٨
النحل	فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجـــوع والخوف بما كانوا يصنعون............	١١٢	٤٩٨
النساء	ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتكم وآمنتم....	١٤٧	٤٩٨
إبراهيم	لإن شكرتكم لأزيدنكم.....................	٧	٤٩٨
محمد	والذين اهتدوا زادهم هدى	١٧	٤٩٩
العنكبوت	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين..........................	٦٩	٤٩٩

السورة	الآية	رقمها	رقم الصفحة بالكتاب
النحل	وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها	١٨	٤٩٩
سبأ	وقليل من عبادى الشكور...............	١٣	٥٠٠-٥٠٣
النساء	فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً	١٩	٥٠٣
النحل	شاكراً لأنعمه...........................	١٢١	٥٠٣
ص	إن وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب.....	٣٠	٥٠٤
الزمر	إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.	١٠	٥٠٤
آل عمران	والله يحب الصابرين	١٤٦	٥٠٤
الأنعام	أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين.........................	٥٣	٥٠٥-٥٠٨
الأعراف	واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض................................	١٧٥	٥٠٨
الحجر	ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم............................	٨٨	٥١١

السورة	الآية	رقمها	رقم الصفحة بالكتاب
الزخرف	ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة.	٣٣	٥١٢
الشورى	ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا..............................	٥٢	٥١٢
النساء	وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً..............................	١١٣	٥١٢
الحجرات	بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين............................	١٧	٥١٢
الأعراف	سنستدرجهم من حيث لا يعلمون	١٨٢	٥١٣
إبراهيم	واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام...........	٣٥	٥١٤
يوسف	توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين.........	١٠١	٥١٤
آل عمران	ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب	٨	٥١٥
الفاتحة	اهدنا الصراط المستقيم	٥	٥١٦
سبأ	وقليل من عبادى الشكور	١٣	٥١٧
العنكبوت	بل أكثرهم لا يعقلون	٦٣	٥١٧
العنكبوت	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.........	٦٩	٥١٧

السورة	الآية	رقمها	رقم الصفحة بالكتاب
فصلت	أمّن يأتى آمناً يوم القيامة	٤٠	٥٢٩
السجدة	فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين..	١٧	٥٣٠
الكهف	لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا به مددا..........................	١١٩	٥٣١
الأعراف	أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ.........	١٨٥	٥٣٢
المطففين	ألا يظن أولئك أنهم مبعثون.............	٢٤	٥٣٢
الكهف	فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا........	١١٠	٥٣٢
الزمر	ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك..................	٦٥	٥٣٣
الحشر	أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون	١٨	٥٣٣
المؤمنون	ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون	١١٥	٥٣٣
العنكبوت	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين	٦٩	٥٣٣
العنكبوت	ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين	٦	٥٣٣

٢- فهرست الأحاديث

الحديث	رقم صفحة تخريجه
- ركعتان من رجل زاهد قلبه خير وأحب إلى الله جل جلاله من عبادة المتعبدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً	١٩٤
- إذ ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله تعالى	٢٠١
- عليكم بالجماعات فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان ذئب الإنسان يأخذ الشاذّة والناحية والقاصية	٢٠٧
- رهبانية أمتى الجلوس فى المساجد	٢١٠
-إن ذكر الله عز وجل فى جنب الشيطان كالأكلة فى جنب ابن آدم	٢٢٣
- العجلة من الشيطان إلا فى خمسة: تزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدَّيْن إذا وجب، وتجهيز الميت إذا مات، وقِرَى الضيف إذا نزل، والتوبة من الذنب إذا أذنب............................	٢٣٠
- ما أعجب رسول الله صلى عليه وسلم بشئ من الدنيا، ولا أعجبه أحد إلا ذو تُقى...................................	٢٣٣
- ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون..	٢٤٧
- إن النظر إلى محاسن المرأة سهم من سهام إبليس، فمن تركها أذاقه الله طعم عبادة تسره..	٢٥٤
- قال سفيان بن عبد الله: قلت: يا رسول الله، ما أكبر ما تخاف علىّ؟، فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه وقال: هذا	٢٥٩
- ستة يدخلون النار بستة: العرب بالعصبية، والأمراء بالجور، والدهاقين بالكبر، والتجار بالخيانة ، والرشّائين والفقراء بالجهل، والعلماء بالحسد	٢٩٢

٣- فهرست الأبيات الشعرية

٤- فهرست الأعلام

* تشير الأرقام الواردة إلى ترجمة وافية للاسم.

٥- فهرست الكلمات والمصطلحات والعلوم

٦- فهرست الكتب الواردة بالنص

الكتاب	المؤلف	الصفحة
إحياء علوم الدين	الغزالى	١٢٣
أسرار المعاملات	الغزالى	١٢٤
جامع الجلى والخفى فــى أصــول الدين والرد على الملحدين	أبو اسحق الاسفرائينى	٢٠٢
كتاب التوبة	الغزالى	١٨٢
كتاب الحلال والحرام	الغزالى	٣٢٣
كتاب الغاية القصوى	الغزالى	١٨٣
كتاب القربة إلى الله	الغزالى	١٢٤

٧- فهرست الفرق

٨- فهرست مصادر ومراجع الدراسة والتحقيق

١- ابن الأثير. : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ط الأولى ، دار الفكر العربى ، بيروت ١٤١٩ - ١٩٩٨.

٢- ابن الجوزى. : صفة الصفوة ، تحقيق محمود فخرى ، محمد رواسى ، طبعة القاهرة (د.ت).

٣- .... : العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية ، تحقيق إرشاد الحق الأثرى ، ط إدارة العلوم الأثرية ، فيصل أباد ١٣٩٩ هـ.

٤- ابن حبان . : صحيح ابن حبان ، بترتيب ابن بلبان ، ط شعيب الأرنوؤط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٤ .

٥- ابن خِلكان. : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق يوسف على طويل ، مريم قاسم على طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٩- ١٩٩٨.

٦- ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد . : سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد الباقى ، د. مصطفى محمد حسين الذهبى ، ٥ أجزاء ، ط الأولى ، دار الحديث ، القاهرة ١٤١٩ - ١٩٩٨ .

٧- أبو بكر الجزائرى. : عقيدة المؤمن ، دار الفكر العربى (د.ت).

٨- أبو حامد الغزالى . : إحياء علوم الدين ، تحقيق أبة حفص سيد بن إبراهيم ، ط دار الحديث ، القاهرة ١٤١٩-١٩٩٨

٩- .... : الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة ، تحليل وتلخيص خالد حربى ، ضمن كتاب ، التراث

المخطوط رؤية معرفية فى التبصير والفهم ، ط الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٥ .

١٠- .... : الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين ، تحليل وتلخيص خالد حربى ، ضمن الكتاب السابق .

١١- أبو الخير ، محمد بن عبد الرحمن السخاوى . : المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٩ هـ .

١٢-أبو داود السجستانى الأزدى ، سليمان بن الأشعث . : سنن أبو داود ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، دار الفكر العربى ، بيروت (د.ت) .

١٣- أبو عبد الرحمن ، عصام الدين الضباطى . : جامع الأحاديث القدسية ، دار الريان للتراث ، القاهرة (د.ت) .

١٤- أبو عبد الله ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى . : التذكرة فى الأحاديث المشتهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٦ هـ.

١٥- أبو عبد الله ، محمد بن ظافر المدنى . : تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين ، تحقيق مُحى فى الدين مستو ، ط الأولى ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٥ .

١٦- أبو عبد الله ، محمد بن على الدمشقى. : الشذرة فى الأحاديث المشتهرة ، تحقيق كمال بسيونى ، ط الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣ هـ .

١٧- أبو الفيض ، أحمد بن محمد الصديق الغمارى. : المغير على الأحاديث الموضوعة فى الجامع الصغير ، ط دار الرائد العربى ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

١٨- أبو محمد ، عبد العظيم عبد القوى المنذرى . : الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، تحقيق محمد عوامة ، دار الرشد ، سوريا ، ط الأولى ١٩٨٩ .

١٩- أبو نصر ، محمد بن على بن ودعان. : الأربعون الودعائية الموضوعه ، تحقيق على حسن على ، دار عمار ، بيروت ، وعُمان ١٤٠٦ هـ.

٢٠- أحمد بن حنبل ، الإمام . : المُسند ، مؤسسة قرطبة ، مصر (د.ت).

٢١- البخارى ، محمد بن إسماعيل الإمام. : صحيح البخارى بحاشية السندى ، ٤ أجزاء ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة (د.ت).

٢٢- الترمذى ، محمد بن على بن الحسن. : سنن الترمذى ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت (د.ت) .

٢٣- حاجى خليفة. : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣ - ١٩٩٢ .

٢٤- الحوت ، محمد بن السيد درويش . : أسنى المطالب فى أحاديث مختلف المراتب ، تحقيق خليل الميسى ، ط الثانية ، دار الكتب العربى ، بيروت ١٤٠٣ .

٢٥- د. خالد : بنّية الجماعات العربية الإسلامية ، ط الأولى ، دار

حربى . الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٤ .

٢٦- .... : شهيد الخوف الإلهى ، الحسن البصرى ، إمام التابعين ، ط الأولى ، دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٣ .

٢٧- الذهبى . : سير أعلام النبلاء

٢٨- السبكى ، عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى . : الأحاديث التى لا أصل لها فى كتاب الإحياء ، تحقيق محمود أحمد الطناحى ، عبد الفتاح محمد الحلو ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة (د.ت) .

٢٩- السيوطى ، عبد الرحمن. : ذيل اللالئ المصنوعة ، تحقيق السيد محمد معشوق على ، ط المطبع العلوى ، الهند ١٣٠٣ .

٣٠- صديق حسن القونى. : أبجد العلوم ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط الأولى ١٤٣٣ .

٣١- الصنعانى ، محمد بن أحمد جار الله العدى. : النوافح العطرة فى الأحاديث المشتهرة ، تحقيق محمد بن عبد القادر أحمد عطا ، ط الثالثة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ١٤١٤ .

٣٢- د. عبد المنعم الحفنى . : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية ، ط الثانية ، مكتبة مدبولى ١٩٩٩.

٣٣- الغزى ، محمد بن محمد . : إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن ، تحقيق خليل محمد العربى ، ط الأولى ، القاهرة ١٤١٥ .

٣٤- الكنانى ، على مجمد بن عراق . : تنزية الشريعة المرفوعة عن الخبار الشنيعة الموضوعة ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد

الله محمد الصديق الغمارى ، ط الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٩ .

٣٥- محمد ناصر الألبانى . : ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) المكتب الإسلامى ، بيروت ١٤٠٨ .

٣٦- مُسلم ، ابن الحجاج أبو الحسن القيشرى النيسابورى الإمام . : صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت (د.ت) .

٣٧- النسائى ، أحمد بن شعير أبو عبد الرحمن . : السنن الكبرى ، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البندارى ، سيد كروى حسن ، ط الأولى ١٤١١-١٩٩١ .

٣٨- الهروى ، على بن محمد بن سلطان . : الموضوع فى معرفة الحديث الموضوع ، تحقيق عبد الفتاح أو عزة ، ط الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٨ .

٣٩- الهيثمى ، على بن أبى بكر . : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، بيروت ١٤٠٧ .

٩- الفهرست العام لموضوعات الكتاب

أعمال الدكتور خالد حربي

١- الرازى الطبيب وأثره فى تاريخ الطب العربي.

الطبعة الأولى، ملتقى الفكر الإسكندرية ١٩٩٩ .

الطبعة الثانية ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦

٢- نشأة الإسكندرية وتواصل نهضتها العلمية.

الطبعة الأولى دار ملتقى الفكر الإسكندرية ١٩٩٩.

٣- برء ساعة للرازى (دراسة وتحقيق).

الطبعة الأولى، ملتقى الفكر الإسكندرية ١٩٩٩ .

الطبعة الثانية ، دار الوفاء ٢٠٠٦.

٤- خلاصة التداوى بالغذاء والأعشاب.

الطبعة الأولى، ملتقى الفكر، الإسكندرية ١٩٩٩ ، والطبعة الثانية، ٢٠٠٠ توزيع مؤسسة أخبار اليوم

الطبعة الثالثة دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦ .

٥- الأسس الإبستمولوجية لتاريخ الطب العربي .

الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ٢٠٠١. الطبعة الثانية دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦.

٦- الرازى فى حضارة العرب(ترجمة وتقديم وتعليق)

دار الثقافة العلمية ، الإسكندرية ٢٠٠٢ .

٧- سر صناعة الطب للرازى (دراسة وتحقيق).

الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ٢٠٠٢ الطبعة الثانية ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦ ..

- كتاب التجارب للرازى (دراسة وتحقيق).

الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ٢٠٠٢. الطبعة الثانية ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦ .

٩- كتاب جراب المجربات وخزانة الأطباء للرازى (دراسة وتحقيق وتنقيح).	الطبعة الأولى، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية ٢٠٠٢ .الطبعة الثانية الإسكندرية ٢٠٠٦ .
١٠- العولمة بين الفكرين الإسلامى والغربي .	الطبعة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية ٢٠٠٣ .الطبعة الثانية دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٧ . الطبعة الثالثة المكتب الجامعي الحديث ٢٠٠٩ .
١١- المدارس الفلسفية فى الفكر الإسلامي (١)، "الكندى والفارابى" .	الطبعة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية ٢٠٠٣ .الطبعة الثانية المكتب الجامعي الحديث ٢٠٠٩ .
١٢- الأخلاق بين الحلال والحرام، والصواب والخطأ.	الطبعة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية ٢٠٠٣. الطبعة الثانية المكتب الجامعي الحديث ٢٠٠٩ .
١٣- العولمة وأبعادها	مشاركة في كتاب "رسالة المسلم فى حقبة العولمة" الصادر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطرمركز البحوث والدراسات ، رمضان ١٤٢٤ هـ، نوفمبر ٢٠٠٣ .
١٤- دور الاستشراق فى موقف الغرب من الإسلام وحضارته (بالإنجليزية).	الطبعة الأولى دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، ٢٠٠٣ .
١٥- شهيد الخوف الإلهى، (الحسن البصرى).	الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٣ .
١٦- دراسات في التصوف الإسلامي .	الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٣ .
١٧- دراسات في الفكر العلمي المعاصر .	الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٤ .

١٨- ملامح الفكر السياسي في الإسلام . الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٣. الطبعة الثانية ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٩.

١٩- بنية الجماعات العربية الإسلامية . الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٤.

٢٠- مقالة في النقرس للرازي (دراسة وتحقيق) الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٥. الطبعة الثانية ، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية ٢٠٠٩

٢١-التراث المخطوط، رؤية فى التبصير والفهم (١) علوم الدين لحجة الإسلام أبى حامد الغزالي . الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٤.

٢٢- التراث المخطوط، رؤية فى التبصير والفهم (٢) المنطق. الطبعة الأولى، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٤.

٢٣- علوم حضارة الإسلام وأثرها في الحضارة الإنسانية. سلسلة كتاب الأمة ، قطر ٢٠٠٥ .

٢٤- علوم الحضارة الإسلامية أثرها في الأخر . الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦.

٢٥-العبث بتراث الأمة. الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦.

٢٦- المسلمون والأخر حوار وتبادل حضاري . الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦. الطبعة الثانية المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية ٢٠٠٩ .

٢٧- الأسر العلمية ظاهرة فريدة في الحضارة الإسلامية الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦. الطبعة الثانية المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية ٢٠٠٩

٢٨- علم الحوار العربي الإسلامي (آدابه وأصوله) — الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٦.

٢٩- إبداع الطب النفسي العربي الإسلامي .
(دراسة تأصيلية مقارنة بالعلم الحديث) — الطبعة الأولي ، المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية ، الكويت ٢٠٠٧.

٣٠- منهاج العابدين آخر تصنيف لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (دراسة وتحقيق) — الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٧.
. الطبعة الثانية المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية ٢٠٠٩

٣١- تاريخ كيمبردج للإسلام – الطب (ترجمة وتقديم وتعليق) — الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية ٢٠٠٧.

٣٢- مخطوطات الطب والصيدلة بين الإسكندرية والكويت (دراسة نقدية) — الطبعة الأولي ، دار الوفاء الإسكندرية٢٠٠٨.

٣٣- مدارس علم الكلام في الفكر الإسلامي المعتزلة والأشاعرة — الطبعة الأولي ، المكتب الجامعي الحـ الإسكندرية ٢٠٠٩.

٣٤- مقدمة في علم الحوار الإسلامي . — الطبعة الأولي ، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية ٢٠٠٩

٣٥- علوم الحضارة الإسلامية ودورها في الحضارة الإنسانية — الطبعة الأولي ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ٢٠٠٩

٣٦- تاريخ كيمبردج للإسلام – العلم (ترجمة وتقديم وتعليق